المشروع القومى للترجمة

# مصر

## منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر
## (حكاية مصر فى العصر الحديث)

تأليف
ريمون فلاور

ترجمة
سيد أحمد على الناصرى

تقديم ومراجعة
يونان لبيب رزق

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

هذه ترجمة

***Napolean To Nasser***

***The Story of Modern Egypt***

***By***

***Raymond Flower***

# مقدمة

هذا العمل الذى عكف الأستاذ الدكتور سيد الناصرى على ترجمته باقتدار كان فى أصله الإنجليزى تحت عنوان: Napoleon to Nasser - The Story of Modern Egypt by Raymond Flower. فـى طبعـته الثانـية الصادرة عام ١٩٧٦، بعد أن كان قد صدرت طبعته الأولى قبل أربع سنوات، أى بعد وفاة عبد الناصر بعامين فحسب، الأمر الذى يمكن القول معه إن المستر فلاور قد بدأ تأليفه عقب تلك الوفاة، بينما كانت دماء الزعيم المصرى الراحل لم تجف بعـد، وبينما كان الرجل لا يزال ملء أبصار وأسماع الدنيا كلها، ولعل ذلك كـان وراء الـنفاذ السـريع للطـبعة الأولـى، كما أنه كان وراء العديد من الملاحظات التى سوف نسجلها فى هذه المقدمة!

وثمـة ملاحظـة مبدئية على العنوان، إذ نرى أن الرجل كان دقيقاً عندما اخـتار وصف "قصة مصر الحديثة The Story of Modern Egypt" وليس "تـاريخ مصر الحديثة The History of Modern Egypt"؛ لأنه من الناحية العلمـية الدقـيقة يصعب توصيف ما جاء فى هذا العمل بأنه تاريخ خالص، ولكـنه نـوع جديـد من الدراسات يخدم دارسى التاريخ والمشتغلين بالكتابة التاريخية.

فالمستر ريموند فلاور اختار أولا مسطحاً زمنياً لعمله قارب القرن وثلاثة أربـاع القرن (١٧٩٨ - ١٩٧٠)، وكُتّاب التاريخ الأكاديمى لا يفعلون ذلك، فهـم إمـا يخـتاروا ظاهرة بعينها، سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، على مسـطح زمنى واسع، وإما أن يختاروا واقعاً تاريخياً عاماً يدرسونه بعمق فى حيز زمنى ضيق، ويكون أحياناً فى غاية الضيق!

ثـم إن صـاحبنا - ونتيجة لهذا الاختيار - قسم كتابه إلى عدد كبير من الفصـول (٢٥) القصـيرة التى لم يزد أكبرها عن اثنتى عشرة صفحة، بينما وصـل أغلبها إلى ما يتراوح بين سبع وتسع صفحات، ولم تأت الدراسة مع

هـــذا كرصـــد مـــتأن؛ وإنمـــا جـــاءت أقرب إلى الانطباعات السريعة عن الموضوعات التى اختارها كعناوين للفصول..فهو يختار للحملة النابليونية ما أصـــابها من خيبة مما جسده عنوان "نهاية حلم"، ويأخذ من محمد على دوره فـــى تأســـيس الأسرة الحاكمة، ومن إسماعيل "الثمن الباهظ لمظاهر الترف"، وهكذا.

ومـــثل هـــذه العناوين الموحية إنما يدل على انحيازات مسبقة للرجل، فهو حيـــن يتناول الثورة المصرية ١٨٨١ - ١٨٨٢ يخصص لها فصلاً (العاشر) تحـــت عـــنوان "إخضـــاع عرابى"، وهو يتبنى بذلك وجهة النظر البريطانية بالكـــامل، ثم إنه يتخير من فترة الحكم البريطانى المباشر للبلاد كل ما يشرف هذا الحكم، وذلك قبل أن يقفز بنا إلى التمهيد لثورة ١٩٥٢.

وقد يشفع للمستر فلاور أنه لم يزعم أنه مؤرخ تقليدى، غير أنه من جانب آخر لم يشبع فضولنا فى التعرف على شخصه باستثناءات بسيطة وردت فى عملـــه هنا وهناك، فحسب ما جاء فى المقدمة: "وعندما عدت إلى القاهرة بعد غيـــبة شـــهر أو نحو ذلك من وقوع الانقلاب، كانت الشوارع تموج بملابس الكـــاكى"، ممـــا يقود إلى الفهم أن الرجل كان يعيش فى مصر، غير أن ذلك الفهـــم يثـــير من التساؤلات أكثر مما يقدم من الإجابات..هل كان مقيماً بشكل دائم أم منقطع فى العاصمة المصرية؟ ثم ما هى طبيعة هذه الإقامة؟

ونســـتطيع أن نستشف من بعض ما جاء فى الكتاب حقيقة مؤداها أنه كان للـــرجل جـــذور فى مصر، وأنه كان مقيماً بها على نحو دائم باستثناء الفترة الـــتى تلقـــى خلالهـــا تعليمه فى أكسفورد، وطبعاً الفترات الأخرى التى كان يقضيها فى بلاده، ونظن أنها كانت متقطعة!

يدلـــل علـــى ذلك ما جاء فى مصادر الفصل الحادى عشر من الكتاب من قولـــه: "وقـــد كـــان جدى وجدتى معتادين على قضاء الشتاء فى القاهرة بعد انـــتهاء القـــرن الماضـــى، ولما شرع والدى وهو شاب فى إدارة مشروعات الأســـرة فى عام ١٩٠٦، فقد كنت محظوظاً أن أكون قادراً على الإفادة من

خبراتهم منذ ذلك الوقت فصاعداً، ويقول فى مصادر الفصل السادس عشر "لقد تناولت غذائى أكثر من مرة فى مطعم فاروق المفضل باتادس"، ويبدو أنه كان أحد المطاعم التى اشتهر اليونانيون بإقامتها خلال تلك الفترة، ويقول فى موقع ثالث (مصادر الفصل الرابع عشر) "أما عن وصفى الانطباعى الخاص عن الإسكندرية فليس له مصدر غير تجربتى الخاصة".

وفى تقديرنا أن الدراسة التى تلقاها مؤلف كتابنا هذا فى أكسفورد كانت ذات طبيعة أدبية فلسفية مما نتبينه من الأسلوب الراقى الذى وضع به عمله ومن جملة المؤلفات التى استعان بها فى وصفه، والتى غلب عليها التجارب الذاتية لواضعيها.

فالقسم الأكبر من تلك المؤلفات ترقى إلى مستوى "المشاهدات الشخصية"، فقد كانت إما مذكرات خاصة Memoirs مثل تلك التى وضعها السير أنطونى إيدن، وخصص بعض فصولها عن "حرب السويس" التى أنهت مستقبله السياسى، أو سير ذاتيه Biographies مثل كتاب جون نينيه عن عرابى باشا أو بريان جارنر عن اللنبى، أو كتب رحلات Narratives وأشهر عمل إدوارد لين عن عادات وتقاليد المصريين المحدثين الصادر فى لندن عام ١٨٣٦، وأخيراً تقارير القناصل البريطانين فى مصر وأشهرها تقرير بورنج Bowring الذى عمل قنصلاً عاماً لبلاده فى القاهرة فى عصر محمد على، وكذلك المقاولات التى نشرت فى الصحف الأوربية خلال تلك الفترة.

ولا يملك أى مؤرخ محترف سوى الاعتراف بأن مثل هذه المادة العلمية ترقى إلى مستوى المادة الأصيلة، وأنه لم يكن ينقصها سوى الرجوع إلى الوثائق، وهو ما لم يكن مطلوباً من المؤلف، خاصة وأنه لا يمتهن كتابة التاريخ التقليدى ويمتلك ملكة فلسفية غير تقليدية.

**غير أن هذا الاعتراف لا يمنع من تسجيل ملاحظتين:**

**الأولى:** أن الكتاب حافل بالآراء والأحكام ذات الطابع الشخصى لا

الموضـــوعى، فيـــتحدث مـــثلاً فى الفصل الحادى عشر عن أن رجل الشـــارع المصـــرى خلال سنى الاحتلال الأولى لم يكن يملك بالنسبة للإنجليز سوى الشعور بالعرفان؛ لأنه كان يتذكر حالة البؤس التى كان يعيشها فى عهد إسماعيل، وكبار السن من الفلاحين لم ينسوا "الكرباج"، ولا الاســتدعاء للسخرة، ولا ندرى كيف عرف المستر فلاور بمشاعر الإنســان المصرى قبل نحو قرن من وضع مؤلفه، اللهم إلا إذا كان قد أخذ بدون مراجعة بما جاء فى كتاب اللورد كرومر المعتمد البريطانى فـــى مصـــر وقـــتذاك تحت عنوان "مصر الحديثة"، والذى وصفه بـــ "الحاكم بأمره على ضفاف النيل".

الثانـــية: إنه فى أكثر من موقع يعطى الانطباع بالتعاطف مع بعض الزعماء المصـــريين، ولكن لا يمضى وقت طويل حتى يفرغ هذا التعاطف من أى مضمون، الأمر الذى نلاحظه فى التعامل مع شخصية عرابى باشا يصـــف تصرفاته بعد معركة التل الكبير بقوله: "كان عرابى نائماً عند بـــدء القـــتال ودون أن يتوقف حتى ليضع نعليه فى قدميه، ألقى بنفسه فـــوق صهوة جواده، وبعد أن استولى على قاطرة ذات محرك بخارى عـــند بلبيس وصل إلى القاهرة وهو داخل مقصورة الوقادين ليصل فى الوقت المناسب ليشهد الاحتفالات التى أقامها الخديو على شرف الجيش المنتصـــر"، وهـــى صورة أدبية تقطر سخرية ومرارة، ولكن تعوزها الدقـــة، ففـــيما بيـــن موقعة التل الكبير ودخول ولسلى القاهرة ثم عودة الخديـــو توفـــيق مـــن الإســـكندرية كانـــت قد مرت أيام وليس مجرد الســـويعات الـــتى اســـتغرقتها القاطـــرة البخارية فى المسافة القصيرة الفاصلة بين بلبيس والقاهرة.

وتـــبدو هـــذه الـــروح أكثر بالنسبة لجمال عبد الناصر؛ إذ يحظى الفصل الثالـــث والعشرون والذى عنونه بـــ"مايسترو العالم العربى" بوضع السم فى الدســـم أكـــثر مـــن أى فصل آخر، والواضح أن مصالح الرجل فى مصر، باعتباره أحد أبناء الجالية الإنجليزية فى العاصمة، كانت قد تعرضت للضرر بســـبب سياسات عبد الناصر التمصيرية التى كثيرا ما لقيت سخرية صاحبنا، واعتبر أنها كانت وراء كل مصيبة حاقت بالاقتصاد المصرى.

**الثالثة:** نتيجة لذلك، ونتيجة للافتقار لأدوات البحث العلمى القائمة على تحرى كل واقعة للتثبت من صحتها، فإنه كثيراً ما كان يقع فى أخطاء ساذجة، لعل أهمها اتهامه للضباط الأحرار أنهم كانوا من وراء اغتيال أمين باشا عثمان، عميل الإنجليز ووزير المالية فى حكومة الوفد، عام ١٩٤٣، ولا يمكن لأحد أن يزعم أن هذا التنظيم كان قائماً وقتذاك، فكافة الكتابات تشير إلى أن الفكرة قد ولدت خلال حرب فلسطين ودخلت فى حيز التنفيذ عام ١٩٥٠، اللهم إلا إذا كان قد استنتج من وجود السادات ضمن المتهمين فى حادث اغتيال أمين باشا عثمان، وضمن الضباط الأحرار بعد ذلك، أن الأخيرين هم الذين فعلوها، وهى رابطة واهية على أى الأحوال.

غير أنه على الجانب الآخر، وقد تحرر من قيود البحث العلمى، فقد غلب فى كثير من الأوقات خيال الأديب عن حقائق المؤرخ الجافة، مما أضفى كثيرا من أسباب الجاذبية على عمله، وهو الأمر الذى يستطيع أن يلمسه القارئ من أول سطور الكتاب إلى آخرها، مما أعطى عمله قدراً كبيراً من التشويق، نعتقد أنه كان من الأسباب التى دعت مؤرخا كبيراً مثل الدكتور سيد الناصرى إلى العكوف على ترجمته، وهو بذلك يقدم عملا للمثقف العادى قبل المؤرخ المتخصص بالمعنى المهنى.

هذا فضلاً عن أنه لم تنقصه روح الفكاهة الإنجليزية والتى كثيراً ما كانت تتبدى فى رواية هنا أو هناك نسوق منها ملاحظته للتدليل على الشعبية التى أصبحت تحظى بها الملكة فريدة من أن كثيراً من المصريين أسموا بناتهم وقتها باسمها.

وبينما نوصى كل مصرى أن يقرأ هذا الكتاب، ليعرف كيف كان ينظر الإنجليز إلى بلاده، فإننا ننبهه أن يتسلح بالرؤية النقدية، ولا يأخذ الآراء ولا المعلومات التى امتلأ بها هذا العمل المهم، مما يجعل من تلك القراءة رياضة ذهنية نحن فى أشد الحاجة إليها للتعرف على كيف كان يفكر فينا الآخرون.

**يونان لبيب رزق**

# مقدمة المترجم

بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر بسنوات قليلة أصدر خليفته الرئيس الراحل محمد أنور السادات قراراً بتشكيل لجنة عليا لكتابة تاريخ الثورة برئاسة الفريق حسنى مبارك الذى كان نائباً لرئيس الجمهورية وقتذاك. وقد كتبت وقتها فى جريدة الأهرام مقالاً معترضاً على ذلك لسببين أنه لا يجوز كتابة التاريخ من قبل الدولة، خاصة وأن على رأسها أحد زعماء الثورة؛ لأن ذلك سوف يكون تاريخاً رسمياً خالياً من النقد.

ومن ناحية أخرى أن الأجدى بالكتابة هو تاريخ الشعب وليس تاريخ السلطة. وقد رد الرئيس الراحل أنور السادات فى أحد أحاديثه التليفزيونية على ذلك الرأى بطريقة غير مباشرة مؤكداً أن تاريخ الثورة هو منعطف يختلف عن مسار تاريخ الشعب المصرى!

ومنذ ذلك الوقت انهالت - ولا تزال تنهال - المؤلفات والمذكرات المتضاربة التى تعبر عن آراء متناقضة، ومصادر غير موثقة، ومذكرات شخصية تمجد ذات كاتبيها تحمل من الصراع أكثر ما تحمل من الوفاق، وتموج بالبغضاء أكثر مما تموج بالولاء والإعجاب حتى أصبح الشباب مشوشاً لا يعرف الحقيقة، ويظهر ذلك واضحاً من كتاب المذيع الرائع طارق حبيب الذى حاول أن يسجل آراء عدد كبير من رجال الثورة ورموز السياسة التى ارتبطت بالثورة من قريب أو بعيد.

ولما حاول الشاعر الحالم ومحرر الصفحة الثقافية فى جريدة الأهرام فاروق جويدة أن يفتح الصفحة الثقافية أمام المتحدثين عن الثورة خاصة ممن شاركوا فيها سواء من الصف الأول أو الثانى فوجىء بتيار متناقض جعله يؤثر إغلاق الباب.

ومما زاد الطين بله، وساهم فى إحداث تلك البلبلة وهذا التشويش أن تاريخ الثورة أصبح سداحا مداحا للكثير من رجال الصحافة، حتى إن بعضهم

جعل من مقالاته وابلاً من الأحقاد يصبها على زعيم الثورة. ذلك البكباشى الذى يمثل أول بارقة أمل فى إحياء الوطنية المصرية، هذه البلبلة أصابت الشباب والجيل الصاعد فغدا يتساءل أين الحقيقة؟

وفى حديث متلفز للمفكر الكبير السيد يسن عبر فيه أسفه أنه لا يوجد حتى الآن مؤلف عن التاريخ الوطنى المحايد للشعب المصرى، وأن المؤرخين المصريين يقفون عاجزين عن إنجاز مثل ذلك العمل.

وقد أثارنى ذلك المفكر الكبير وصرخة الشاعر الحالم فاروق جويدة فى التحرك، غير أننى فوجئت بهذا الكم المتضارب من الروايات التى تحركها نزعات شخصية وإيديولوجية فتراجعت عن الفكرة حتى لا تحرق أصابعى عندما يخط قلمى ذلك التاريخ.

ثم خطرت لى الفكرة: لماذا لا نبحث عن طرف أجنبى محايد يكون "شاهد عدل" يلم بمنهج البحث التاريخى وطرق لابحث فيه، ويكون على معرفة جيدة بمصر وعاصر أحداث الثورة، ويمتلك المصادر والوثائق التى هى غير متاحة للمؤرخ المصرى؟

وبعد سنوات من استعراض المؤلفات البريطانية والفرنسية وقع اختيارى على ذلك المؤلف المهم الذى كتبه ريمون فلاورز عن تاريخ مصر الحديث منذ قدوم نابليون وحتى رحيل عبد الناصر، وذلك لعدة أسباب:

**أولها**: أن المؤلف عالى الثقافة، ملم بنظريات التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى، بل والثقافى، ولا يفصل التاريخ الحديث عن القديم.

**ثانيها**: أنه عاش فى مصر بل إنه ولد فى مصر وتربى فيها، وقضى أسعد أيامه فى بيته الريفى فى البدرشين؛ حيث الهرم المدرج من خلفه والحقول الخضراء التى يكد فيها الفلاح ويشقى هو وماشيته من بزوغ الشمس حتى مغيبها من أمامه؛ مما جعله يدرك أن هذا الفلاح هو أحق من يكتب تاريخه.

**ثالثهما:** أنه كابن "طبقة ذوات"، اختلط بأبناء مثل هذه الطبقة من المصريين، فكـان يتردد على الأماكن الراقية مثل نادى السيارات (الملكى) ونادى الجزيـرة الرياضـى ويسـجل مـا كان يدور فيها من أحاديث جانبية وشـائعات ونـوادر وطرائف، وكما ذكر أنه كان يتردد على ملاعب "الاسكواش" فى نادى الجزيرة. ولما قامت الثورة فى يوليو عام ١٩٥٢ اكتشـف أن بعـض رفاقه في الملعب أعضاء فى مجلس قيادة الثورة. وظـل ريمـون فلاورز مقيماً فى مصر بعد إنهاء دراسته الجامعية فى أرقـى جامعـات بريطانـيا، ويـبدو – والله أعلم – أنه كلف من قبل حكومـته بمراقبة الأحداث فى مصر، وظل مقيماً فيها حتى رحل عنها عـام ١٩٥٦ بعـد وقوع العدوان الثلاثى الذى أدانه بشدة، مؤيداً حق مصـر فـى تأميم قناة السويس، ثم عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب، وظـل يراقب ويسجل فى مذكراته الأحداث الجارية حتى حدوث كارثة ١٩٦٧. عـاد بعدهـا إلى بريطانيا وعكف منذ ذلك التاريخ على كتابة تاريخ مصر منذ قدوم نابليون.

وتعتـبر الفـترة الواقعة ما بين مجىء نابليون بونابرت وحتى رحيل عبد الناصر من أغنى فترات التاريخ المصرى؛ لأنها بداية قيام مصر من رقدتها التى استمرت دهورا. كالعنقاء المصرى الذى ينهض من رفاه سلفة، وقد عبر أحمد شوقى عن ذلك بقوله:

**يا رب هبت شعوب من منيتها       واستيقظت أمم من رقدة العدم**

كمـا جسم ذلك الفنان الخالد مختار فى نحت تمثاله "نهضة مصر" الذى لا يزلا يقبع أمام جامعة القاهرة.

وقـد أعجبنى هذا المؤلف – رغم صعوبته وأرستقراطية اللغة التى كتب بهـا – أنه مزج التاريخ القديم بالحديث، ومزج التاريخ السياسى بالاجتماعى والاقتصـادى والـثقافى، كما أن تحليلاته فلسفية وعميقة، ومراجعه متعددة، أغلـبها مقالات من الصحف البريطانية والفرنسية التى ليست فى منالنا، كما أن حـبه للفلاح المصرى الذى جاء من بلاده ليراقبه ويكتب التقارير السرية

عــن حركتها الوطنية انتهت به إلى الوقوع فى هواه، فجعل من كتابه ضريبة وواجـــب علــيه نحــو هذا الفلاح الخالد كخلود النيل، وبالرغم من أن أموال أسرته أممت وطرد من مصر فى عهد الثورة، لكن ذلك لم يمنعه عن مخالفة ضميره العلمى فى أن يسجل تاريخ مصر الحديث بحياد ملفت للنظر، وبثراء فـــى المـــادة لـــم نجدها فى أى مؤلف مصرى لايدانيه فى ذلك غير مؤلفات الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فى وثائق تاريخ مصر المعاصر.

وإذا كـــان المؤلف قد أهدى مؤلفاته إلى الفلاح المكافح كدين عليه نحوه، فإنـــنى لست أقل منه حماساً فى إهداء هذه الترجمة لنفس الفلاح الذى أصبح أحفـــاده علمـــاء يحصلون على جائزة نوبل أو قادة كبارا ومفكرون ووزراء، رجالاً ونساءً.

**سيد أحمد على الناصرى**

# مقدمة المؤلف

الـــثورة صدمة مفاجئة  لكن لا يمكن أن يكون هناك انقلاب أحدث دهشة تقـــل حجماً مما أحدثه استيلاء ناصر ورفاقه من الضباط الأحرار على الحكم عـــام ١٩٥٢. إنهـــا كما لو كانت غلاية قد انفجرت حتى في نظر الأجانب تلـــك الطبقة ذات المزايا  فإن الأيام الأخيرة للعهد البائد Ancient Regime كـــان وقـــتاً فاســـداً . إذا أن مظاهـــر الـــترف والفساد الذي تفشى بين طبقة الباشوات فاق كل حد متوقع، فقبل ذلك بستة أشهر قام جمهور غاضب بحرق الحـــى الأوربـــى للقاهـــرة . وكنا – في كل الأحوال – رهائن مضمونة عند حدوث أى انفجار . ففي نادى السيارات الملكي تباهى الأمير عباس حليم وهو يـــروى آخر مداعباته لفاروق أنه قال للملك:  يا صاحب الجلالة عندما يأتى الشيوعيون إلى الحكم سيقولون: عباس يا لك من شاب رائع ! غير أنك تزيد ســـتة بوصـــات في قامتك ولذلك سوف نقص هذه البوصات الست من أعلى قامـــتك وسيفعلون نفس الشئ معك يا أفندينا ، والحقيقة أن الانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار (أو أى شيء يفوقه تأثيراً) كان متوقعاً جداً، وكل إنسان كان يعلم ذلك . ففي صيف عام ١٩٥٢ كانت الدولة المصرية على شفا ثورة بركان انفجاره لم يعد ينتظر .

وعندما عدت إلى القاهرة بعد غيبة شهر أو نحو ذلك من وقوع الانقلاب، كانـــت الشوارع تموج بملابس الكاكي، غير أن كل شيء كان على حاله في المـــنطقة المحيطة بنادى السيارات . صحيح أن الملك قد ذهب، وألقاب معظم أعضـــاء النادى قد ألغيت بقرار رسمى، إلا أن عباس بقامته الممشوقة بقيت كما هى، وظل يدخن سيجاره الفاخر الباراتاجاس Paratagas. وإذا كان هناك بـــوادر التغيـــير فقـــد كان ذلك في طي الحدوث، أما بالنسبة لى فإن الشيء المدهـــش حقـــاً أن أجـــد العديـــد من الضباط المشاركين في الثورة أصدقاء ومعـــارف قدامـــى جمعتـــنا ملاعب التنس والاسكواش، وكثيرًا ما كنا نتبادل الـــنكات في حجرة تغيير الملابس أو عند تناول الشاى، وكان أغلبهم في نفس ســـني، وكنـــت أعـــرف مدى طموحاتهم التي كان غايتها أنهم كانوا يريدون

تحريـــر وطـــنهم مـــن سيطرة القصر، ومن أى تورط أجنبي بأى شكل من الأشـــكال . لقـــد كان فاروق يتظاهر بعدائه للإنجليز لكى يكسب لنفسه شعبية هو في أمس الحاجة إليها، وكان آخر شيء يتمناه الملك هو أن لا تغادر قوات الاحـــتلال الـــبلاد لأن بذهابها يذهب معها الضمان الأخير لبقائه في مواجهة شـــعبه، ولم يكن رفاقي في ملاعب التنس والاسكواش يكنون العداء في قلوبهم للبريطانييـــن، ولكنهم كانوا عازمين كل العزم لوضع نهاية لأى تدخل أجنبي في شئون بلادهم، بل كانوا على استعداد لخوض الحرب من أجل أفكارهم إذا وصل الأمر إلى هذا الحد.

ومـــن وجهـــة النظر البريطانية، بالطبع كان ذلك يسبب مضايقة، لكن هل يســـتطيع أحـــد أن يلومهم في ذلك؟ فلو قدر لك أن تدخل تحت جلد المصري فإنك سوف تدرك مدى الضغوط التي رزح تحتها مواطنوه، ولكي تفهم السبب كـــيف يكونـــون محملين بالتاريخ ومحرومين من السلطة، فعبر آلاف السنين عـــانوا الأمريـــن من الاستغلال الأجنبي، حتى بدا فيها أن أحداث انفجار هو الـــترياق الوحـــيد . فالمصـــري يعتريه كبرياء يشعر به، أن من أرضه بدأ التاريخ ذاته، فكل الحضارة المدونة خرجت من وادى النيل الضيق، غير أن الأمـــر بالنســـبة للرجل العادي في الدلتا كان على امتداد التاريخ قصة الفساد والاضطهاد الهابط عليهم من السلطة العليا .

وهـــناك وثيقة من البردى في المتحف البريطاني عبارة عن مراسلات بين امينـــيمان Ameneman(*) مديـــر مكتبة رمسيس الثاني وبين الشاعر بنتاؤر تســـائل فـــيها امينـــيمان: هل دار بخلدك قط مدى خوف الفلاح الذي يفلح في الأرض؟فقبل أن يلمس منجله محصوله، يكون الجراد قد أخذ نصيبه منه، ثم يأتـــي دور الفـــئران والطيور، وإذا تقاعس في الحصاد تمتد يد اللصوص إلى المحصـــول، وســـيموت حصـــانه (حماره) من شدة العمل، ثم يصل جامعو الضرائب ومعهم أتباعهم مسلحين بالهراوات، ويصحبهم أيضاً زنوج يحملون

(*) ربما هو الذى ذكر فى القرآن الكريم باسم هامان.

ســياطاً مــن كعوف النخيل، وكلهم يصرخون: « أعطنا غلتك ! » ولم يكن أمامــه مــن ســبيل يتجنــب به مطالبهم الغريبة، بعد ذلك يلقى القبض على المســكين ويقــيد ويرسل للعمل الشاق بدون أجر في حفر القنوات، ويأخذون أيضـــاً زوجــته ويقــيدونها ويجردون أولاده من ثيابهم وينهبون . لم يتغير وضعه عما كان عليه كثيراً منذ ٣٢٠٠ عام . فخطاب امينيمان يمكن أن يعيد الذاكــرة لكتابات كتابته لوسى دف جوردون Lucie Duff Gordon منذ أقل مــن قــرن مضـــى، حتى بالرغم من أن الضرب بالكرباج أصبح محظوراً وقتذاك، إلا أن وكيل الباشا كان لا يزال يمسك بهراوته . لقد كان الفلاح عام ١٩٥٢ بعد الميلاد ليس بأحسن حالاً فيما كان عليه أجداده عام ١٢٥٢ ق.م. فلا عجب إذن أن يصر ناصر وفريقه الذين جاءوا جميعهم من أصول فلاحية على إحداث تغييرات جوهرية في النصف الثانى من القرن العشرين.

وفــى مواجهـــة هذه الحقائق، تم التوصل في النهاية إلى اتفاق بالجلاء عن مــنطقة قــناة السويس، وقبل بضعة أيام من انتهاء صلاحية معاهدة ١٩٣٦ غادر آخر جندى بريطاني بور سعيد، غير أنه لم يمض أربعة أشهر ونصف حــتى عادوا تحت وابل من نيران أسلحتهم ليعيدوا احتلال المناطق التي جلوا عــنها، فقــد أظهــرت أزمة السويس بكل مآسيها النفور الكامل للعقليات بين رجال الهوايتهول White hall (مقر الحكومة البريطانية) والقاهرة .

وكمــا حــدث، بعــد أيــام قلائل من تأميم القناة، كان المسترسلوين لويد Selwyn Lloyd ضــيف الشرف في حفل استقبال أقيم في لندن . وكان السيد وزير الخارجية المذكور قد عاد لتوه من رحلة طيران سريعة في أول المساء، حيــث التقى مع جى موليه Guy Mollet وكريستيان بينو Christian Pinaud في باريس، حيث اتخذ قرار الرد كما يستشف بغزو مصر . وبعد العشاء ألقــى خطــاب بدأه بالإشارة إلى موضوع قبعات " نينا " (وكانت نينا إحدى بطلات الرياضة الروسيات وجهت إليها تهمة سرقة زوجين من القبعات ثمنها ١,٧٥ جنــيه اســترلينى مــن أحــد محلات شارع إكسفورد وقامت السفارة الروســية بتهريــبها محدثــة زوبعــة مــن السخرية) قائلاً: " إننا لن نسمح لإجــراءات العدالة البريطانية أن تخضع لمثل هذا السلوك " ثم رفع يديه في

غضب قائلاً: " إننى واثق من أننا سنكون على حق لو اتخذنا موقفاً صارماً".

أن يستهل خطابه بسخرية ضاحكة فهناك ما يبرر ذلك وهذا عدل، لكنه تحول فجأة إلى موضوع قناة السويس وهجوم ساخر على عبدالناصر.

وهنا يلمس الواحد منا أنه يريد أن يربط في تفكيره بأن نينا وناصر لصان يجب أن ينالا عقابهما ولا يجب أن يتركا ليفلتا بما أخذاه . ويجب أن يلقن عبدالناصر درساً . وما أقلقنى حقاً فشله الواضح والذي تردد صداه بين كثير من أصدقائه في إنجلترا – في أن يتفهم تتابع الأحداث التي حدت بناصر أن يقوم بهذا العمل، وقبل كل شيء تغاضيه عن الضغوط التاريخية والديموجرافية بل حتى الإنسانية التي ربطت بين سد أسوان العالى وقناة السويس وحياة ثلاثين مليون نسمة (عدد السكان في ذلك الوقت) يعيشون في دلتا النيل . لقد كان أمراً منافياً للعقل أن يطلق على عبد الناصر لقب "اللص"، لأنه لم يسرق القنال، كما أنه تصدى بطريقة كانت له فيها اليد العليا، وكان لديه من الأسباب ما يكفى لغضبه، ولكن كان هناك حاجة ماسة لتقييم الموقف بعيداً عن العواطف وإجراء مفاوضات على مستوى الند للند.

وإذا ما رجعنا إلى الوراء إلى ذلك المنظر البراق يوم أن جاء نابليون بأوربا إلى مصر ليدرك المرء كم هناك من حاجة إلى إلقاء نظرات جديدة ليس على وجهات النظر الأوربية فحسب، لأن مصر معروفة جيداً، بل على الجانب المصري من الرواية . ربما لم يركز على هذا أحد بالقدر الكافى بالنسبة إلى الجمهور الناطق بالإنجليزية على الأقل، لكن بعد مهزلة السويس أصبح ذلك ضرورياً أكثر من أى وقت مضى .

كانت مسألة السويس إما جريمة، أو عمل طائش، إن لم يكن قد أسدل الستار على قصص الاستعمار الإنجليزى الطويل وبطولاته، فقد أعطت ناصر الإلهام ليشرع في مغامراته خارج البلاد والتى كتب لها الفشل . كما ساعدت أجهزة الدعاية أن تحدث ضباب الشك والكراهية . وكان هذا يعنى أن العلاقات بين البلدين بقيت متأزمة بشكل غريب . وربما كان هذا أمر لا

مفــر مـــنه طالما بقى يمسك ناصر بدفة الحكم . ولكن الآن توجد رغبة لدفن الماضـــى بـــدأت تحطـــم جدار العداء. والذي لا شك فيه أن المصريين اليوم يشـــعرون أكـــثر ممـــا كانوا يشعرون منذ وقت طويل بالاتجاه العاطفى نحو إنجلـــترا . فقد سارعوا بالإمساك بيد الصداقة التي مدتها إليهم سياسة إدوارد هيـــث Edward Heath فـــي الاقتراب من المشكلة بعقل مفتوح جديد كما أن تجـــول الســـير أليك دوجلاس هيوم Alec Dougles Home بين الآثار وهو يركـــب الجمـــل (وهو الآن معروف بين زملائه بكنية The Cammel Laird) كانـــت لمسة من العبقرية، فقد لجأ إلى المزاج المرح، وبذلك ألغى بضربة واحدة عقوداً من "العنطزة".

وبالـــرغم مـــن أن أنـــور السادات يبدو في بعض الأحيان غامضاً إلا أن إمساكه بالحبل بشدة يتخللها فترات من اللين . لقد بذلت الدبلوماسية المصرية المتشـــددة الكثـــير لكـــى تكسب لمصر تعاطفاً دولياً في موقفها الذي لا تحسد عليه.

وبالـــرغم مـــن أن ذلك يبدو محيراً، إلا أن هناك بعض العوامل الأساسية التـــي يجـــب أن تبقى في أذهاننا، فلو أن الروس بقوا متخندقين بقوة في الدلتا الـــيوم، فـــإن ذلك للمصلحة النفعية وليس من باب الاختيار . لأن المصري العـــادى لا يحـــب ولا يحـــترم النظام الشيوعى لكنه لا ينكر أن روسيا هى الأفضـــل بالرغم من أنها التي تقف إلى جانب مصر في هذه الورطة القائمة، بيـــنما تـــبدو أمريكا في عيونه هى الأفضل على وهى تفعل العكس من ذلك تماماً . وبسبب رعونته الجيوبوليتيكية فتح الغرب الطريق للتسلل السوفيتى . لقـــد ســـاهمت أزمة السويس، وتصرفات ليندن جونسون Lyndon Johnson واللوبـــى الصـــهيونى فـــي واشنطون جميعاً في اندفاع القاهرة التدريجى نحو مخالب موسكو .

وعندما تحل المواجهة المزمنة مع إسرائيل حلاً نهائياً وتعاد سيناء، والتى كمـــا نفهم هى الشغل الشاغل لاهتمام القاهرة في هذه اللحظة فسوف تكون هـــناك فرصـــة لعودة السلام إلى ربوع الشرق الأوسط . وعندما يحدث ذلك

فـــإن مصـــر ستصــــبح أبعـــد بكثـــير مـــن أن تستضيف القوات السوفيتية وصواريخها(*)، غير أن الاتحاد العربى وحلفاءه ينظرون إلى القضية نظرة واضـــحة المعـــالم، فهم يعتقدون أنهم لا يقاومون الإسرائيليين وحدهم، لكنهم يقاومون مصالح أمريكا الاقتصادية الممتدة عبر إسرائيل، ولذلك يميلون بشدة إلى ضرورة استخدام روسيا كقوة مضادة .

ومرة أخرى، في حين أن المرء على أى حال قد يبدو متعاطفاً مع المآسى والآلام التـــي تعرض لها اليهود، يجب أن نضع في ذاكرتنا أن الدولة اليهودية ولـــدت وتوســـعت علـــى حساب العرب، فإسرائيل الحديثة ما هى إلا طائر الوقواق الذي يعشش في الشرق الأوسط .إن المصير المحزن الذي لقيه اليهود فـــي ألمانـــيا وشـــرق أوربا لم يكن خطأ الفلسطينيين، لكن كان عليهم وعلى جـــيرانهم أن يدفعـــوا الثمـــن، وليس هذا دليلاً في حد ذاته: إنما هى مسؤلية جوهـــرية وتاريخية لا نستطيع نحن في الغرب أن نتهرب منها . ومع الأسف لـــيس ذلك الأمر الوحيد، فكلما تعمق الإنسان في المسألة كلما أدرك أن العالم العـــربى منذ أيام نابليون، والمصريون على الأخص، ليس لديهم سوى القليل المفـــيد ليشـــكروننا عليه . فهم كما هم اليوم واقعين في شباك القوى الكبرى، دافعين ثمن الأخطاء أكثر من المخطئين أنفسهم .

هناك أمر معين يتوق إليه دائماً الرجال والنساء العاديون في مصر قبل أى شـــىء وهـــو أن يتركوا لحالهم يعيشون في سلام، مسالمين وتواكليين يعملون تحت النير عمل شاق لا يتوقف سواء في الحقول أو بعض الوظائف الحكومية المجمـــدة، وطمـــوح أغلـــب الشـــعب لا يزال بسيطاً، وهو أن يكسب بعض القـــروش الإضـــافية لتحســـين وضـــعهم قليلاً، وطموح الغالبية العظمى من المصريين لا يتغير وهو الحصول على سبع أو ثمان أكواب من الشاى الثقيل مضـــافاً إليه الكثير من السكر يومياً، وفى مناسبات الأعياد تناول وجبة اللحم الضـــان المشـــوى أو الكفـــتة، وقضاء ساعة أو ساعتين في مقهى القرية .

(*) وكما يبدو أن الأحداث قد أثبتت ذلك منذ أن ظهر هذا الكتاب.

وجلباب جديد في شم النسيم (عيد الربيع) .. هذه هى طموحات الغالبية العظمى للفلاحين للمصريين التي لا تتغير . يضاف إلى ذلك أهمية عامل الدين، وصلة الرحم، والقرية والكرامة الشخصية . لقد حقق جمال عبد الناصر حسين شيئاً لهذا الشعب، لقد أعطاهم القوة الدافعة لكى يفخروا بأنهم مصريون، وهو إحساس حرموا منه منذ أيام الفراعنة .

إنه لمن الصعب أن نقرر عما إذا كان ناصر قد فعل الكثير أو القليل داخل مصر خلال السنوات الثمانية عشرة التي قضاها في السلطة، إذ لا يزال من السابق لأوانه أن يصدر حكم عما إذا كانت سياسته الداخلية قد نجحت أو فشلت . إن العواطف التي فجرها خارج الحدود كانت كالبركان حتى أن الكثيرين من مواطنيه ليجدون صعوبة في أن يتبينوا أن القاهرة قد أصبحت واحدة من محاور القوة الهامة في العالم الثالث غير المنحاز، لكن لذلك جانب آخر، وكما لاحظ جيمس الدردج James Aldaridge أي كتاب عن القاهرة: "ليس في مقدور أحد أن يتنفس في هذه المدينة دون أن يحس بهمساتها العصبية وابتهاجاتها خالية البال وذلك لأسباب بسيطة فربما لا توجد مدينة في العالم تضحكك أكثر منها، ليس فقط من نكاتها اللاذعة، ولكن أيضاً من حالها الذي يدعو للسخرية" فكثير من سحر المصريين الجارف يقبع في استعدادهم لتحويل أى أمر جاد إلى "هزار" ومضاعفة الضحك عند أقل ذريعة .

لقد قال لى من هو ذات مرة إن إطلاق النكات تصرف طبيعى عند المصريين، كما تفعل أغنية كالبسو Calypso عند سكان جزر الهند الغربية أو كما تفعل الأناشيد الروحانية الدينية أو الجاز عند الزنوج الأمريكيين، وليس الغريب أن يضحكوا فيما بينهم وبين أنفسهم عند فكرة أنهم يلعبون دور "السيد العربى" لقد كانت مصر دائماً أهم بلدان الشرق الأوسط، ولكن بالرغم من ذلك حتى في أيام قمة مجدهم عندما كان نجم عبد الناصر يشق عنان السماء، فإن قليلاً من المصريين كانوا يرون أنفسهم حقاً قادة للعالم العربى، بل حتى لو نظروا إلى أنفسهم على أنهم عرب فقط، ففي داخل أفئدتهم كانوا دائماً ينظرون إلى الماضى، غارقين بعشق وحماس في أمور بلادهم الأساسية، وقلما كان لهم أى اهتمام بالاستراتيجية الدولية . والآن وهم

يجـددون أنفسهم وقد نال بهم الإرهاق مبلغه من جراء المغامرات الخارجية بيـنما، يوجد الكثير الذى يتوجب عمله في الوطن . وبالرغم من الحديث عن المعـركة القادمة التي لا مفر منها، وعن مظاهرات الطلاب (والتى هى تعبير خـالص عـن الإحسـاس بالضياع الوطنى) فإن المصري في جوهره رجل سلام.

إن أنـور السـادات يدرك ذلك جيداً، عندما يتفاوض ببراعة وثقة بالنفس كـتلك الـتى يفاصـل بهـا تاجـر الـبازار لاستعادة الأراضى التي سلبها الإسـرائيليون دون أن يلجأ إلى السلاح . كما أن جولدا مائير وموشيه دايان يعرفان ذلك أيضاً مما قد يشكل سبباً برجماتيا لعناد تل أبيب التي تتبنى وجهة نظـر الذي لا يستعمل شيئاً ولا يدع غيره يستعمله، ومادام المتخصصون في حـل ألغـاز الكلمات المتقاطعة في الهوايتهول يدركون ذلك أيضاً، فإن هناك الآن سـببًا وجـيهًا لعقد الآمال على صياغة علاقات وثيقة من الصداقة بين جيل جديد من الإنجليز والمصريين .

وتأسيسـاً على هذه الملاحظة المتفائلة، دعنى أضيف: وبالرغم من وجود مسـحة خافـتة من الاستعلاء والاستغلال، لا تزال فترة القرن التاسع عشر والنصـف الأول مـن القـرن العشـرين التي تمثل فصلاً فاصلاً للاستعمار الأوربى تمثل مرحلة مثيرة مثل أى فترة من تاريخ مصر الرائع .

إن الموضوع الذي اعتنى به هو وصف تتابع أحداث العصور منذ اللحظة التـي ظهـر فـيها نابليون عام ١٧٩٨ حتى رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ مركـزاً على القضايا الأساسية والأزمات التي عصفت بالأرض العريقة في العصـر الحديث، غير أنها مرت مرور الكرام على التطور الهائل في مجال التكنولوجـيا والاقتصاد والسياسة خلال العقدين الماضيين لأن ذلك يقع خارج مجال الكتاب متمنياً أن يكون ذلك موضوع جزء مكمل . ومن ثم فقد قصد به أن يكون إلقاء نظرة بانورامية إطلالية لمصر في العصر الحديث.

وأسـتطيع أن أدعى لنفسي أنني كنت على مسرح الأحداث لأكثر منذ ربع

قـرن، وهـي الفـترة التاريخية التي يغطيها هذا الكتاب . حقاً لقد انتهيت من كتابة أغلب فصوله خلال السنوات التي قضيتها في بيتنا على ضفاف النيل في البدرشين حيث كان يحيط بنا الفلاحون وهم يعملون في الحقول، ومن ورائهم فـي الخلفـية تقـبع منف وسقارة فتحقق لى الإحساس بأننى بكل كيانى على اتصال بتراب مصر وروحها .

وبالـرغم مـن اسـتخدامى للمصادر التي ذكرتها في البيليوجرافيا بطريقة متحررة، إلا أننى جمعت الكثير من مادتى التاريخية في القاهرة والإسكندرية، ولهـذا سوف أكون مقصراً لو نسيت أن أسجل ما أنا مدين به من جميل لكل أصدقائى الذين لم يساعدونى في أصول الكتاب فحسب، بل شكلوا على الدوام أفكاري، ووجهة نظرى إزاء تلك الأرض التي عشت على ترابها منذ أن كنت طفـلاً يبلغ عمره ثلاثة أشهر . فخالص شكرى لعطفهم الدائم الذي لم يخذلنى قط، والذي جعل علاقة حبى لمصر لم يتوقف، ومن ثم فإنه من المناسب أن أهـدى لهم هذا الكتاب . فإلى أصدقائى الكثيرين الرائعين؛ هذا واجب تقدير يقدمه "ابن البلد".

**ريموند فلاور**

## تمهيد

# نابليون يترصد إنجلترا

فـــي ليلة سادها الصقيع من شهر نوفمبر ١٧٩٧، بينما كان سكان الوديان المتـــناثرة يتكدســـون حول مدافئهم، هرولت قافلة عسكرية فرنسية من ناحية الشمال عبر الألب... إنه المواطن الجنرال بونابرت عائدًا من إيطاليا.

لقد حقق وهو في سن الثامنة والعشرين من عمره نجاحاً مذهلاً، ففي خلال خمـــس سنوات فقط علا نجمه من رتبة ملازم مجهول في سلاح المدفعية إلى منصب القائد العام للقوات الفرنسية في إيطاليا . .. قائداً عاماً لقوات تمرست فـــي القـــتال، وتديـــن له بالولاء، وعن طريقها تمكن من اجتياح شمال شبه الجزيـــرة (الإيطالـــية)، ووضـــع نهاية لجمهورية البندقية، وأجبر إمبراطور جمهوريـــة البندقية على عقد السلام، لقد كان يحيا حياة شبيهة بحياة الملوك، ويهلل له المعجبون به بأنه " ها نيبال الجديد " فقبل شهر كان قد وضع نهاية سعيدة لهذه الحملة بعقد معاهدة كامبو فورميو Campo Formio.

ولكـــن فـــي باريس حيث كانت الحكومة تتخبط في الفشل، وتواجه ألف مؤامـــرة، فقد كان يعرف أنه يتوجب عليه التعامل معها بحذر فلم يكن يدور بـــباله أن انتصـــاره المذهـــل فـــي إيطاليا لم يقابل إلا بأقل درجة من التقدير والإعجـــاب مـــن جانب حكومة الإدارة الفاسدة، والتي كانت تنظر إليه بعين الغـــيرة والحسد، في حين أن ولاءه للنظام كان راسخاً لا جدال فيه (ولقد دار الهمـــس فـــي باريس أنه دفع ثمن ترقيته من قبوله الزواج من إحدى عشيقات أحد رجال الإدارة التي كان يريد التخلص منها)، لكنه لم يستطع أن يمحو من ذاكرته كلما هرول نحو باريس أنه قد ألقى القبض عليه مرتين، وزج به فـــي غياهب السجن خلال السنوات الخمس السابقة، وأنه في هذه المرة، إذا ما قام بأدنى تحرك فاشل فسوف يكون في ذلك نهايته .

أمـــا السبب في استدعائه هذه المرة فلم يكن سراً، إذ صدر قرار الحكومة فـــي ٢٦ أكتوبر بتعيينه قائداً لجيش حملة إنجلترا، أو بمعنى آخر قائداً لغزو

بريطانيا . فلقد أطلقت معاهدة كامبو فورميو أيدى الجمهورية (الفرنسية) لتدخل في صراع مع عدوتها التقليدية، لكن كلما أمعن بونابرت في التفكير كلما أدرك أن القيام بعملية عبر القنال الإنجليزى لن تكون بكل تأكيد مجدية من الناحية العملية في ذلك الوقت . فلقد كان ضعف الأسطول الفرنسى عائقاً يدعوه للتردد، كما أنه لم يكن لديه النية في أن يرتبط اسمه بعمل فاشل .

لقد سافر من مومبيللو Mobello إلى راشتادت Rashtadt ثم إلى باريس بأقصى سرعة تسبقه شهرته . فعند كل قرية كان عليه أن يتوقف ويستمع إلى خطبة من عمدتها، وفى كل مدينة كان عليه أن يتلقى كرم الضيافة . ومن حين لآخر كان يفصح لرفاقه المسافرين معه بما يدور في نفسه فقد أسر إلى صديقه ميو ميليتو Miot Melito قائلاً: ما قمت به حتى الآن لا يساوى شيئاً؛ لأننى في بداية سباق كتب عليّ أن أخوضه، هل يدور بمخيلتك أننى حققت النصر ببساطة لأضمن بقاء هذه الحفنة من المحامين الذين يشكلون حكومة الإدارة رجال من نوعية كارنو Carnot وباراس Barras وفيما بعد قال له في راشتادت: وبالنسبة لى يا عزيزى " ميو " دعنى أقول لك، أننى لم أعد أؤمر فأطيع، لقد تذوقت طعم القيادة ولا أستطيع الاستغناء عنها . لقد توصلت إلى قرارى إن لم أصبح سيداً فسوف أغادر فرنسا ! ».

كان الاستقبال الحافل الذي استقبل به في باريس سواء من جانب مؤيديه أو منتقديه رائعاً مما بعث فى نفسه السرور، ففي كل مكان رفرفت عليه أعلام الثورة ذات الألوان الثلاثة . كما أن الجمهور المبتهج كان مقتنعاً أنه (أى نابليون) ما أن يطل بوجهه على بريطانيا حتى تجثو الإمبراطورية البريطانية تحت قدميه، غير أنه سمع وهو يصيح: "هل تتوقعون منى أن أطرب لمثل هذه المظاهر العامة ؟ أتدرون السبب أنه نفس الجمهور الغفير الذي سوف يشاهدنى وأنا في طريقى إلى المقصلة"!. وعلى مضض قام أعضاء حكومة الإدارة بتكريم الجنرال؛ حيث استقبلوه استقبالاً رسمياً، وألقى باراس خطبة غراء مخاطباً إياه بلقب محرر إيطاليا ومحقق السلام لأوروبا . ففي لوكسمبرج اعتلى الناس الموائد ليفوزوا بنظرة على البطل، فشاهدوا شخصاً نحيف البنية، شاحب البشرة، يرتدى بزة زرقاء ويتمنطق بسيف يكاد يحف

بـــالأرض . غـــير أن مظهره هذا أثار حماس تاليران Talleyrand الذى كان على علاقة طيبة معه، وهو الذي وصفه بقوله: "إنه شخصية جذابة ذو بشرة شاحبة، يبدو عليه علامات الإرهاق . في حين أن أصحاب الصالونات الأدبية كـــانوا يتهامســـون فـــيما بيـــنهم بأن الجنرال الشاب يبدو كقط يرتدى الزى العســـكرى " ولقـــد كـــان سلوكه يجمع ما بين الجفاء والخشونة التي تتطلبها أصـــول المهنة، وبين الروح الاجتماعية الطيبة، وأحسن ما يقال عنه أنه كان ذا ابتسامة تسحر الألباب.

وبعـــد الاحـــتفال سارع هارباً من كل هذه الضوضاء، ومظاهر النفاق إلى بيـــته الصـــغير في شارع شانتيرن Rue Chanterine والذي أعيد تسميته بعد عودتـــه إلـــى شارع النصر Rue de la Victoire وفى هذا البيت كان ينكب على عمله الروتينى مع هيئة أركان حربه من الضباط المكلفين بتجهيز المؤن والعـــتاد المـــتعلقة بالحملة، بل أنه كان يلتقى فيه بشخصيات مدنية من أدنى السـلم الاجـــتماعى مثل صائدى الأسماك المتقاعدين، والمهربين المحترفين. وبدءاً من مطلع شهر فبراير راح يستكشف موانئ الساحل الشمالى (لفرنسا)، وبينما كانت عربته تتعثر فوق الحصى بين كاليه Calais ودنكرك Dunkirk، تـــأكد من مخاوفه بأن غزو بريطانيا في هذه الظروف سيكون بمثابة الكارثة المحققـــة، لكـــنه كـــان لديه النية عندما تحين الفرصة المناسبة أن يعمل على إسقاط الإمبراطورية البريطانية والحكومة الفرنسية أيضاً، لأن ثمرة الكمثرى لم تكن قد نضجت بعد في الوقت الحالى. ولذلك قدم للحكومة اقتراحاً بديلاً في الخـــامس مـــن شهر مارس عام ١٧٩٨ بالقيام بحملة على مصر، وفى نفس اليوم الذي قدم فيه الاقتراح جاءت موافقة حكومة الإدارة.

قـــبل اثنى عشر شهراً من ذلك التاريخ كان القنصل الفرنسى في القاهرة قد تقـــدم بمذكرة مطولة يقترح فيها أن الوقت قد حان للتدخل في مصر، وقال إن هـــذا التدخل سوف يجد ترحيباً ليس من جانب المصريين الذي كانوا ضحايا لحكومـــة ظالمـــة وفاســـدة، بل سيجد ترحيباً أيضاً من جانب تركيا، صاحبة الســـيادة، إذ لم يعد سراً أن الباب العالى كان يعانى الأمرين من جانب بكوات المماليك الذيـــن كانوا يسيؤن معاملة الخمسين أو الستين تاجراً فرنسياً الذين

كـــانوا يقيمون في مدن الدلتا، ولم يكن هذا التقرير جديداً في مطلبه، فقبل ذلك وعلى طول السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر، انهال على وزارة الخارجـــية الفرنســـية الـــتقارير بخصوص المسألة الشرقية، غير أن أحداً لم يكترث بها كثيراً، ولكن في هذه المرة أعاد صوت له نفوذ تكرار هذه الفكرة، وهـــو صوت شارلز موريس دى تاليران Charles Maurice de Tallyrand . فـــى بدايـــة حـــياته كـــان تاليران أسقفاً على أوتون Autun غير أن الكنيسة طـــردته من رحمتها لهرطقته، وكان قد عاد لتوه من حياة الدعة الاستعمارية في فيلادلفيا (حيث لجأ إليها حتى انتهى حكم الإرهاب) وفى قصر اللوفر ألقى محاضـــرة عامة كان عنوانها " حول مزايا مستعمرات فرنسا الجديدة " وقد أشـــار فـــيها إلى كيف أن بريطانيا قد سلبتها من فرنسا وكان آخرها في عهد آخر ملوكها . وإذا كانت الفكرة قد ضربت على وتر حساس، ولقيت استجابة مـــن مســـتمعيه في باريس، فإنها أكملت دائرة تفكير هذا الشاب الحالم الـــذي كان في ذلك الوقت يعقد اجتماعاً في مومبيللو Mombello .

لقـــد كان نابليون بونابرت يحلم بسحر الشرق حتى منذ أن كان ملازماً أول، يقتل الساعات المملة الثقيلة داخل الثكنات في الأقاليم، بل أنه كان يسجل يومـــياته برصد بعض الملاحظات مثل ــ تاريخ مصر، وقرطاجة، والتتار، والأتـــراك، بل وأبعاد الهرم الأكبر، وتاريخ تولى السبع والعشرين خليفة (من الأتـــراك)، إلى جانب ترجمات لحياتهم، وتفاصيل دقيقة عن مسلك زوجاتهم، بل أنه دون عبارة تقول: " المجد كله يأتى من الشرق مثل الشمس Toute le Gloire vient de l Orient comme le Soleil.

وفجـــأة تذكر ذلك الفتى الكورسيكى الذى تجرى فى عروقه دماء البحر المتوســـط فتوحات الاسكندر وقيصر، لكنه كان يقيس أحلامه بمعيار العقل والمنطق كما روى ذات مرة للكونتيسة ريموسات Remussat بأنه قادر على أن يـــربط بين رؤيته لإقامة إمبراطورية في الشرق، والتفكير في إلحاق الأذى بإنجلتـــرا في الغرب .

وشـــاءت الأقدار أن يصبح تاليران وزيراً للخارجية بعد أسبوعين فقط من

إلقائـــه محاضـــرته الشهيرة، وعلى التو بدأ بونابرت يتراسل معه بخصوص مشـــروعه لتحقيق السيطرة على البحر المتوسط، فقد كتب إلى الوزير الجديد يقول: « ليس اليوم ببعيد عندما ندرك ضرورة الاستيلاء على مصر إذا كان فـــي نيتنا تدمير إنجلترا. إنه في مقدرتنا أن نبحر ونستولى عليها بقوة تعدادها ٢٥,٠٠٠ رجـــل يصـــحبهم ثمان أو عشر سفن حربية إن الإمبراطورية العثمانية الشاسعة التي تموت يوماً بعد يوم تدفعنا بأنه لا مفر من البحث عن وسيلة أخرى يجب أن نتبعها لكى نحمى تجارتنا في شرق البحر المتوسط ».

وســـواء كان تاليران مقتنعاً بذلك أم غير مقتنع (فعندما فشل المشروع فيما بعد وتحول إلى كارثة ألقى كل منهما اللوم على الآخر) . غير أنه كان داهية دبلوماسية ولا يرفض فكرة ضرب عصفورين بحجر واحد إن استطاع، وأن الفرنســـيين إن لم يحتلوا مصر فمن المحتمل أن تقوم بذلك قوة أخرى، وقبل كـــل شـــىء، كـــان يفضل أن ينشغل شخص ذو شعبية تثير قلقه في مشروع عســـكرى علـــى ضفاف النيل على أن يراه يتسكع على ضفاف السين بدرجة تثير الخطر.

ومهمـــا كانت دوافع تاليران الخاصة، فإن مقترحاته التي قدمها كانت تؤيد فكـــرة الحملـــة، كمـــا تضمنت خططه أيضا مشروعات لحفر قناة فى خليج السويس ومشروعاً آخر للقيام بحملة لفتح الشام بعد احتلال مصر، وكان ذلك كافـــياً للحصول على تأييد حكومة الإدارة والوقوف إلى صفه، فقد وضح لهم أن مصادر تموين إنجلترا تأتى من بلاد بعيدة عنها، وأن هجوماً ناجحاً لقطع خطوط المواصلات سوف يكون بمثابة ضربة قاضية، ويستبعد من ذلك القيام بحملـــة لغـــزو إنجلـــترا حـــتى قبل انتزاع الهند منها، فلو أصبح الأسطول البريطانـــي مـــتورطاً حـــول الإســـكندرية، فـــإن هجوماً خاطفاً عبر القتال الإنجلـــيزى يصـــبح فـــي الإمكان القيام به: وهكذا اتفقت وجهة نظر حكومة الإدارة مـــع وجهـــة نظـــر نابليون في الهدف، لكنها اختلفت في الغرض، أما الأمـــوال اللازمـــة لتكالـــيف الحملة، فقد أمكن تدبيرها بالقيام بغارة خاطفة ومفاجئة على سويسرا . وخلال ست وسبعين يوماً من العمل المضنى وتحت أقصـــى الظـــروف صـــعوبة، وبدرجة رائعة من السرية، تم اختيار الفريق

المشـــارك في الحملة سواء على مستوى المشاة أو البحرية، أو الجهاز المدنى حتى أصبحت الحملة جاهزة .

ولقد اختار نابليون أركان حربه من بين الضباط الذين كان يثق فيهم، كما اخـــتار جنوده من بين أولئك الذين حاربوا معه بشجاعة في إيطاليا، وتم ذلك وهـــو جالس في مقصورة زوجته الخاصة (فقد كانت جوزيفين كثيرة التغيب وتكـــون عـــادة في حجرات نوم إما باراس أو معلم الرقص مسيو هيبولبت Hippolyte) وبمســاعدة فــريق مــن العلمـــاء علـــى رأسهم جاسبارد مونج Gaspard Monge وبرتولـــيه Bertholet عـــالم الكيمياء الشهير أمكن تجنيد عدد مذهل من المتخصصين للانضمام للحملة، فلقد كانت فكرة السير في أثر الجـــيوش العظمى في العالم القديم تجذب إليها عدد كبيراً من رجال الفكر كما تفعـــل قطعة المغناطيس . وبينما كانت إنجلترا متورطة في بناء إمبراطورية شاســـعة، أدركـــت فرنســـا الـــثورة أن الوقت قد حان لبعث الحياة في البحر المتوسط، والذي كان على مر التاريخ محور العالم .

حـــتى ميشـــيليـــه Michelet الذي كان أقـــل الناس إعجاباً به كتب يقول: "ليست هذه حملة عادية، حافزها الجشع، إنما دافعها أمل البعث الرائع النبيل" ولـــم يمض وقت طويل حتى كانت نواة جامعته الشاملة قد تكونت، فقد شملت علمـــاء فلك، ونبات، وعلماء الهندسة، وعلماء في المناجم والمحاجر، وعلماء في الآثار وعلماء متخصصين في الدراسات الشرقية، وعلماء اقتصاد سياسى بالإضافة إلى زمرة من الموسيقيين والرسامين والشعراء، وقد بلغ مجموعهم ١٦٧ عالماً، كان أغلبهم في سن الشباب، اتجهوا واحداً بعد الآخر إلى ميناء طولـــون Toulon فقد كانت النية عازمة على دراسة كل كبيرة وصغيرة على أرض مصـــر، ذات التاريخ التليد بكل دقة متناهية . وقد يسخر مقاتلوه من جـــنود المشـــاة مـــن هؤلاء العلماء الحالمين، ويطلقوا عليهم ساخرين لفظ " الحمـــير " لكن في نظر بونابرت كانوا يمثلون أهمية بالغة، فهم الرجال الذين سيخلدون شهرته بأنه الإسكندر الجديد .

وفـــى صباح يوم ١٩ مايو عام ١٧٩٨ الباكر، اقتربت عربة تجرها خيول

ثــم توقفــت أمام فندق لانتاندنتL Inetendent في طولون، ومن أعلى الدرج هــبط نابلــيون وقد تأبطت جوزفين ذراعه، ويقول شهود العيان أنه لم يظهر أى انفعال عاطفى لهذه اللحظة، فقد كان يجلس طوال الوقت في العربة صامتاً متــبلد الحس، ومن حين لآخر كان يرفع أصبعه للرد على تحيات الجماهير، وعــندما اقتربت العربة من حافة البحر طبعت جوزفين على خده قبلة الوداع هامسة في أذنه: متى ستعود؟ فأجاب وهو يهز كتفيه: « ربما بعد ست شهور، أو ســت سنوات »، ثم أكمل هامساً وهو يضع قدميه على الرصيف: «وربما لا أعود أبداً » .

وعلـــى الجانـــب الآخر (من البحر) في ذاك الوقت نفسه لم يكن التهديد بغزو محتمل من جانب فرنسا يلقى تأثيراً كبيراً على الحياة اليومية، وإذا كان هـــناك مـــا يشـــغل الناس في إنجلترا فهو ما كان يحدث في الأسطول،إذ أن أعمـــال التمرد والشغب التي اندلعت في منطقة سبيتهيد Spithead كانت سيئة للغايـــة، بل لم يكد يمر شهر على حدوثها حتى اندلعت موجة تمرد شاملة في مـــنطقة نـــور Nore، ولـــم يكن أحد يدرك بالطبع كم كانت حياة جندى الأسطول شاقة . لكنهم صدموا لما علموا أن تجنيد الأسطول يتم إلى حد كبير عن طريق الخطف، وإن جراية الجندى قليلة لا تكفيه للغاية، وأن الأطباء في السفن يختلسون الدواء، ومرتبات العاملين والمتقاعدين لم تكف لإعالة أسرهم التـــي نـــادراً مـــا يرونها، وبالرغم من أن حركة التمرد قمعت بأشد درجات القســـوة، إلا أنهـــا أثـــارت الـــرأى العام بدرجة تكفى لممارسة الضغط على البرلمان وعلي قيادة الأسطول لمنحهم المزيد من التنازلات (وبالمصادفة فإن ذلك أقنع عدداً قليلاً جداً من الأجانب المقيمين الذين عاصروا هذه الأحداث في القارة، بأن الثورة الإنجليزية على وشك الحدوث).

ووســـط هذا كله، أنذرت صحف لندن أن الاستعدادات الفرنسية في موانئها على القنال قد وصلت إلى درجة عالية من الاستعداد والتأهب، كما أن عميلاً ســـرياً شـــاهد الجنرال بونابرت على الطريق بين فورنس Furnes ودنكرك، وأبلـــغ آخـــر عـــن بناء قوارب واسعة الحجم في برست Brest ومن ثم فإن الحملة لم تكن مستبعدة تماماً، وبعدها بقليل انهالت التقارير بأن فرنسا تخطط



جاســبرد مونج من أشهر علماء الرياضيات والهندسة
كان أيضاً من المصاحبين لنابليون فى حملته على مصر

لعملية في الجنوب على نطاق واسع . كما أن أحد ضباط الأسطول البريطاني الذي انتهت به مغامراته الطائشة أن يصبح سجين حرب في باريس، نجح في توصـــيل رسالة تفيد بأن حكومة الإدارة قد وضعت عيونها على مصر وعلى تجـــارة بريطانـــيا فـــي البحر المتوسط، وبعد أسابيع قليلة تمكن السير سيدنى ســميث Sidney Smith من الهروب من سجن لوتمبل Le Temple، ودعاه اللـــورد جلانفـــيل Lord Glanville لتناول الإفطار، ثم اصطحبه إلى القصر الملكـــى حيث أخبر الملك أن بطانة بونابرت قد شملت علماء في الرياضيات ومؤرخيـــن وجيولوجييـــن يستطيعون كتابة التقارير عن الآثار وعن تطوير المصـــادر الطبيعية لمصر . كل ذلك بدا بعيد التصديق، وعلى أى حال فقد قـــرر "بـــت" Pitt رئيس الوزراء أن الوقت قد حان للتفكير في شئون البحر المتوســـط، وفى الثانى من شهر مايو أصدرت قيادة الأسطول التعليمات إلى اللورد سان فنسنت Lord St. Vincent المرابط في قاعدة قـــادش Codiz بأن يبعـــث بمجموعـــة من السفن تحت قيادة السير هوارشيو نيلسون Horatio Nelson الذي كان قد وصل لتوه من إنجلترا وهو يقود سفينة القيادة لصاحب الجلالـــة Vanguard. وفـــى الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى اللورد سان فنسنت في ٢٤ مايو، كان نيلسون قد سبقه في طريقه إلى طولون، وكان واقعاً في مأزق .

فقـــبل ذلك بأربعة أيام فقط، بينما كان الأدميرال يقطع كبينته جيئة وذهاباً، غمره فجأة إحساس بابتهاج يفوق الوصف، فالبرغم من أنه كان قد فقد ذراعه الأيمن، إلا أنه أعيد ليتولى قيادة كتيبة طائرة تحمل تعليمات سرية بخصوص الـــتعامل مع الفرنسيين . وبعد مغيب شمس يوم رائع، بدأ الجو يتقلب، وعند منتصـــف اللـــيل بيـــنما كانت سفينة القيادة فانجارد تستعد لمواجهة عاصفة، وجدت نفسها في خطر داهم، فقد مال قلعها الرئيسى على جانبه، تلاه الشراع الـــذي يعلـــو المؤخرة، واستمرت العاصفة لمدة ثمان وأربعين ساعة، كادت خلالهـــا سفينة القيادة فانجارد أن تصبح حطاماً . ولولا الحظ الحسن ومهارة بحارتهـــا مـــا أمكن سحبها بسلام إلى خليج أوريستانو Oristanoفي سردينيا، وهناك تم إصلاح العطب بمجهود جبار خلال أربعة أيام فقط .

وكما حدث، كانت هذه الأيام حرجة، فقد أبلغ تاجر أن بونابرت في صحبة ثـلاث عشـرة ناقلة للجنود وأربعمائة سفينة تموين، قد أقلعوا من تولون في الـيوم الذي سبق على هبوب العاصفة . لقد انطلق الطائر، والأدهى من ذلك أنـه لم يكن لدى نيلسون أدنى فكرة إلى أين يتجه هذا الفرنسى، وزاد الطين بلة، أنه اضطر إلى التوقف بسبب عدم هبوب الرياح .

ونسـتطيع أن ندرك مدى الإحباط الذي عاناه طوال الشهرين التاليين من خـلال قراءتـنا لما جاء في يومياته، إذ كتب وهو يتذمر: " حتى الشيطان له نصـيبه مـن الحظ السعيد Even the devil has the devil s own luck، وبكل تأكيد لم يكن الحظ إلى جانبه في لعبة الاستغماية الدائرة حول البحر المتوسط، إذ لـم يكن لديه سوى فرقاطتان تأتيان إليه بالمعلومات، كما أنه أخفق بالكاد فـي اللحـاق بالقافلة البحرية الفرنسية. ففي ليلة ٢٢ يونيو وسط طقس ساده الضباب بالقرب من صقلية مر على مسافة قريبة جداً من الأرمادا (الفرنسى) الـذي كان يسير ببطئ شديد حتى أن الادميرال دى بروى Breuys كان في إمكانـه أن يسـمع طلقـات إشارة السفن البريطانية . وفي ذلك اليوم علم أن الفرنسـيين قد استولوا على مالطة، ثم أبحروا بعدها شرقاً وذلك قبل أسبوع، ومن ثم انطلق نيلسون بكل سرعة قاصداً الإسكندرية، لأنه خطر له فجأة أنها سـوف تكـون هـدف نابليون . وما أن وصل إليها في ٢٨ يونيو إلا أنه لم يرصـد شـيئاً فـيها، فقد كان ميناؤها الشرقى خالياً من السفن إلا من سفينة حربـية تركـية واحدة وأربع فرقاطات، أما الميناء الغربى أو «الأفرنجى» فلـم يكن فيه سوى خمسين مركباً تجارياً من جنسيات مختلفة، ومن ثم إعتقد أن الفرنسـيين يوجهون شرورهم نحو مكان آخر، ولكنه في اليوم التالى بينما كـان حـراس الميناء يستطلعون بالمنظار فنار جزيرة فاروس بالإسكندرية شـاهدوا بالكاد أشرعة قافلة نيلسون البحرية وهى تختفى وراء الأفق الشمالى الشـرقى في اتجاه آسيا الصغرى، عندئذ بدأ أسطول فرنسى هائل في الظهور والاقـتراب مـن ناحية الشمال الغربى . وبينما كان نيلسون يوزع سفنه على طول ساحل آسيا من حلب حتى خليج إيطاليا، ثم مرة أخرى عبر كريت حتى سـيراكوزه (صـقلية)، كان نابليون قد وصل إلى سواحل الدلتا بسهولة كما

فعــل الإســكندر وقيصر في أيامهم . ولم يتبين لنيلسون أن ما خمنه في أول الأمــر كان صحيحاً إلا عندما جاء يوم ٢٣ يوليو، ولم يكن خطؤه أنه وصل مــتأخراً قلــيلاً، ولكن لأنه وصل مبكراً قليلاً . ففي ذلك الوقت كان نابليون يستعد لدخول القاهرة الكبرى كقاهر، ومن هنا يبدأ تاريخ مصر الحديث.

## الفصل الأول

# تقلبات مفاجئة

كتب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى حولياته: " سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف (من السنة الهجرية التي بدأت فى ١٥ يونيو عام ١٧٩٨م)، هى أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).

كان للفزع الذى انتاب الشيخ ما يبرره، فقد أحدث نابليون تأثيراً مزعجاً، لكن يجب أن نضع فى الحسبان أن العنف والتقلبات المفاجئة لم تكن شيئاً جديداً على مصر، فعلى امتداد القرن سارت الحياة فى مواجهة خلفية من التحزبات وأعمال الثأر، والحروب. فقد ظل وادى النيل تدوسه أقدام الغزاة لما يقرب من ٢٥٠٠ سنة، وكان الفراعنة فى الحقيقة آخر المصريين الذين حكموا بلادهم. فبعد أن أزاح قمبيز الفارسي الأسرة الصاوية تماماً عام ٥٢٥ ق. م. شهدت مصر مراحل متتالية لحضارة اليونان الراقية، وعنف العسكرية الرومانية، وتطرف المسيحيين الأولين، وظل الفلاح هو الفرد الوحيد الذى لم يتغير، ذلك الفلاح المصري الذى استمر يفلح الأرض، يشد الحزام على البطن ليقتصد حتى يفلت من المجاعات، وكان ضحية للاستغلال من كل من تصادف وملك زمام الحكم.

لابد وأن يكون الفلاح هو أقدم مخلوق فى الدنيا. فقد شاهد كل شيء. فخلال العصور الوسطى شاهد بلاده، وقد استقل بها حكام مسلمون. ففى عام ٦٤١م حل العرب محل المسيحيين (البيزنطيين)، وأصبح الخلفاء سواء من دمشق أو بغداد سادة مصر. وفى القرن العاشر (الميلادى) تعرض هذا البلد لغزو جديد لكن فى هذه المرة من قبل الشيعة حكام تونس[1]. ومن أشهر من

خلف هؤلاء المغامرين الذين جاءوا من شمال أفريقيا واجتاحوا الشام وصقلية ودخلوا فى صراع لم يتوقف ضد الصليبيين هو ذلك القائد الأسطورى صلاح الدين (الذى عرف عند الصليبيين الذين انتزع منهم بيت المقدس باسم سلادن Saladin). وإلــى جانــب تشييده قلعة القاهرة التي أصبحت لستة قرون تالية. مركــز أعصاب مصر. ترك صلاح الدين أثراً فى مجال آخر ظل باقياً عبر القــرون، إذ أنــه جــرياً على عادة الخلفاء فى بغداد، راح يفتش فى أسواق الرقــيق فــى آســيا الصغرى، بحثاً عن فتيان النصارى ليشد من أزر قواته الكردية (إذا لم يكن من الصعب العثور على القوى البشرية، ففى ذلك الوقت كانــت أسواق القسطنطينية تموج بأبناء اللاجئين الفارين من التتار). وبسرعة مذهلــة تمكــن من أن يجعل منهم قوة مقاتلة، ذات كفاءة عالية. استطاع بها اجتــياج الشام، ونجح أخيراً فى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة. ولوقت طويل لم يكن هناك مثيل فى التاريخ لنظام المماليك الحربى القائم على تجنيد الرقــيق. والــذى لــم يوجد إلا تحت راية الإسلام فقط، ثم تحول إلى طبقة اجتماعــية كاملة، لها قوانينها الخاصة وتقاليدها المتبعة، والتى أسقطت أسرة صــلاح الدين ذاتها، بل أنها ظلت تحكم مصر لستة قرون بكل مظاهر الأبهة والفساد.

إن مصــطلح " مملوك " يحمل سراً غامضاً يثير الفضول، فالبرغم من أن معــنى المصطلح فى اللغة العربية، يعنى " الرقيق " المملوك أو العبد، وعلى الأخص العبد الذكر، ذى البشرة البيضاء، الذى يشترى لكى يصبح مجنداً فى الجــيش. وكانــت القــاعدة الأساسية لنظام المماليك هو الولاء المطلق، ليس للجيش ذاته أو بمعنى آخر للتاج، و لكن لسيد معين الذى تم عن طريقه شراء المجند أو الذى على يديه قد يتم عتقه فى ظروف مناسبة.

ومــا أن تقــوم أســرته ببيعه، أو فى حالات أكثر احتمالاً أن يقوم نخاس بخطفــه من قريته فى إقليم القوقاز، حتى يجد الصبى نفسه مشحوناً فى سفينة مــع آخرين مثله، تتجه بهم إلى القاهرة، حيث يعرض للبيع عارياً فى أسواق الرقــيق، ويظل ينتظر حتى يشتريه أحد بكوات المماليك، وهنا تتقطع الصلة النهائــية بينه وبين أسرته ووطنه بعد أن يفقد هويته بل حتى عقيدته الدينية،

ويصبح عضوا فى طبقة عسكرية، ذات قوانين صارمة، وتقاليد رهيبة.

وبالرغم من أنه كان يعيش داخل ردهات قصر البك، إلا أنه قد يجد نفسه يوماً ما ابناً متبنى داخل أسرة سيده الكبيرة، شديد الولاء لمولاه "البك" ولرفاقه من المماليك، ويبدأ تدريبه لكى يصبح عضوا فى طبقة خاصة من الإخوان، تحتقر الفلاح وغير العسكريين على السواء، بل تنظر إلى الزواج وحياة الأسرة كشئ قد يقضى على مهنته كرجل حرب.

وإذا جانبه الحظ فى سوق الرقيق، فقد يشتريه السلطان نفسه، أو واحد من بكوات المماليك، ذوى النفوذ، بعدها يرسل الفتى المملوك إلى مدرسة عسكرية حيث يتعلم أصول القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وتصقل موهبته فى فنون الكر والفر، وكان محظوراً عليه بتاتاً الاتصال بالعالم خارج المدرسة. التى كان يطبق فيها النظام الصارم عن طريق نظام ولاية الأقدم فى الخدمة على الأحدث فيها، فقد كان المماليك الأقدم فى الخدمة يسمون " الأغوات[٢] ويتولون أمور باقى المجندين، وخلال مدة الدراسة فى المدرسة لم يكن المملوك يتلقى أى راتب، ولم يكن له أى حقوق، ولكن ما أن يتخرج منها حتى يمنح بشكل رسمى حق الحرية والعتق.

وإذا ما نظرنا من هذه الزاوية فإن نظام الرقيق كان نظاماً قديماً كوسيلة مناسبة للتجنيد فى المهن والحرف المتعلقة بالحرب وبالصناعات الأرستقراطية الراقية. ولا ننسى أنه لم يكن ينظر إلى الرقيق نظرة العار فى بلدان الشرق، إذ أن العبد لم يزد عن كونه مستخدم مأجور. وبالطبع لم تؤت الفرصة لأغلب المماليك لكى يعتقوا، فقد قضى كثير منهم حياته كلها فى العبودية، تلك المرحلة التى مروا بها جميعاً بدءاً من السلطان والبكوات ووجهاء الدولة، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا فخورين بها. فبعد عشرين عاماً من شرائه وهو طفل من قرية ما فى أرمينيا بما يساوى مائة دولار، أصبح برقوق سلطاناً على مصر، وبعد عشرين عاماً من شراء برقوق له، أصبح المؤيد بدوره سلطاناً على مصر[٣]، وكما لاحظ أرنولد توينبى: "ما أن وطأت قدما هذا العبد الشركسى أرض مصر حتى رأى أن المستقبل مفتوح

أمامـــــه... وأدرك أن القـــــــدر قد يشـــاء له أن يصبح سلطاناً" ثم أضاف ساخراً "ورغم أنه أصبح سيدًا إلا أنه كانت تتملكه روح العبد ".

كان الفتى المملوك يدرك بكل ثقة أنه لن يمر وقت طويل حتى تكون المناصـــب العليا متاحة أمام مواهبه وقدراته، فقد يحتضنه البك لو كان ماهراً فـــى فن الفروسية والمبارزة والسيف أو رمى السهام، أو ربما بسبب وسامته وجمـــال تقاطـــيع وجهـــــه، وقد ينقل إلى بطانته الخاصة حيث يصـــــــبح "حـــامل المحـــبرة" أو حامل " الغليون" وفى الوقت المناسب وبضربة حظ قد يـــرقى إلى درجة أمير " العشرة " وهى أولى درجات سلم الوظائف القيادية، ومعهـــا يبدأ اشتراكه الطائش فى مؤامرات القصر. وكان الترقى يعنى الثراء وإمكانـــية الصعود إلى زمرة الطبقة المتحكمة فى البلاد، وتأسيس بيت حاكم خاص به.

كـــان السلطان – أقوى البكوات الذين نجحوا فى انتزاع العرش(٤) – يحكم من القلعة، وكان له قواده، ولقواده نقباؤهم، وللنقباء ضباط برتبه ملازم، لكل واحـــــد من هذه الرتب سرايا من القوات يأتمرون بأمر رئيسهم الذى اشتراه وحرره، والذى يدين له وحده بالولاء والطاعة، ولقد كانت هذه القوة المنظمة الـــتى تقـــوم على العنف والقسوة والدسائس، هى السبيل الوحيد الذى يضمن السلامة للعرش، فقـــد كان العرش على الدوام مهدداً من قبل البكوات الأكثر نفـــوذاً. وبالـــرغم مـــن أن الابن، بل حتى الحفيد قد يرث فى بعض الأحيان العـــرش، غير أنه قلما نجد أسرة حاكمة تستمر فى البقاء بعد الجيل الثانى أو الثالـــث قـــبل أن يسقطها مغتصب جديد. والإحصائيات تتحدث عن نفسها فى ذلـــك، فمـــن بيـــن المائتين والخمسين سلطاناً الذين حكموا مصر خلال فترة مقدارهـــا ثلاثمائـــة ســـنة مات منهم أربع وعشرون ميته طبيعية، ففى خلال الحفلات المجنونة فى القلعة كان الخنجر وكأس السم دائماً جاهزين، ولذلك لم يكـــن غريباً أن تكون القاهرة فى العصور الوسطى مسرحاً لروايات ألف ليلة وليلة.

فعـــن طـــريق القسوة والانتقام والتسلط، حكم سلاطين المماليك وقوادهم.

فقايتباى – الذى كان من المفروض أن يكون حاكماً مستنيراً – وكانت له قلعته التى تواجه ميناء الإسكندرية فى المكان الأثرى لجزيرة فاروس، كان فى استطاعته بشخصه أن يجلد بالسياط رئيس مجلس الدولة وغيره من كبار الموظفين الآخرين ليحثهم للحصول على مزيد من الأموال للخزانة، وقد قيل أن أحد سلاطين المماليك قتل جواده بضربة واحدة من قبضته، لكن فى أغلب الأحيان كان السلطان يجد متعة فى قتل الناس، فقد كان يأمر بقتل العشرات من البشر بل أنه فى بعض الأحيان كان يمسك بيديه سيف الجلاد العملاق المقوس وحيد الحد ليقوم بنفسه بقطع رأس متمرد، أما لو كان فى قلبه قليل من الشفقة فقد كان يكتفى بقطع يده أو ساقه أو يأمر بتركيب حدوة فى بطن قدمه مثل الفرس تماماً. وفى حالات أخرى قد ينهال بالهدايا على حاكم صديق أو صديق مفضل استولى على خيوله. أن الحالة التى عاشها المماليك كانت مذهلة: فمئات من رجال البلاط كانوا يحيطون بالسلطان، ولكل واحد من هؤلاء كان له أتباعه. (أظهرت وثائق السلطان بيبرس أن عشرين ألف رطل من الطعام كانت تعد يومياً لاستهلاك القصر، وأن التكاليف اليومية لشراء اللحوم والخضروات فى عهد السلطان الناصر بلغت ما يوازى عشرة آلاف دولار) لقد كان ثراؤهم عارماً مثل ثراء البندقية التى ارتبطوا معها معاهدات تجارية، وكان مصدره تجارة الهند فى شرق البحر المتوسط، فلكونهم سادة على مصر والشام، كان المماليك يفرضون مكوساً وجمارك على كل بالة من المنتجات الشرقية التى كانت تصل من الخليج الفارسى والبحر الأحمر عند مرورها فى طريقها إلى البندقية. ففى خلال القرون الست التى كانت فيها أوربا تشهد زلزلاً عجل بنهاية العصور الوسطى مثل حركة عصر النهضة والأحياءRe - naissance ، وحركة الإصلاح الدينى، والحروب الأهلية، وصراع القوميات وموازين القوى، كانت هذه الأوليجارخية العسكرية تفعل ما يحلو لها فى ذلك الركن البعيد من البحر المتوسط. ولقد كتب ستانلى لين بول Stanley Lane - Poole يقول: « ينفرد المماليك بأنهم نموذج مناقض تماماً لأى سلسلة من الأمراء فى العالم، إنهم عصابة من المغامرين الذين لا يلتزمون بالقانون، إنهم رقيق فى الأصول، جزارون فى السلوك، متمردون، عطاشى لسفك الدماء، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى سلاح الخيانة، وبالرغم من ذلك كان هؤلاء السلاطين الرقيق

ذواقيـــن للفنون. وهذا مسلك قد يوصف بأنه حميد يصدر من أى حاكم شديد التحضـــر قد يتصادف جلوسه على العرش بطريقةٍ دستورية. فقد أظهروا فى منشـــآتهم وزخافها، وفى ثيابهم وأثاث بيوتهم ذوقاً رفيعاً وصفاء من الصعب أن يوجـــد له مثيل فى دول غرب أوربا، إنها إحدى الحقائق التى ينفرد بها تـــاريخ الشـــرق، فابـــن طولون التترى هو الذى وضع أول نموذج للمسجد الإسلامى الحقيقى فى القاهرة. إنهم سلسلة سلاطين المماليك كلهم أتراك أو شراكســـة، الذيـــن ملـــئوا القاهرة بأكثر الآثار رونقاً وجمالاً يفوق أى مدينة أخرى.

وبالـــرغم من كل هذا الترف، فنادراً ما كان لديهم الوقت للتفكير العاطفى فـــى الأسرة والبيت والوطن، فعلى طريقة الشرقيين، جعلوا المرأة فى وضع أدنى من الرجل فى سلم الطبيعة، فقد كانوا يميلون إلى معاملتهم كخليلات فى بـــيوتهم، مهمتهم مخصصة لوسائل المتعة ولا شىء غير ذلك. فقد كان جناح الحريم مليئاً بالمحظيات من المصريات، والنوبيـــات، والحبشيات، ولو عقدوا قرانـــهم بالزواج. فإن ذلك يكون على نساء من بنى جلدتهم أى جورجيات أو شركســـيات. ونـــادراً مـــا كانوا ينجبون منهم أبناء (فكثيراً ما كانت زوجات المماليـــيك يلجأن إلى إجهاض أنفسهم للحفاظ على مظهرهن وسيطرتهن على أزواجهـــن(٥)، وذلك لأنهن وجدن أنفسهن فى منافسة دائمة مع فتيات الرقيق الجمـــيلات) وأيضـــاً كانـــت الحياة غير مستقرة لهم فى مصر فى العصور الوسطى، فقد كانت جيوش المماليك فى تحرك دائم مما جعل الصورة العامة تبدو مكرسة للرجال ولطبقة اجتماعية معينة، وبالرغم من أنهم حكموا مصر لزمـــنٍ طويـــل إلا أن المماليك لم ينتموا إلى أمه بعينها. إذ ظلوا على الدوام جيشـــاً مـــتحفزاً للقتال، جنوده أجانب لا يربط بينهم وبين المصريين – أهل الـــبلاد الأصليين – الذين كانوا فى الواقع هم الرقيق – أى رابطة أو مصالح مشتركة. وكما عبر عن ذلك ستانلى لين بول يقول: «أنهم قطيع من الذئاب الأجنبية تتحكم فى ملايين الأغنام وهم فى أمان كامل».

لقد كان اكتشاف فاسكو دا جاما Vasco da Gama لطريق الأطلنطى عبر رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ضربة قاصمة لقوتهم التى تفككت بعد سبع

عشر عاماً عندما طارد السلطان العثمانى جيشاً مملوكياً وطرده من الشام، ثم ألحق بهم هزيمة ساحقة بالقرب من القاهرة، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا وحتى عام ١٩١٤ كانت مصر رسمياً جزءاً من إمبراطورية الأتراك.

وعلــى طول إمبراطوريتهم وعرضها والتى وصلت فى اتساعها إلى نفس القــدر الــذى وصــلت إليه الإمبراطورية الرومانية الشرقية يوماً ما، لم يزد اهتمام الأتراك بأى ولاية أكثر من اهتمام مستثمر فى مصنع اشترى أسهمه، ولم يكن لديه الوقت الكافى لزيارته، إذ كان الاهتمام الأوحد للباب العالى هو المقــدار الدائــم لأمــوال الضرائب. وبالرغم من أن إدارة مصر كانت من الناحية الأسمية فى يد الباشا التى ترسله القسطنطينية، وأن كل شىء كان يتم التصــرف فيه باسم السلطان إلا أن المماليك (الذين كانوا من الناحية النظرية يعــترفون اسميًا بعميق الإجلال والتبجيل لصاحب الجلالة السلطان) استمروا يحيون حياة البذخ على حساب باقى السكان، وظلوا على حالهم يتآمرون فيما بيــنهم فى صراع من أجل التفوق على بعضهم البعض من آن لآخر. وبدأت قــوة الباب العالى تنهار وتتضاءل، كلما أصبح مركز الباشا يزداد حرجاً، فقد ترك هذا الممثل للسلطة الهائلة بالرغم من أنها خاملة – معزولاً، فقد كتب عليه أن يترك ليغلى فى مرجل دسائس القلعة الذى أوشك على الانفجار.

وعــندما بدأ كل من كلايف Clive و وارن هيستنجز Warren Hastings فــى اســتعمار الهندوســتان عام ١٧٦٩، وكانت تركيا غارقة فى حربها مع روسيا، وجد البكوات فرصة سانحة، فقاموا بذبح الحامية التركية فى القاهرة، وأرســلوا الباشــا مشحوناً كطرد. ولوهلة قصيرة من التاريخ وبتحريض من جمهوريــة البندقية وروسيا، استعاد المماليك بعض مجدهم المنقضى فاجتاح كبــيرهم علــى بــك(*) الشام وبلاد العرب حتى وصل إلى مكة وهناك بويع خلــيفة للمســلمين، غير أن ذلك لم يدم طويلاً، وبعد أن دفعت رشوة مناسبة تنفســت بعدهــا القسطنطينية الصعداء عندما علمت أن خنجراً فى ظهره قد

(*) كان على بك الكبير يشغل منصب شيخ البلد (المترجم).

وضـــع نهاية لطموحاته المزعجة. لقد كان ذلك أشبه بالمأساة. فقد كان على بـــك الكبير يمثل الحاكم المستنير الذى فعل الكثير ليقضى على الفساد وليجعل حياة الفلاحين أكثر يسراً. وقد حل محله اثنان من شباب البكوات هما إبراهيم بك ومراد بك اللذان اقتسما الحكم بينهما تحت السلطة الاسمية للباشا التركى. غـــير أنهما كادا يدمران البلاد لأن جشعهما للمال لم يكن له حد، وفى خضم مطالـــبهم القاســـية توالـــى خذلان النيل وقت الفيضان، فاندلعت الأوبئة التى أهلكت القسم الأعظم من السكان.

وعـــندما وصل نابليون إلى مصر، لم يجد فيها سوى قشور حضارة، وبلداً مـــرهقاً يرســـف فى أغلال الأسر، ولكنه أيضاً وجد أن المصريين عبر هذه القـــرون من الكوارث قد تعلموا أن يكونوا أصحاب وجهة نظر تواكلية إزاء الحـــياة، وتعايشـــوا بطـــريقة ما مع سادتهم المبهرجين كغيرهم من الشعوب المقهـــورة، وأصـــبحوا منطويين على أنفسهم يرفضون التجديد بشكل يثير الغرابة، فهم يعيشون فى حالة من القناعة السلبية التى كانوا غير راغبين فى المجازفـــة بهـــا. لقد كان وصول الفرنسيين يبشر بجلب رعب جديد لحياتهم المستكينة أساساً. وبينما كان يتصور أنهم سوف يستقبلونه بالعرفان كمخلص لهم – قام نابليون بأول – وليس آخر – أخطائه الجسيمة فى مصر.

## الفصل الثانى

# معركة الأهرامات

فجأة سمع كل واحد فى القاهرة الأنباء: فى مقاهى خان الخليلى وفى الحى الأفـرنجى، ومـن وراء مشربيات الحريم، وفى مجلس أهل الرأى فى القلعة حيـث هـرول إلـيها السعاة من الإسكندرية وهم يلهثون، فقبل يومين سرت شـائعة بـأن ثـلاث عشـرة سـفينة حربية قد ألقت مراسيها قبالة شاطئ الإسـكندرية، تلاهـا بعـد ذلك، بوقت خمس عشرة أخرى. وأن زمرة من الضباط نزلوا إلى اليابسة فى قارب تجديف، وأنهم أخبروا الحاكم السيد محمد كـريم بأنهم إنجليز جاءوا يتتبعون أسطولاً فرنسياً كبيراً انطلق إلى جهة غير معلومة. وأن الإنجليز يعتقدون أن الفرنسيين ينوون القيام بهجوم مباغت على مصـر، لن تقدر الأهالى على صده، وعلى ذلك طلبوا أن يلقوا مراسيهم قبالة الإسـكندرية فى انتظار الأسطول الفرنسى، وأنهم يرغبون أثناء الانتظار فى شراء المؤن والماء العذب.

غـير أن حاكم المدينة منحهم مهلة قصيرة، إذ لم تفت عليه أن فكرة قيام الفرنسـيين بغـزو مصـر أمر يقلق الإنجليز، ورجح أن الإنجليز هم الذين يـريدون الاستيلاء على مصر، إذ قال لهم بلهجة حازمة: هذه بلاد السلطان وإذا رغبـتم فـى محاربة الفرنسيين فى إمكانكم أن تفعلوا ذلك خارج المياه المصرية فأمامكم البحر بكامله.

وخـلال الضـجة الـتى أحدثهـا ذلك الحادث، شعر الناس أن الحاكم قد تصرف بوقار. وبعد أيام قليلة، جاءت الأنباء بأن السفن الإنجليزية قد أقلعت بعـيداً... وما كادت سيرة هذا الحدث تخبو، حتى فوجئ الناس بقعقه الحوافر المهرولة وقد عادت عبر بوابة النصر. وفى هذه المرة صدم سكان العاصمة عـندما علمـوا وهم يقضون الوقت فى احتساء القهوة، وتدخين النرجيلة أن أسطولاً عرمرمًا غطى البحر بلا نهاية قد ألقى مراسيه قبالة الإسكندرية.

ففــى عصــر الــيوم الأول من شهر يوليو أذاع السعاة أن بعض الضباط الفرنســيين قــد رســوا إلى البر، وتحدثوا مع قنصلهم، وفى مساء اليوم ذاته تحــرك الأســطول بأكمله متجهاً إلى خليج العجمى الذى يقع على بعد أميال قلــيلة إلى الغرب، وفى فجر اليوم التالى، انتشر الفرنسيون خارج الإسكندرية "كالجراد".

ولــم يكــن قــد مر وقت، حتى استطاع المصريون مواساة أنفسهم عندما علموا بأن رسو السفن لم يتم كما خطط له بونابرت. فخليج العجمى الذى هو الآن شــاطئ راق لقضــاء الصيف يزخر بصخور معروفة يغطيها الماء، وأخــرى غير معروفة، وكما يحدث فى الصيف فإن هناك موج عال يتكسر علــى الصخر ويضرب الشاطئ بعنف، غير أن نابليون أدرك ضرورة إخلاء الموقــع قــبل أن يعــود نيلسون، وقبل أن يأخذ المصريون حذرهم، أعطى أوامــره بالرســو مهمــا كــان ثمن المغامرة. ولهذا فإن كثيراً من المراكب الصــغيرة غمــرتها المياه، وأجبرت سفن أخرى على التراجع وغرقت سفن أخــرى. وعلى طول الليل، لم يتمكن سوى أقل من لواء بقليل، من الوصول إلــى البر بسلام وقد أصاب دوار البحر الجميع تقريباً، وغرق ثلاثون فردًا، حــتى نابلــيون نفسه زحف وهو خائر القوى إلى الشاطئ بعد منتصف الليل بقليل وارتمى على الشاطئ يعتوره الإرهاق والانهيار.

وفــى أثناء ذلك الوقت كانت أسواق القاهرة الكبرى تموج بالشائعات التى تروى تفاصيل كيف دعا السيد كريم جميع المسلمين الصالحين لطرد وتدمير الغــزاة، وأنــه رفض كل عروض التفاوض، وهاجم بكل ما لديه من أسلحة (التى للأسف لم تكن ندا لأسلحة الفرنسيين) وما أن دعى كاشف البحيرة على عجــل، حتى جاء ومعه جنوده من البدو، غير أن كل ذلك لم يجد من الأمر شــيئاً، فقــد ولــى البدو هاربين، وبسرعة تسلق الفرنسيون حصون المدينة المتداعية، وأجبر السيد كريم – تعيس الخط على الاستسلام.

لــم يلاحظ أحد خلال الذعر الذى قوبلت به الأنباء أنه من بين الإصابات فــى الجانــب الفرنسى كان اثنان من كبار الجنرالات، وربما كانت حادثة أن

كليـــبر قد تلقى ضربة فوق أم رأسه، وأن مينو سقط فاقد الوعى بسبب حجر ســقط عليه بينما كان يتسلق الأسوار، مادة رائعة لأصحاب النكات، غير أن الوقــت لم يكن وقت نكات، ففى مواجهة هذا الرعب المفاجئ، جمع كثير من ســكان القاهرة أمتعتهم وفروا هاربين إلى الصحارى، بينما صاح المتطرفون مطالبين بذبح النصارى، واندفع جمهور غريب شق طريقه إلى قصر إبراهيم بــك المطــل على النيل، حيث كان كبار القادة العسكريين والمشايخ يعقدون اجــتماعاً لمناقشة ذلك الحدث الطارئ. واستمر النقاش طوال الليل، فقد كان إبراهيم بك يميل لصالح خطة التفاوض مع الفرنسيين، بينما كان مراد يرفض أن يسمع ذلك مسترجعاً بكبرياء ذكرى انتصارات المسلمين فى الماضى على الصــليبيين، وكــان مــتحرقاً للقتال، وأنهى الاجتماع وهو يصيح قائلا: دع الكفار يأتون فسوف أدوسهم تحت سنابك خيولى.

ولكونــه جــاهلاً بــأى شيء يحدث خارج مصر، فقد كان مراد بك شديد الازدراء لكــل الأجانــب حــتى أنه كان يعتقد أنه سوف يشق الفرنسيين كما يقطــع البطيخ، وكان مقتنعاً أن الفرنسيين لن يجرءوا على الإقدام للنزول إلى الــبر، وأنهــم ســوف يحاربون من قوارب على صفحة النيل. ولكى يحبط أعمــالهم، فقد أمر بمد سلسلة ضخمة من الحديد يبلغ طولها ثلاثمائة قدم (أى واحد وتسعون متراً) عبر شاطئ النيل يحرسها قوارب مزودة بالمدافع، معلناً أن ذلــك يفوق طاقة الفرنجة للدخول فى معركة، وبعد أداء فروض الصلاة، انطلق مراد بك على رأس قواته يتحدى الغزاة.

أما الذين بقوا فى الخلف فقد كانوا بعيدين كل البعد عن مشاركته هذه الثقة بالنفس، فقد كانت أعصاب الناس متوترة حتى أن السلطات أصدرت أمراً بأن تظــل المقاهى مفتوحة طوال الليل، وفيها كان السكان يهزون رءوسهم رفضاً حــول بيان الجنرال الذى كان قد هرب من الإسكندرية مع أمواج اللاجئين. وجــاء فــيه: يــا أيها المصريون قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصــد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولو للمفتريين أننى ما قدمــت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأننى أكثر من المماليك أعبد الله ســبحانه وتعــالى، واحــترم نبــيه، والقرآن العظيم، وقولوا لأمتكم أن

الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام. طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا.. فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثراً(*).

وبالنسبة لرجل الشارع، كان الموقف محيراً، فقد كان أول هجوم مضاد شنوه ضد الفرنسيين فى شبراخيت المطلة على النيل – قرب دمنهور – بلا شك لصالح المماليك فى البداية ولكن عندما واجهوا تشكيلات فى وضع قتال مدججة بالبنادق ذات الحراب من الصلب (السونكى) التى تطلق وابلاً من الرصاص فى كل اتجاه فقد فرسان المماليك رباطة جأشهم، فبدوا كما لو كانوا يواجهون جيشاً من جنود ذوى قوة خارقة جاءوا من الفضاء الخارجى. فقد كان المماليك لا يزالون يعيشون فى أجواء العصور الوسطى، فالحرب فى مفهومهم هى هجوم مباغت شرس، ومبارزات بين الأفراد، ومن ذا الذى يجاريهم فى استخدام الخيل والسيف!.

ولذا كان هذا الأسلوب الجديد الذى تميز برباطة الجأش، والانضباط المحكم، أمراً غريباً عليهم. ومما زاد من ارتباكهم أن قارب مراد بك الخاص المزود بالمدافع شبت فيه النيران، فانفجر مخزن البارود محدثاً انفجاراً رهيباً، وتطايرت أشلاء كل من كان فى القارب لتسقط فى النيل، وولى مراد هارباً عائداً إلى القاهرة وهو يترنح بعد أن فقد اتزانه، وأصبح لا حول له ولا قوة. وعندما عاد أحد بكواته الذين كانوا لا يزالون يتمسكون بتقاليد الفروسية متحدياً فوق صهوة جواده قائداً الفليق الفرنسى ليدخل معه فى مبارزة فردية، غير أن قوات الجمهورية التى كان العطش والإرهاق قد حلا بهما، لم تكن فى مزاج يقبل مثل هذا المزاح، فبوابل سريع من الرصاص تحول ذلك الفتى الدمشقى إلى كومة من المخلفات الملطخة بالدم.

(*) عبد الرحمن الجبرتى، الجزء الثالث، ص: ٦. الناشر مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة.



صورة لأحد فرســـان المماليـــك وقد تكوم على الأرض بفعل مدافع بونابرت وكأن الصورة رمز لانتهاء أسلوب حرب الفرســـــان فى العصـــور الوسطى وبداية الحرب الحديثة (الرســـم بريشـــة الرســـام الفرنســـى جيركو Gericauit من اللوحات التى عرضت بعد عودة نابليون إلى فرنســـا ليحـــول هزيمتـــه فى مصر إلى نصر)

وفـــى القاهرة تحول الذعر إلى رعب، فقد أجبر الناس على حمل السلاح، وعلـــى الفـــور شرعت مجموعة متحمسة فى حفر الخنادق، وإقامة المتاريس عـــند مداخـــل المدينة وراح الدراويش: يجوبون الحوارى الضيقة المتعرجة وهـــم يرفعون بيارقهم الملونة تصحبهم أنغام المزامير ودقات الطبول الغريبة الـــتى قد تنفر الأذن الأوروبية من سماعها إلا أنه كان لها سحر غريب على العـــربى مثل ما يحدثه نشيد المارسلييز Marseillaise(*) يملأ من يستمع إليها بالحماس الشديد للعمل والفداء. وعندما خرج السيد عمر – نقيب الأشراف – مـــن القلعة يحمل راية الإسلام، انضمت الآلاف من ذوى الملابس الرثة فى موكـــب لا نهايـــة لـــه، اخـــترق المدينة بينما كان الشيوخ يبثون الحمية فى نفوســـهم، يـــرددون بعض الأحاديث النبوية على أسماعهم يقرأونها من كتاب الـــبخارى المقدس. وفى الأسواق ارتفعت الأسعار إلى أرقام فلكية، ولم يكن لأحـــد ســـلاح ذو قيمة تذكر مثل تلك التى كانت تشترى بثمن باهظ، فقد كان علـــى غالبية الناس أن يسلحوا أنفسهم بقدر ما يستطيعون بالنبابيت والعصى والحجـــارة وأصـــبحت الطرق مجفرة من عدم الكنس والرش وسدتها أكوام القـــاذورات، وبدأ انتهاك الحرمات من كل الأنواع يحدث، وارتفعت صيحات مخيفة وسريعة تسمع: " الموت للنصارى " وانتهكت حرمات الكنائس ونهبت بـــيوت الأجانـــب، لولا تدخل إبراهيم بك بنفسه لدمر الحى الأفرنجى بأكمله، وبـــناء علـــى أوامـــره سيق المسيحيون فى حراسة مشددة إلى القلعة ليجدوا الأمـــان، بـــل نقل بعض منهم إلى قصره الخاص حيث راحت زوجته تسهر على راحتهم بلطف النبلاء حتى انجلى عنهم الخطر.

وســـاعة تلـــو ساعة كانت الشائعات المتضاربة تغمر الأسواق، وتزايدت الـــتوقعات عـــن قرب وصول: " الفرنسيس إلى مصر "، واختلف الناس فى الجهـــة الـــتى يـــنوون المجيء منها، فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربى، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتيـــن ولـــيس لأحـــد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة

(*) النشيد الوطنى للثورة الفرنسية، ولا يزال حتى الآن النشيد الوطنى الفرنسى(المترجم).

تناوشـــهم فى القتال قبل دخولهم وقربـــهم ووصولهم إلى فناء مصر، بل قام كـــل مـــن إبراهـــيم بك ومراد بك بجمع عسكره، ومكث مكانه لا ينتقل عنه، ينـــتظر ما يفعل بـــهم، وليس ثمة قلعة ولا حصن، ولا معقل، وهذا من سوء التدبـــير وإهمـــال أمر العدو»(*). فقد سجل عبد الرحمن الجبرتى الذى أرخ لهـــذه الأحداث ملاحظة حزينة استهل بها كتابه، فبالرغم من التجربة العملية التى مروا بها فى شبراخيت، فقد ظل كل من مراد بك وإبراهيم بك ينظرون إلـــى العـــدو نظـــرة احتقار، كما أن الوسائل التى أمروا بها لتحصين المدينة كانت غير كافية.

حـــتى الفرنسيين لم يكونوا خاليين من مشاكلهم الخاصة، فبعد سنوات تلت اســـترجع نابلـــيون وهو (سجين) فى سانت هيلانه ذاكرته التى كانت لا تزال حـــية عن مسيرته المحرقة عبر سهول البحيرة بقوله كان الاكتئاب والحزن يســـودان الجـــيش فقـــد أراد بهـــذه العـــبارة أن يصف معاناة رجاله خلال المصـــاعب المذهلة وهم يقتربون من القاهرة: ومثل العبرانيون وهم يتيهون فى البرية اشتكوا ثم سألوا موسى وهم غاضبون عن بصل مصر وترفها، فقد كـــان الجنود الفرنسيون يتحسرون دائماً على خيرات إيطاليا أنهم لن يكونوا بشرًا لو لم يفعلوا ذلك ففى صيف يوليو المحرق كانت هناك عواصف ترابية ودرجـــة الحـــرارة تقارب ١١٥ْ (درجة فهرنهيتية) وهم يسيرون مرهقين بلا نهايـــة علـــى طول قاع القنوات التى جفت منها المياه، وكادوا يسلقون أحياء وهـــم يرتدون بزاتهم العسكرية، ويحملون أسلحتهم الثقيلة، وقد جفت حلوقهم بفعـــل الحـــرارة والأتـــربة والذباب، ولم يكن لديهم نقطة ماء واحدة صالحة للشـــرب، ففـــى كـــل قرية يدخلوها كانوا يجدون الآبار وقد خربت، كما أن جرايـــتهم الـــتى كانـــت تتكون غالباً من البسكويت المملح جعلتهم أكثر ميلاً للعطـــش، أما الماء الذى بدا لأعينهم فقد كان السراب، ويلى ذلك خطورة أن البدو كانوا يغيرون عليهم من مسافات بعيدة طوال مسيرتهم إلى القاهرة، فقد كـــانوا يأســـرون أو يمثلون بأى جندى شارد أو تائه. وبالرغم من ذلك خلف

(*) عبد الرحمن الجبرتى – المصدر السابق – ص ٩.

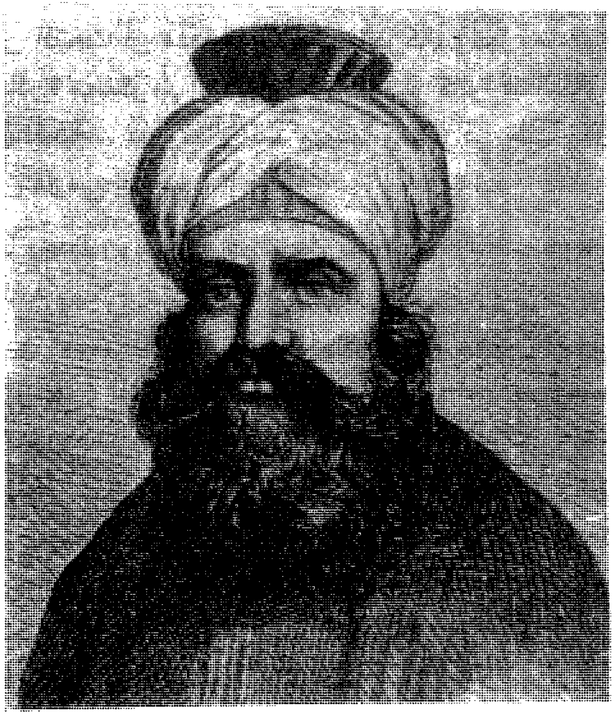
الفرنسيون وراءهم كثيرين سقطوا موتى بسبب شدة الحرارة. فقد ذكر الملازم نيكولاس دسفرنوا Nicolas Desvernois : لقد تركنا من خلفنا ذيلاً من الجثث ولولا محصول البطيخ فى الحقول لفقدنا عددًا أكبر من الرجال ».

وفجأة بعد مسيرة أسبوعين لاحت الأهرامات لا عينهم، ومعها وردت الأنباء أن المماليك تجمعوا فى حشود بجوار النيل، وكان أمراً بعيداً عن الحكمة أن يقسم البكوات قواتهم: فبينما ظل إبراهيم معسكراً على ضفة النيل الشرقية فى مواجهة القاهرة ليندفع من ذلك الاتجاه إذا ما جاء الفرنسيون، عبر مراد بك ومعه معظم قوات جيشه إلى الضفة الغربية. وكان واثقاً أن فرسانه سوف يفرمون الغزاة، ولو أنه أجبر الفرنسيين على أن يهاجموا عبر النهر لكان لذلك حكاية أخرى.

وكعادته لم يضيع نابليون الوقت، فانتهز الفرصة، ففى تقييمه الشخصى لمعركة الأهرامات كتب قائلاً: لما رأينا أن مدافعهم ليست منصوبة فوق عربات الميدان، وما أن اقتنعت أن مدفعيتهم ليست متحركة، وأنها ومشاتهم غير قادرين على مغادرة معسكرهم المخندق، كما أنهم لو كانوا قد اندفعوا فلن يجدوا الحماية من المدفعية... فقررنا أن نمد ميمنتنا ونسير فى ظلها بكل قوتنا وبذلك نمر بعيداً عن مرمى بنادقهم .

وعندما أدرك مراد ما يحدث، وهو أن الفرنسيين يحاولون الالتفاف حوله، ويحولون بين سلاح فرسانه وسلاح مشاته، أعطى أوامره بالهجوم وفى مشهد لا يمكن المقارنة بين أطرافه: كان آخر هجوم كبير لفرسان العصور الوسطى كما سماه المؤرخون. لقد كان منظراً يأخذ بالألباب، فمن جهة فيما وراء النيل بدت الحقول الخضراء المزروعة، ومن ورائها تلألأ طيف القاهرة الكبرى يعلوها القلعة، ومن جهة ثانية، وعلى بعد أميال قليلة لاح فى الأفق منظر الأهرامات بلونها الكلاسيكى المصبوغ بلون الشمس، وعند ما يعرف الآن بكورنيش النيل الواقع بين أمبابة وأهرامات الجيزة اندفع إلى الأمام فى جرأة مذهلة طابور يتكون من ستة آلاف فارس، ولكل فارس أتباعه الخصوصيون يلهثون من ورائه. وعندما كتب الملازم فرترى



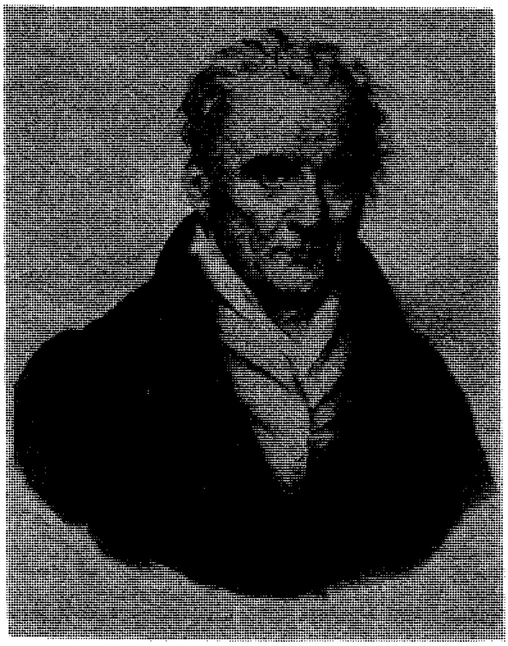


صور نادرة لمراد بك زعيم
المماليك الذى قاوم جيش
نابليون حتى النهاية

Vertrey الــذى كــان فى طليعة الفليق الفرنسى مصوراً لنا انطباعاً مشوشاً، لكــنه يــنطق بالحياة عن سحب التراب المتصاعد من قدح حوافر الخيل التى تــدوى كالــرعد وهى تعدو، وعن البيارق التى ترفرف فوق رءوس الخيل، وعلى ظهورها الفرسان بأرديتهم الفاخرة، وعمائمهم الخضراء الكبيرة، وقد أحــنو ظهورهم فوق السروج بينما أمسكوا فى أيديهم بسيوفهم المحدبة، ولم يكــن لــدى الفرنسيين الوقت الكافى لأخذ وضع الهجوم قبل أن تقبل جحافل الخــيل: «وفــى لحظــة اتخذنــا وضع القتال، عشرة رجال فى العمق لتلقى الضــربة الأولــى... وبــرباطة جــاش أطلــق جنودنا النار ولم تطش حتى رصاصة واحدة.

ففى تشكيل عسكرى منظم، أطلقت المشاة نيرانها، ثم أعادت حشو بنادقها ثــم أطلقــت النار مرة أخرى. وكانت النتيجة قاتلة. فأول موجة مهاجمة من المالــيك فنيت تقريباً عن آخرها، أما هؤلاء الذين داروا حول التشكيلات فقد وقعــوا فى مصيدة النيران التى انطلقت من كل موقع وجاءت من كل اتجاه، وكتــب فرترى Vertrey متذكراً: وكانت القذائف المشتعلة من بنادقنا تخترق فــى نفس الوقت مع الرصاص الذى نطلقه بزاتهم العسكرية الرسمية الثمينة المطــرزة بخــيوط الذهب والفضة، فكانت تتطاير بخفة مثل العهن المنفوش، ويضــيف ميــيه Millet – وهو جندى نفر– «وكانت جثث الرجال والخيول تشــكل منظراً يثير الرعب، لقد كانت مذبحة سالت فيها الدماء بغزارة ولأكثر مــن ســاعة استمر المماليك الذين كان الفرنسيون يفوقونهم عدداً على الأقل بنسبة ثلاثة إلى واحد، يبرزون بطولاتهم الفردية الشجاعة بأقدام المقبلين على المــوت وهــم يواجهون التشكيلات الفرنسية الأربع، ذات النظام والانضباط الصــارم. إلــى أن أدرك مراد بك أن اللعبة قد انتهت فولى هارباً فى اتجاه الأهرامات.

أما الرسام فيفان دينون Vivant Denon والذى سجل كل شىء بريشته فى اسكتشــات تــتوقد هياجاً متخذاً من نخلة ساتراً، فقد كتب يقول: إنها لم تكن معــركة، بــل كانت مذبحة وبعد لحظات كأن الفرنسيون يقفون فوق خنادق إمبابة، يمزقون كل شىء تقع عليهم عيونهم بوحشية. ثم بدأت عاصفة رملية



الرسام الشهير فيفان دينون Vivan Denon الذى صاحب
حملة نابليون إلى مصر وسجل بريشته أحداثها

جعلت النهر تتلاطم أمواجه بشدة من خلال " العُفار "والضجيج، وكان عبد الرحمن الجبرتى يشهد المنظر من مكان بعيد وقد اعتلاه الرعب أن يرى أمبابة وقد غطتها ألسنة النيران. شاهد الآلاف من الناس والفرسان والمشاة وأتباع المعسكرات يلقون بأنفسهم هرباً فى مياه النيل، مذعورين فى محاولة يائسة للنجاة وكثير من المماليك قفزوا بكل ثيابهم وسلاحهم إلى الماء حيث جرفهم التيار إلى الأعماق بسبب ثقل سلاحهم، ويقول الجبرتى: فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال، ضج العامة والغوغاء من الرعية، وأخلاط الناس بالصياح، ورفع الأصوات فكان القلاة (العقلاء) من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع»(*) وفى ذلك الوقت كان المتفرجون وأولهم إبراهيم بك يولون الأدبار هاربين إلى الصحراء حاملين معهم ممتلكاتهم التى قدروا على حملها، وقبل أن يرحلوا قام البكوات بإشعال النيران فى المئات من القوارب النيلية، وبينما كان بونابرت يتحرك نحو بيت مراد بك فى ريف الجزيرة، ومعه هيئة أركان حربه، كانت قباب ومآذن القاهرة تبدو كما لو كانت مضاءة بفعل الصوت والضوء Son et Lumiere المرعب والذى أضاء عن طيف الأهرامات البعيدة، بينما اندفعت الغوغاء تسرق وتحرق أى شىء تقع فى أيديها. وخطب بونابرت فى جنوده الذين كانوا يحيطون به عندما كانت المعركة على وشك الحدوث قائلاً: إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من قمة هذه الأهرامات . ومن خلال توهج النيران الخفاق، كشف المنظر عن واحد من أعتى عمليات السلب التى تصادف حدوثها (على مر التاريخ) فهناك أسلحة مرصعة بالجواهر، والسلاح الدمشقى، والسجاد نادر الثمن، والحرير والتحف المصنوعة من الفضة وكذلك الذهب، الذى اعتاد المماليك على حمله معهم مع متاعهم، إذا ما فرضت عليهم الظروف المفاجئة

(*) عبد الرحمن الجبرتى – المصدر السابق – ص: ١٠.

الهـروب، وكانت هذه الغنائم تصطاد بالمعنى الحرفى من قاع النيل، ويقول الجـبرتى: وكانـت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة، جرى فيها ما لم يتفق مـثله فى مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين، فمن راء كمن سمع(*).

وفـى ٢٣ يولـيو عام ١٧٩٨ تحركت الفرق العسكرية الفرنسية بحرص نحـو المديـنة، أما الجماهير التى كانت قبل ساعات فقط تنتحب، وتلطم على الوجـوه صـائحين: وأسـفاه لقـد أصبحنا عبيداً للفرنسيين فقد تحولوا إلى مراقبة ما يحدث من جنود الفرنجة (Poilus) فى خلال النهار، وهم يتسكعون فـى الأسواق بدون سلاح، وصاروا يضاحكون الناس الذين ابتلعوا دهشتهم. ولـم يضيعوا الوقت فى إبتياع كل ما يحتاجونه بأعلى ثمن(**) وسرعان ما أخذت الأسواق تتاجر بفرح، وأعيد فتح المقاهي، وفى الساعة الرابعة من بعد ظهـر ٢٦ يولـيو، دخل بطل فرنسا الثورة إلى القاهرة الكبرى وسط عزف الأبـواق وقـرع الطبول، ونزل فى أكثر قصور المماليك فخامة وترفاً وهو قصـر الألفـى بك فى الأزبكية والذى، أصبح مكانه الآن فندق شبرد(***)، وبالنسـبة لنابلـيون بونابـرت فإن أحلامه عن الإمبراطورية الشرقية بدأت تتشـكل، أما بالنسبة لمصر نفسها فقد دفعت فجأة إلى عالم القرن التاسع عشر الوليد، وبدأ فصل جديد فى تاريخها... فصل تسيد فيه الأوربيون. وقد وصل هـذا التسيد إلى قمته بعد ١٥٤ عاماً، إلى أن جاء نفس اليوم، بل جاءت نفس الساعة التى قادت مصرفيها ثورتها وظهر فيها بطلها.

وفـى عشرة مجلدات هامة تعتبر أثمن إنجازات الحملة كلها، جمع العلماء الفرنسيون صورة مفصلة كاملة وهائلة عن مصر فى هذه الفترة، كذلك سجل بونابرت انطباعاته، إنه لمن المثير أن نرى القاهرة كما كانت تبدو فى القرن

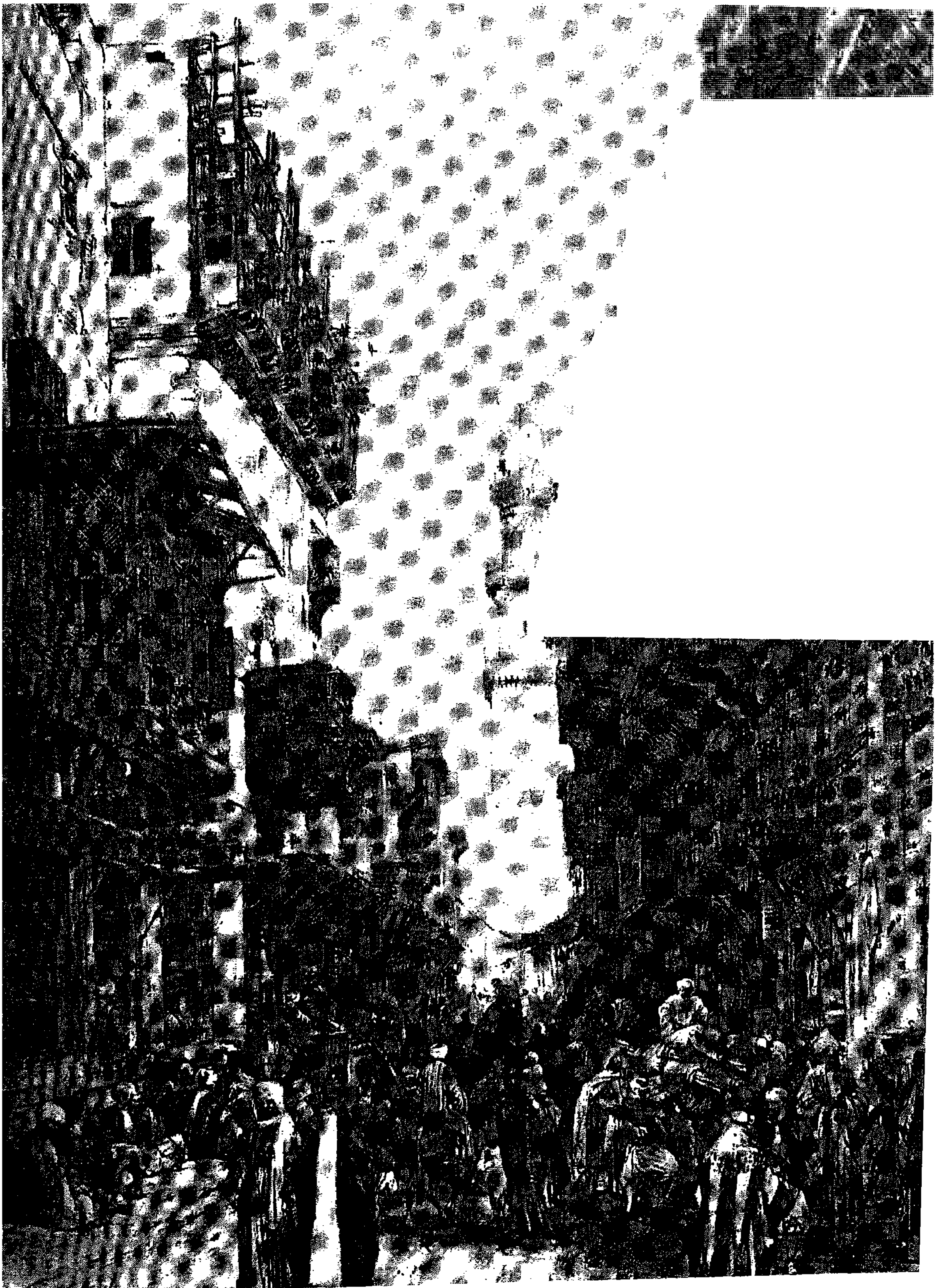
(*) نفس المرجع ص: ١٢. (المترجم).

(**) نفس المرجع السابق ص: ١٤.

(***) يقصد شبرد القديم الذى احترق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ (المراجع).

الثامن عشر من خلال عيون ذلك القاهر الحادة، والبالغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً، وقد استهلها كما يفعل الجندى الحقيقى بإلقاء نظرة على المشكلات الأساسية مثل مياه الشرب والتحصينات. فالقاهرة تقع على بعد نصف فرسخ من النيل، مصر القديمة وبولاق هما مينائيها. وهناك قناة تشق المدينة، غير أنها على الدوام جافة ولا تمتلىء إلا أثناء الفيضان، وفي اللحظة التى يفتح فيها السد وهى عملية لا تتم إلا إذا بلغ فيضان النيل منسوباً معيناً تكون مناسبة لاحتفال عام، عندئذ تقوم هذه القناة بتصريف مياهها على مصارف عديدة، ويصبح ميناء البكير (الأزبكية) وكذلك معظم ميادين وحدائق القاهرة مغمورة تحت الماء، ويتم التنقل بين هذه الأماكن عن طريق القوارب خلال موسم الفيضان، وتهيمن على القاهرة القلعة القائمة فوق تل والتى تشرف على المدينة كلها، ويفصلها عن تلال المقطم وادى ولهذا السبب يوجد فى مصر القديمة برج هائل وعال مثمن الشكل، يحتوى على خزان ترفع إليه مياه النيل عن طريق آلة هيدروليكية ومنها تصعد المياه إلى مجرى العيون. وكذلك كانت القلعة تستمد مياهها من بئر يوسف، لكن ماءها لم يكن فى عذوبة ماء النيل، أما القلعة فلم تكن مؤهلة للدفاع عن المدينة، بل كانت مهملة وأيلة للسقوط. والقاهرة محاطة بأسوار عالية بناها العرب يعلوها عدد من الأبراج الكثيرة، حتى أن هذه الأسوار كانت فى حالة سيئة وتتهاوى على مر العصور وذلك لأن المماليك لم يرمموا شيئاً منها، والمدينة كبيرة ونصف أسوارها تتاخم الصحراء لدرجة أننا نواجه الرمل عندما نخرج من بوابة السويس أو تلك التى تتجه إلى بلاد العرب .

وبعد أن دبر المتطلبات الأساسية للجنود، كان لدى بونابرت الوقت لإلقاء نظرة عامة على المدينة كما كان فى مقدرة أى سائح أن يفعل: إن سكان القاهرة كثيرون جداً فهم يقدرون بنحو ٢١٠,٠٠٠ نسمة، ومنازلها عالية الارتفاع وشوارعها ضيقة، لكى تحقق لهم الحماية من الشمس المحرقة، ولنفس السبب فإن البازارات أو الأسواق العامة مغطاة بالقماش أو الحصر، وللبكوات قصور فارهة على الطراز الشرقى تشبه قصور الهند أكثر مما تشبه قصورنا. وللشيوخ أيضاً منازل أنيقة، أما الوكالات فهى مبانى مربعة



أحد أسواق القاهرة المملوكية العثمانية كما وجدها نابليون

الشكل، شاسعة المساحة بها صحون داخلية كبيرة تشمل نقابات التجار، فهناك وكالـة لتجار الأرز السيورى Seur ووكالة لتجار السويس، وأخرى خاصة بالشـوام، كما كان لكل واحد منهم حانوت ضيق يطل على الشارع، مساحته عشرة أو اثنا عشرة قدماً مربعاً، يعرض فيه التاجر عينات من بضاعته، وفى القاهـرة عـدد كبير من أجمل مساجد العالم، مآذنها أنيقة وعديدة، والمساجد عادة تستخدم كمأوى للحجاج وينامون فيها، وبعضها كان يتسع لقدر كبير من الحجـاج قـد يـبلغ ثلاثـة آلاف من بينها الجامع الأزهر (أى جامع جامعة الأزهـر)، والذى يقال أنه أكبر مسجد فى الشرق، وهذه المساجد عادة عبارة عـن صـحون (ساحات) محاطة بعدد كبير من الأعمدة تحمل السقف، وفى داخلها يوجد عدد من الأحواض وخزانات المياه للشرب وللاغتسال. وفى أحد الأحـياء الهامـة وهو الحى الأفرنجى يعيش عدد قليل من الأسر الأوروبية وفـيها نشاهد عدداً من البيوت مثل تلك التى قد يملكها تاجر فى أوروبا دخله ما بين ٣٠,٠٠٠ ٤٠,٠٠٠ جنيه سنوياً، وهى مؤثثة على الطراز الأوربى، وبهـا كراسـى وأسـره، وهـناك كنائس للأقباط، وبعض الأديرة للسوريان الكاثوليك. وهناك عدد كبير من المقاهى يستطيع الناس فيها احتساء القهوة أو الشربات أو حتى الأفيون، ويتناقشون فى شتى الشئون العامة.

ثم عرج بعد ذلك إلى بحث موضوع الرق. ولاحظ أن كل من مراد وعلى كانـا قـد بيعا إلى بعض البكوات فى سن مبكرة بعد أن جلبهما نخاسون من بـلاد الشـركس، ونفـس الشىء حدث مع الباشوات والوزراء والسلاطين. وأضـاف سـاخراً دون أن يقصد ليس قبل أن يمر وقت طويل حتى يدرك المصريون أن كل الفرنسيين ليسوا عبيداً لى .

كمـا كـان هناك أشياء أخرى وجدوا من الصعب عليهم فهمها. وبالنسبة للمصـريين فـإن كثـير من مظاهر الاحتلال الفرنسى بدت غير بعيدة عن إدراكهـم، فوسـط طوفان من البيانات التى تلفت النظر باستخدامها اسم الله القـادر بشـكل صـريح، علم هؤلاء المواطنون الذين عاشوا كل حياتهم فى ظلال القلعة، متعودين بشكل جيد على القرارات ذات الطبيعة الاستبدادية – علمـوا مندهشين أن مزايا حقوق الإنسان – كما يفسرها ابن حقيقى للثورة –

سوف تنهال عليهم. أن هيئة بونابرت وقد ارتدى زى إمام الشيوخ، وهو يشارك فى المناسبات الدينية كان يلقى منهم السرور والابتهاج، غير أن مسلك جنوده بالرغم من أنه سلوك متوقع بالنسبة لجيش احتلال - كانت كافية لإثارة حساسيتهم الإسلامية. فقد شاهدوا الفرنسيين وهم يشربون الخمر، ويتبادلون الشتائم، ويمارسون الحب علناً، كما لفت نظرهم بمقت شديد تصرفهم غير الملتزم ليس مع النساء الأوربيات فحسب، بل مع الحريم الذين شجعوهن على الظهور سافرات، وكان يثير ثائرتهم أن يروا الأقباط والشوام واليهود وقد بدأوا يتصرفون فى خيلاء. كما أنهم استشاطوا غضباً عندما أمر قائد سارى العسكر بهدم بعض المساجد والمقابر فى مشروعه لتنظيف المدينة، وقد بدى لكثير منهم أن كل شئ كما لو كان قد تحطم إلا إيمان الإنسان بالإسلام وبالله الذى أنزل بهم هذا العقاب جزاءً للذنوب التى ارتكبوها فجعل الكفار ينتصرون عليهم.

وفى هذه الأيام الأولى القليلة التى كان فيها متهوراً،شعر نابليون - مهما كانت نيته حسنة، ومهما كان جاهلاً بأساليب الشرق - بثقة كاملة أن سياسته الخاصة بالتعايش السلمى قد بدأت تعطى ثمارها صحيح - كما جاء فى خطابه إلى مينو - أنه وجد من الضرورى قطع رقاب خمس أو ستة رجال كل يوم فى شوارع القاهرة، لكن على الجانب الآخر اختار ديوانين للشيوخ لكى يتولى الحكم تحت سلطته التشريعية. وكانا يثبتان تعاونهما معه بشكل يدعو للسرور، كما أن مغازلته للإسلام التى ذهبت إلى حد إقامته الصلاة الإسلامية، وأن يظهر بالرغم من غرابة منظره، مرتدياً الجلاليب المصرية الفضفاضة، كانت عملاً يدل على أنه داهية سياسى، وأيضاً صورة مغرية من صور الانغماس فى الذات، غير أنه لم يكن هناك أى مشروع يمكن أن يثير الحماس أكثر من مشروع الإحياء الحقيقى لمصر، وهو ما خطط له المعهد العلمى للقاهرة، الذى أسسه حديثاً.

ولو كان هناك طيف يقلقه، فهو مسلك جوزيفين، إذ أن حماقاتها لم تعد سراً على أحد حتى فى القاهرة. وأيضاً وبالطبع نيلسون، لكن لم تكن لديه أنباء كلية عن نشاطاته.

## الفصل الثالث

# نهاية حلم

بالمـــثل كان نيلسون فى جهل تام عما يحدث، فقد كان لا يزال يتجول بلا هـــدف فى البحر المتوسط دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الأحداث الجسام التى كانت تحدث فى مصر. وحتى أقرب ضباطه إليه كان يدرك بصعوبة كم جعلـــه البحـــث العقـــيم يشعر بمرارة اليأس، فقد اشتكى لمستشاره الطبى من متاعـــب فى قلبه، وقد شخص هذا السيد المبجل حالته بأنها عسر هضم ناتج مـــن القلـــق. وقد أصر الأميرال أن انعدام الأنباء عن العدو قد حطم قلبه، ثم أضـــاف بانفعـــال غريب على رجل البحرية: " ربما يموت أناس بسبب القلب المحطم أكثر ما تعتقد".

ثـــم جـــاءت الأنـــباء فجأة، ففى ٢٨ يوليو عام ١٧٩٨ علم من قائد جناح فرنسى ثم أسره أن هدف نابوليون هو مصر، تماماً مثلما كان هو نفسه يشك مـــنذ البداية. وفى مساء نفس اليوم جاء تأكيد ذلك من المصادر التركية، وهنا اختفـــت أعراض مرض القلب، حيث استغرقت رحلة عودته إلى الإسكندرية أقـــل من أربعة أيام. وسرعان ما لمح أسطول نيلسون جزيرة فاروس وعمود بومـــبى (عمود السوارى) وقد رفرفت عليه الراية ذات الألوان الثلاث (علم الـــثورة الفرنسية) بالرغم من خلو الميناء من أى سفينة فرنسية، وبعد مرور ســـاعة هـــرول صف ضابط بحرى يحمل الأنباء حتى أنه فى غمرة انفعاله نســـى أن يـــؤدى التحـــية لجـــناح الضباط قائلاً: " أشرعة العدو على مرمى البصر! ".

وقـــبل أن يخـــتفى داخـــل عمـــق مصر، كان نابليون قد أصدر أوامره إلى الادميرال دى بروى De Breuys، بأنه إن لم يستطيع البقاء فى الإسكندرية نفسها، فعلـــيه أن يبحر إلى جزيرة كورفو Corfu(*) التى كان الفرنسيون قد احتلوها، أو

(*) جزيرة تقع على الساحل الغربى لبلاد اليونان.

أن يجـد لنفسه مكاناً مناسباً ليلقى مراسيه على طول الساحل، ولما كانت المؤن غير كافية للقيام برحلة إلى كورفو، وأن معظم مخازن عتاد الحملة لا يـزال على ظهر السفن، فقد اختار دى بروى خليج أبى قير حيث احتمى فى هـذا المنحنى نصف الدائرى فى الغرب من وراء لسان منخفض من الأرض يتصـل بجزيـرة صغيرة محصنة بسلسلة من الصخور المحفوفة بالمخاطر. وبالرغم من أنه ألقى مراسيه على بعد ميلين تقريباً من الساحل لأن الماء كان ضـحلاً، إلا أن دى بـروى شعر بأنه على ثقة بأن اصطفاف سفنه فى خط واحـد، ووجود خمسمائه مدفع تغطى المنطقة القريبة من البحر، فأن خطورة أن يؤخـذ أسـطوله علـى غرة كان نادر الاحتمال. ولقد كان من باب الحظ الـتعس فـى يـوم الأول مـن أغسطس أن ينزل عدد كبير من البحارة إلى الشاطئ لكى يملأوا البراميل بالماء، ولكى يحفروا الآبار (بينما تقوم الوحدات الأخرى بحمايتهم من البدو)، كما كان نظيره الأدميرال المترصد به فى مزاج نفسى يصل به إلى حالة عدم المبالاة أو التهور.

حقـاً إن نيلسون الذى كان يكرر مقولته: « سوف أجر الأسطول الفرنسى إلـى المعركة فى اللحظة التى استطيع وضع يداى عليه » لم يكن فى مزاج أن يـدع العـدو أن يـأخذ وضع القتال تحت ستار الليل الدامس. ومهما كان الهجـوم الفورى خطراً، كان تأجيله أشد خطراً. وبلمسة العبقرية التى كانت تمـيزه كـأعظم بحار فى إنجلترا فقد لاحظ فى حينه أنه " ما دام هناك مكانٍ لسـفينة بحرية فرنسية من طراز ٧٤ لكى تدور على عقبيها فأن هناك مكاناً لسـفينة بريطانـية من طراز ٧٤ لكى تلقى مراسيها " وشرعٍ علىٍ الفور فىٍ مهاجمـة المقدمـة والوسط من كلا الجانبين. ولقد كان قراراً رائعاً وشجاعاً شـهده ذلك اليوم. وعندما كانت الشمس المحرقة تغيب فى وراء الأفق كانت عشر سفن من طراز ٧٤ تندفع بشدة نحو الريح متمشية مع سلسلة الصخور ملـتفة حول المخاطر فى اندفاع مثير، وما أن مرت دقائق حتى كانت تطلق نيران مدافعها على الأسطول الفرنسى من ناحية البر والبحر، وأكثر من ذلك كانت النيران بزاوية مائلة حتى أن سفن دى بروى لم تسطع توجيه بطاريات مدافعهـا الجانبية نحوها بشكل مباشر فى حين كان فى استطاعة سفن نيلسون إطـلاق النـيران على سفينتين فرنسيتين فى آن واحد، ومما زاد من كارثة

الفرنسيين أن كانت مدافع الميمنة مفككة، ومكومة بكل أجزائها لأنهم لم يكونوا يتوقعون قط أن يهاجموا من هذا الجانب، وكان ذلك فى حد ذاته سببا فى تمزقه شر ممزق.

وطوال الليل لم تتوقف توهجات المدافع الجانبية وهى تخترق الظلمة التى سادها الضباب، غير أن المراقبين على الشاطئ لم يكن فى مقدورهم أن يتبينوا شيئاً سوى وميض الفوانيس التى أمر نيلسون بتعليقها على أشرعة السفن البريطانية لتميزها عن سفن العدو، وبالرغم من ذلك فإن الطرفين فى بعض الأحيان كانا يطلقان النيران على سفن بعضهم البعض. إن استرجاع هؤلاء الذين شاركوا فى تلك الليلة الليلاء ذكرى ما حدث يصور دراماً مشتته فى فوضى أمكن بالكاد السيطرة عليها. وفى بداية القتال لقى دى بروى مصرعه، فقد قصمته دانة مدفع إلى نصفين وهو يقف فى منتصف منصه الربان لسفينة القيادة لوريانL Orient، وبعدها بقليل تلقى نيلسون جرحاً لكنه لم يكن مميتاً. وقبيل الساعة العاشرة شبت النيران فى سفينة القيادة " لوريان " وسرعان ما انتشرت ألسنة اللهب التى ساعد على انتشارها مواد الطلاء والجرادل المعبأة بالزيوت الموجودة على ظهر السفينة لتشتعل جوانبها التى كانت قد طليت حديثاً، وخلال نصف ساعة هجرت السفينة، وقد سجلت السيدة همنز Mrs. Hemens فوضى اللحظات الأخيرة بطريقة مشوشة إلى حد ما فى قصيدة لها عن الصبى الواقف على ظهر سفينة تحترق. ثم فجأة دوى انفجار يعمى البصر، أحدث دوامة قطرها عشرون ميلاً تمتد من الإسكندرية حتى رشيد، وتساقط وابل من حطامها شديد الاحمرار مختلطاً بالجثث، وخلال الصمت المذهل الذى تلا ذلك عاد الظلام ليغمر كل شيء لمدة عشر دقائق كاملة، قبل أن يستأنف إطلاق النيران.

وانجلى نور الفجر عن منظر مثير للأسطول الفرنسى وقد تحطم تماماً، فمن بين الثلاث عشر سفينة من سفن القتال ذات الأشرعة تم الاستيلاء على تسع منها بينما احترقت اثنتان تماماً، ومن بين الفرقاطات كانت الأربعة أحرقت واحدة والأخرى أغرقت، ولم تنجو من المعركة سوى واحدة من طراز ٧٤ى، وكذلك فرقاطتان لتشترك فى القتال فى يوم آخر.

لقـــد أخـــذت " لوريـــان " معها إلى قاع خليج أبى قير جثة الأميرال دى بـــروى، ومعهــــا كنوز القديس يوحنا المقدسى التى تم نهبها من أهل مالطة، وكذلـــك ما يزيد على مليون جنيه ذهبى، وكذلك الماس التى كان قد نهب من جمهوريـــة سويســـرا للإنفــاق على الحملة فى مصر، وبذلك أصبح نابليون معزولاً عن وطنه، بل أصبح مفلساً أيضاً.

ولقـــد استغرق وصول رسالة نيلسون إلى لندن التى تعلن انتصاره فى أبى قـــير مـــدة شـــهرين ويوم واحد، ولقد كان انفعال كبير اللوردات وهو يقرأها مثيراً لدرجة أنه أغمى عليه وسقط على أرضية مكتبه.

وفـــى الثامـــن مـــن أغسطس، سمع نابليون بالأنباء عندما كان فى طريق عودتــــه إلى القاهرة بعد أن قام ببعض عمليات المطاردة والتطهير فى شرق الدلـــتا، ويســـترجع المهندس المعمارى " نورى Norry " والذى تصادف أنه كـــان بصحبته وهو يركب جواده كيف أن نابليون ترجل ببطئ من فوق ظهر جـــواده، وســـار عدة خطوات بعيداً، وسمعه وهو يحدث نفسه: " هل هذه هى الـــنهاية؟ " ثـــم استدار عائداً وهو يقول بلهجة واقعية: " حسناً إن هذه الحادثة ســـوف تحفـــزنا للقيام بأعمال كبرى فى مصر، لقد كانت مصر دائماً مركز الحضارة. وعلينا إحياء الإمبراطورية المصرية".

ولتحقـــيق ذلـــك كان أول متطلباته قاهرة نظيفة وقانعة، وكما يقول: المثل العـــربى " قـــبل اليد التى لا تستطيع قطعها "، كان المصريون يفعلون الشيء نفســـه منذ قرون طويلة، إلأنهم كانوا فى تزايد أقل ميلاً لقبول الشروط التى وضـــعها الفرنسيون، وأساساً كانت المشكلة القديمة قدم الزمن وهـــى عـــدم التقـــاء الشـــرق والغـــرب. فخلال وسائله المندفعة لتنظيف (العاصمة) رغم أنها ذات نية حسنة ومفيدة، إلا أنها لم تؤد إلا لتفاقم الموقف، حتى عندما شدد بونابـــرت قبضته على مدينة القاهرة ليطور نظرياته عن الطريقة التى يجب أن تظهـــر بها الحكومة المنظمة الشعبية، كما أصبح من الواضح أن نظرياته عـــن حقـــوق الإنسان وغيرها من شعارات الثورة الفرنسية لم يكن لها سوى تأثير قليل على المصريين ذوى الاتجاه التواكلى. فمن ناحية لم يكونوا قادرين




صـــورة كاريكارتورية فى المتحف البريطانى رســـمتها الصحف البريطانيـــة لنابليون وهو يخطب فى جنوده فى القاهـــرة بعد أن سمع بتدمير الأدميرال نيلسون لاسطوله فى أبى قير علم ١٧٩٨ ، وهو يرفع ســـيفه ويقســـم بأنه سوف يفنى الإنجلـــيز من على ظهر الأرض

علـــى فهـــم ما تهدف إليه، ومن ناحية أخرى فقد كانوا غير ميالين لقبول أى تغيـــير، ومهمـــا كان الجو العام قد يبدو كريهاً فى حوارى القاهرة لدرجة أن الإنسان قد يسترجع ما فى معدته، وكذلك أزقتها التى تفوح بخليط من روائح الـــتوابل والتـــبول وهراء البشر، لكنه كان ذلك الجو العام الذى عرفوه دائماً وتعودوا عليه، ومهما عاملهم المماليك بقسوة، لكن ذلك كان ما فهموه.

وفـــى الأســـاس فإن إيمانهم عميق الجذور بالإسلام، وبالتالى كان ولاؤهم للسلطان، والذى كان بالنسبة لهم أعظم وأقوى حاكم فى العالم.لم يعزو رجال مصـــر ونســـاؤها متاعـــبهم إلى أى عامل آخر أبعد من " بلطجة " حكامهم المحليين، إذ لم يكن هناك فلاح واحد فى أرضه لا يعتقد أنه لو قدر له مقابلة الســـلطان شخصياً، فإن ما حاق به من ظلم سوف يتبدد فى الحال، وبمعجزة تعود إليه حقوقه. والأكثر من هذا أساء الفرنسيون فهم نظرة المصريين عامة إلى الحكومة.

وبالرغم من أن الإدارة المحلية لمصر كانت سيئة، والفوائد التى تجبى من ورائهـــا هزيلة للغاية، إلا أن المصريين كانوا يشعرون دائماً بأنهم معتمدون على الحكومة، وهو شر ضرورى لابد منه، لكنه يحقق لهم نوعاً من الرعاية الأبويـــة، والتى كان من حقها طبقاً للتقاليد العتيقة أن تفرض عليهم الضرائب لآخـــر ملـــيم إن استطاعت، لجأوا إلى الذكاء، فإن هذه النسبة قد تصبح أقل. وبالـــرغم مـــن كل شىء فقد كان يمكن دائماً تدبير ذلك عن طريق الرشوة. وخـــلال حكم المماليك، كثيراً ما كانت الضرائب تفرض عليهم بقسوة، وكانوا يعـــانون من تصرفات قاسية وجشعة، لكنهم كانوا يشعرون بأنهم غير مقيدين بـــأى نظـــام، ففى استطاعتهم إذا أراداوا العمل، أو إذا أرادوا الجلوس تحت أشعة الشمس دون أن يفعلوا شيئاً. ففى حياتهم اليومية لا أحد يضايقهم.

أمـــا الآن، وفجـــأة، بـــدأ بونابـــرت يتعدى على هذه الحرية، وإن المدينة الحديثة لا تبدو أكثر من وابل من اللوائح المزعجة، فقد اكتشف رجل الشارع أن علـــيه أن يدفـــع رســـوماً فـــى بعـــض الحالات مثل المواليد، والزواج، والوفيات، وإنه إذا أراد أن يسافر مهما كان مكان السفر عليه أن يحصل على

إذن مسبق، وأنه مسئول عن تصرفات أى شخص يدعوه إلى بيته، وأنه قد يستدعى للسؤال إذ تقاعس عن تسليم بغلته إلى الفرنسيين، وأنه مسئول عن رش الطريق أمام بيته بالماء أثناء النهار، وأن يحرص على أن يكون مضاءً بالليل، أما الإهانة المتمثلة فى جعله ملزماً بوضع شريط مثلث الألوان فوق عمامته كرمز للخضوع، فقد كان أمراً يمكن تحمله (لأن ذلك لن يكلفه شيئاً على أى حال)، لكن شد الحزام على بطنه من أجل الاستنزاف المنظم الذى هدفت إليه الإدارة الفرنسية من أجل تعويض خسائر الكنوز التى غرقت مع سفينة القيادة كان صعباً على معدته. فكبار ملاك الأراضى كان عليهم أن يقدموا صكوك الملكية ، أما إذا فشلوا - كما - كان يحدث كثيراً - فى الحصول على اعتماد الصك، فإن الأرض تباع، ويؤول ثمنها لصالح الجمهورية الفرنسية.

ومما زاد الطين بلة أن هذه اللوائح فرضت بنفس القسوة والصرامة التى فرضها المماليك، بل زاد على نهم المماليك ما فعله الأقباط واليهود الذين كان فى استطاعتهم اقتحام بيوت المسلمين تحت سبب أو آخر، بل وانتهاك حرمة الحريم، عندئذ أدرك المصريون أن حكم الفرنسيين أسوأ من حكم البكوات، فقد أحلوا البيروقراطية محل الحرية، وإذا كان المماليك يتصرفون أحياناً كالمجانين فإنهم كانوا على الأقل يتوقعون جنونهم.

وفى يوم العاشر من شهر أكتوبر(*) قضى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صباحاً طيباً فى مكتبة معهد القاهرة حديث التأسيس، ولم تكن هذه هى زيارته الأولى وكان دائماً مبهوراً بالطريقة الودية التى كان الأساتذة الفرنسيون يستقبلونه بها، وهو ترحيب لاحظ بقناعة أنه امتد إلى كل المصريين الذين كانوا يبدون اهتماماً بالآداب، وبهذه المناسبة أبدى إعجابه ببعض كتب التاريخ القديم التى تصور سيرة الحواريين والمعجزات التى قاموا بها، وأبدى دهشة خاصة لمجلد كبير يتناول سيرة الرسول الذى صور وهو يمسك

(*) الجبرتى ص: ٤٦، ٤٧.

بالسـيف فى يده اليمنى، وفى يده اليسرى كتاب، ويحيط به صحابته، وعندما صـعد إلـى الطابق الأول شاهد قطعة من آلة أثارت فضوله وهو تيلسكوب يمكن فكه إلى قطع صغيرة توضع فى صندوق صغير، كما قام عالم الكيمياء بتسـليته بعـرض تجـربة غريبة، فقد قام بصب سائل فى أنبوبة اختبار ثم أضاف إليه سائل آخر، فتكون دخان ملون، وعندما اختفى هذا الدخان تحولت السوائل إلى مادة صلبة صفراء اللون بدت كالحجر عند ملمسها، ثم كرر الكيمائى الـتجربة مستخدماً عدة سوائل مختلفة، ونتج عنها حجر أزرق وآخر أحمر، ثم قـال بعـد ذلـك بتـناول مسحوق أبيض، دق عليه بمطرقة فأحدث انفجاراً كانفجـار البندقـية المـنطلقة، جعـل كل واحد يقفز مثل الأرنب بينما قهقه الكيمائى ضاحكاً(*).

وعـندما غـادر المبـنى، شـاهد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن الأزقة والحـوارى علـيها بـيانات معلقة، لقد كان فى نية الفرنسيين أن يفعلوا شيئاً جديـداً هكـذا اعتقد وهو يقرأها، فهم لم يكتفوا بالاستيلاء على البيوت التى كانـت صـكوك ملكيتها غير مكتملة، بل إنهم كانوا على وشك تقديم اقتراح بفـرض ضريبة على جميع العقارات الباقية والخاصة بالأهالى، وبينما وهو يسـير فـى الشـوارع المكتظة بالناس لاحظ وجود توتر ينبأ بشر فى المناخ العـام، فقد كانت الجماهير قد بدأت فى التجمع كما لو أن الاضطرابات بدأت تخـتمر، وعـندما أرخى الليل سدوله، استخرجت الأسلحة التى كانت مخبأة، وفجـأة اندفع حشد كبير على رأسها السيد البدرى وهم يتصايحون على طول الشوارع. لقد اندلعت الثورة!

وبطـريقة مـا كـان الوضـع كما لو أن أحداً تأمل كرة الكريستال (التى يسـتخدمها مـن يقـرأون المسـتقبل) التى تعكس بصورة مصغرة جداً كل الـثورات المضـادة للاستعمار التى سوف تنفجر خلال القرن والنصف قرن الـتالى، ليس فى مصر وحدها بل فى بلاد كثيرة حيث كانت أوربا تلقى بيدها

(*) الجبرتى ص: ٤٦، ٣٥.

بـــثقل كبير، الجمهور المتصايح والمسلح بالحجارة والحراب والسكاكين ذات الحـــد القاطع مثل موس الحلاقة، تتدفع عبر الشوارع، قائد المنطقة الفرنسى وحراســـة يقومـــون بأعمال وحشية، تلاها عمليات السلب والنهب بلا تمييز، وإقامـــة المـــتاريس بطريقة جنونية عندما صدرت الأوامر باستدعاء القوات، واســـتمر القتال طوال اليوم حتى فقد بونابرت صبره فأصدر أوامره بقصف المديـــنة من بطاريات المدافع المنصوبة أعلى القلعة، وأخيراً صوبت النيران نحو الجامع الأزهر الكبير ذاته(*)، وكان الجبرتى يشاهد ما يحدث وهو غير مصدق وهو يحتمى خلف أحـــد المتاريس، بينما راحت المدينة تتهاوى بفعل وابـــل من قذائف المدافع وسجل وهو حزين قوله: « فلما سقط عليهم ورأوه، لـــم يكونوا فى عمرهم عاينوه، نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف(**) أما الشيوخ الأكثر واقعية فقد ركبوا إلى بونابرت يطلبون شروطه فرد عليهم باختصار قائلاً: « أنتم قد بدأتم الثورة وأنا سوف أنهيها» ولم يأمر بوقف إطلاق النيران إلا بعد أن رجاه الشيوخ طالبين الرحمة ».

وبعد ذلك أخذت القوات الفرنسية مواقعها فوق كل أجزاء المدينة وسمعت قعقعـــة الخـــيول فـــى ساحة الأزهر الشريف حيث اندفعت فى وضع القتال، وقـــيدت الخيول ناحية القبلة، وألقى بالأثاث هنا وهناك، وداسوا بأقدامهم على القـــرآن الكـــريم فى الأرض، ولقد شاهد الجبرتى وهو مذعور الجنود وهى تبصـــق على السجاد ويتبولون على الحوائط، وملئوا المسجد بقوارير الخمور المحطمـــة. وكان هذا كثيراً بالنسبة للثورة. لقد فرضت غرامات باهظة على الجمـــيع، ونزعت ثياب عشرة شيوخ، اعتقدوا أنهم تورطوا فى الثورة، حتى أصـــبحوا عـــرايا ثم أطلقوا عليهم النار فى القلعة، وحذر بونابرت الآخرين بقولـــه: « لقـــد ماتـــت الفتنة لعن الله من أيقظها. فخذوا حذركم ألا تورطوا أنفسكم فى كوارث جديدة ».

(•) الجبرتى ص: ٤٨.

(••) الجبرتى ص: ٢٥.

ومــنذ تلك اللحظة لم يعد يغازل الإسلام، ولم يعد مواطنو القاهرة يشيرون إليه بإعجاب باسم السلطان الكبير بونابرت، ما أن استقر التراب فى الأسواق حــتى كان المارة يتوقفون عند نواصى الطرق ليستمعوا إلى آخر الأنباء عن الباب العالى، ووزعت نسخة من الفرمان السلطانى الذى وصف الفرنسيين « بــأنهم كفــار وكذابــون ووحوش بكل ما تعنيه الكلمة ». وسرعان ما أصبح معروفاً أن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا.

وقــف برتيــيه Berthier يتصــبب عــرقاً، وقد حل رباط بزته العسكرية الرســمية الذهبى التى كانت تصل حتى أذنيه، إذ أن شعارات الثورة: الحرية والمســاواة والمؤاخــاة Liberte, egalite et Fraternite لم تقلل بأى حال من الأحوال تذوقه للثياب المبهرجة Constumes de Fantaisie لقد كان «برتييه» ضــئيل الحجم شديد الإخلاص، مشهود له بالكفاءة، وقف يستمع غير مصدق إلــى خطــط رئيسه بخصوص الحملة على الشام، إذ لم يكن بونابرت الرجل الــذى يــدع للأتــراك أن يباغتوه بالسير ضده، وبالرغم من أنه لم يكن من المناســب أن يــترك القاهــرة فــى مثل هذه الظروف التى كانت الحالة فيها تســتدعى وضع اليد على الزناد، ناهيك عن انتشار القلق فى الأقاليم، بل أنه يكــاد أن يتجاهل جيش الأعادى الذى كان يتجمع فى رودس ولا حتى احتلال حــاكم عكا التركى للعريش (قرية ساحلية داخل الأراضى المصرية) ثم أخبر برتيــيه إذا كــان الأتراك يتوقون للدخول فى معركة فلنعطيهم معركة!! فقد يســتولى علــى عكا، ويثير مسيحيى الشام وأرمينيا ضد الباب العالى ويقلب الإمبراطورية التركية رأساً على عقب، وسرعان ما ترجمت هــذه التعليمات إلـــى أوامــر عسكرية، وفى ١١ فبراير عام ١٧٩٩ تحركــت قــوة يبلغ تعدادهــا ١٣,٠٠٠ رجــل مخترقة رمال سينــاء على أنغام نشيد ألف ولحن على عجل تقول كلماته: « إننا نرحل تجاه الشام» Partant pour la Syrie.

وقــف رجــلان فى طريق بونابرت هما: أحمد الجزار حاكم عكا من قبل الأتــراك، والســير " سدنى سميث " قائد الفليق البحرى البريطانى فى شرق الــبحر المتوســط. لقــد قيل عن الجزار (وهو جزار فعلاً لأنه بدأ حياته فى

سلخانة القاهرة)، أنه طبق مهنته عندما مارس السياسة، فأصبح أشد الشخصيات قسوة وإثارة للرعب فى منطقة جنوب القسطنطينية، أما عن سدنى سميث الذى كان قد انضم إلى سلاح البحرية، وهو فى سن الثانية عشر، ورقى إلى رتبة كابتن (ملازم) وهو فى سن التاسعة عشرة، ورسم فارساً Knight (لتطوعه فى الحرب ضد السويديين) وهو فى سن السادسة والعشرين، فقد سجل ملفه الشخصى فى قيادة البحرية بموافقة شبه مقنعة: « أنه متهور فى اندفاعه نحو الخطر، غير أن له قدرات ذهنية كبيرة، فى الخروج منه بثقة ». وكان قد هرب لتوه من سجن لوتمبل Le Temple ذى السمعة السيئة فى باريس، حيث زج به بعد تصرفاته فى طولون. فقد كان له حساب خاص يريد تصفيته مع الفرنسيين، «هذا المزيج غير المتشابه، وهذه الحفرة التعسة هى التى جعلتنى أخفق فى قدرى » هكذا دمدم بونابرت فى سجنه فى سانت هيلينا.

كانت عكا تقوم على لسان من الأرض ناتئ داخل البحر، ويحميها من ناحية البر متاريس ضخمة، ولقد لعبت عكا دوراً بارزاً فى أقدار شخصيات كبيرة مثل نيشو المصرى Nesho، وسولون Solon الإغريقى، وريتشارد قلب الأسد (الإنجليزى). وعند سماعه بأن بونابرت يسير نحو الشمال، خمن السير سدنى على الفور أن هذا هو هدفه، وقبل وصول الفرنسيين، كان قد استولى على سبع قوارب مزودة بالمدافع تنقل الذخيرة والمؤن، وقبل كل شىء وأكثرها أهمية استيلاؤه على مدفعية الحصار، حتى أن نابليون عندما وصل إلى عكا وجد أن المدافع مصوبة نحوه من الخنادق التى كان ينتوى الوصول إليها. ولذا تم بسهولة صد أول هجوم مباغت، أما الثانى فقد كان مكلفاً فى الخسائر، وأقل نجاحاً من الأول. وهنا لجأ بونابرت إلى آلات الحصار البطىء المرهق، وبالرغم من قيام الفرنسيين بحفر الخنادق العميقة، وزرع الألغام، فقد قامت القوة البريطانية بغارات لم تتوقف، ويصف شاهد عيان من داخل الأسوار: « الحماس المستعر من جانب النساء المسلمات اللآتى كن يدرن فى حلقة وهن فى حالة من الجنون ويلقين بالتراب فى الهواء لحث رجالهم ببذل مجهود أكبر وإظهار شجاعة أبرع خلال قيامهم



لوحة رســـمها الفنان الشهيد توماس ساتون Thomas Sutton تصور كيف دحر القائد الإنجليزى سدنى سميث Sidney Smith هجـــوم نابلـــيون الخاطف على عكا عام ١٧٩٩ فى محاولته الفاشلة للاستيلاء على فلسطين

بغـــارات ليلـــية التى استمتع بها السير سدنى سميث استمتاعاً كبيراً فى تولى قـــيادتها بينما جلس أحمد الجزار عند بوابة قصره يمنح ديناراً فضياً لكل من يأتى له برأس رجل فرنسى ويلقيها تحت قدميه ».

أما بالنسبة لنابليون الذى كان يعتمد دائماً على التحرك لتحقيق نجاحه، فإن هـــذه الورطـــة كانت لا تطاق، فكأنه يضرب بقدميه بشدة فى صخرة محاولاً رفســـها بعـــيداً مسبباً جروحاً فى مقدمة ساقه. وليلة بعد ليلة راح يذرع التل الصـــغير المواجـــه لعكا: والذى لا يزال حتى الآن يعرف بقلب الأسد: نزولاً وصـــعوداً وقـــد اعتلاه النكد، وقال وهو يشير إليها بغضب: «إن قدر الشرق يـــتوقف علـــى هذه المدينة الصغيرة... لاحظوا إنها المفتاح إلى القسطنطينية وإلى الهند».

لقـــد كانت مفتاحاً شاء له القدر ألا يستولى عليه أبداً مهما حاول أن يلطف مـــن حالـــة الإحـــباط الـــتى انتابـــته بـــأحلام كـــبرى « إننى سوف اجتاح الإمبراطورية التركية، وأقيم فى الشرق إمبراطورية كبرى سوف تخلد اسمى للأجيال القادمة ربما سوف أعود إلى باريس عن طريق أدريانوبل أو عن طـــريق فييـــنا بعد أن أبيد الأسرة المالكة فى النمسا ». أنه لمن الواضح أن مغامراته فى الشرق قد تحولت إلى كارثة ذات مذاق كريه بالنسبة له، وأكثر مـــن ذلـــك أنـــه بعد مضى شهرين من حفر الخنادق، وزرع الألغام، والقيام بغـــارات مباغته وقصف المدفعية المتبادل، واجه الفرنسيون خطراً مهلكاً من جانـــب عـــدو يحاربهم بقدر ما يستطيع. فطبقاً للإحصائيات لقى ما يزيد عن ألـــف رجـــل حتفه بسبب وباء الطاعون (مقابل ١٢٠٠ لقوا حفنهم على أيدى العدو) أما عدد المرضى والمصابين فقد بلغ ٢٣٠٠ رجل.

وجـــاءت اللحظة الحاسمة فى اليوم الواحد والخمسين من الحصار عندما ظهر فى الأفق أسطول كبير من العتاد التركى، وفى هذه الليلة قام نابليون فى بدمـــج رماة القنابل من كل الكتائب فى حائط بشرى سميك من جنود العاصفة Sturm Truppen، وقـــام بشن آخر هجوم عاصف، إلا أن هذه المحرقة التى اســـتغرقت عشر ساعات لم تجد من الأمر شيئاً بالرغم من أنه تمكن من رفع



لوحة تسجيلية رسمها الرسام بولوز Bulloz تصور جانبا من معركة أبو قير (١٧٩٩) التى نجح فيها نابليون فى ارغام الجيش التركى على الانسحاب إلى البحر المتوسط



رســم للفنان آلكين Alken أحد الرســامين المعاصرين للأحــداث يبين الطريقــة التى كان يقاتل بها فرســـان المـمــاليك وقد هزمـهــم نابليون فى معركــة الأهرامات (١٧٩٨)، ثم تخلص منهم محمد على فى مذبحة القلعة عام ١٨١١

علـــم الـــثورة الفرنسية مثلث الألوان لوقت قصير فوق أحد الأبراج، وما أن بدأت الإمدادات التركية فى النـــزول إلى البر، حتى بدأ يتضح أن هجومه باء بالفشـــل بشكل كامل حتى إنه لم يكن لديه خيار سوى أن يجمع شتات ما تبقى له من قواته الضاربة ويعود أدراجه عبر السهل إلى مصر.

بعـــد ذلك بدأ العدوان اللدودان فى استخدام أقلامهما كل على نحو يميزه، فقـــد كتب البحار (ويقصد سدنى سميث) وهو يلوى سكينة برشاقة فى الجرح يقـــول: « أيهـــا الجـــنرال إن الظروف تذكرنى لو أنك تأملت فى تقلب أمور البشر. هل حقاً مر على خاطرك أن سجيناً مسكيناً فى زنزانة فى سجل التمبل قـــدر له أن يرغمك على أن ترفع حصارك الذى ضربته حول نجع بائس يكاد أن يكـــون بلا حماية أو خط دفاع. وأنت وسط رمال الشام، يجب أن تقر وتعترف أن هذه الأحداث تفوق حسابات البشر صدقنى أيها الجنرال إن آسيا ليست مسرحاً لمجدك.. هذه رسالة تشفى القليل الذى أرضى به نفسى ».

أمـــا نابلـــيون الـــذى قيل أنه لم يغفر له ذلك فقد ذكر أنه كان مدركاً إدراكـــاً شـــديداً مدى تقلب أمور البشر وكذلك مدى أساليب التلاعب بالناس، فالبـــيان الـــذى أرسله إلى القاهرة كان محرفاً مثله كمثل أى بيان يصدر فى القـــرن العشرين، فقد أعلن للمصريين: « أننى خلال أيام سوف نبدأ المسيرة إلـــى القاهـــرة، وســـوف أجلب معى عدداً كبيراً من السجناء والبيارق التى اســـتولت علـــيها. لقـــد أطحت بقصر الجزار وأسوار عكا، وقصفت المدينة بالقـــنابل، حتى أن حجرا واحداً لم يبق فى مكانه.. وولى السكان الهرب عن طريق البحر... أما الجزار فقد تلقى جرحاً قاتلاً ».

لقد كان الانسحاب الفرنسى إلى مصر كارثة محققة، فقد تركوا من ورائهم ذيـــلاً متعرجاً من المرضى والعاجزين خلال سيرهم فى الصحراء، غير إن دخولهـــم إلـــى القاهرة لم يكن كذلك، بل كان موكب نصر كما يتمناه أى من الغوغـــاء، فالبـــيارق مـــرفوعة، والطبول تدوى مما جعل بقايا جيشه المنهك تقضـــى خمـــس ساعات لكى تشق طريقها عبر الشوارع التى تظللها أشجار النخيل، إلا أن الأمر لم ينطلى على المصريين تماماً، فقد أثار فضولهم بشكل

واضح أن يلاحظوا مدى الشحوب والإرهاق الذى بدا على الجنود بعد تجربتهم فى الشام. وفى الشهر الثانى وجد بونابرت عذراً حقيقياً لكى يقوم بإجراء استعراض موكب نصر.

وأخيراً ظهر فى الصورة فى أبى قير جيش الأتراك الذى كان يجمعه حسن بك مصطفى فى رودس. وقام بالاستيلاء على القلعة التى كانت تحتلها فصيلة فرنسية واحدة، وكانت ساعتها تحتل الشريط الضيق من الأرض الذى يشكل اللسان الغربى للخليج بطريقة غير واضحة. وبشكل غير حاسم كان هجوم بونابرت وهو الهجوم المثير الذى كان لا يزال يتذكره بالحسرة والندم عن عكا، ولهذا شن هجوماً عنيفاً على مواقعهم المخندقة. وفى هذه المرة نجح فى تحقيق نصر فى ذلك اليوم.

ويقول السير سدنى سميث الذى وجد نفسه مرة أخرى فى خضم المعمعة: « وعندما كان الطابور الأزرق يتقدم للهجوم، رد على أعقابه خاسراً مرتين، غير أن عادة الأتراك البربرية فى قطع رءوس أعدائهم القتلى جعلهم يندفعون إلى الأمام غير مبالين وبطريقة غير منظمة، مما ساعد على انفجار بركان الغضب بين مشاه الفرنسيين الذين جمعوا شتاتهم، وقد تسببت عودتهم المفاجئة لمهاجمة المدافعين عن هذه الخطوط غير المتناسقة وغير المترابطة قلقاً لهم، وسرعان ما امتلأ البحر بمئات الهاربين الذين كانوا يسبحون نحونا، وكان من بين هؤلاء ضابط ألبانى شاب اسمه محمد على، وهو الذى أصبح فيما بعد حاكماً على مصر».

ومرة أخرى سار نابليون فى موكب النصر عبر شوارع القاهرة غير أنه فى هذه المرة كان يسير إلى جانبه مصطفى بك ذليلاً وأسيراً. غير أن ذهنه لم يكن فى القاهرة بل كان بعيداً عنها، ففى أثناء الإجراءات الشكلية بعد المعركة سلم السير سدنى كنوع من المجاملة المدروسة، أو ربما كنوع من الدهاء والخبث، لفافة من الصحف التى كان قد مر على صدورها شهران، ومنها عرف أن لعنة الله Gottendammerung والتى كان يتوقعها على الدوام، قد نزلت على الحكومة العاجزة فى باريس، فمقترحاته فى إيطاليا ردت على



رسـم كاريكاتورى ظهر فى الصحف البريطانية فى ذلك الوقت يسخر من خروج نابليون مذعوراً من مصر من منظر الأهرامات وأبى الهول رداً على خطبته إثر مروره عند الأهرامات والتى قال فيها لجنوده: "إن أربعين قرناً مـن الـزمان تـنظر إليكم" الصورة من كتاب الدكتور سـنتاكس Syntax عن نابلـيون، وهى ضمن مجموعة ما نسل Mansell Collection فى لندن

أعقابهـــا. ومـــن خلال الخريطة بدت الجيوش الفرنسية وهى تتقهقر من كل جهـــة، بل أن فرنسا ذاتها كانت في قلب المعاناة بسبب الصراع الأهلى، وأن الوطن La Patrie ذاته كان معرضاً لغزو خطير حقيقى.

وفـــى مصـــر بـــدا المســـتقبل مظلمـــاً، وعلى أى حل ماذا كانت تساوى انتصاراته على ضفاف النيل إذ ما قورنت بالسلطة والبريق الاستعمارى الذى يـــتوهج باللونين اللازوردى والقرمزى والذى يستطيع أن يستشفه فى باريس. إن هجـــر جيشه يبدو أمراً بسيطاً فى مواجهة الخطر الشامل. فبعد ليلة واحدة قضـــاها فى قراءة الصحف اتخذ قراره: فقد تظاهر بأنه يقوم بجولة روتينية لـــزيارة الأقالـــيم، وانســـحب فى هدوء خارج القاهرة حيث أبحر تجاه فرنسا بصـــحبة مجموعة قليلة من المساعدين انتقاها بحرص. وقد ظل رحيله سراً مغلقـــاً حـــتى أن كليـــبر الذى عينه خليفة له - علم بأمرها من خلال رسالة تســـلمها فى وقت متأخر بحيث لا يستطيع طلب تفسير وعلى نحو مميز كتب بونابرت: « عندما أصل إلى باريس سوف أطارد هذه العصابة من المحامين الذين خدعونا وسوف أدعم هذه المستعمرة الرائعة » ولكن فى الحقيقة لم يكن هناك أحد يعلم الحقيقة خير منه بأن حملته كانت عملاً فاشلاً.

وسرعان ما امتلأت قاعات الاستقبال فى باريس بالاسكتشات المثيرة التى تصـــور انتصارات جيش النيل، وبدأ رسامو القصور ينجزون لوحات كبيرة على القماش الناعم تصور القاهر فوق صهوة جواده تحت سماء صافية وهو يـــتأمل أبا الهول، أو تصوره وهو يبث الحمية فى قلوب رجاله الشجعان لكى يدوســـوا بأقدامهم الأعداء من البشرة العاجية وهم يلتوون من الألم. غير أن الرســـائل الـــتى كـــان يرسلها هؤلاء المحاربون إلى ذويهم فى الوطن والتى اعترضـــها الأسطول البريطانى فى البحر كانت تصور جانب مخالفاً للرواية. فقـــد كتب ضابط إعتلاه اليأس يقول: « إن مصر الجهنمية ليست سوى أرض قفـــر تغطـــيها الـــرمال. فمنذ وجودنا هنا لم نفعل شيئاً »، بينما ناح آخر « باســـمك اللهم Nom de Dieu أجلب لنا متاعنا والبراندى الخاص بنا، فالجيش كلـــه قـــد أصيب بالدوسنتاريا من شرب المياه المحلية باسمك اللهم نريد النبـــيذ والبراندى والروم » وناح عقيد آخر قائلاً: «أننى أخشى أننا قد خدعنا

إلـــى أقصـــى حد بهذه الحملة التى يتباهون بها. إن أى منطقة مهجورة وغير مـــزروعة فـــى فرنســـا أجمل ألف مرة من هذه الأرض الموعودة تخيل مجموعـــة مـــن أبـــراج الحمام القذرة سيئة البناء إذا أردت أخذ فكرة عن الإسكندرية أما عن القاهرة أعلى وأكبر وأفخم مدينة فى العالم فهى أيضاً أكثر المدن ازدراء وأكثر حظائر الكلاب تعاسة على وجه الأرض ».

والـــذى لا شـــك فـــيه فأن الحملة يجب أن تسجل كعملية فاشلة. فبالنسبة للمصـــريين فهـــى ليســـت سوى مرحلة منقضية من مراحل تاريخهم سوف تصـــبح فـــى طـــى النسيان خلال سنوات قليلة، غير أن نتائجها كانت طويلة المدى، فقد ألقت بمصر فى حجر أوربا القرن التاسع عشر، فهى تشكل بداية الـــنهاية بالنســـبة للممالـــيك. وبفضـــل معهـــد القاهرة I institut du Caire وموســـوعتهم الـــرائعة Description de L'Egypte حدث انطلاق لمشروعات كبـــيرة. كما يعزى إليها الكثيرة من التأثير الثقافى الفرنسى الذى هو باق حتى الـــيوم. أما دارسو ظاهرة صعود الاستعمار سوف يلاحظون أنها كانت أولى المحـــاولات الصـــريحة الـــتى قام بها بلد أوربى لاستعمار هذه المنطقة. أما أولـــئك المعجـــبون بشخصية نابليون فسوف يعترفون أن مغامراته فى مصر كانت بمثابة رفع الستار عن النشاط المتوهج الذى تلا ذلك.

إن الـــترحم على نابليون فى مصر عبر عنه كليبر بإيجاز بليغ، إن لم يكن بطـــريقة رائعـــة أيضـــاً عندما وقف يقرأ رسالة الرجل الذى كان رئيسه: إذ انفجـــر غاضـــباً: «ابـــن الحـــرام التافه هذا قد غادر المعسكر وسرواله ملئ بهـــرائه: Ce petit Salaud foutu le camp avec ses culottes pleines de merde!.

وفـــى الســـابع من شهر مارس عام ١٨٠١ بعد مرور ثمانية عشر عاماً بالكاد انحنى شاب إنجليزى ذو وجه أحمر على جانب سفينة مبحرة فى خليج أبـــى قير، وانتهى به خياله المترقب إلى تلهف شديد الرعب، إذ شاهد طلائع قـــوة حملـــة السير رالف أبركرومبى Ralf Abercromby وهى تهم بالنزول ومهاجمة المواقع الفرنسية على الساحل.

وقــد كتــب مورجان مورجان كليفورد Morgan Morgan Clifford من الكتيبة الثانية عشرة من سلاح الفرسان خفيفة الحركـــة light Dragoons فـــى صـــحيفته يقـــول: « لقد شاهدنا قواتنا تتزاحم فى قوارب مفلطحة، وهم يجلســون وبنادقهم عير محشوة، وغير قادرين على الرد على أى من النيران الكثــيفة الــتى كــانوا يتعرضون لها، وشاهدنا عدداً كبيراً من القوارب وهى تغرق أو تتمزق إرباً إرباً من فعل القذائف بينما كان الرجال يصارعون فى المــاء، وما أن وصلوا إلى طلائع العدو المتموج والذى كان آنذاك مختف حــتى اندفعــوا كالعاصــفة نحو الساحل: « لقد سمعنا ثلاث هتافات للجنود الإنجليز، ورأينا قواربهم تصل إلى الشاطئ ثم رأينا الجنود وهم يقفزون منها إلـــى البر، واندفع العدو نحوهم، بينما كانت جماعة من فرسانهم تهاجم بعنف طلائعنا التى كانت على الجانب الأيسر وسرعان ما تحول الموقف إلى دخان وفوضى ».

وبعــد مرور ربع ساعة، انجلى الموقف إذ ظهر الإنجليز على المرتفعات فـــى الخلــف وهم يتعقبون عدوا يتقهقر « الأن ساد الجميع المرح والسرور وبقــدوم الساعة العاشرة كانت قوة الحملة بكاملها قد نزلت إلى البر، وزحف أبركرومـــبى Abercromby بعــد أن ضـــمن لنفسه موقعاً على الساحل نحو الإســكندرية. وبالقــرب مــن المكان الذى يقع فيه الآن نادى سبورتنج وقع التحامان دمويان، (وقد أبلغ القائد البريطانى عنهما بقوله « لم أرى فى حياتى مــيداناً وقد افترش بالجثث بمثل هذه الدرجة » وتنبأ مورجان كليفورد بأنهما سوف يقرران مصير مصر، والذى لم تستطع الكرة البللورية لقراءة المستقبل أن تتبــئ عـــنه وهـــو أن ظهور العلم البريطانى Union Jack فوق الأرض المصـــرية ســـوف يبدأ قرناً ونصف قرن من العلاقات الأنجلو مصرية حتى تلقـــى هـــذا الرمـــز - والذى كان حيناً محبوباً وأحياناً كثيرة مكروهاً - فى الـــنهاية ضـــربه قاضـــية فى بورسعيد قبل يومين من عيد الميلاد بعد مرور ١٥٥ عاماً.

ومـــن سخرية القدر إنه إذا كان الإنجليز قد وصلوا إلى مصر فى النهاية فـــإن ذلك كان نتيجة لحالة من التشوش سادت مبنى الهوايتهول، فما أن هجر

بونابرت جيشه فى القاهرة لكى يصبح القنصل الأول فى حكومة باريس حتى كتب السير سدنى سميث من موقعه المؤثر فى الميدان، يصف الموقف كما بدا له وهو على ظهر Le Tigre (أى النمرة) كتب إلى قائده البحرى يقول: «إن لديه الأدلة الإيجابية للقول بأن كليبر هو أشد أعداء بونابرت مقتا وكرهاً، وفى رأية أن آخر شىء يتمناه نابليون هو أن يرى كليبر وجيشه يعودان إدراجهما إلى فرنسا وأنه لو أمكن تسهيل خروج الفرنسيين من مصر فإن ذلك سوف ينقذ الجيش التركى من إبادة محتملة » إذ أنه لا أحد غيره يعرف إلى أى حد كانت حالة الفوضى التى هم عليها بل سيكون ذلك بمثابة إطلاق قط جائع بين الحمام فى فرنسا.

كان الجنرال كليبر رجلاً متغطرساً من أبناء إقليم الألزاس وينتمى إلى المدرسة القديمة، تصالح مع الحكومة الثورية التى كانت يحتقرها فى قرارة نفسه، ويمثل القوة المضادة لنظرياتها الثورية، إذ لم يكن لديه الأحلام الكبرى التى كانت لدى سلفه، ولهذا كان دائماً فاتر الحماس إزاء الحملة على مصر، ولما تزايدت المصاعب أمام الاحتلال، زادت نظريته التشاؤمية، وسرعان ما أصبح تفكيره هو إخراج الفرنسيين من مصر بأقل الخسائر.

وفى ضوء هذه الظروف لم يكن من العسير التفاوض لعقد اتفاق بين الأتراك والفرنسيين والذى بمقتضاه يمنح الفرنسيون فرصة للانسحاب الآمن وبكرامة من مصر فى غضون ثلاثة أشهر. وفى مطلع عام ١٨٠٠ ذكر السير سدنى الذى كان قد حقق نجاحاً فى الاستنباط عن طريق قلمه ما عجز عنه بتهوره عن طريق سيفه فى تقرير له رفعه إلى لندن يستهل بالسعادة بأن الفرنسيين يقومون بالجلاء عن مصر.

غير أن الرد جاء من قيادة البحرية كصدمة غير سارة، فبينما كان الفرنسيون مشغولين فى الاستعداد لتسليم القاهرة إلى الأتراك، كانت قرقاطه فى طريقها إلى البحر المتوسط تحمل تعليمات صارمة من الهوايتهول بأنه يجب ألا يسمح للفرنسيين تحت أى شروط من الشروط بمغادرة مصر ما لم يسلموا أسلحتهم ويستسلموا كأسرى حرب.

كـــان سكان القاهرة يراقبون رحيل الفرنسيين بفرح يصعب كتمانه وكانوا في حيرة من أن استئناف النشاط العسكرى المفاجئ والمحموم فى عاصمتهم. وأعلـــن كليـــبر - ذو الوجه الأحمر - لقواته شروط البريطانيين، وقال وهو يـــزأر من فوق منصة تغطيها الأعلام مثلثته الألوان: « أيها الرفاق ليس عند الجـــندى الفرنســـى غير رد واحد على هذه الاتصالات الوقحة... النصر » وقـــبل أن تهـــدأ أعصابه كان الفرنسيون قد أبادوا جيش الصدر الأعظم عند المطرية، وبذلك أصبحوا مرة أخرى وبحزم سادة على مصر.

ولمـــا وصـــلت أنباء هذا الكارثة غير المتوقعة إلى قيادة البحرية فى لندن بعـــد ثلاثـــة أشهر لم يتملكوا أنفسهم من الإحساس بالأسى، بأن السير سدنى ســـميث كـــان مسئولاً عن هذه الحالة من الأمور غير المقنعة. إذ قال مستر فوكـــس Fox وقـــد مـــلأه الغـــيظ: « لماذا تشغل مصر هذه الأهمية بالنسبة للفرنســـيين؟»، وهو أمر لم يكن قادراً على اكتشافه، وبالرغم من ذلك شعر: «أن شـــيئاً ينـــبغى عملـــه » وأعـــدت عدة مذكرات لتوضيح الأمر للوزراء المعنييـــن بالأمر. وفى الوقت المناسب اتخذ القرار بإرسال قوة سريعة تحت قيادة السير رالف أبركرومبى للتعامل مع الفرنسيين.

وفـــى أثـــناء ذلك اشتعلت ثورة أخرى فى القاهرة، فقد راح ما يقرب من ٦٠٠٠ تـــركى كانوا قد هربوا من المطرية وتسللوا إلى العاصمة يحرضون المواطنين على القيام بانتفاضة عامة ضد قوات الاحتلال، لكن بالرغم من أن الفرنسيين كانوا يستعيدون سيطرتهم بعد شهر من الاشتباكات، سويت خلالها ضـــاحية بولاق بالأرض، فقد وقع حادث أثارهم لدرجة أن كانوا على وشك من تدمير بالقاهرة بأكملها.

ففـــى عصر أحد أيام شهر يونيو المشجعة على النعاس، وبينما كان كليبر يتمشـــى بـــدون حراســـة فى حديقة قصر الألفى، وقعت حادثة اغتياله. فقد اســـتؤجر شـــاب عربى مسلم من حلب للقيام بهذه المهمة التى حرضه عليها ضـــباط أتـــراك فـــى فلسطين، إذ تسلل إلى الجنرال كما لو كان يطلب منه صـــدقة، ثم طعنة بالسكين أربع مرات مـــات كليبر على أثرها. وعندما شاع

الخبر، اندفعت القوات الفرنسية مسعورة، فقد كتب سارجنت (رقيب) لأسرته متشفيا يقول:« لقد مزقنا بسيوفنا كل من صادفنا من الرجال والأطفال ». أما الجبرتى الذى كان مرعوباً مثل أى فرد آخر من الانتقام الذى يتلو ذلك، فقد اعتلته الدهشة أن سليمان الذى اعترف بجريمته قدم لمحاكمة رسمية بدلاً من قتله على الفور، غير أن النتيجة كانت واحدة، فقد نفذ حكم الإعدام فى سليمان (ومعه عدد قليل من المشايخ لأسباب معقولة) بطريقة شملت كل أنواع التعذيب التى قدرت المحكمة على التوصية بها - لقد ظن (سليمان) أنه ضرب ضربته من أجل الحرية، ولكن من باب السخرية أن العمل الذى قام به لم ينتج عنه سوى شئ معاكس وهو مد فترة الاحتلال. إذ خلف كليبر الذى كان كل همه إخراج جيش بلاده والعودة إلى فرنسا - مينو Menou وهو رجل قصير القامة، سمين، يبدو من هيبته أنه أقرب إلى هيئة " الفطاطرى " منه إلى هيئة جنرال. وكان مفتوناً بالبقاء فى مصر لدرجة كبيرة حتى أنه اعتنق الإسلام رسمياً، وغير اسمه إلى عبد الله مينو بل وتزوج من فتاة مصرية(*).

لم تسفر الخمسة عشر شهراً من الاشتباكات التى كان من أهم معالمها المعارك الدامية خاصة حول الإسكندرية عن شىء سوى توكيد الوقوع فى ورطة. وما أن اقترب عام ١٨٠٢ حتى خارت قوى الطرفين لدرجة أن مينو كان مستعداً للترحيب بقبول معاهدة أميان Amiens والتى بمقتضاها يجلو عن مصر كل من البريطانيين والفرنسيين على طول الخطوط التى كان السير سدنى سميث قد أعدها من قبل إلى حد كبير. إن الحقيقة العارية هى أن الحملة على مصر بعد مغادرة نابليون، كانت قد تضاءلت إلى ما يشبه الاستعراض الجانبى. لكن ابن الحرام التافه Petit Salaud كان قد أعطى للحملة وضع النجومية ولا شىء غير ذلك.

وبالتالى كان قد مهد الطريق - وهو لا يدرى - لخليفته محمد على الذى أصبحت سيرته هى سيرة مصر طوال نصف القرن التالى.

(*) هى زبيدة بنت محمد البواب، (صورة عقد الزواج معروضة فى متحف رشيد).

## الفصل الرابع

# مؤسس الأسرة العلوية

وبينما كان الفرنسيون يطاردون جنود الحملة التركية ناحية البحر فى أبى قــير ١٧٩٩ تمكن السير سدنى سميث الذى كان قد نجا بالكاد من الموت من أن يــنقذ جــنديا كان على وشك الغرق بسحبه إلى قاربه الصغير، وقام بعمل تــنفس صــناعى لذلــك الشاب الألبانى ذى اللحية الكثة والعينين الرماديتين الخارقتيــن، ثم نقله فى أمان إلى سفينة القيادة معتقدا أن هذا الشخص القصير المزرى النظر سوف يسلم الروح خلال خمس دقائق على الأكثر.

هكــذا دخل إلى المسرح المصرى ذلك الرجل الذى قدر له أن ينجح فيما فشل فيه نابليون، فعن طريق سلسلة الإنجازات الصارمة والحاسمة تمكن هذا الجــندى الألــبانى غــير النظامى من أن يفرض نفسه سيدا على البلاد، وأن يكون المؤسس لمصر القرن التاسع عشر بكل النوايا والأهداف. فبينما تفاخر الإمــبراطور أغســطس أنــه تسلم روما مدينة من الطوب وتركها مبنية من الــرخام، كــان فــى مقدور محمد على أن يقول أنه وجد مصر فى حالة من الفوضــى وتــركها بلدا مستقرا. لقد كان دكتاتورا من الطراز الشرقى القديم امتد نفوذه بعيدا خارج حدود الدلتا. فقد ضم الأماكن المقدسة فى بلاد العرب، ونشــر الذعــر فى السودان، وأحدث الخراب ببلاد اليونان، ومد سلطانه إلى حــدود تركــيا ذاتهــا، حتى أنه فى ذروة انتصاراته كان ملكا بكل صفاته لا ينقصــه ســوى اللقــب، ويمــتلك إمبراطورية توازى امتدادها إمبراطورية الــبطالمة. فقــبل ظهــور لينيــن و مــاو بقرن كامل، حول محمد على مصــر إلــى الدولة المزرعة الواحدة Single State Farm; جاعلاً من نفسه أكــبر ملاك الأراضى والتاجر الأوحد. وعلى طول خمسة عقود من الزمان غطت سيرته أحــداث الشــرق الأوســط. خالقــا ما اصطلح على تســميته بالمسألة المصرية التى سببت خلقا لحكومات أوروبا.

ولكن بطريقة غريبة شاء القدر أن يمكن هذا الصبى المتنمر الذى جاء من

مقدونيا ليؤسس أسرة حاكمة استمرت تتوارث العرش حتى عام ١٩٥٢، كما آل على نفسه بالرغم من نفوذه ومهارته الدبلوماسية ألا يأخذ الخطوة الأخيرة بإعلان استقلال مصر الكامل،إذ ظل حتى النهاية حاكما تابعا لمولاه التركى،وبوضعه العربة أمام الحصان، حول محمد على مصر إلى إمبراطورية قبل أن يجعلها أمة فعلا.

وكما اعتاد أن يروى لزواره أنه ولد فى نفس العام الذى ولد فيه نابليون (عام ١٧٦٩) وفى نفس المكان الذى ولد فيه الإسكندر وهو ميناء كافالا الصغير Cavalla فى مقدونيا لكننا لا نعرف سوى القليل عن أصوله، لكن يتضح أنه عانى مرارة اليتم منذ نعومة أظفاره، وتولى رعايته عمدة المدينة، الذى زوجه وهو فى سن الثامنة عشرة من إحدى قريباته الثريات. وبعد أن أثبت جدارته كعامل ضرائب ومكوس، وأظهر كفاءة أكبر كتاجر تبغ، شعر أنه قد ضاق ذرعا بالبقاء فى كافالا، فتقدم للتطوع كضابط فى الكتيبة التى أرسلتها تركيا للانضمام إلى البريطانيين لطرد الفرنسيين خارج مصر وعندما غادر الإنجليز والفرنسيون مصر عام ١٨٠٢ بعد توقيع اتفاق أميان Amiens استمر محمد على فى خدمة الباشا الذى عينته تركيا لحكم البلاد.

وما أن اختفى البريطانيون والفرنسيون حتى انفجر بركان الفوضى، وذلك عندما بدأت التحزبات السياسية المتنوعة فى الدخول فى صراع مسعور من أجل السلطة. ومن بعيد وبقدر ما استطاعت حاولت القوى أن تأخذ جانبا معينا، فقد ساندت فرنسا الألبان، بينما ساندت بريطانيا المماليك الذين كانوا قد فقدوا بطشهم العسكرى الحقيقى منذ معركة الأهرامات، بالرغم من أنهم كانوا من الناحية الفعلية يسيطرون على البلاد، ولقد كان جليا بالهوايتهول أن تناصر بشدة هذه الطبقة الأرستقراطية المثيرة بالرغم من أنها كانت فى مرحلة الاحتضار. وكان الألفى بك الذى لفت بأبهته أنظار لندن حيث كان يروح لإنشاء شركة تتولى الإشراف المالى على ثروته فى مصر هو مرشح بريطانيا لمنصب الباشا.

وفى نظر محمد على - الذى أصبح الآن الرجل الثانى فى قيادة الفرقة

الألبانــية - أن هــذه التحزبات كانت تتقاتل من أجل هدف واحد لا يزيد عن السـلطة لكـى ينغموا فى أعمال اللصوصية المشروعة. ولكونه يدرك أهمية موقـع مصـر الاسـتراتيجى والتجارى ودورهما كممر حيوى لبلاد العالم، ويرسـم الـبحر والصحارى حدودها الطبيعية وعلى وعى بخصوبة أرضها، وسـهولة انقـياد شـعبها، فقد كان مفتونا بالمجال الشاسع للقوة التى تعطيه مصر. ولم يمر وقت طويل حتى بدأ يخطط للإمساك بفرصة العمر.

لا تذكـر السـجلات اسم صاحب الخنجر الذى تم به هذا الحدث، لكنها تذكـر أنـه فى فجر أحد الأيام، ألقى برأس تخرير صديقه وقائده من إحدى نوافـذ القاهرة وبالتالى أصبح محمد على الذى يليه فى المرتبة - على رأس قـيادة القـوات الألبانية - وكما يشرح ألان مورهيد Alan Moorehead في كـتابه النـيل الأزرق The Blue Nile وعن طريق هؤلاء الجنود الأجلاف، الذيـن سرعان ما أصبحوا حراسة الشخصين أمكن إعطاء تأييده ومناصرته لكـل مـن الأتـراك والمماليك خلال الحرب الأهلية، وفى نفس الوقت كان يـتظاهر بأنه ليس سوى رئيس الشرطة يتولى حفظ النظام فى العاصمة وأنه صديق حميم للمصريين. ولا يفوت على أى دارس لسير المغامرين وزعماء التحزبات أن يلحظ مدى براعة وقوة مناورات هذا الرجل الماكر. فهو يرقب مـن على جانب الملعب بعين لا تبالى ولا تغفل كعين السحالى حتى يضرب ضـربته فـى الوقـت المناسـب ففى بادئ الأمر كان يؤيد المماليك ضـد الأتـراك، ثـم بعد ذلك لما وطد المماليك أنفسهم مرة أخرى فى السلطة، قام بإجـبار زعـيمهم البرديسـى على جمع ضرائب باهظة لدفع رواتب جنوده الألبان لدرجة أن القاهرة انفجرت مرة أخرى فى ثورة، عندئذ قام هو بتهدئة أعمال الشغب عن طريق إجبار البرديسى على تخفيف الضرائب بطريقة فيها شىء من التباهى، ثم قام بمطاردة وجود المماليك إلى خارج القاهرة، كما قام بمصادرة ممتلكاتهم.

كـل ذلـك أنجـز ببراعة باسم السلطان، فقد كان محمد على حريصاً كل الحـرص فـى جميع تصرفاته أن ينافق الباشا التركى خورشيد الذى كان فـى السلطة من الناحية الاسمية فقط، غير أنه فى نفس الوقت بقيامه بفرض

النظام فى الشوارع فقد قدم نفسه للجماهير كزعيم لها، وفى هدوء كون لنفسه أتــباعا من بين الشيوخ ومن الطبقة الوسطى شبه المتدينة ومن صغار تجار الســوق. وهــؤلاء هــم المصريون الحقيقيون الذى كانت عواطفهم الوطنية تتأجج، وهم الذين سوف يأتون فيما بعد بعرابى وزغلول وناصر إلى السلطة. لقــد كانت مساندتهم أمرا ضروريا فى صراع القوة الأخير الذى لم يعد هناك وقــت لتأجيله. ففى المحافظات كان قطاع الطرق وعصابات اللصوص تنهب الفلاحيــن حــتى أنهــم هجــروا قــراهم. وفى القاهرة نفســها كانت جنود الأنكشــارية والمماليك والباشيبا زوقBashiba Zouk، ورعاع الجند من كل صنف ونوع تقوم بنهب المتاجر وانتهاك حرمة الحريم. وهو أمر يفوق طاقة التحمل لدى المصريين الذين طالما عانوا من الظلم والاضطهاد.

وفى صباح أحد أيام شهر مايو علم ١٨٠٥ جاءت الضربة الساحقة عندما فــاض الوعاء بما فيه، بحيث لم يعد فى مقدورهم التحمل أكثر مما كانوا فيه، فقد تجمهر شعب القاهرة يقودهم المشايخ، ورؤساء الحرف المختلفة فى جمع غفــير أمــام بيــت القاضــى مقــر المحكمة وقدموا شكوى ذات ضجيج وصــياح للعــرض على الحاكم وطوال اليوم كانت الأسواق تغلى وتزيد كلما اشــتدت المظاهرات، ولما لم يرد الحاكم على شكواهم، اتجهت الجماهير إلى بيــت محمد على، وراحوا يتصايحون مطالبين بأن يكون الباشا عليهم. وباسم الشــعب قام الشيخ الشرقاوى إمام الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف بالقيام فيما يشبه بأول مظاهرة حقيقية للضمير الوطنى المصرى، تنادى بعزل الحــاكم التركى وإلباس محمد على عباءة من الفرو وقفطان الباشا(١) استناداً إلــى اســتقامته وأريحــته وطبقا للشروط التى وضعها الناس وقد تم بطريقة أثــارت دورفيتى Dorvrtti القنصل الفرنسى حتى أنه أرسل تقريراً حاد إلى باريس عن ذلك الشعب الذى لم يسمع حكاية الضفادع التى طالبت بأن يكون لها ملك.

(١) عبد الرحمن الجبرتى – نفس المصدر – ص: ٤٧٩ – ٤٨٠.

أما بالنسبة للحاكم التركى فقد كان ما حدث إهانة لم يسمع بها أحد من قبل فقد أثارت ثائرته أن يرى الفلاحين وهم يخذلون قوة الباب العالى، فوجه مدافعه من أعلى القلعة نحو الجماهير القابعة عند سفحها، غير أن محمد على لم يكن يسمح أن يوقع به بمثل هذه الطريقة السهلة، فوجه هو الآخر مدافعه إلى أعلى تلال المقطم ثم قام بمحاصرة الباشا التعس فى القلعة ذاتها، وفى اللحظة المناسبة قام الباب العالى بطريقته المترفعة البرجماتية المعتادة بتثبيت تعيين محمد على خليفة للباشا وبذلك سمح أم يتخذ الفلاحون الأميون، ذوى الطبيعة سهلة الانقياد، والذى طالما احتقروهم بعد قرون من الخضوع والخنوع خطوة إيجابية لتوكيد حقوقهم هكذا بالرغم من أنه كان تابعاً للقسطنطينية إلا أن محمد على أصبح حاكماً بناء على اختيارهم الشعب -.

فى الإمبراطورية العثمانية، كان حصول شاب غامض يعمل تاجراً للتبغ على السلطة أمر، والاحتفاظ بها أمر آخر، فبعد شهور قليلة ظهر أسطول صغير قبالة الإسكندرية يحمل فرماناً إمبرطورياً بنقل محمد على إلى سالونيكا باليونان ولم يتم التغلب على هذا الموقف الكريه إلا عن طريق قبول الأدميرال التركى رشوة مقدارها ٤٠٠ كيس وهى تمثل ثروة شخصية لمرابى قبطى صادرها محمد علىّ على عجل لإغراء السلطان الذى كان اهتمامه بمصر فى المقام الأول اهتمام المرتزق منها، وأنه يمكنه توقع المزيد من الأموال من جانب محمد على أكثر مما يتوقع من جانب المماليك. وبالفعل تم فى نوفمبر عام ١٨٠٦ تثبيت محمد على مرة أخرى كباشا على مصر .

لكن لم يكد تمر أربعة شهور حتى واجه تحديا خطيراً.

فبعد محاولة فاشلة لإغراء السلطان للانضمام إلى جانب الروس ضد فرنسا والتى بلغت ذروتها فى ضربة مباغتة فى الدردنيل تم إحباطها، قرر الإنجليز الذين عادوا مرة أخرى للخصام مع تركيا أنه من المفيد لهم أن يضعوا أيديهم على مصر. وكانت حجتهم أنه لم تم إعادة الألفى بك ومماليكه إلى الحكم،فإن بريطانيا لن تصبح صاحبة السيادة على السواحل المصرية

فحسب، بل يضاف إلى ذلك المزايا التجارة البحتة. وعلى ذلك فقد أرسل الجنرال فريزر على رأس حملة تحمل ما اتفق عليه فى المصطلح الرسمى حملة استطلاع A. Re-Connoiterring Expedition لكى يرى ما يمكن القيام به. لقد كان يدرك تماماً أنه من الصعب عليه أن يتوقع من جانبه فتح بلد بقوة محدودة تعدادها ٧٠٠٠ رجل فى حين فشل نابليون فى تحقيق ذلك بقوة تربو على خمسين ألف رجل لكنه كان يمتلك تعاوناً نشطاً من جانب المماليك لتمهيد الطريق أمامه.

لم يخف محمد على – الذى كان فى صراع مع المماليك فى صعيد مصر فزعه فقد وضعت السروج على الخيول للهرب شرقاً إلى فلسطين فى حالة الضرورة ، إلا أنه كان يحتفظ بخدعة أخرى فى جعبته. إذ تصادف أن مات الألفى والبرديسى فجأة فى وقت واحد من جراء عسر الهضم بعد احتساء القهوة[1]، وعلى أثر ذلك قام وفد من المشايخ والعلماء من القاهرة بمساعدة محمد علىّ على تسوية خلافاته مع ما تبقى من المماليك، ودوت فتوى العلماء فى المساجد أنه ليس للفرنسيين ملة أو دين فى حين أن الإنجليز مسيحيين أنقياء يكرهون الديانات الأخرى، وليس من العدل أن تقفوا إلى جانب الكفار ضد المسلمين وقد تبسم المرء لهذا المنطق، إلا أنه كان المنطق السائد. ومن ثم كان على البريطانيين أن يخوضوا المعركة وحدهم.

وكما فعل بونابرت، رست سفنهم عند شاطئ العجمى، وبعد أن تم احتلال الإسكندرية دون أى مقاومة، أرسلت وحدة إلى رشيد، ويروى مصرى عاصر الحدث بأنهم دخلوا فى الصباح الباكر دون طلقة نار واحدة، وراحوا يمشون الهوينا فى الشوارع الضيقة كما لو كانوا يقضون أجازة .

وما أن بلغت حرارة الشمس ذروتها، حيث راحت القوات فى زيها الأحمر الخانق تتساند على الحوائط المتشابكة من فرط الإعياء وليتفادوا حرارة القيلولة. حتى أعطى القائد المصرى الإشارة، عندئذ انهال وابل من النيران القاتلة من كل نافذة ومن كل عتبة بيت أو ناصية شارع. ثم واجهت الوحدة التعسة فجأة أشخاصاً معممين يلوحون بسيوفهم البتارة، حيث أخذوا

على غرة، ولقى الضابط القائد الجنرال وشوب Wauchope وبضع مئات من رجاله مصرعهم قبل أن تتدحر الوحدة فى حالة من الفوضى العارمة بقدر ما استطاعت عائدة إلى الإسكندرية.

وفــى القاهرة، سرت أنباء هزيمة الكفار سرى الكهرباء، مما أتاح لمحمد علــى الفرصة التى كان فى حاجة إليها ليعاود الظهور على مسرح الأحداث، فقد انضم إليه حتى أشد المماليك تشككا فيه، وسار كل من كان فى مقدرته أن يســلح نفســه وراء الجــيش الــنظامى إلى رشيد، تحثهم خطب عمر مكرم والعلماء. وهنا قام الجنرال ستيورات Stewart ومعه الفصائل ٣١، ٣٥، ٧٨ من المشاة بأخذ مواقعهم فى منطقة الحماد وفرضوا حصاراً على المدينة. ولم يكــن فى استطاعة الجنرال الحصول على الخيول من الإسكندرية، ولم تكن انفعالاتــه – وهو يراقب قوات محمد الحربية المتدفقة حماساً – وهى تتدفق أمامــه تحمــل أدنــى قدر من السرور بأى حال من الأحوال. وشن الفرسان المصــريون هجومهــم تملأهــم الثقة بالنفس، وخلال معركة استمرت ثلاث ســاعات أوقعــوا بهــم واحــدة من أكبر الهزائم المهينة التى خبرتها القوات البريطانية فى الشرق.

لقــد نجحــت القــوة الــبحرية البريطانــية من منع وصول أنباء الهزيمة إلى أوروبــا. غــير أن الــرأى العام فى إنجلترا الذى كان قد أبلغ كثيراً من الأخبار غــير الســارة القادمــة مــن قارة أوروبا كلما استمر نابليون فى طريقه الذى لا يــرحم أصــيب بصدمة عنيفة عندما علم أن خمسمائة جندى بريطانى قد سيقوا كأســرى فــى أســواق الرقيق بالقاهرة يحفهم من الجانبين رءوس عدد كبير من رفــاقهم القــتلى محمولة على أسياخ. ولما وجد أنه عاجز عن شن هجوم شامل لــم يكــن أمــام فريــزر من فرصة سوى أن يطلب التفاوض، وكان محمد على ســعيدا جــداً بقبولها لأنه كان يتوقع فعل عنيف من جانب بريطانيا. وفى سبتمبر أبحــرت القــوة الاســتطلاعية عائدة. وكان الأثر الوحيد الذى تركته من ورائها هــو شــــاهد قبر جندى من الفصيلة ٧٨ وهو موجود حاليا فى فناء البطريركية اليونانــية بالإســكندرية. أما بالنسبة لمحمد على الذى كان قد قاتل جنبا إلى جنب مــنذ ســت سنوات سبقت – مع أبروكرومبى – فقد اعتبر ذلك نصراً ذا قيمة لا

حد لها. فخلال أسبوعين توقف وصف الباشا بالمغامر أو قائد الباشيبازوق بعد أن أصبح قوة يعمل لها ألف حساب، إذ لم يعد ينظر إليه كألباني أجنبي، بل بطلا مصريا خالصاً ومدافعاً عن مصر الإسلامية ضد الكفار. وعلى الجانب الآخر كان بكوات المماليك يتآمرون مع البريطانيين ضد الباشا قد أحرقوا مراكبهم. وإلى أن يحين موعد حسابهم تركهم محمد على لفترة من الزمن، بينما راح يخطط لضربة قاضية Coupe de grace لتصفيتهم كلية وللأبد. لقد كان يوم تصفية الحساب مع المماليك آت لا ريب فيه.

ثم حل يوم الانتقام، ولقد علق الدكتور برونج Dr. Bowring - عضو مجلس العموم الإنجليزي والذي جاء في بعثة إلى مصر - على هذه الحادثة في تقريره على ما حدث في عصر يوم الجمعة الموافق الأول من مارس عام ١٨١١ بقوله: إن كل نقطة دم سفكها محمد على في ذلك اليوم أنقذت أكثر من إنسان برئ كما ذكر أيضاً في تقريره الذي رفعه إلى مرءوسيه في لندن أنه نادراً ما شهد شعب القاهرة مثل هذا المنظر المبهر، فقد كانوا يتزاحمون في الساحة الكبرى أسفل القلعة، ويتدفقون نحو الأسواق، أما المتفرجون فقد كان يدفعون بعضهم بعضاً على طول الطريق الذي سوف يسير فيه الاستعراض العسكري. أما المناسبة فهي الألغام على طوسون بن محمد على وكان صبياً في مرحلة ما قبل العشرين من العمر ببدلة التشريفة وهو في طريقه إلى الجزيرة العربية على رأس حملة للاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ووجهت الدعوة إلى كل بكوات المماليك وأتباعهم. وما أن انتصف النهار حتى شرع ركبهم الذي يتكون من خمسمائة راكب يصحبهم أتباعهم فوق خيولهم المطعمة بكل ثمين وغال. ثم صعدوا المدخل المنحدر، وعبروا بوابات القلعة المحظور دخولها، والمزينة بالرايات والشعارات الدينية. ولم يتخلف عن الحضور سوى إبراهيم بك ذلك العجوز الحذر مثل الثعلب في الحكايات الشعبية، فقد بلغ به الحرص على ألا يغادر حصنه في بني سويف وبعث برد غامض معددا أولئك الذين قادتهم أقدامهم إلى عرين الأسد. أما بالنسبة للآخرين فقد كانت مناسبة مرحة تعيدهم إلى مباهج القاهرة، وأشار إلى أن الباشا كان يظهر حتى وقت ليس بالقصير

سلوكا يميل نحو المصالحة مع المماليك الذين كانوا قد انسحبوا إلى أقاليم مصر العليا منذ عام ١٨٠٧، وشغلوا أنفسهم بضم المزيد من الأفدنة إلى أراضيهم أكثر من اهتمامهم بإثارة المشاكل السياسية. بالإضافة إلىذلك فإن تقاليد الضيافة تؤمن لهم الحماية وأن الباشا إذ كان يدور فى ذهنه أمر فهو على الأرجح أن يقدم لهم غصن الزيتون.

وأكد حدسهم ذلك الترحيب الحار الذى لاقاهم فى القلعة، إذ استقبل محمد على باحتفاء غامر ضيوفه فى بهو الاستقبال الكبير، مصافحا كل واحد بدوره. ثم قدمت القهوة والحلوى، ومررت النرجيلة عليهم، وتم القيام بأداء الواجبات التقليدية، لكن ما أن انسحب الباشا وفى صحبته المشايخ والقضاة وغيرهم من كبار المستخدمين ليفسحوا الطريق أمام الاستعراض العسكرى، حتى لاحظ بعض الناس أن وجه الباشا الذى كان فى العادة متورداً بدا أكثر شحوباً.

وفى الوقت المحدد بدأ الاستعراض يتهيأ بحيث كان المماليك فى مكان الشرف فى الوسط، وتحرك موكب الفرسان على خيولهم المبهرجة ببطىء نحو الممر المتعرج المنحدر والمتجه إلى بوابات المدينة القلعة كان يتقدم الموكب فرقة من الأكراد ومن خلفهم بعض الأنكشارية، يليهم الألبان، يتبعهم المماليك فوق جيادهم وقد راحت أرديتهم المطعمة بالجواهر النفيسة وأسلحتهم تتلألأ فى ضوء الشمس ويأتى فى مؤخرة الموكب السرايا التركية. ولقد كان من السهل أن يلاحظ أى فرد أن الجنود الألبان كانوا متميزين بشغلهم المواقع الهامة على طول الطريق الذى يمر به الموكب، لكن المماليك لم يشموا رائحة الغدر إلى عندما أغلقت بوابة الغرب فجأة، وفى نفس اللحظة فتح الألبان النار، ثم شرعت الفرقتان التى فى المقدمة وتلك التى فى المؤخرة بالهجوم، ووجد المماليك أنفسهم وقد وقعوا فى كمين من النيران القاتلة التى انهالت عليهم من كل جانب، لقد كانت سيوفهم البتارة عديمة الجدوى فى مواجهة البنادق، وتحول الممر الضيق إلى جحيم من الخيول المضطربة والرجال الذين يتصارعون من أجل النجاة ولم يستغرق ذلك الحادث أكثر من

خمــس عشر دقيقة، غير أنه من خلال هذه الدقائق الخمسةعشر تم استئصال الطــبقة العســكرية التىأمسكت بقبضتها هذا البلد لقرون طويلة وبطريقة لا تعرف الرحمة إلى قلبها سبيلا.

وعــندما صفا الجو من الغبار، انتشر جنود الباشا فى المدينة بوجه عابس بعــد أن خلفوا وراءهم منظراً يشبه سلخانات الجزارين، وراحوا يعملون قتلا ونهــباً، وســرت شائعة فى الأسواق التى سادها الذعر أن المماليك قد هلكوا عن أخرهم، ودار الهمس أن واحداً من البكوات - واسمه أمين - نجا بمفرده مــن المذبحة إذ تسلق المتاريس وهو فوق صهوة جواده، ثم قفز فى الهواء خمســين قدمــا ليستقر على الصخور القائمة أسفل المكان ثم توجه هارباً إلى الصحراء، وبذلك وضع النهاية الأخيرة لملحمة المماليك.

وفــيما بعد روى الطبيب الخاص بالباشا - وهو من جنوة - لأسرته جانباً مما حدث أن محمد على كان يقطع مجرته الصغيرة على قدميه جيئة وذهابا، وعــندما جــاء له بالأخبار وهو يتمتم بتدلل: ياله من يوم عظيم لجلالتك لم يرد عليه الباشا إنما كل ما نطق به هو: ماء.. ماء.

ولقــد سجل شاب إيطالى من قرية زيللو Zello القريبة من فيرار Ferrar والــذى كــان فــى القلعــة من بين أفراد الفرقة الألبانية. سجل وصفاً لتلك المجــزرة الأسطورية من موقعه فقد كتب يقول: بدأ قرع الطبول قبيل الفجر على طول المدينة وعرضها، تدعو القوات للتجمع من أجل القيام باستعراض كبــير، قلــيل مــنا كانوا قد تلقوا إفطاراً مسبقاً عن ذلك. ومن ثم فقد هرول الجميع من كل جانب للاستفسار عما يحدث، ثم صدرت الأوامر لهم بالتوجه إلى القلعة، ولما وصلوا إليها وضعوا فى مواقعهم هناك.

ولــم يكن هناك أى أوامر قد صدرت، غير أن كل فرد كلف بمهمة بشكل صــارم بعــد فحــص ســلاحه، وأمر بألا يغادر موقعه تحت أى ظرف من الظروف وأن يظل فيه حتى صدور تعليمات أخرى.

ثم اقتربت ساعة الاستعراض، وقد اصطف ما يقرب من خمسمائة ضابط

من المماليك من ذوى الرتب العليا والصغرى فى طابور وهم يقدمون أنفسهم عند بوابة القلعة ثم سمح لهم بالدخول. وقد قاموا باستعراض رائع، وكان يتقدمهم ثلاثة من كبار قادتهم من بينهم صايم بك Saim Bey هكذا دون اسمه الذى كان متميزاً عن الآخرين فعندما دخلوا مباشرة نحو القصر الذى يشغل أعلى موقع، وما أن أعلن عن وصولهم لمحمد على وحسون باشا اللذين كانا معاً فى حجرة المداولة، حتى صدر على الفور أمر بإدخال الزعماء الثلاثة حيث استقبلوا بالحفاوة والترحاب الفياض. ودخل معهما الباشا وصاحبه فى حوار لوقت ليس بالقصير تبودلت خلالها الكثير من المجاملات والرقة.

"وبعد وهلة وطبقاً للتقاليد الشرقية، أحضرت القهوة، وأخيراً النرجيلة، وفى اللحظة التى كانت تقدم فيها هذه الأشياء، وقف محمد على وانسحب، كما لو كان ذلك جزءا من الأيتكيت أو لإعطاء ضيوفه الإيحاء بالاسترخاء، ثم استدعى على انفراد قائد حرسه. وأعطى أوامره بإغلاق بوابات القلعة، مضيفاً بأن تطلق النيران بمجرد أن يخرج صايم بك ورفاقه ليركبوا جيادهم حتى يسقطوا صرعى، وفى نفس الوقت تعطى الإشارة للقوات فى مواقعها فى كافة أنحاء القلعة بتوجيه بنادقها نحو أى مملوك يأتى فى نطاق نيرانهم. وفى نفس الوقت أرسل الأوامر إلى ما كانوا فى المدينة أسفل القلعة، حتى هؤلاء الذين كانوا يعسكرون خارجها حول سفح الحصن، أن يتابعوا أعمال التصفية لجميع الشاردين منهم أينما وجدوا حتى لا يهرب أحد من العدو الذين أبيحت دماؤهم وأموالهم. ويصنف جيوفانى Giovanni بلمسة من الاستقامة والتقوى: ولدى مبرراتى أن أكون شاكرا فالبرغم من أننى كنت جنديا أعسكر فى القلعة فى ذلك الصباح إلا أننى لم أسفك دماء أى من هؤلاء الرجال التعساء، فقد كان لحسن حظى أننى وضعت عند حارة لم يحاول أحد منهم المرور عبرها أو حتى اقترب منى، لهذا فإن مسدسى وغدارتى لم تطلقا أبداً ولقد استمرت أعمال السلب والنهب طوال ستة أيام وبالرغم من أننى كنت حاضراً عندما حدث الكثير من هذه المناظر ومعى زميل لى، إلا أننى لم أشارك فيها إلا بالقليل، أنه من الصعب أن يوجه إلىّ اتهام بأننى نهبت

قـــدراً كبـــيراً من الغنائم، يقدر ما أتذكر باستثناء سرج مزين بطبقة كثيفة من الفضـــة، وجاريـــة من الرقيق كانت من ممتلكات أحدهم وبذلك لم أستفد من الأذن الصادر بأن أى شىء نجده فى منازلهم هو مكافأة لنا .

مـــنذ ذلـــك الوقت أصبح مؤكداً أن طبقة المماليك لم يعد لها وجود أما ما تبقى منهم أو تخلف مع إبراهيم فى الصعيد فقد فروا جنوباً إلى السودان، أما نســـاؤهم فقـــد تزوجن بضباط من جيش محمد على، أما صبيانهم الذين أبقى على حياتهم فقد قيدت أسماؤهم كمتطوعين فى المؤسسات العسكرية والبحرية الجديـــدة. ولقـــد كتـــب القنصـــل البريطانى يقول: إن مذبحة المماليك كانت جـــريمة بشعة، لكنها كانت مقدمة ضرورية لكل الإصلاحات اللاحقة ومن يا ترى سوف يستفيد من هذه الإصلاحات فذلك موضع آخر.

والآن وبعد أن أزيح الفرنسيون والبريطانيون عن طريقه، وبعد أن سحقت المعارضـــة الداخلـــية، أصبح ذلك الألبانى، ضئيل البنية، شرس الطباع من الناحـــية الفعلـــية دكـــتاتوراً، أما الحقيقة التى لا لبث فيها، فهى أن الناس لم يغـــيروا شيئا سوى سادتهم فقط، إذ أن لصا بدرجة باشا حل محل مائة لص بدرجـــة بـــك. فمثل المماليك نظر محمد على إلى المصريين كجنس مستعبد، تنحصـــر فـــائدتهم فى تحقيق مطامعه الشخصية، لكن لم يكن يعينه رخاؤهم. وكمـــا وضـــح ذلك مرسى سعد الدين: لقد أصبحت مصر فردوساً للأتراك والألـــبان وكـــل سائر المأجورين والمرتزقة. وفى الحقيقة كان سكان مصر الأصليون فى ذلك الوقت مجرد لفظ: الفلاحون أو القرويون.

إن الفـــارق الوحـــيد هو أن محمد على عرف كيف يستغلهم بذكاء ونجاح يفـــوق مـــن ســـبقوه بكثـــير، وفى أثناء ذلك أخرج البلاد من ظلام العصور الوسطى، وحقق لها كل أنواع الاستقرار.

وبغريـــزة الدكـــتاتور الحقيقة، كان الاهتمام الأول عنده هو التأكد أن لديه جيشـــا لا يقهـــر للحفاظ على وضعه، وأن يكون لديه خزانة مليئة بشكل جيد للإنفاق منها، ولكى يهتم بهذا الجانب الأخير، فقد استخدم منطق النبى يوسف

الـــذى جـــاء فى سفر التكوين «أن الأرض أرض الفرعون(*)» وقياسا على الـــنظام الإســـلامى «العتيق» والذى كان يرسم خطا غير واضح للتمييز بين الملكـــية الخاصة والملكية العامة، فقد أصدر قراراً بنزع ملكية كل الملاك بما فـــى ذلـــك ملكـــيات المؤسســـات الدينية وأراضى الأوقاف وبذلك ركز كافة المصـــادر الزراعـــية للـــبلاد فـــى يـــده وبعد الحصول على المحاصيل من مصادرها. لم يكن من العصب أن يبيعها بالربح الذى يبغيه.

وبعـــد احتكار الإنتاج الزراعى، كانت الخطوة التالية خطوة نسبياً قصيرة وهـــى أن يجعـــل نفســـه المالك الأوحد للسلع المصنعة والمستورد والمصدر الوحـــيد. وسرعان كل منتجات وممتلكات البلاد تحت سيطرته المباشرة. أما بالنســـبة لعملـــيات الاســـتيراد والتصدير فقد كون شراكة مع قناصل القوى الأجنبـــية التجاريين مما حقق له ميزة وهى وضع الدبلوماسيين المحليين فى جيـــبه. من الناحية الأساسية كان رجل عمل أكثر من صاحب نظرية بالرغم من أنه التقط القليل من الفلسفة السياسية خلال مراسلاته المطولة مع جريمى بنـــتهام Jeremy Benthan(**). كانـــت الفكرة الاقتصادية التى استولت على خـــياله والتى شجع عليها المستشارون الأجانب الذين اشتموا رائحة العملات

(*) ســـفر التكويـــن: ٤٧: ٢٠ - ٢١ والمقصـــود هو الأرض مقابل الفتح، كما ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى { ونادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون } الزخرف: ٥٠ «المترجم».

(**) جـــريمى بنـــتهام: فيلسوف وعالم فى الاقتصاد وفقيه فى القانون وأحد المدافعين عن نظرية المنفعة وأن السعادة القصوى فى إسعاد العدد الأكبر، ولد فى لندن عام ١٧٤٨ وتوفـــى فـــيها عام ١٨٣٢. تأثر بآدم سميث صاحب نظرية دعه يعمل Laissez Faire، وبالـــرغم مـــن أنـــه ولد محافظاً حيث تخرج فىجامعة اكسفورد عام ١٧٦٣ حتى درس القـــانون والفلســـفة والاقتصاد، إلا أن عشقه للنظرية السياسية للتنوير جعلته أقرب إلى الديمقراطـــية. غطت شهرته كناقد للقانون والتشريع وبناء المؤسسات السياسية للدولة على شهرته كفيلسوف (المترجم).

المالـــية هى أنه مادامت المواد الأولية متوافرة والأيدى العاملة رخيصة، فإن المشـــكلة تنحصـــر فقـــط فى استيراد الآلات والمساعدات الفنية من أوروبا لـــتحويل البلاد إلى بلاد صناعية، ولوضع أساس ثورة صناعية موازية لتلك الـــتى شـــهدته بريطانيا وفرنسا. كان ذلك تفكيرا حالماً بالنسبة للظروف التى كانـــت سائدة فى مصر منذ قرن ونصف قرن، ولذا تطلب ذلك بعض الوقت لتتضـــح معالمـــه. وبينما انطلق الباشا بحماس شديد نحو التصنيع على غرار أى دولـــة نامية فى عصرنا هذا دون أن ينتظر أى مساعدة من الخارج لدعم مشروعاته.

ففـــى عـــام ١٨١٨ افتـــتـــح فى القـــاهرة ٥ مصانع لصناعة الصوف الخشن (صوف العسكرى) للجيش، وبعد ذلك بعام عندما لفت خبير ميكانيكى نظـــره، لم يضيع وقتاً فى بناء مصانع لحلج وغزل ونسج القطن: ولم يمض وقـــت طويـــل حتى كان هناك تسع وعشرون مصنعاً تعمل فى هذا المجال؟ وخـــلال عشـــر سنوات فقط تكاثرت المصانع على طول البلاد، والتى كانت تنـــتج ســـلعاً متـــنوعة مـــثل السكر، والسلاح، والبارود، والدوبارة (الحبال) والطرابيش، وكانت مسابك الحديد وأعمال الصلب والنحاس وحوانيت الآلات يدعمهـــا سلســـلة متكاملة من الغزالين والنساجين، والحدادين والحفارين على الخشـــب واللحامين وأصحاب المسابك كل كانت تحت إدارة الباشا كمالك لها. ولقـــد كان أسلوبه فى الإدارة يثير فى بعض الأحيان الدهشة، ولنضرب على ذلك مثلاً. فعندما كانت ترعة المحمودية المعروفة بكثرة إنحناءتها والتواءتها تحـــت الإنجاز، سأل محمد على مهندس فرنسى عن رأيه فى تصميماتها فرد الخبير قائلاً:

- عفـــواً يـــا صـــاحب السمو إن ملاحظتى أن قناتك سوف تكون متعرجة فاستفسر الباشا بلطف واضح.
- هل الأنهار عندكم فى فرنسا تجرى فى خطوط مستقيمة؟
- بالطبع لا.
- من الذى صنعها أليسْ هو الله؟
- نعم وبكل تأكيدْ يا صاحب الجلالة.

- عندئذ رد الباشا بلهجة المنتصر.
- حسناً، إذن هل تعتقد أنا أو أنت أننا نعرف أفضل من الله كيف يسير الماء؟ لقد قلدته فى قناتى، وإلا فإنها سوف تصبح مصرف مجرد مصرف جاف وليس ترعة!!

كانت المعضلة أمام مثل هذه الإدارة المركزية والتى لقيت فى البداية اهتماماً من الصحافة فى أوربا كعمل من أعمال المشروعات الحرة ذات النفوذ هى العثور على أناس مناسبين لكى تبقى عجلات المصانع تدور. ولم يكن غريباً أن مشروعاته فى مثل هذه الظروف كان يعوزها بشدة من الناحية الفعلية ذلك التفوق الذى ربما كانت تتضمنه نظرياً. فمنذ بدايتها كان طراز المصانع بخسارة، وبدون جهاز محاسبين يأخذ فى الاعتبار الأسس والحقائق الاقتصادية فى الحياة موضع الاعتبار وسرعان ما تورط الباشا فى سباق لا نهاية له لمواجهة العجز المالى فى سياسته الداخلية،، بل أيضاً لمواجهة العجز المالى لتلبية نفقات الحروب الممتدة والتى كان يخوضها دون توقف. وبالتالى عادت الضرائب تقصم ظهور الناس كما كانت زمن المماليك وعاد عمال الضرائب المحليون إلى وسائلهم البربرية لاعتصار آخر قرش من دم الفلاح التعس، وكما قال وليام لين William Lane ابن شقيق الرسام الشهير جينزبارة Gainsbarough – والذى ارتدى الزى العربى، ووضع على رأسه طربوشاً حوله عمامة، وحرث بقدر الإمكان أن يظهر فى مظهر العربى حتى أن جيرانه ظنوه بالفعل من العربية (السعودية)(*). وكان يقطن فى بيت يقع بالقرب من خان الخليلى، حيث كان يدعو أصدقاءه من المسلمين لتدخين النرجيلة وشرب القهوة. ومن خلال بعض الشخصيات مثل الشيخ أحمد وهو درويشى من طائفة السعددية، والذى كان ولوعاً بمضغ الأفاعى الحية وزجاج الشمعدانات، وكذلك إلى ما يسمعه يوماً بعد يوم من الأسواق، تمكن من جمع

(*) تلك إحدى هفوات المؤلف، إذ لم تكن المملكة العربية السعودية قد قامت فعلاً فى ذلك الوقت، إنما الذى أسسها وأعطاه اسم السعودية هو جلالة الملك عبد العزيز آل سعود.

مـــادة كافـــية لكتابة عمله المبهج والذى أصبح مصدراً كلاسيكياً عن أحوال القاهــرة فـــى مطلع القرن التاسع عشر(*). وبالرغم من ذلك فقد أقر أنه لمن الصعب عليه أن يكون فكرة محدودة عن الباشا، ويرجع سبب ذلك فى المقام الأول إلـــى السرية التامة غير العادية التى كانت تحيط بكل ما كان يحدث فى القلعـــة خاصة فى الأمور السياسية، وبينما كان " لين " قادراً على أن يلاحظ أن رجل الشارع أصبح فى فقر متزايد، كذلك استنبط حقيقة أخرى وهى أن الفوضى أدت إلى السكينة، والتطرف غير المقنع أدى على الأقل إلى نوع من التســـامح . لقـــد كانـــت سلطة الباشا استبدادية لدرجة تثير الأعصاب فمجرد إشـــارة أفقية بسيطة من يده كانت كافية لتنفيذ حكم الإعدام فى أى من رعاياه فـــى نفـــس الموقـــع دون ضجة، غير أنه – كما يعتقد (لين) – لم يكن ميالا للقســـوة أو الاستبداد، بل كان له لحظاته الطريفة، فمثلاً – عندما تمكن رجل عجـــوز مـــن الجـــرى نحوه وأمسك بتلاليب أكمامه رافعاً شكواه بأن حاله قد تحـــول إلـــى العـــوز رافعاً بعد تجنيد كل أبنائه فى الجيش، لم يحاول الباشا التخلص منه وصرفه، إنما أصدر أوامره أن يقدم له أغنى رجل قريته بقرة.

وبالإضـــافة إلـــى ذلك فإن العقوبات وضعت بحيث تناسب الجريمة فمثلاً عقوبـــة الجزار الذى يبيع اللحم ناقص الوزن كانت الأوقيات الناقصة تعوض لحـــم من ظهره، والمسئول الذى يسئ معاملة الخباز كان يخبز حياً فى فرن مخبـــزه. فـــالعدل علـــى الطريقة الشرقية – كما لاحظ " لين " كان له سحر جارف ساذج كذلك الذى نراه فى ألعاب رياض الأطفال.

وقد روى (لين) حكاية فلاح استدعى أمام الناظر المحلى لكى يسدد ١٣٥

(*) ولـــيام إدوارد لين (١٨٠١ – ١٤٧٦) الكاتب البريطانى ومؤلف العمل العظيم «تقرير عن أخلاق وعادات المصريين المحدثين».
An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians.
والـــذى صـــدرت طبعته الأولى عام ١٨٣٦ ومن مؤلفاته الأخرى حول اللغة العربية والإسلام.

قرشـــاً قـــيمة الضــــرائب. وكـــان كل ما يملكه الرجل هو بقرة، ومن ثم فقد عرضـــت فـــى مزاد غير أنه لم يكن لدى أحد من سكان القرية كاف لشراء الـــبقرة، عـــندئذ أسر الناظر جزاراً بأن يذبح البقرة وأجبر ستين فرحاً على شـــراء حصة (لكل واحد) مقابل قرش لكل حصة،أما الجزار فقد حصل على رأس البقرة مقابل ما قام به من عمل.

أمـــا الفلاح فقد تمكن من تقديم شكوى استدعى على أثرها كل من الناظر والجـــزار والســـــتون فلاحاً وكذلك شيخ القرية للمثول أمام القاضى. وسأل القاضـــى: هـــل كانـــت قيمة البقرة تساوى ستين قرشا فرد الفلاحين: لا يا ســـيدنا إن قيمـــتها فـــى الحقـــيقة كانت أكثر من ذلك عندئذ أعلن الشيخ أن الناظر يوقع الظلم على أى فرد يقع تحت طائلته. وهل كانت البقرة لا تساوى علـــى الأقـــل مائـــة وعشرين قرشاً، لكنه باعها مقابل ستين قرشا وهذا ظلم ألحقـــه بمالكها . عندئذ أمر القاضى بتجريد الناظر من ثيابه ثم يقيد بالأغلال، وبعدها التفت إلى الجزار قائلاً:

- أيها الجزار لا تخاف الله لقد ذبحت بقرة بدون حق.

عندئذ احتج الجزار أنه كان مجبراً على طاعة أوامر الناظر وإن لم يمتثل لأوامره فإنه كان سيضرب وبيته يخرب، ثم سأله القاضى: أننى سوف أمرك أن تفعل شيئاً فهل ستنفذه؟ فرد الجزار وهو يرتعش من الخوف: على السمع والطاعة.

فقـــال القاضـــى: اذبح الناظر وعلى الفور قطع الجزار رقبته، ثم قال له: والآن قسمه إلى ستين حصة! ثم استدعى الستين فلاحاً الذين كانوا قد اشتروا لحـــم الـــبقرة لكى يتقدموا، وأجبر كل واحد منهم على دفع قرشين مقابل كل حصـــة مـــن لحم الناظر أما الجزار فقد منح الرأس، وأما المائة والعشرين قرشاً التى جمعت فقد أعطيت لصاحب البقرة.

## الفصل الخامس

# إمبراطورية لا أمة

«طــاخ!! وانطلقــت رصاصة محدثة صفيرا مرت بالكاد بالقرب من أذن ضــابط فرنسى كان يقوم بتدريب المجندين فى صحراء أسوان المحرقة، ولم يكــن ذلك أول حالة يقوم فيها مجند بإطلاق الرصاص تجاه الكولونيل سيف Colonel Seve الــذى أصدر أوامره بأن تصطف السرية، وأمسك بكرباج فرســه، وبعد أن اتهمهم بالغباء والإهمال، والأسوأ من هذا كله سوء التنشين، وبطــريقة غــير رســمية أخذ يجلــد كل متطوع واحداً بعد الآخر، ثم ألقى بالكــرباج بعــيداً، ووقــف أمــامهــم فى حالة انتباه وأمرهم بحشو بنادقهم وإطــلاق الــنار علــيه إن شاءوا. عندئذ شعر هؤلاء الشباب بالخجل فألقوا بأسلحتهم واندفعوا يبكون عند قدميه.

وبهــذه الوسيلة الغريبة كسب ذلك الجندى السابق الذى حارب فى ووترلو Waterloo وأصــبح فــيما بعد يعرف باسم سليمان باشا (والذى كان يطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة الراقية حتى وقت قريب) احترام تلك العناصر صــعبة المراس، والذى كلف بتدريبها ليصنع منها هيئة منظمة من الضباط، فوضع بذلك اللبنة الأولى لبناء جيش نموذجى على الطراز الحديث.

كــان الحــب الأول لمحمد على هو "الجندية: لأنه كان فى الأصل جندياً، ولمــا كانــت سياسته الخارجية شاملة تقوم على أساس إما تقديم الرشاوى أو تخويــف الســلطان لمــنحه الســلطة الوراثية على مصر (وأن يحصل على الاســتقلال بإثــارة القــوى المختلفة ضد الباب العالى) فقد كانت ضرورة أن يكون تحت يده جيش جاهز أمراً ذا أهمية قصوى. ولقد أدت محاولته الأولى فى تدريب بنى جلدته من الألبان – الذين ساعدوه فى الوصول إلى السلطة – ليصبحوا قوات منضبطة – إلى اندلاع حركة تمرد ضده كادت أن تودى به إلــى نفس المصير الذى لقيه المماليك (والتى أفلت منها بقيامه بفتح الأهوسة وإغــراق القاهــرة). وكانت تجربته التالية استخدام الرقيق الذين جلبهم من

السودان بالمثل مخيبة لآماله فقد قيل أن من بين العشرين ألف سودانى الذين ساقهم فى قطعان إلى ثكناته فى مصر لم يتبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة آلاف، بينما مات الباقون من الاكتئاب كما تموت الحيوانات فى أقفاصها. فقد كانت حياة الجندية تفوق قدرتهم(٧). ومن ثم لم يكن هناك ملاذ آخر أمامه سوى أن يلتفت إلى المصريين السكان الوطنيين..

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت الهيمنة الأجنبية لقرون عديدة، فإن ذلك يرجع فى المقام الأول إلى أن الفلاح لم يحارب أبداً، بل وفى نظر الكثير من الناس أنه لن يفعل ذلك أبداً، فعلى رأس كل المحن التى عاناها المصريون تحت حكم محمد على كان التجنيد أشدها كرها بالنسبة لهم، وحتى لا يدعون أبناءهم ليؤخذوا منهم ليدخلوا الجيش، فقد كانوا يفضلون إحداث العاهات بهم.ويصف كاتب مصرى من هذه الفترة أن الفلاحات كن يتلفن إحدى عينى أولادهن باستخدام سم الفئران. ولما كان الأقباط معفيين من الخدمة العسكرية، فإن بعض الشباب من المسلمين كانوا يرسمون وشم الصليب على معصم أيديهم، والبعض الآخر من الفلاحين كان يخلعون أسنانهم لأنهم كانوا يعرفون أن الجندى يحتاج أن تكون كل أسنانه سليمة لنزع فتيل القنابل.

أما القرويون الفقراء الذين لم يكن فى استطاعتهم دفع رشوة لشيخ البلد، فقد كانوا يساقون كالأنعام إلى الثكنات مقيدين بسلسلة واحدة، وبالرغم من أن أعداداً غفيرة منهم كانت تموت، إلا أن محمد على تمكن بقدوم عام ١٨٢٠ من بناء جيش وطنى على درجة عالية من الكفاءة والتدريب، استطاع بواسطته أن يغير ميزان القوى فى شرق البحر المتوسط خلال عشرين عاماً بشكل كبير. بل وتحدى الباب العالى ذاته إلى الحد الذى جعله يحول مصر بمساعدة هذه الفرق من الفلاحين الفقراء من ولاية ينظر إليها بازدراء فى إمبراطورية متصدعة إلى قوة عسكرية ينظر إليها بإعجاب. ويمكن القول أن محمد على قد تم على يديه عودة الروح إلى المصريين الخالصين، فمهد بذلك الطريق لظهور أول قادة للحركة الوطنية المصرية وهما عرابى وعلى فهمى.

لقد خاض أربعة حروب: فى شبه الجزيرة العربية، وفى السودان، وفى

اليونان، وفى الشام. كانت أولى هذه الحملات من أجل أن يفوز بالحظوة لدى السلطان. فوقتها كان الوهابيون - وهم إحدى الفرق الإسلامية شديدة التزمت قد استولوا على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولأن باشا دمشق وباشا بغداد كانا لا يميلان لعمل أى شئ حول ذلك الموضوع، فقد انتهز محمد على الفرصة ليطوق عنق السلطان بدين، ولكى ينصب من نفسه بشكل علنى زعيماً جديدا فى العالم العربى. ولذا فقد بعث بابنه طوسون على رأس حملة عسكرية إلى الجزيرة العربية. وما كاد طوسون يرسو عند "ينبع" على ساحل الجزيرة العربية الغربى، حتى التحم على الفور مع الوهابيين فى منطقة البوغاز الجديد ذات التلال الرملية والتى تبعد عدة أميال فى العمق. كان قائد الحملة الذى يبلغ السابعة عشرة ربيعا يحظى بشعبية عارمة بين قواته، غير أنه لم تكن لديه الخبرة والتجربة فى فن الحروب. ومرة أخرى ترك لنا جيوفانى فيناتى Giovanni Finati وصفاً للحدث الذى شارك فيه. إذ يتذكر ذلك الجندى المرتزق الشاب الذى جاء من فيرارا(*): تقدم طوسون بنفسه ليبث الحمية فى قلوب رجاله ويشد من أزرهم: مناديا على الكثير منهم باسمه الشخصى، مستحلفاً إياهم بالدين والوطن، غير أن الوهابيين من نقطة تجمعهم أعلى التلال كان فى استطاعتهم أن ينهالوا علينا بالرصاص ونحن أسفل منهم دون أن نتمكن من الإفلات. وقد تسبب عن ذلك مذبحة مروعة جداً ».

وعند الظهيرة و حرارة الشمس كانت تنعكس بشدة من الأرض القفر. فإن درجة الحرارة أصبحت لا تطاق حتى أن القتال لم يعد ممكناً، وعن طريق ثمة اتفاق متبادل بين الطرفين توقف القتال فى هدنة لعدة ساعات، وراح الجنود يترنحون ليرتموا فى ظل أى نخلة تصادف وجودها وهم يقرشون التمر بصوت مسموع. وبعد حين أصبح الإحساس بالعطش شديداً لدرجة لا تحتمل " لدرجة أن إشارة استئناف الاشتباك التى أعطيت فى الساعة الرابعة عصراً، استقبلت بحالة من اليأس أشبه بالسرور.. إن الشراسة وسفك الدماء

(*) مدينة فى سهل البو شمال إيطاليا بالقرب من نابولى.

الـــذى تلـــى ذلـــك لا يمكن وصفهما فقد استمرت إلى وقت طويل بعد غياب الشمس عندما حول بعض الذعر أو الكارثة فجأة مسار المعركة، ولقينا جميعاً أشـــد الهزائم، كان هنـــاك فر وكر غير أنه: فى جو من الفوضى والارتباك حـــتى أن البقـــية التعســـة التى تمكنت من الوصول إلى المعسكر فى صحبة طوســـون أدركـــت أنـــه من المتعذر عليهم مواجهة عدو يملك السيطرة على مـــيدان القـــتال « وبعـــد أن بقوا وقتاً كافياً قاموا بإشعال النيران فى معدات المعسكر وفى الخيام، تاركين فى عجالتهم خزانة الصراف وفروا عائدين إلى السفن».

أمـــا جـــيوفانى ومعه فتى آخر - بعد أن بلغ بهما الإرهاق والعطش حداً لايمكـــن احتماله - فقد تمكنا من الزحف إلى قمة بعض الكثبان الرملية، حيث دفـــنا نفســـيهما فى الرمال، وأصبح أمامها بانوراما شاملة لما يحدث. وما إن انتصـــف الليل حتى زحفا على أيديهم وأرجلهم هابطين، وشقا طريقهم بحذر عبر حطام المعسكر، متجنبين الوقوع فى طريق أولئك الذين كانوا ينـــزعون الثـــياب عن الجثث بحثا عن الأسلاب: ولقد كان جليا أن الآلهة (؟) تقف إلى جانـــبهما، فقد وقعت عيونهما على بعض المؤن، وبعد أن أكلا وشربا، عثرا مصـــادفة على ٤٠٠ كروان(*) ذهبى مبعثرة على الأرض (وآخر مرة سمعنا فيها عن جيوفانى أنه ترك الجيش وعمل مرشداً سياحياً فى القاهرة).

وفيما بعد، بعد أن تلقى إمدادات وفيرة من ميناء القورصير Korsier(**) (القصـــــير) أصـــــبح فـــى إمكان طوســـون أن يتقدم إلى المدينة ثم مكة، وللدهشة كان أول من وصل إلى قبر النبى رجل اسكتلندى اسمه كيث Keith الـــذى أشـــهر إســـلامه وبالتالى عين حاكماً على المدينة المنورة، غير أن الوهابييـــن كـــانوا أكثر من ند لطوسون فى صحارى بلاد العرب الشاسعة،

(*) عملة إنجليزية تساوى شلنان وست بنسات.

(**) كانـــت القصـــير تعرف عند التجار الأوربيين منذ القرن الثامن عشر الميلادى باسم القورصير (المترجم).

وبالـــتالى لم يتمكن من إحراز النصر عليهم إلا بعد أن تولى محمد على نفسه ومعه ابنه إبراهيم قيادة الحملة. وأخيراً فى شهر سبتمبر عام١٨١٨ وبعد سبع ســنوات كئيبات من القتال الضارى، نجح محمد على فى سحق الوهابيين فى الدرعـــية، وألقـــى القـــبض علـــى قـــائدهم عبد الله بن سعود، وأرسله إلى القسطنطينية لينال العقاب التقليدى الذى يلقاه الثوار.

وبالرغم من ذلك فإن " الوهابية " التى تلزم الفرد على أداء كل طقس من الطقـــوس وكـــل شـــعيرة مـــن الشعائر كما جاءت فى السنة النبوية بطريقة صـــارمة، والـــتى كانـــت تحرم تدخين التبغ واستخدام العطور، وكل مظاهر الـــترف، لـــم تمت وتندثر. فاليوم يتحدى واحد من سلالة ابن سعود ادعاءات القومية العربية التى يرتطم تيارها بسواحل العربية السعودية(*).

وعلي أى حال تركت حملة الجزيرة العربية محمد على وهو يعانى نقصاً مدمـــراً فى المال والرجال، ولكى يجد ترياقاً يشفيه من هاتين المعضلتين، فقد ولى وجهه جنوباً نحو السودان، وكان هناك دافعان يحضانه على التوغل فى الأدغـــال جنوب أسوان وهما: الذهب والرقيق، فقد كان ثمن الفتى السودانى الـــبالغ فـــى أســـواق القاهـــرة أربعيـــن جنـــيها، كما أن الرحالة السويسرى بوركهـــارت أثـــار شهية الباشا بما كان يرويه عن الثراء الكثير الذى تحويه جـــبال النوبة Ethiopia. وفى شهر يونيو عام ١٨٢٠بلغ السيل الزبى، وبدأ موكـــب مـــن القوارب يشق طريقه الوعر من بولاق إلى أعالى النيل. وكانت الحملـــة تـــتكون من٣٤٠٠ رجل و١٥٠٠فارس، وبعض المدافع وكتيبة من عرب العبابدة، وتولى القيادة إسماعيل بن محمد على الأصغر.

كـــان العامان اللذان استغرقتهما الحملة يتصفان بسلوك رتيب من الوحشية ويتـــناوبان القســـوة لدرجـــة تدعـــو للتقزز، إذ لم تلق أى مقاومة تذكر حتى وصلت إلى انحناءه النيل الكبيرة عند كوستى. وهناك سحق إسماعيل بسهولة

(*) يقصد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود.

قبـــيلة الشـــايقية Shagiyeh واحـــتل بربرة، وبعدها بقليل استسلمت شندى، وشق جيش إسماعيل طريقه مكافحاً متقدماً نحو رأس الخرطوم(*) عند التقاء النـــيل الأبـــيض بـــالأزرق، وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنها كانت تشبه خـــرطوم الفـــيل (وفـــى هـــذا المكان ذاته أسست مدينة الخرطوم بعد ثلاث سنوات) وعند هذه النقطة اتجه أحمد الدفتردار (زوج أخته) تجاه الغربِ بحثا عن العبيد الزنوج بينما كان بريق الذهب يجذب إسماعيل للتوغل جنوباً. وقد كتـــب رجل فرنسى كان يسافر فى ركابه يقول: كان التعطش للحصول على الذهـــب هـــو الدافـــع الأول الذى حدا بهذا الأمير إلى هذه الدرجة للتقدم نحو الأعماق وحتى الآن – ومن وجهة النظر العسكرية البحتة، فإن هذه العملية العســـكرية كانـــت سهلة سهولة سرقة الحلوى من الأطفال. فكان الذهول قد استولى على مشاعر القبائل المحلية لدرجة عدم إبداء ثمة مقاومة تذكر، غير أن مـــنذ تلك اللحظة أصبح الطقس، وليس السكان – هو العامل الذى تصدى لإســـماعيلٍ وأجـــبره على التباطؤ ثم بعد ذلك على التوقف، فبعد مسيرة ألفى مـــيل جنوباً إلى أعماق ما هو بالفعل "أمعاء أفريقيا المجهولة" وجد نفسه وقد خـــاض فـــى مســـتنقع مـــن الأمطار، حيث اكتسحت الملاريا والدوسنتاريا الصـــفوف. وبالـــرغم مـــن ذلك فقد اضطر أن يعود أدراجه خالى الوفاض وبدون ذهب باستثناء عدد هزيل من الرقيق الذين أرسلهم إلى القاهرة.

وفـــيما عـــدا بث الرعب فى السودان، لم يحقق شيئا يذكر، بل الأدهى من ذلك أنه أوقد نارا لكراهية ضده وضد الأتراك على طول امتداد النهر، والتى أصـــبحت أشـــد تأججاً فى ذلك الوقت، واشتد غليانها عند شندى فى طريق عودته.

ربمـــا كان الإحباط والإرهاق من جراء حملة بلا ثمارهما العاملان اللذان حديا به أن يتجه إلى "مالك نمرٍ" حاكم شندي – المعتز بنفسه – والذى كان قد أهانـــه مـــنذ ثمانية عشر شهراً سبقت، عندما اتهمه بأنه قد أخفى الذهب فى

(*) وهى الآن تعرف بالمقرن أى اقتران النيل الأبيض بالازرق (المترجم).

دنقــلا، فقد صرخ بغطرسة وبصوت أجش: " أمامك خمسة أيام لتملأ قاربى بالذهب وإلا فأتى سوف أدفع عصاى لتخترق قلبك " (ويروى شاهد عيان أنه أيضا ضرب الحاكم بعصاه على وجهه). وفى تلك الليلة، بينما كان إسماعيل يقــيم ولــيمة فـــى خيمته المزينة بأغصان الشجر، زحف بعض رجال نمر، وأضرموا فيها النيران: ومات إسماعيل وبطانته داخلها.

و لقــد كـــان انـــتقام محمد على لموت ابنه فوريا ومروعاً، فقد أخذ أحمد الدفتردار وقد جن جنونه ينشر الخراب أعالى النيل وأسفله، يحرق كل مدينة أو قرية حتى يسويها بالأرض، مخلفاً من ورائه سلسلة من الأعمال الوحشية التى ترتعد لها الفرائص.

فحــتى عـــام ١٨٢٣ كـــان ما يقرب من خمسين ألف سودانى قد سفكت دمـــاؤهم، ومـــن الناحية الفعلية كان وادى النهر كله من أسوان جنوبا ــ يبابا وخرابا، وأضيف إلى حدود مصر أكثر من ٢٠٠٠ ميل من الأرض المحروقة حتى حدود الحبشة.

والآن أصبح المغامر الألبانى فى الخمسينات من عمره، وقد ترك لنا وليم تــيرنر Wiliam Turner مـــن وزارة الخارجـــية (البريطانـــية) الذى مر بالقاهـــرة أثـــناء خدمـــته كعضـــو فى هيئة مساعدى السفير البـــريطانى فى القســـــطنطينية وصـــفا له: " وفـــى الساعة الثامنة، ركبت مع المستر عزيز لـــزيارة الباشا الذى كان يقيم فى قصر صغير يقع مباشرة خارج بوابة مدينة القاهـــرة فى الطريق إلى بولاق وجدنا الباشا يجلس فى أحد أركان حجرة صـــغيرة، ثـــم أومـــأ لى بالجلوس، وقد فعلت ذلك على الفور دون أن أخلع قبعـــتى، كان يرتدى قفطانا ((Pelisse ذا لون قرمزى داكن وفوقه صديرى مقلم بالذهب، ويضع على رأسه عمامة كبيرة بارزه، ويتمنطق بسيف وخنجر مزينيـــن بعـــدد كبـــير من الجواهر البارزة، كان رجلا نحيفا ذا ملامح داكنة وماكـــرة وعيـــنان نافذتـــان، وكانت نظراته توحى بشىء من الشراسة، حتى ابتسامته تذكرنا بقوة الملك رتشارد الثالثRichard III : « أن يبتسم ويبتسم

ثم يغتال وهو يبتسم(*)».

لقد كانت ابتسامة القاتل هى التى أصبحت الآن تلقى الاحترام:"بلطجى" القرية الذى أصبح طاغية قوى الشكيمة، والذى كان قد ركز طموحاته على آفاق أبعد من وطنه مسقط رأسه. فلقد اثار كفاح اليونانيين البطولى من أجل الاستقلال الذى ألهب خيال اللورد بيرون Byron والشعوب ذات العقلية الليبرالية فى كافة أنحاء أوربا - محمد على بالمثل ولكن لسبب آخر مختلف. فكما فكر نابليون رأى محمد على أن الفرصة متاحة لاستخدام مصر كرأس حربة فى مواجهة الإمبراطورية العثمانية ذاتها: وأن هناك طريقين يؤديان إلى القسطنطينية:

طريق بحرى عبر بحر إيجه، وطريق برى عبر مقدونيا. وكانت القوات المصرية سواء البحرية أو البرية أشد قوة من الجيش والأسطول التركى الذى لايمكن الاعتماد عليهما.

وكخطوة أولى استولى على كريت عام ١٨٢٢ وأرسل حقيبة مملوءة بالآذان البشرية إلى السلطان كدليل على ما قام به، وكانت مكافأته أن حصل على اللقب الشرفى " باشا الجزيرة " وبعد عامين آخرين توجه السلطان مباشرة إليه يطلب المساعدة:

ولأن الأمور كانت تسير إلى وضع يائس بالنسبة للأتراك فى بلاد اليونان؛ فقد وعده الباب العالى إن هو أثبت جدارته بقوة السلاح ليستحق

(*) رتشارد الثالث. ملك إنجلترا من عام ١٤٨٣-١٤٨٥ وهو آخر سلالة ملوك يورك اكتسب شهرة على أنه قاتل ومتآمر وشرير وصل إلى العرش بطرق ملتوية، ويدافع بعض المؤرخين عنه بأن التشهير بسمعته جاء فى عصر الأسرة التيودورية فى القرن السادس عشر، وكان شكسبير معاديا له عندما كتب مسرحيته رتشارد الثالث وهذه الأبيات مختارة من هذه المسرحية.

اللقــب فســوف يعيــن باشا على المورة كلها. لقد أدهشت الحملة التى قادها إبراهــيم باشــا عبر البحر المتوسط (٦٠ سفينة حربية، ١٦,٠٠٠ من القوات محمولــة فى مائة سفينة نقل) كل فرد فى أوروبا، فقد كان أمرا لا يصدق أن يتمكــن محمــد علــى من بناء مثل ذلك الجيش والأسطول القويين فى مصر خلال سنوات قليلة ومن لاشىء. لقد أدى الكولونيل سيف مهمته التى كلفه بها سيده على خير وجه.

لقــد قصمت حملة إبراهيم ظهر الثورة اليونانية، فقد سقطت أثينا ثم تلاها (وبعــد حصــار طويــل) ميســولونجى Messolongi ، غير أن نجاحه أو بالأحــرى قسوته البشعة التى لازمته، كانت بداية لأفوله. فمحو بعض المدن من علي وجه الأرض، وبيع سكان البعض الآخر فى أسواق الرقيق قد يكون مقــبولا فى مجاهل بلاد العرب أو أواسط أفريقيا، ولكن ليس فى بلاد اليونان ذاتهــا، وذلــك تحــت تأثر النظرات المركزة لقارة أعطى التعليم فيها لبلاد الــيونان مكانة عاطفية. ولذا فقد كان الرأى لعام فى أوروبا يتوقد غيظا بشدة مــن مسلك إبراهيم. ودعى إلى عقد مؤتمر فى لندن (١٨٢٦)، وأرسلت كل مــن بريطانــيا وفرنســا (تلك الدول التى بدأت تتخوف من احتمال أن تؤدى الأحــداث إلــى انــدلاع حــرب أوربــية شاملة) أساطيلها مجتمعة لمراقبة الــتطورات. وربمــا كــان مجرد سوء حظ (لمحمد على) أنها دخلت ميناء نافاريــنو Navarino فــى عصــر أحــد أيام عام ١٨٢٧ حيث كان يرسو الأسطول التركى المصرى ولأن جندى تركى مضجر، يعشق إطلاق النيران، اختار طاقم قارب بريطانى هدفا للتمرين على الرماية. وكمن قرب عود ثقاب مــن البــترول اندلعت معركة. وما أن آتى المساء حتى كان أسطولا مصر وتركــيا مجتمعين قد دمرا تماما، وحتى قبل أن يظهر الأميرال كادرنجتون Cadrington قــبالة الإسكندرية يحمل إنذاراً، وقبل أن ترسو حملة فرنسية فــى المــورة، أدرك محمد على أن اللعبة قد انتهت، فقد فقد أسطوله، وعاد إبراهــيم إلى الإسكندرية ومعه أقل من نصف عدد الجيش الذى كان قد خرج به، بالإضافة إلى ذلك أوقف السلطان دفع المكافآت التى كان قد وعد بها على أساس أن المصريين فشلوا فى تنفيذ المطلوب.

لقــد كان شيشيرون هو الذى وصف معاصريه بأنهم رجال ثقال graves(*)، وقــد ظهر محمد على فى عيون الأتراك على الأقل بمثل هذا الوصف تماماً، فقــد تحول هذا الزعيم المحلى، والشريك المفيد، إلى عبء ثقيل يشكل خطراً داهمــاً. غــير أن عينيه اللتين كانتا كالخرز لم تغمضا، فمن قصره الذى بناه حديــثاً فــى رأس التين والذى يشرف على ميناء الإسكندرية كانتا تفحصان الــبحر المتوســط بدقــة، وكانــتا مدركتين دون أن تغمض لهما جفن ــ أن المجهــودات الــتى بذلها نيابة عن مولاه فى جزيرة، العرب وبلاد اليونان لم تعــود علــيه بــأى فائدة، فولاؤه للسلطان قد استنزفت تماما أغراضه بشكل واضـــح، إلا أن اكتشـــاف مؤامــرة دبرها السلطان لاغتياله هى التى دفعت الأمور إلى حد الصدام.

وفـــى عـــام ١٨٣١ ضرب ضربته، إذ أرسل ابنه إبراهيم (ولكن فى هذه المـــرة عـــبر ســـيناء (إلى فلسطين حيث انضم إليه أسطول عند يافا، ونجح المصـــريون فـــى اقـــتحام عكا والاستيلاء عليها: وكان نجاحا باهرا (إذا ما تذكـــرنا إخفاق نابليون فى نفس الموقع) أعطى للحملة قوة دافعة جعلتها تسير مـــن نصر إلى نصر عبر الشام والأناضول، ضاربة عرض الحائط بالفرمان السلطانى المذعور الصادر فى ٢ مايو عام ١٨٣٢ والذى يعلن أن محمد على خـــارج علـــى القانون ويقرر عزله من باشوية مصر. وقرب نهاية العام كان إبراهـــيم قـــد سحق جيشا تركيا عرمرمًا داخل حدود آسيا الصغرى، واحتل قونية العاصمة القديمة لسلاطين العثمانيين، وحيث كانت القسطنطينية ذاتها لا تبعد سوى مائة ميل فقط.

وكما لاحظ د.أ. كاميرون D.A Cameron فى دراسته عن محمد على أن "إبراهـــيم قـــد حقق المحال. وهذا تم على يد الفلاحين المصريين فى قلب الشـــتاء علـــى جـــنس مســـيطر كان يحكمهم كعبيد... لقد سحق المصريون

(*)Cicero: Republic, I,43.

شيشيرون: الجمهورية الكتاب الأول فقرة ٤٣.

العنصــر الــتركى في ثلاثة معارك ضارية رغم مزاياه، لقد تغلبوا عليه في القــتـال، وتقدمــوا عليه في الزحف، وتفوقوا عليه في المناورات، وأخذوه أسيرا، هذا هو اللغز الموروث في أرض مصر، فعلى طول الزمن الذى كان فــيه ذلك الباشبوزق التركى يتنقل من قرية إلى قرية، يلهب ظهور الفلاحين بالســياط، ويســوقهم كقطعــان الأغــنام ليدربهم كيف يهزمون أبناء بلدته. وبمساعدة من جانب قدر قليل من الفتية والباشوات الأتراك، وبضع مئات من صــغار الضــباط، تمكــن محمــد على من جمع المال والرجال لكى يحقق المصريون النصر على الإمبراطورية العثمانية.

كــان كــل مــن بالمرســتون Palmerston وولنجتون Wellington عازمين على منع محمد على من الوصول إلى القسطنطينية، وعلى تجديد قوة الــباب العــالى (فقد كان جوهر السياسة البريطانية في ذلك الوقت هو الإبقاء علــى الإمبراطورية العثمانية في وجه الطموحات الروسية)، فقد كان أولهما وزيرا للحرب، والآخر قائدا عسكريا عندما نجحا في الإطاحة بنابليون، وكان لا يطــيقان وجود أى مغامر عسكرى خاصة إذا كان ذلك المغامر قد اكتسب شهرة بغيضة في بلاد اليونان. وبدأ محمد على يتعرض لضغوط لكى يسحب جيشــه مقابل أن يلغى السلطان الفرمان الذى أعلن فيه خروجه على القانون وأن يصدر فرمانا جديدا (٦ مايو ١٨٣٣) يمنحه بمقتضاه باشوية الشام.

لقد أصبح الآن يسيطر على أراضى تمتد من أفريقيا الاستوائية حتى جبال طــوروس، ولكن عن طريق البراعة ــ الغريبة في حد ذاتها ــ التى مد بها حدود ولاية مصر لتصبح إمبراطورية شاسعة قبل أن تصبح أمة مستقلة، فإنه يكــون قــد بالغ في مد ذراعيه عن آخرهما، وضغط على مصادر البلاد بما يفــوق كل الحدود الممكنة. فسوريا القرن التاسع عشر التى شملت: فلسطين، ولبنان، ودمشق، وطرابلس، وحلب، وأطنة كانت مثل مساحة دلتا النيل خمس مــرات، كمــا أن عناصــرها السكانية المتنوعة لم تكن مثل الفلاحين سهلة الإنقــياد، إنما ترفض الخضوع لأى شكل من أشكال الطغيان يأتى من خارج بلادهم، خاصة تلك الأساليب القاسية شديدة الوطأة التى اتبعها إبراهيم، ويزيد

علـــى ذلـــك أن محمـــد على كان يتجه يوما بعد يوم نحو الإعلان الصريح للاســـتقلال. ومـــن وجهة نظر السلطان كان الموقف لا يطاق كما قد تبدو لنا ثـــورة ايان سميث Ian Smith(*) فى روديسيا بعد قرن ونصف بعد قيامها. كمـــا أن بالمرســـتون قام فى مجلس العموم بمقارنة وضع محمد على بوضع اللـــورد قـــائم قـــام الملك فى أيرلندا الذى يحاول أن يجعل من نفسه صاحب سيادة وراثية على أيرلندا وأسكوتلندا.

أمـــا محمـــد على فقد رأى الأمور من زاوية مختلفة، فقد اشتكى للقنصل العـــام الـــبريطانى أنـــه لـــن يسمح أبداً أن يترك كل شىء قام به: الترسانة، الأســـاطيل، المصـــانع بآلاتهـــا الحديثة، العمال الذين تم تدريبهم فى أوروبا، المـــدارس والمناجم، الطرق والترع، جميع إمبراطوريته الخاصة تضيع من بيـــن يديـــه وتذهب إلى الباب العالى، بينما يصبح بقاء أسرته الحاكمة مهددًا. فقد كان ذعره ذعر رجل عصامى.

لكـــن ما أن عاد بالمرستون إلى انجلترا حتى لم يعط مخاوف محمد على أى اعتـــبار. فقـــد كـــان جـــل اهتمامه هو الحفاظ على وحدة الامبراطورية التركـــية، ولأن ذلـــك ســـيؤدى إلى قيام الصراع بينه وبين السلطان، والذى سينتهى بهزيمة الأتراك عندئذ سوف يسارع الروس لمساعدتهم وتقوم حامية روســـية باحـــتلال القســـطنطينية والدردنيل وما أن يصبحا فى حوزتهم فلن يخرجوا منها أبدا.

(*) رئـــيس وزراء روديســـيا الأبـــيض / (الآن زمبابوى بعد الاستقلال) وأحد مؤسسى سياســـة الفصـــل العنصرى بين الأفارقة والمستوطنين الأوربيين، تمرد على الحكومة الإنجلـــيزية فـــى مطالع الستينات، وتحت الضغط الدولى والمقاومة الوطنية الأفريقية، ألغى نظرية الفصل العنصرى، وأجرى الانتخابات قياسا على أساس صوت واحد لكل رجـــل واحـــد، وكانت النتيجة نجاح الحزب الوطنى الإفريقى فى الوصول إلى الحكم واستبدال اسم روديسيا الاستعمارى باسم زمبابوى(المترجم)

وعلى الجانب الآخر فإن الفرنسيين سيلعبون على الطرفين لوضع أقدامهم فـــى المعســـكرين فبينما يؤكدون علنا للسلطان تأييدهم، كانوا يشجعون سرا محمد على على أمل أن يزيدوا من نفوذهم فى مصر.

وصـــلت الأمـــور إلى حد الصدام فى عام ١٨٣٨ عندما تم توقيع معاهدة تجاريـــة بيـــن بريطانيا وتركيا والتى بمقتضاها فتحت الإمبراطورية التركية أبوابهـــا للتجارة مع بريطانيا(*)، وبالتالى هددت النموذج المميز الذى أوجده محمـــد علـــى وهـــو أن تكون التجارة حكراً على الدولة، عندئذ طالب نائب الإمـــبراطور بالاســـتقلال عـــن الإمـــبراطورية فـــى مجـــال التجارة، ورد الإمـــبراطور بـــإعلان أنـــه متمرد وبدأ فى غزو الشام(٨)، وخاض الطرفان معـــركة بالقـــرب من نزيب Nezeb على الحدود بين تركيا والشام. وللمرة الثانية قام إبراهيم بسحق الأتراك.

ومـــن المحتمل أن تكون أنباء هذه الهزيمة هى التى قضت على السلطان العجـــوز محمـــود، بـــل الأكثر احتمالا أن يكون ذلك قد تم بفعل السم الذى وضـــعه له وزيره، ولكن مما سبب إحراجاً أكثر للخليفة السلطان عبد المجيد الـــبالغ مـــن العمـــر ستة عشر عاما هو هروب الإدميرال التركى، ومعه كل أسطوله الذى يتكون من سبع سفن حربية وعشر فرقاطات، فبدلا من أن يقوم بقصف الإسكندرية كما كان متوقعا، سلم الأسطول ببساطة ووضعه بين يدى محمـــد على، ولوهلة بدأ الموقف كما كانت الإمبراطورية التركية بكاملها قد أضحت الجائزة التى حصل عليها باشا مصر.

كـــان فـــى الإمكـــان أن يكون هو الرجل المناسب لتحمل مصير الإسلام والخلافة، ولكن بالمرستون لم يكن مستعدا أن يرى تركيا وقد طرحها أرضا مغامـــر عســـكرى، فقـــد كان ينظر إلى محمد على على أنه عنصر خطير، ومخرب يجب التخلص منه، إذا ما أريد للإمبراطورية العثمانية أن تبقى على

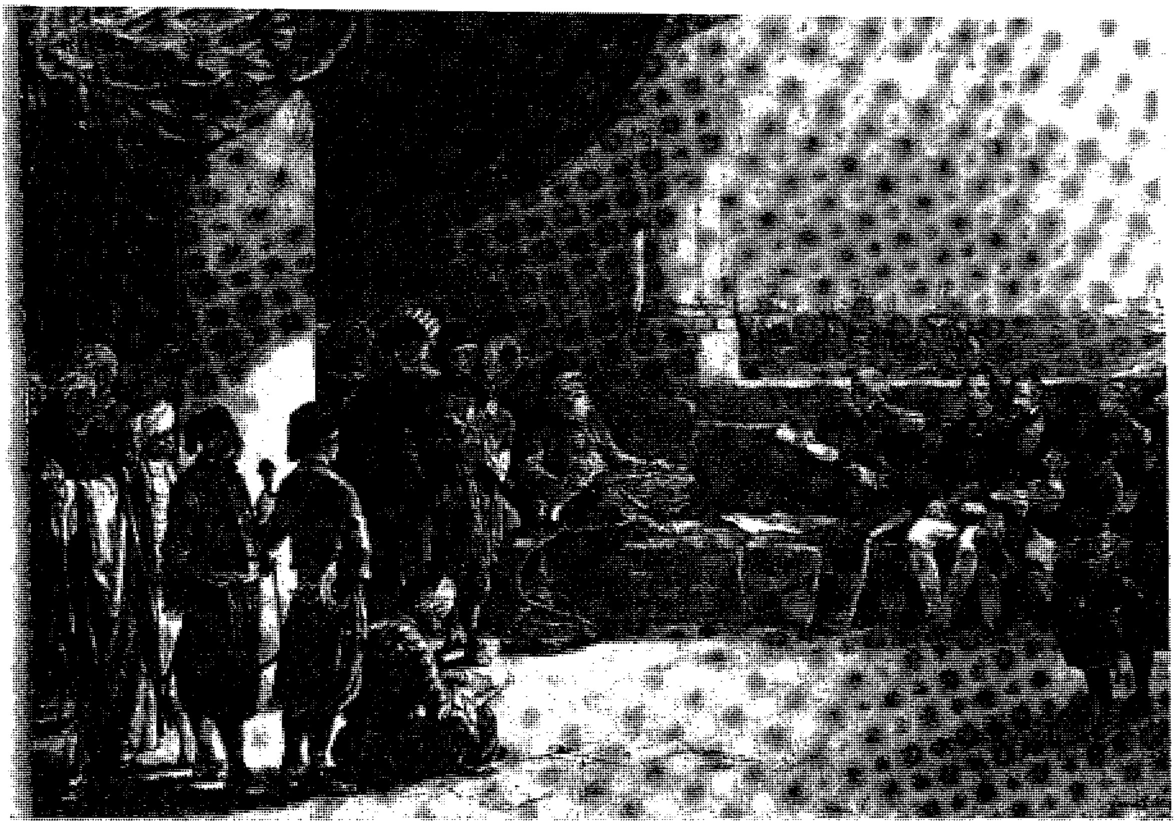
(*) معاهدة بالطة ليمان.

وجـه الأرض، وإذا مـا أريد كبح جماح الروس ووقفهم عند حدهم. وهناك آخـرون - وفرنسا بالذات - قد يتحدثون عن "رجل أوروبا المريض" وعن موتـه الوشـيك، ويضـعون الخطط لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، غير أن بالمرسـتون رفض ذلك فقد صرح: " أنها سوف تبقى إلى ما بعد عصرنا إذا مـا حاولنا دعمها وليس هدمها" وكان اقتراحه الفورى هو إرسال الأسطولين الـبريطانى والفرنسـى إلى الإسكندرية، وأخبر السفير البريطانى فى باريس: "عليـنا أن نساند السلطان بشدة بالتعاون مع فرنسا وذلك إذا ما تعاونت معنا وبدونهـا إذا رفضـت " وكلما تناول الأمر بالتفكير كلما زاد اقتناعاً بأنه لن يكـون هناك حل دائم بدون أن ينسحب محمد على إلى قوقعته فى مصر غير أن الفرنسـيين لـم يكونـوا ميالين لهذا الرأى، فقد كان لهم أسبابهم لمساندة الباشـا، فقد كان يسعدهم أن يقروا بامتلاك محمد على وورثته كل الأراضى الـتى كان يسيطـر عليها فى ذلك الوقت، فامتلاكه للشام بفضل التدخل الفرنسـى - سـوف يـتركـه سيداً على كلا الطريقين البريين فى شرق السـويس والفـرات، وهذا يعنـى السيادة الفرنسية على كلا الطريقين وعلى المنطقة برمتها.

وفـى خـريف عـام ١٨٤٠ وصل الخلاف إلى درجة الغليان لدرجة أن بالمرسـتون هدد بتقديم استقالته، فقد كانت بريطانيا وفرنسا على شفا الدخول فى حرب، وقد دوى صوت بالمرستون كالرعد وهو يقول:" أبلغوا المسيوتيير Thiers(*) أنـه لـو أن فرنسـا ألقت بالقفاز على الأرض فإننا لن نرفض الـتقاطه، وأنهـا إذا شرعت فى الحرب فإنها بكل تأكيد - سوف تفقد سفنها ومسـتعمراتها وتجارتهـا، وسوف يتوقف جيشها فى الجزائر على أن يكون مصدر قلق لها، أما محمد على فإنه سوف يطرد إلى ضفاف النيل».

ولـولا الخطـوة الحازمة التى اتخذها الملك لويس فيليب باستبدال «تيير» بآخـر وهـو جويزو Guizot لاشتعلت الحرب فى أوربا بسبب محمد على

(*) رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الوقت (المترجم).



محمد على يستقبل ضباط الأسطول البريطانى فى الإسكندرية فى مايو ١٨٣٩ وهو شعر بأن أحلامه قد إنهارت (لوحة من رسم دافيد روبرتس David Roberts من مجموعة مانسيل بلندن)

وبذلــك تركــت حرية، التصرف لبريطانيا لإعادة الباشا لحجمه الطبيعى. فقد قــام فيلق بريطانى بقصف عكا بالقنابل، وتفجير مخزن إبراهيم باشا للعتاد، وثار السوريون وحاصروا المصريين، واضطر إبراهيم ــ الذى كثيرا ما قاد الفلاحيــن مــن نصــر إلــى نصر ــ مثلما حدث لنابليون من قبل أن يقوم بانسحاب مكلف من سيناء عائدا إلى مصر، فمن بين الثمانين ألف مقاتل الذين تــركوا دمشق لم يرجع منهم بالفعل سوى ١٥,٠٠٠ من بينهم ٥٠٠٠ حملوا إلــى المستشفيات. وكتب القنصل الأمريكى فى القاهرة تقريراً قال فيه: " كان هــذا نتيجة بضع سفن أوروبية وحفنة من القوات البحرية النمسوية والبحرية بالتعاون مع الجيش التركى والانتقام المجنون للشعب السورى الغاضب "

وحــتى الأســطول التركى الهارب لم يكن بذى فائدة كبيرة لمحمد على، ولــذا كان عليه أن يستخدم أسطوله لمراقبة الأتراك الساخطين، ولابد أنه قد تبين له أن اللعبة قد انتهت قبل أن يرسو العميد البحرى نابييه Napier أمام الإســكندرية، ومعه ستة سفن، وجعله يذعن لإجراء بعض الحديث الصريح الــذى يتصــف بــه هذا البحار. فقد قال له باختصار: " لو لم يذعن جلالتكم لمناشــدتى لكــم بــأن تكفوا عن إبداء المزيد من المقاومة الحمقاء.. وأيم الله ســوف أنهال عليك بالقنابل، وسوف أقذف بقنبلة فى نفس ذلك المكان الذى تجلس فيه ".

ولكن محمد على لم يفقد كل شيء، وكما حققت له سياسة البوارج المزودة بــالمدافع النصــر ذات مرة، بذل بالمرستون كل ما فى وسعه لطمأنة الباشا المنزعج، فبمقتضى الفرمان المؤرخ فى ١٣ فبراير عام ١٨٤١ كذلك التوقيع على معاهدة لندن فى شهر يوليو التالى عام ١٨٤١ ترك لمحمد على السيطرة الفعلــية على مصر تحت السيادة التركية الاسمية، مع حق أن يرث العرش أكبر الذكور من صلبه ومن داخل أسرته.

وهكــذا بهــذا الضــمان الدولى، نال الرجل الذى استولى على بلد بأكمله الاحــترام، فقــد يكــون فقــد إمبراطورية، لكنه أسس أسرة حاكمة وراثية، وبالإضــافة إلى ذلك فأنه وضع مصر تحت أضواء الشهرة. فما أن استرخى

الـــتوتر، حـــتى بـــدأ الـــزوار يتدفقون عليها، وكان من أوائلهم ذلك الصبى المـــزارع المغامر الذى جاء من برستون كيبس Preston Capes فى إقليم نورث هامبرلاند North Humberland الذى تحول من الفلاحة إلى البحر. بـــدأ فـــى عام ١٨٤١ يساعد فى إدارة الفندق البريطانى بالقاهرة، والذى كان يقـــدم الطعام للمسافرين براً إلى الهند، وبعد خمس سنوات تلت شيد صمويل شبرد Samuel Shepherd فندقا حمل إسمه وكان واحدا من أهم العلامات المميزة للقاهرة الحديثة التى كانت لا تزال تعيش فى مناخ العصور الوسطى، ولـــم يمـــض وقت طويل حتى أصبح فندق شبرد بحماماته الحجرية العميقة المشـــيدة علـــى الـــنمط الأوروبى لتحقيق وسائل الراحة، على رأس برنامج الرحلات لكل إنسان. وطبقا لسجلات الفندق أقام فيه أو كنجليك Kinglake أثـــناء اندلاع وباء الكوليرا، وخلد زيارته لأبى الهول بوصف بهيج أعظم ما خطه قلمه، إلى جانب قطعة غراء من أدب الرؤيا، إذ كتب يقول:" إن تمثال أبـــى الهـــول الذى لايمت إلى عالم الأرض بصلة راح يراقب ويراقب بنفس العينين غير الهازلتين كالعناية الإلهية، وبنفس المسحة الحزينة الهادئة توالى الأسر القديمة الأثوبين، والملوك المصريين، والإغريق، والرومان، والعرب، والعثمانيـــن ويرقـــب، المعارك والطواعين، والبؤس الذى لا ينتهى للعنصر المصـــرى، وكذلـــك الـــرحالة ذوى العـــيون المدققـــة: هيرودوت بالأمس: ووربـــيرتون Warburton الـــيوم، على كل أولئك وأكثر كان (أبو الهول) شاهداً ».

.. إنـــنا ســـنموت والإســـلام ســـوف يخبو نوره، وسوف يغرس الرجل الانجلـــيزى وهـــو ينحـــنى بشدة ليمسك بحبيبته الهند ـــ ويضع أقدامه على ضفاف النيل فى ثبات. وسوف يجلس فى مقاعد المؤمنين.. أما تلك الصخرة الـــتى لا تغفل ولاتنام، فستظل تراقب وتراقب إنجازات هذا العنصر البشرى الجديد كثير العمل، بنفس العينين الحادتين الحزينتين، وبنفس المسحة الحزينة الهادئة الأبدية"(*).

(*) اسمه بالكامل ألسكندر وليام كنجليك، مؤرخ وأديب بريطانى عرف عنه تعصبة الشديد ضد الإسلام والدولة العثمانية، ولد عام ١٨٠٩، وتوفى عام ١٨٩١. درس وتخرج فى

وفى غضون ذلك طال بقاء الباشبوزق العجوز فى مقاعد المؤمنين لبضع سـنوات أخرى وهو يحافظ على النظام القديمة للأشياء سليما، ولكن منذ عام ١٨٤١ فصاعدا بدا واضحا أن محمد على قد أصبح رقما ماضيا فى حسابات العـالم الخـارجى. فقـد انتهى تأثيره فى الشئون الدولية. ومع انتهاء سياسة الاحـتكار الاقتصادى تدهور نفوذه التجارى الشخصى، وخيم التراب والرمال على مصانعه، وحتى ذاكرته بدأت تخونه فى آخر الأمر. وفى أيامه الأخيرة، قـام بزيارة يسودها الحنين إلى الماضى إلى القسطنطينية، كما شرع فى بناء قـناطر على النيل عند قليوب. وشيد مسجداً رائعا فى القلعة لا تزال مناراته العلمـية الشـكل تشرف على القاهرة الحديثة. وربما كان مسجده هذا رمزاً للرجل ذاته، هام أكثر منه جميل يستطيع المرء أن يتأمله من بعد أكبر بشكل أفضل، وتحت أضواء معينة.

كمـبردج، وبعد تخرجه قام بسياحة كبرى فى ولايات الإمبراطورية العثمانية خاصة مصر التى زارها فى عصر إسماعيل خلال وباء الطاعون حيث كانت بريطانيا تسعى لمـد نفوذها المالى على مصر أملا فى احتلالها مستقبلاً. بلغ به التعصب ضد العرب الإسلام أن اشترك مع الفرنسيين فى قمع ثورة الجزائر وكذلك فى حرب القرم. سجل نبوءاته والتى تمثل الكراهية للإسلام والشرق فى كتابه الذى أسماه «بالنبوءة» Eothen حيث نقل المؤلف هذا المقطع الأخير. انظر.

A.W. Kinglake: Eothen or Traces of Travel Brought Home From the East with introduction and notes by Robin Feden, Chapter XX, (The Sphinx) pp. 235 236 Methuen & Company LTD. .(المترجم)

الفصل السادس

# باشوات ونهابون

(خلفاء محمد على)

يقـــال إن محمد على وهو على فراش المرض همس قائلاً: « إن أحفادى سوف يحصدون ما بذرت » وقد علق السير جورج يونج على ذلك بقوله: « لقــد حصــدوا كل شيء بتهور شديد، ولم يبذروا حباً لمحاصيل أخرى غير الانغماس فى الشهوات.

لقـد جــاء حفـيده عباس فى المقدمة(*)، كان رجلاً نكد المزاج، مصمت الشــفاة، يعتريه مرض نفسى يجعله يكره أىشيء أجنبى أو مبتدع، كان حقاً مــنطوياً على نفسه، جاعلاً كل همه هو جمع المال وبناء سلسلة من القصور المشــئومة فى الصحارى، توارى فيها عن الأنظار كما توارى (الإمبراطور الــرومانى) تيــبريوس فى جزيرة كابرى، لا يحيط به شيء سوى حفنة من العبــيد، وأقفــاص مــن الوحوش الضارية. بالإضافة إلى ذلك كان سوداوى المــزاج إذ كــان يســتهويه جلــد الفلاحيــن، وجلد نسائه أيضاً. ففى إحدى المناســبات عندما أدينت امرأة بارتكاب جريمة الزنا، ووضعت – وقد سادها الرعــب – فى جوال استعدادا لإلقائها فى النيل (وهى العقوبة التقليدية للبنات اللائــى ضللن الطريق)، اقترح عباس لتسلية النظارة إضافة شيء جديد، إذا أمــر أن يضــم الجــوال قطة وأبنائها الصغار قبل أن يلقى بالضحية فى الماء.

وبالمــثل جاءت نهايته كنهاية «الأراجوز الكبير» «Grand Guinol»، ففى أحــد قصــوره النائية فى بنها، قام فتيان من العبيد أرسلهما أحد أقربائه من القســطنطينية بخــنقه، وذلك فى إحدى أمسيات شهر يوليو عام ١٨٥٤. ولقد حــاول الباشــوات الذين عقدت الدهشة ألسنتهم أن يخفوا خبر الجريمة، ربما لكى يعطوا لابنه إلهامى الفرصة حتى يعود من الخارج ويتولى منصب نائب

(*) عباس الأول (١٨٤٨ – ١٨٥٤).

السلطان، فقاموا بوضع جثته فى عربة مغلقة، وتجولوا للنزهة فى صحبتها عبر الشوارع لإعطاء الإيحاء بأن عباس يقوم بجولته المسائية على عربته كما اعتاد أن يفعل. وبالرغم من ذلك تسرب الخبر، كما أن موجه الحر الخانق أقنعت المصريين أن أبواب جهنم قد فتحت لتستقبل حاكمهم الراحل.

ومنذ قرن مضى كانت القاعدة التى أعتاد المؤرخون وضع بصماتهم عليها أن يدمغ شخصياتهم بوصف: إما « طيب » أو « شرير »، وكان عباس يصور دائماً بمثل هذه الألوان الكئيبة، حتى أنه لم يكن هناك شك بأنه لا يستحق الحديث عنه. فبعد أن عين وليا للعهد منذ أن بدأت ذاكرة جده محمد على تخونه رفض حضور جنازة أبيه، وعلى الفور شرع فى نقض وإعادة كل شيء فعله الباشا العجوز إلى ما كان عليه من قبل، فقد أغلق ما تبقى من مصانع، وصرف المستشارين الأوروبيين، وأنهى وجود الأسطول، وانسحب معتزلاً خلف ستار من دخان الغموض الإسلامى، لكن ربما لم يكن المؤرخون عادلين فى الحكم عليه فقد شارك عباس فى الحملة على الشام(*)، ورأى بنفسه عدم جدوى بناء الإمبراطورية الشخصية فى مواجهة المعارضة الأوربية، كما شاهد الانهيار الكامل لطموحات محمد على، وبات مقتنعاً أن ما تحتاجه مصر فى حينه هو التخلص من المشروعات الخيالية لطموحة، والاحتكارات التجارية غير المفيدة، وفترة من السلام والهدوء. لقد وجد نفسه محاطاً بحفنة من الأوروبيين النهمين والمتزلفين من أبناء البلد، الذى كان همهم الأول الإثراء على حساب البلاد(**) ولهذا لاذ إلى العزلة فى مناخ العصور الوسطى، وإذا كان له أى اتصال فقد كان مع البريطانيين الذين كانوا أقل فساداً من الآخرين. وهناك نقطة واحدة بيضاء فى سجل حكمة الأسود والذى بلغ خمس سنوات، وهو إنشاء أول خط حديدى فى الشرق

(*) وهى من ١٨١٣ - ١٨٤٠. وقد أغفل المؤلف أن عباس أرسل فرقة مصرية لكى تحارب إلى جانب العثمانيين فى حرب القرم Crimem war المترجم.

(**) كان على رأس مستشاريه نوبار باشا ويوسف حقيقيان بك (المترجم).

يربط بين القاهرة والإسكندرية(*)، وقد تم ذلك على يد ابن روبرت ستيفنسون Robert Stevenson.

هناك حكايتان تعطيان لمحه عن الرجل، ففى إحدى المناسبات روى أن حسن باشا المانسترلى (مستشاره) حاول إقناعه بتوقيع قرار يحظر بيع مخدر الحشيش، لكن عباس رفض ذلك وهو يلقى بالطلب جانباً قائلاً: « لو أننى حظرت تعاطى الحشيش فأنهم سوف يشترون مشروب العرقى بدلاً منه من عند اليونانيين، الذين سوف يدخلون إلى رءوسهم أفكاراً ثورية. أن الحشيش يسبب الغباء. والعرقى يفعل العكس ولهذا فأنا أفضل الحشيش! ».

أما الثانية فقد اشتكى لمهندس فرنسى قائلاً: « إنك دائماً تأتى وتزعجنى بخصوص قناطرك. لقد خطر ببالى فكرة... هذه الأكوام الضخمة من الحجارة التى تسمى الأهرامات تقف بلا فائدة. لماذا لا تنزع الحجارة منها لإنجاز العمل. أليست تلك الفكرة جيدة؟ وهنا قال المهندس الفرنسى وقد علته الدهشة متلعثما: « بهذه الأهرامات »؟ فكرر عباس مبتهجاً: « نعم ولم لا؟ هل أنت غبى لدرجة تبجيل هذه الأكوام القبيحة من الحجارة التى لا فائدة ترجى منها؟ وإذ كنت لا تستطيع استخدامها فى بناء القناطر. فقد استخدمته من قبل فى بناء القاهرة ».

لقد كان يعنى ما يقول، غير أن المهندس الفرنسى بعد أن قضى ليلة جافاه فيها النوم، خطرت بباله فكره أن يلعب على جشع عباس لكى ينقذ الأهرامات. فقد حمل معه ورقة كبيرة مليئة بأرقام وحسابات، وعاد فى اليوم التالى إلى نائب السلطان. وسأله عباس متشككاً: « ما هذا كله؟ ما هذا الهراء

(*) بدأ تشغيل هذا الخط عام ١٨٤٥. وكان يستغرق ٤٢ ساعة لقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية، لكن بناء كوبرى كفر الزيات فى عام ١٨٥٩ اختزلت مدة الرحلة بين العاصمة والثغر من ٤٢ ساعة إلى سبع ساعات فقط (يونان لبيب: الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، الحلقة ٣٠٣ ص ١٦ سبتمبر ١٩٩٩).

الذى تحضره لى؟» فرد المهندس قائلاً: « يا صاحب السمو بعد تلقى أولمرك بخصـــوص خلع الحجارة من الأهرامات لبناء القناطر، رأيت أنه من واجبى أن أجرى حسابات تقديريه حول التكاليف.. وها هى ».

فقال عباس متعجلاً: « حسنا كم سيكلف ذلك؟ » عندئذ ذكر المهندس رقماً فلكياً كتكاليف لنزع الحجارة ثم نقلها. وأخيراً أقنع عباس بترك الفكرة.

ولقـــد أخـــبر القنصـــل الأمريكى فيما بعد أنه قال له: « تصور يا سيدى Figurez - vous Monsieur وتخـــيل احساســـاتك أن يشار إلى أبنائك فى كل مكان كأبناء الرجل الذى هدم الأهرامات! ».

لقد حل محل عباس شخصية أكثر تفهماً(*)، فكل واحد تقريباً (حتى أولئك الـــذي لـــم يقـــرأوا عن هنرى الرابع قط) نظر إلى سعيد بنوع من الهيلمان الشـــرقى Oriental Falstaff رجـــل عملاق ذو وجه أحمر، ولحية وشارب كـــث، يأكل ويشرب، ويسب، ويلعن، ويضحك فى وقت واحد مبدياً فى ذلك استمتاعاً يفوق الوصف ويقول يونج Yong فى كتابه: « تاريخ مصر » « لقد كـــان هـــناك حالـــه مزاحـــية رابيلاســـية Rabelaisian حـــول ذلك العملاق Gargantua الـــذى يزن خمسة وعشرين حجراً(**) والذى تتجسد فيه كل ما هـــو كومـــيدى فـــى نظـــرة الغرب عن الشرق، أوفى فى نظرة الشرق عن الغـــرب. لقـــد كان مثل السلطان فى ليالى ألف ليلة وليلة مع إضافة شخصية جابوتن الصعلوك Gabotin فى الحى اللاتينى، فقد كان يطيح برءوس الشيوخ الذيـــن يســـيئون التصـــرف وقـــد غمرته السعادة. كما أشعل نيران مطالباته بالمـــتأخرات الضريبية فى القرى بشكل مرح، والبالغ مقدارها ثمانين مليون قـــرش. كما كان يسلى زواره من الحكام الأجانب بقصص فرنسية مضحكة،

(*) تولـــى ســـعيد من ١٨٥٤ - ١٨٦٣ بعد مصرع ابن أخيه عباس. وقد أعاد نشاط أبيه محمد على فى تحديث مصر (المترجم).

(**) أى ١٥٨,٥ كـــيلو جـــرام، والحجـــر (Stone) وحدة وزن انجيلزية تعادل ١٤ رطلاً والرطل يعادل ٤٥٣ جرام (المترجم).

كما كان يجعل باشواته يخوضون معه فى مساحيق البارود السائب وفى أيديهم شمعة مضاءة ليختبر قوة أعصابهم.. غير أن الحياة مع سعيد لم تكن أبداً مملة فكثير ما كان يصيح " أعطه مائتين " دون أن يوضح عما إذا كان المقصود هو ضربات الكرباج أو البقشيش!".

ومنذ اللحظة التى جلس فيها على العرش كنائب للسلطان، كان واضحاً أن سعيد ينوى الاستمتاع بشئون إدارة البلاد. إذ بدأ بتغيير زخرفة بهو الاستقبال فى قصره بتكاليف قدرها عشرة ملايين فرنك (مليون دولار حسب أسعار الصرف فى هذه الأيام)، تلى ذلك أنه متع نفسه بشئون الجيش، فقد ألبس الجنود زياً صممه بنفسه. ومن أكثر الأمور لفتاً للنظر تكوينه فرقة من النوبيين العمالقة وهم يرتدون من الرأس إلى أخمص القدم سلاسل الدروع على غرار الصليبيين القدامى، كما ظهرت فرقة أخرى مكسوة بالذهب ولها دروع صدر من النحاس اللامع على جانبى الخيل والرجال، وخوذات نحاسية تبرق. وكان يطيب له تدريبهم بنفسه فى ساحة استعراض خاصة مغطاة بصفائح الحديد لمنع تطاير الغبار حتى لا تلوث ملابسه الباريسية الصنع، كما كان يطيب له أيضاً أن يقوم بمناورات فى الصحارى يكسب فيها معارك وهمية، والتى كانت بالنسبة له أكثر ملاءمة من الحملات الحقيقية الدامية. ولكى يسعد الجميع، فقد خفض مدة الخدمة العسكرية إلى عام واحد. وكان أولاد الذوات jeunessse dore فى البلاط يتباهون فرحين بأزيائهم، كما قام بمد توصيلات السكك الحديدية لكى تصل إلى القصور حتى إذا ما شعر بالملل كان فى استطاعته أن يأوى إلى عربة خاصة مصممة على غرار البيت ويبقى فيها لحين من الوقت فى ناحية ما.

أما أيام الطيش فكان يقضيها فى باريس، وكان يتخيل نفسه كرجل حاضر البديهة، فعندما كان فى لندن لحضور المعرض الكبير تصادف أن كان الجو مكفهراً كما يحدث دائماً فى فصل الصيف، وفى يوم من الأيام عندما كان يتجول حول قصر الكريستال لاحظ سعيد أن شعاعاً من أشعة الشمس يخترق السطح الزجاجى للقصر، فالتفت إلى ذو الفقار باشا الذى كان بصحبته قائلا: "انظر.." لأن الشمس نادرة فى هذا البلد.. ولذلك وضعوها للعرض فى المعرض".

ذات مــرة أبدى بسمارك ملحوظة عن فيلهلم الثانى قائلاً:" إن القيصر يود أن يحــتفل بعيد ميلاده كل يوم » ولقد كان فى مقدور بسمارك أن يبدى نفس الملاحظــة عن سعيد، فقد أصبح قصر نائب السلطان أكثر الأماكن فى العالم تقديمــاً لكرم الضيافة، فكل شخصية تلقى الترحيب الواجب، أيا من كانت ما دامــت تنــتمى إلى أبناء الأسر de famille من العائلات التركية أو الأجانب ومــن ثــم فقد كانوا زواراً مناسبين لاستعراض مظاهر الأبهة والعظمة. إن بعــض الممارســات المحدودة والتى كانت لا تزال باقية منذ أيام محمد على فتحــت لهــا الأبــواب عــن آخرها. فقد أعيدت الملكية الخاصة للأراضى، وتحــررت الــتجارة، وبدأت الزراعة تزدهر وعلى رأسها محصول القطن، وبدأت الأشغال والمشروعات العامة تزدهر تنمو.

وفجأة بدت مصر كما لو كانت أرض الميعاد. وتحول عدد الزوار الهزيل إلى طوفان جارف، فقد ذكر قنصل فرنسا فى الإسكندرية فى تقرير له: " من كــل ركــن مــن أركان أوربا جاء الأفاقون، والباحثون عن الذهب فى شكل جماعات ليتساقطوا على مصر كما لو كانت كاليفورنيا" فقد كان متوسط الذين وصلوا إلى الإسكندرية ما بين أعوام ١٨٥٧- ١٨٦١ حوالى ٣٠,٠٠٠ سنوياً، وكــانوا جمــيعهم مــن الناحية الفعلية حثالة البحر المتوسط.. جمهور أشبه بالمافيا لا يهمه سوى شيء واحد، وهو أسرع وأقصر الطرق لجمع المال.

لقــد وجــد سعيد نفسه محاطا بزمرة من المضاربين الذين بلغ بهم الشره درجــة لا تؤهلهم لتطوير أى خطة يحاول التفكير فيها، ومن ثم لم يكن لديه أدنــى فرصة. وربما كان فى مقدوره فقط أن يتحكم فى مشروعاته الخاصة من خلال مصفاة الإدارة المركزية، لكنه على نحو مميز كان يفضل الصفقات الشخصية على مفاوضات السوق العامة. وعلاوة على ذلك فقد كان موضوعاً فــى موقــف صــعب بســبب ذلك التنظيم الغريب والعتيق المعروف باسم " الامتــيازات " الأجنبــية التى كانت تعطى حصانة قانونية لأى شخص يحمل جــوازاً أجنبــياً ويقيم داخل حدود الإمبراطورية العثمانية. إن مبدأ الحصانة

يعود تاريخه إلى أيام سليمان القانونى(*) فى القرن السادس عشر. وكان يقوم على أساس أن القانون التركى قانون شخصى أكثر منه قانون إقليمى، وبذلك فإن المسيحيين داخل الأراضى التى تخضع للسيادة العثمانية كانوا يمنحون الحماية من العنف المحتمل، أو الظلم الذى قد يقع عليهم من السلطات المحلية. وبناء على ذلك فإن شئون الأجانب القانونية كان ينظر فيها محاكم قنصلية خاصة بهم.

وطوال الفترة التى كان فيها عدد قليل من الأجانب يشملهم هذا النظام، فقد كان يعمل بهدوء تام، ولكن ما أن تدفق الصعاليك على البلاد حتى أصبحت الامتيازات الأجنبية مصدر إفساد وفساد مناف للمنطق. فباستثناء موافقة قنصل بلده. الذى كان يحميه ظالماً أو مظلوماً، كانت حرمة الأجنبى تقريباً لا تنتهك على الدوام، كما أن الممثلين الدبلوماسيين لبعض البلاد الصغيرة (وكانوا أنفسهم رجال أعمال أكثر منهم شاغلى مناصب رسمية) ذهبوا فى تصرفاتهم إلى حد غريب فى تأييد موكليهم، بل أنهم لم يكونوا أنفسهم بعيدين عن اتباع بعض أنواع الحيل المعقدة مقابل نسبة مئوية من العائدات ليضمنوا انتقال أموال السلطان إلى جيوب من هم تحت مظلة حمايتهم.

إنه أمر حقيقى أن بعض درجات الحماية للأوربيين كانت ربما ضرورية، ففى دولة بدائية كمصر فى ذلك الوقت لم يكن من المحتمل أن يتلقوا معاملة عادلة من الموظفين المسلمين الذين كانوا ينظرون بأسى إلى الأيام الخوالى عندما كان ينظر إلى الكفار بأنهم قوم محتقرون، وأقلية مهانة[١٠]، والذى لا شك فيه أن قدراً كبيراً من كراهية الأجانب نبع من سوء معاملتهم وادعائهم التسامى المتعجرف على ابن البلد المصرى.

(*) سليمان القانونى (١٥٢٠- ١٥٦٦) السلطان العثمانى عرف عند الأتراك باسم القانونى وعند الأوروبيين باسم سليمان الأبهة والعظمة The magnificent، تشبهاً بالنبى سليمان كما وردت سيرته فى التوراة (المترجم).

إن الذيـــن يعـــرفون مصـــر الـــيوم بحكومتها "الكبيرة" التى فى مقدورها مصـــادرة الملكيات حينما تشاء، وتطرد ممثلى الدول العظمى عند ظهور أول بـــادرة للـــتأزم الدبلوماسى ليدهشون كيف سمح سعيد لخزانته أن تنهب بهذه الطريقة المكشوفة، وبالطبع أن الإجابة على ذلك ليست لأن بندول الساعة قد مـــال لدرجة أن سعيد لم يكن فى مقدرته أن يقول لا لأى شخص، لقد كـــان مـــن الأيســـر له أن يعطى موافقته لكى يزيح عن كاهله شئون المال المرهقة بحركة فيها شىء من الإذعان. إن صورة العاهل الكريم المتألق كانت تقتضى مـــنه أن يغدق بوابل من السخاء على من حوله بكلتا يديه، وإلى صاحب أىٍ فكـــرة ذكـــية أيا من كان، فمثلاً عندما جاء مضحك القصر يشتكى أن تقديراً لحســـابه بالليرة الإيطالية جاء ضئيلاً، وللتغلب على هذه المشكلة فقد تم تغيير علامـــة الليرة إلى علامة الإسترلينى (وهى نفس العلامة بالإيطالية على أية حال).

وبالطـــبع فإن المال الوفير يقبع وراء التعاقدات والامتيازات التى تمنح من أجـــل الأشـــغال العامة والخدمات والإمدادات. وكان الأوروبيون وحدهم هم الذيـــن يقومـــون بهـــا، فهـــم وحدهم منذ احتكارات محمد على الذين قتلوا المواهـــب الـــتجارية المحلية، وكان تحت أيديهم رأس المال والمعرفة للقيام بمهمـــة بناء مصر على النسق الأوربى الغربى. وفى حين أنه من الخطأ أن نظـــن أن كل العقود كانت عملاً من أعمال الاحتيال، إلا أنها كلها وبكل تأكيد وبـــدون اســـتثناء حاولت اعتصار أكبر قدر من الفائدة من أى مشروع. فكل فـــرد فـــى بطانة سعيد وعلى رأسهم المسئولين الأتراك وضعوا أصابعهم فى جـــرة العســـل ما دامت هناك فائدة يمكن أن تعتصر عن طريق الضغط الذى يمارســـه القناصـــل حتى من غير العقود: مثل الخسائر الحقيقية أو الوهمية، والمطالبات الفلكية للغاية التى كانت تجئ من كل ناحية، والأدهى والأمر أنها كانـــت تسدد. فقد كان سعيد – الذى أحاط نفسه بحفنة من المتزلفين المتذللين يســـخر مـــن مشاكله، إلا أنه من آن لآخر كان يبدى القليل من مظاهر الغيظ مثلما حدث عندما قاطع محادثته مع مقاول فرنسى ليطلب من خادمه أن يغلق الـــنافذة، مطلقاً إحدى نكاته قائلاً: لو أن البرد أصاب هذا السيد المبجل فإن

ذلـــك سوف يكلفنى ١٠,٠٠٠ استرلينى » فيما عدا ذلك فقد استمر فى حرق الشمعة من طرفيها وهو يبتهج: الطرف الأول هو تجاربه الأوروبية، والثانى هو بذخه الشرقى مما زاد من أحلام النهابين.

غير أن أكبر عملية نهب فاقت كل شيء كانت على وشك الظهور.

## الفصل السابع

# قناة عند خليج السويس

كـــان فرديـــناند ديلســبس قــد عين قنصلاً سامياً Consul lve مقيماً فى الإسكندرية حيث كان أبوه قد شغل من قبل وظيفة الممثل الدبلوماسى لفرنسا، ولمـــا وصـــل إلـــى مصر شعر بالسخط عندما كان عليه أن يقضى فترة فى العـــزل الصحى (الكارانتينا)، ولكى يبعد عن نفسه الضجر خلال فترة هذين الأســـبوعين، أخذ معه تقريراً كان لوبير Lepere قد وضعه منذ ثلاثين عاماً بـــناء علـــى طلب نابليون حول مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. وسرعان ما ألهبت الفكرة خياله.

لقد كان يعرف أن فكرة شق قناة عبر خليج السويس فكرة لا جديد فيها إذ كانـــت فى الواقع – واحدة من أقدم المشروعات التى فكر فيها المصرى بعد قـــيام الحضارة، كما أن تفاصيل شق أول طريق مائى يربط نهر النيل بالبحر الأحمـــر فقدت فى ضباب التاريخ القديم، فطبقاً للتراث كان أول من شقها هو سيزوستريس(*) أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ ق.م. حيث ربطت ما بين الفرع البيلوسى للنيل على مسافة ليست ببعيدة من مدينة بلبيس الحالـــية، ثم تتبعت حزام وادى الطميلات الأخضر متجهة نحو الشرق حتى البحـــيرات المـــرة، ثـــم وصلت إلى البحر الأحمر عند ميناء القلزم Clysma القديم بالقرب من السويس.

(*) هـــو سنوسرت الثالث سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة (١٨٧٨– ١٨٤٣ ق.م) من الدولـــة الوسطى ونسب إليه حفر قناة ما بين النيل وخليج السويس، عن طريق وادى الطمـــيلات والبحـــيرات المرة، وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى مباشر يصل ما بين الـــبحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق النيل. وقد سماها المؤرخون الأغريق قناة سيزوستريس وهو الاسم الذى أطلقوه على سنوسرت الثالث. (المترجم).

ولمـــدة تزيد على ألف عام ظلت قناة الفراعنة تربط "منف" ووادى النيل بالبحر الأحمر، ولكن عند قدوم الغزو الفارسى عام ٥٢٥ ق.م كان الغرين قد ردمهـــا، لأن نقش دارا يسجل أنه فى عام ٥٢١ ق.م أمر (دارا) بإعادة حفر القـــناة مـــرة أخرى. وقد ذكر هيرودوت أنها تتسع لمرور سفينتين من السفن ذات الـــثلاث طوابق من المجدفين تبحران جنباً إلى جنب، وأن الرحلة كانت تســـتغرق أربعة أيام. وقد اختصر الرومان المسافة عن طريق شق قناة أكثر اســـتقامة عرفت باسم قناة تراجان، وهى التى اتصلت بالنيل من مكان لا يبعد كثـــيراً مـــن مواقـــع القاهرة الحديثة والتى كانت تعرف وقتذاك باسم بابيلون Babylon(*). وبعـــد الفتح العربى أعيد تشغيلها تحت الاسم الرنان (قناة أمير المؤمنيـــن). أمـــا عن مشروع شق قناة مباشرة من بحيرة التمساح إلى البحر المتوســـط، فقد توقف فقط بأمر من هارون الرشيد على أساس أنه من الخطر الفـــادح أن يفـــتح ساحل بلاد العرب إمام جيوش الروم. وفى القرن الخامس عشـــر درس البـــنادقة المشـــروع بعد أن اكتشف فاسكو داجاما طريق رأس الـــرجاء الصـــالح، إلا أن الأتـــراك اعترضوا على ذلك. كذلك أشار ليبنتز Leibnitz علـــى لويـــس الرابع عشر بنفس الفكرة، وقد قام مهندسو نابليون بمســـح المـــنطقة وتوصـــلوا إلى نفس الاستنتاج الخاطئ الذى كان الإغريق والـــرومان قـــد توصـــلوا إلـــيه منذ ألفين سنة سبقت بأن البحر الأحمر يزيد ارتفاعـــه مـــا يقرب من عشرة أمتار عن البحر المتوسط، وأن هناك خطورة بـــأن تغـــرق مصـــر السفلى، وتوصلوا إلى أن ذلك يبطل أى إمكانية لتنفيذه وبالـــرغم مـــن ذلـــك فإن السان سيمونيين استمروا يروجون للمشروع(**)

(*) هذا خطأ من الكاتب لأن القاهرة لم تكن قد بنيت بعد، إنما بنيت عام ٩٦٩م.

(**) الســـان ســـيمونيون هـــم Saint Simonians: هم أتباع الفيلسوف الاجتماعى سان ســـيمون. ولـــد فـــى بـــاريس عام ١٧٦٠ وتوفى فيها عام ١٨٢٥ أسس الاشتراكية المســـيحية، ودعا إلى اعتبار كل البشر أخوة وإلى التنظيم العلمى للصناعة والمجتمع. عاصـــر الـــثورة الفرنسية. دعا إلى إحلال العلماء محل القسس والكهنة، وتنبأ بثورة التصنيع فى العالم كما دعا إلى إلغاء الملكية خاصة تلك التى تأتى عن طريق الإرث،

ويعارضون النتيجة التى توصل إليها الخبراء من قبل.

كانت قناتا السويس وبنما جزءاً من برنامج الكونت دى سان سيمون Conte de Saint Simon لإعادة " تجديد شباب " العالم، وعندما جاء بروسبير إنفانتين Prosper Enfantin فى صحبة مجموعة من السانسيمونيين Saint Simonians إلى مصر عام ١٨٣٣، زادت المناقشات المطولة التى دارت حول مائدة العشاء القنصلية من حماس ديليسبس de Lesseps.

لكنهم ولا غيرهم ممن تقدموا بطلبات للحصول على هذا الامتياز. أحرزوا أى تقدم مع محمد على الذى كان يخشى لو أنه تم توصيل مياه البحر الأحمر بمياه البحر المتوسط. فإن وضع مصر سوف يصبح مهدداً(*)، وأنه سوف يتبع ذلك بكل تأكيد غزو يقوم به واحدة أو أكثر من القوى الأوربية. لكن بينما كان يرفض السماح له بحفر القناة، كان الباشا من الناحية الشخصية

واستبدالها بالملكية الجماعية. أصدر منذ عام ١٨٣١ صحيفة "العالم" Le Globe. عاش السان سيمونيون عيشة جماعية على القليل ويمارسون الطهارة. كانوا يتخيرون عباءاتهم الزرقاء Blue tunics وقبعاتهم الحمراء تركت فلسفته الإصلاحية تأثيراً كبيراً على فلسفات القرن التاسع عشر مثل جون ستيورات ميل، وتومس كارليل، بل تأثر بها فريدرش إنجلز شريك كارل ماركس مؤسس الماركسية أما تلميذه الأول وخليفته هو بارتلمى بروسبير انفانتن Barthelmy Prosper Enfantin وكان ثرياً يمتلك مزرعة وكان يعول تلاميذ سان سيمون بعد وفاته، قام بعد وفاة أستاذه بالتبشير لنظريته بنشر الصناعة والعلم. وهو الذى اصطحب مجموعة من العلماء إلى مصر عام ١٨٣٣ (المترجم).

(*) من الطريف أن الفرعون نخاو الثانى توقف عن تنفيذ هذا المشروع لأن نبوءة ظهرت بأنه هذا المشروع سوف يكون فى صالح الأجانب: هيرودوت الكتاب الثانى ١٥٨: (انظر هيرودوت فى مصر) ترجمة صقر خفاجة وأحمد بدوى دار القلم ١٩٦٦ ص ٢٩٢ (هامش ٣، ٤) (المترجم).

شـديد الإعجـاب بديليسـبس وكانت القنصلية الفرنسية المكان الوحيد خارج القصر الذى كان يسمح فيه لابنه المفضل سعيد بزيارته.

وبالـرغم مما أشيع أن محمد على قد أنجب ما يربو على ثمانين طفلاً، إلا أن أربعـة مـنهم فقط عاشوا من بعده أكبرهم سعيد. وربما لأنه كان قلقاً من هـذه النسـبة العالية للوفيات، فقد أولاه محمد على اهتماماً خاصاً فى تنشئته. فمنذ أن كان طفلاً، كان سعيد سميناً جداً، ولذلك وضع له والده حمية صارمة (ريجـيم) علـى النظام الأسبرطى، إذ فرض عليه أن يقضى أيامه وهو يقوم بـأداء تمريـنات لعضلاته الجسمانية مثل تسلق الأشرعة والصوارى، وكما عين ضابط تدريب عسكرى يتعقبه جرياً حول أسوار القصر. أما عن وجباته الغذائـية، فقـد كان يسمح له بطبق من الفول وبعض "السلاطة" ولم يكن من المسـتغرب كلمـا وجد عذراً - كان الصبى التعس المفرط فى السمنة يتسلل إلـى داخل القنصلية الفرنسية عندما كان ديليسبس يعلمه ركوب الخيل حيث كـان القنصـل الشـاب وزوجـته يشعران بالعطف عليه ويقدمان له بعض السـعرات الحـرارية الإضافية. واكتشفا أن أكثر شئ يحبه هو "الاسباجيتى" وأمـام الأطـباق المملـوءة بأكوام "الاسباجيتى" والتى عليها "الصلصة" نشأ ربـاط من الصداقة بينهم، ولم ينس سعيد قط هذا العطف الذى حظى به من جانبهما.

كـان ذلك فى عصر صيف عام ١٨٥٤، عندما كان دى ليسيبس منشغلاً بإصـلاح سـقف بيـته، وهو عبارة عن قصر عتيق يقع بالقرب من بورج Bourges والـذى كـان فـى وقت ما من ممتلكات اجنس سوريل أن ظهر سـاعى البريد فى المدخل ومعـه خطابات من باريس. وكان لا يزال فوق السـطح عـندما علم دى ليسيبس أن عباس الأول قد مات وأن محمد سعيد خلفه كنائب للسلطان على عرش مصر.

فبالنسـبة لهذا الدبلوماسى النشط، الذى قاده سوء الحظ حديثاً أن يصطدم مع لويس نابليون، وكان يجد فى اعتكافه التى تلى ذلك أمراً مملاً، فأمام هذه الأنـباء فجأة وجد مشروعات تشرح الصدر. وكما روى وهو مبتهج لصديقه

الهولـــندى ريسنايرس Ruysenaers: "وعلى عجل نزلت من السقالة وسارعت لأكتـــب لنائـــب السلطان خطاب تهنئة. وشرحت له أن الظروف السياسية فى الوطن قد وفرت لى وقت فراغ يسمح لى بتقديم احتراماتى له شخصياً مجرد أن يعلمنى بتاريخ عودته من القسطنطينية".

وعلـــى الفور رد محمد سعيد موجها الدعوة إلى ديليسبس أن يلحق به فى الإسكندرية فى مطلع شهر نوفمبر، ولم يساوره أدنى شك حول الغرض الذى يدعوه للحضور من أجله.

إن الســـمة الممـــيزة للمقـــاول الناجح – كما أريد لنا أن نعتقد – هو ذلك الشـــعور بالابـــتهاج الذى يساوره، عندما يضع أشياء إلى جانب أخرى حتى يـــراها تكبر، كما أن دوافعه – كما يفسرون لنا – ليست مادية لدرجة كبيرة بـــل نتـــيجة إلحـــاح خالص خلاق. لقد أدلى أخيراً أحد مليونيرات ما نهاتن بتصـــريح قـــال فـــيه: "لو أن الفنانين تركوا مهمة إسعاد العالم ليسعوا وراء متطلـــباتهم الماديـــة فإن الناس سوف تتفهم ذلك. أما الذى لا يفهمونه هو أن كثـــيراً مـــن رجال الأعمال لديهم نفس الدوافع الخلاقة، ويستمدون منه نفس الإشـــباع مـــثل الفنانين تماماً فالتقاط فكرة مشروع وبعث الحياة فيه هو عمل خلاق". (مجلة التايم ٣ ديسمبر عام ١٩٦٥).

وإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية، فإن فيرديناند دى ليسبس يبرز كواحد من أعظم فنانى عصره، وبكل تأكيد كان واحداً من أعظم مقاوليه، إذ أن حجم ما أنجـــزه كـــان خرافياً لكن نشأ اعتقاد ظل ينمو باضطراد أنه فى عصر غير لافت للنظر فى أمانته فإنه كان أيضاً والد كافة المحتالين الذين يسلبون الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم. فالشئ المؤكد أنه منذ اللحظة التى خطط فيها لرحلته إلى مصر، لم يكن فى ذهنه سوى هدف واحد هو أن ينتزع من صديقه الذى لا يشك فيه – امتيازاً – لاقى كل من تقدم به الرفض.

إن أوراقـــه الخاصة التى يجب أن تقرأ إجبارياً من أجل تسويق المشروع تظهـــر الحيطة والحذر الشديد الذى سلكه، فخلال مقابلاته القليلة مع سعيد، لم

يذكـــر كلمـــة واحدة عن المشروع الذى يقبع فى مقدمة رأسه، لقد ناقش معه موضـــوعات كثيرة من ضمنها عدد يخص شئون الحكومة، لكن لم نسمع ولو همســـة واحدة عن القناة، فقد كان دى يليسبس مصمماً ألا يفصح عنه قبل أن يكون واثقاً تماماً من الأرضية التى يقف عليها وحتى كما يقول هو: « يصبح ناضـــجاً لدرجـــة أن الأمير يتبناه كما لو كان إحدى أفكاره ». وتدريجياً عن طـــريق الـــنفاق وتقديم الأموال، كسب إلى جانبه بطانة نائب السلطان، وقام هـــؤلاء بدورهـــم فـــى تمهيد الطريق مع سعيد، وبعد وقت طويل: بينما كانا يســـافران عـــبر الصـــحراء مـــن الإسكندرية إلى القاهرة، تملك دى يلسبس إحســـاس قوى أن المناخ بات مناسبا. وكان تاريخ ذلك اليوم هو ١٦ نوفمبر عام ١٨٥٤ إذ يروى فى مذكراته: " فى حوالى الساعة الخامسة صباحاً، كان المعسكر كله فى حالة هرج ومرج عندما سحر بصرى ظهور قوس قزح مفاجـــئ ذى جمـــال غير عادى. لقد رأيت فى هذا التجلى فى السماء علامة الميـــثاق تلـــك التى وصفها الكتاب المقدس. لقد جاء اليوم لأناقش الأمور مع سعيد.

وطـــوال اليوم، وبينما كانا يطويان الصحراء، فإن دى يلسبس كان ينتظر بـــتلهف اللحظـــة المناســـبة، ومع اقتراب الغسق صدرت الأوامر بالتوقف. وكعادته أمر سعيد ضباطه بإجراء بعض التمرينات على التنشين على أهداف معيـــنة، ولسبب أو لآخر لم يصب أياً منهم الهدف، وهنا رأى دى يليسبس أن فرصـــته قـــد حانـــت فأرسل فى طلب بندقيته، ثم سدد بحرص نحو الهدف، ويـــتذكر بلغـــة بليغة: "ان قدر مصر يتوقف على هذه الثانية"، ثم ضغط على الزناد، ولم يخذله قوس قزح. وجاءت طلقاته تماماً فى قلب الهدف.

وفـــيما بعـــد كتب بلهجة المنتصر يقول: "وهنا تفتحت زهور من الابتسامات علـــى وجـــه الباشـــا، ولوهلة أمسك بيدى، ثم طلب منى أن أجلس إلى جواره فى الديـــوان وكـــنا بمفـــردنا، ثم أطلقت العنان لأفكارى دون أن أدخل فى التفاصيل. وتـــابع ســـعيد ما كان يتوجب علىّ قوله بولع واهتمام، ثم استدار نحوى قائلاً: " لقـــد أقنعتـــنى.. إننى أقبل خطتك. وخلال ما تبقى من رحلتنا سوف نبحث الطرق والوسائل التى بها تنفذ خطتك.. لقد حسم الأمر. تستطيع أن تعتمد علىّ".

وجاء وقت الغداء، وصفق سعيد بكلتا يديه لإعداد المائدة، وبينما كان طقم الأطباق الفضية الكبيرة توضع على المائدة، انتاب نائب السلطان الفرحة لهذه المفاجأة، فشمر عن ساعديه، وأخبر بطانته بما قرر، وأعلن والسعادة تغمره: "لقد منحت صديقي المسيو دى يلسبس امتيازاً.. هذه هى خطتنا أليست كذلك؟". ولم يخطر على باله أبداً أنه بذلك التصرف يبيع حق مصر، كما وصف دى يلسبس ذلك. وبينما كان ينصت كانت ابتسامة الرجل الفرنسى المغرية لمرة واحدة صادقة تماماً: ولكن بالرغم من أن النجاح حلو المذاق إلا أنه يصبح مستساغاً مرتين عندما يتم التوقيع بسلام، وتطوى الوثيقة وتربط بأحكام بشريط أحمر، وبعد مرور أسبوعين حول دى ليسبس الامتياز إلى عقد رسمى يلفت النظر بصفاقته وتحيزه لجانب واحد، وذلك من خلال بنود الاتفاق التى توالت. ويقال أن سعيد وقع على الوثيقة دون أن يكلف نفسه عناء قراءتها. وعلى أى أساس، كما جاء فى الجدل سمح لنفسه أن يكون فريسة للخداع بهذه الدرجة من السذاجة الواضحة. وكيف يقدم على المقامرة مستخفاً برفاهية شعبه وحقوق وطنه؟

وإذا كان قد قرأ شيئاً منها قط، فربما تلك المذكرة المقدمة لها والتى أرسلها صديقه الحميم" مع الاتفاقية والتى تقول: " إن أسماء الحكام المصريين الذين شيدوا الأهرامات. تلك الآثار التى تمثل زهو الإنسانية وغرورها، لا تزال غير معروفة. أما اسم الأمير الذى سوف يفتتح القناة البحرية الكبرى سوف يلقى التمجيد من قرن إلى قرن حتى "تتوقف عجلة الزمن".

ومهما كانت الوسائل والسبل التى اتبعها لتحقيق أهدافه الملتوية، ومهما كانت هذه الأهداف موضع شك، إلا أن النشاط الذى بذله دى يلسبس فى تأسيس "الشركة العالمية Compagnie Universelle يجب أن يجعله فى منزلة أعظم العبقريات فى مجال التنظيم إبان القرن التاسع عشر. فمنذ البداية وجد نفسه وحيداً من الناحية العملية، كداوود التاجر وهو يصارع جوليات الفوضوى حول مصالح متضاربة، فقد كانت إنجلترا مصممة على وقفه عند حده، بينما لم تكن فرنسا تقف إلى جانبه بأى حال من الأحوال. فى حين أن السلطان العثمانى كان مذبذباً بين تهديدات لندن وتأكيدات القاهرة.

ولـــولا ضربة الحظ التى تلت، ما كان له أن ينجح. فقد حدث أن ابنة عمه "يوجيـــنى دى مونتـــيجو" Eugenie de Montigo اقترنـــت بنابلـــيون الثالث، وبمعاونة الإمبراطورية التى كانت تعمل من أجله من وراء الستار، وبمعاونة البطانة الجشعة التى التفت حول الإمبراطور، ما كان له أن يشق طريقه نسبياً للمشروع. وبعد أن قدم الرشاوى إلى الزمرة الصغيرة التى كانت تدير شئون السياســـة الداخلـــية للإمـــبراطورية الثانـــية، أعلن لبورصة باريس أن نائب الســـلطان قـــد قدم ضماناً للأسهم، وفى نفس الوقت كان يؤكد لسعيد الساذج دائماً أن الجمهور قد أقبل على الاكتتاب. وحتى بعد أن افتتح باب الاكتتاب للشـــركة العالمية لقناة السويس البحرية Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez فى خريف عام ١٨٥٨، لم يشترى الجمهور إلا ما يزيد قلـــيلاً عن نصف الأسهم البالغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ سهم. غير أنه بوجود أمير بلحمه وشحمه وبعض الأسماء ذات النفوذ فى فرنسا فى مجلس الإدارة أصبح لديـــه قليل من التخوفات أن يساء فهم وضعه أمام السلطات.. فى النهاية وجد محمـــد ســـعيد: « إن صـــديقنا المســـيو دى يلســـبس » قد تحمل مسئوليات والـــتزامات مالية تفوق بكثير أى تقدير كان يمر بخياله. فعن طريق عبارات الإطـــراء الـــتى كانـــت تقطر من لسان هذا الأستاذ فى فن التسويق أن القناة سوف تجلب له الخلود كفرعون السويس (بل وحتى عن طريق الأمل الواهى بأنهـــا ســـوف تكون وسيلة لتأمين استقلال مصر) وجد سعيد نفسه وقد تحمل وزر ٤٤ فـــى المائـــة من رأس المال الكلى، وفى غضون أسبوعين تحولت مســـألة القـــناة إلى مسألة عالمية. ففى لندن وباريس والقاهرة والقسطنطينية بـــدأت التفاصـــيل تتجمع. فالهوايتهول عارضت المشروع لأنها كانت تفضل لأســـباب اســـتراتيجية الطـــريق البطئ ولكن الآمن حول رأس الرجاء الصـــالح. فطريق النقل البرى من الإسكندرية إلى السويس والذى كان يعمل بـــنجاح كامل، شعروا أنه وسيلة تناسب جيداً خدمة البريد السريع وتحركات الجـــيوش إلى الهند. وأن القناة سوف تقلب ميزان القوى رأساً على عقب، بل من المحتمل أنها سوف تطرح المسألة المصرية من جديد، بالإضافة إلى ذلك

فـإن القسـطنطينية سـوف تكون أقرب إلى الهند عن طريق البحر منها إلى لـندن. غير أن كل ذلك لم يجد من الأمر شيئاً. وعندما سعى دى يلسبس إلى بالمرستون على أمل إقناعه. تلقى منه رداً سريعاً قاسياً وشرح له بالمرستون قائلاً: " دعنى أفصح لك عن تخوفاتى. إن هذا المشروع سوف يقلب علاقات بريطانـيا العظمى التجارية والبحرية رأساً على عقب. وإن فتح طريق جديد للـتجارة قـد يتسـبب فى فقداننا للمزايا التى نمتلكها الآن بين أيدينا كما أنه يسـاورنى الخوف أيضاً ماذا سيكون عليه مستقبل علاقاتنا مع فرنسا. وأعتقد أنـه من واجبى أن أتصرف كما يتصرف رجل الدولة وهو أن نأخذ فى عين الاعتبار ما قد يكون فى رحم الزمن".

لقد أخفت هذه الآراء التى عبر عنها باعتدال تصميماً لا ينثنى لوقف حفر القناة مهما كان الثمن. وكان حجم الضغط الذى مارسه بالمرستون على الباب العـالى كبيراً لدرجة أن سعيد الذى أربكته الانفعالات التى أطلق لها منح هذا الامتـياز العـنان، أصبح مقتنعاً أن إنجلترا مصممة على عزله وفى مواجهة هذا المصير غير المستحب، كان مستعداً حتى لأن يغفر لديلسبس خداعه إياه حول مسألة الأسهم إذا ما تمكن صديقه من إنقاذه من الإنجليز.

وفـى الحقيقـية سـرعان ما فعل القلق بجسمه أكثر مما فعلته التمرينات الرياضية التى كان يمارسها فى شبابه، فقد حولته المعاناة النفسية إلى شخص نحـيف البنـية. وفـى ذات مرة دخل عليه دى يلسبس وهو جالس فى بهو الاسـتقبال فـى قصر رأس التين، عندئذ أشار سعيد إلى معطفه الذى أصبح الآن أوسـع حجمـاً عدة مرات. وقال بنبرة حزن: " انظر ما فعله بى هؤلاء الإنجلـيز.. ثم أضاف أنه يأمل أن يتمكن " صديقه المخلص" من إخراجه من ورطـته. وفى أثناء ذلك أخبر دى ليسبس أن حفر القناة يجب أن يؤجل حتى يبرد الجو العالمى الساخن قليلاً.

كـان دى ليسبس يعرف جيداً كيف يستغل مثل هذه النقاط من الضعف، إذ لـم يكن لديه مانع أن يطلب المزيد من الجمائل من محمد سعيد. لقد استنزف

نائـــب الســلطان حتى أصبح شاحباً عندما حصل على الامتياز، فقد منح حق حفـــر القـــناة، كمـــا منح هبات من الأرض لا تقدر بثمن ومعها الإعفاء من التكالـــيف، كمـــا وعد بتقديم عمال السخرة، وفى عبارة أخرى تقديم العمل دون دفـــع الأجـــور، إلـــى جانـــب ذلك كله وافق على أن يتحمل شراء ربع الأســـهم، أكثر من ذلك فرض عليه بأسلوب المراوغة والخداع الذى قد يؤدى بأغلـــب الـــناس إلـــى السجن أن يدفع ٨٥,٠٠٠ استرلينى. وكان كل هم دى يلسبس أن يدعم المزايا التى حصل عليها.

لـــم يكن نائب السلطان حاضراً فى الحفل متقن التنظيم الذى أقيم عندما بدأ العمـــل فى ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩، وبالرغم من أن دى يلسبس قد خذله علناً، إلا أن ســـعيد أدرك أن الإمـــبراطور كـــان يدعم حفر القناة، ولم يجرؤ على استخدام القوة لوقفه. وكل ما كان فى وسعه أن يفعله هو أن يقضب جبينه فى القاهرة، وأن يضع العراقيل فى طريقه.

وطـــبقاً لشـــروط العقد، طالبت الشركة بـــ ٥٠,٠٠٠ رجل. فلقد كانوا فى حاجـــة إلى مثل هذا الجيش الجرار من العمال لأن أدواتهم كانت بدائية، فقد كـــان من الأفيد لهم اقتصادياً أن يستخدموا اللحم والدم على البخار والمعادن. غير أن سعيد لم يتمكن إلا من إرسال ١٢,٠٠٠رجل.

هذه التسوية ضايقت كلا من بالمرستون ودى يلسبس، فقد ركزت الحرب الأهلية الأمريكية الأنظار على الرق. والعمال الذين بعث بهم سعيد للعمل فى الحفر بدون أجر لم يكونوا مجرمين أو رقيق، بل كانوا فلاحين انتزعوا قسراً مـــن حقولهـــم. وقـــد اتهم البريطانيون سعيد (وبالمناسبة فقد فات عليهم أن يتذكروا أن استخدام سخرة مشابهة حدث عند مد خطوط السكك الحديدية إلى الســـويس، والتى مولتها شركة P.& O قبل سنوات قليلة) بارتكاب أعمال غير إنسانية. واستصدر دى ليسبس قراراً من مجلس الإدارة يحمل سعيد مسئولية أى خسائر تنتج من تأخير عملية الحفر.

وبســـبب وقوعـــه فى مصيدة مباراة الغضب بين إنجلترا وفرنسا، أصبح

ســعيد يائســاً أكــثر وأكثر، وراح يتذبذب بين الغضب والتوسل، بين الحل الوســط والمماطلة، ولذا تضاءل وزنه أكثر وأكثر إلى أن جاء الحل لأزمته في مطلع عام ١٨٦٣. فقد قضى نحبه.

## الفصل الثامن

# الثمن الباهظ لمظاهر التبذير والترف

حــتى وقــت قريب اعتاد أحد الباشوات الجلوس كل مساء تقريباً فى ركن من أركــان الــبار فــى "رووف" فندق شبرد، ويتحدث عن الأيام الخوالى فى مصر، وهــو لــم يعــد باشا – بالطبع – منذ إلغاء الألقاب عام ١٩٥٢، وبالرغم من أن الحكــم الــثورى قــد صادر أغلب ممتلكاته، إلا أنه كان لا يزال يحتفظ بمظهر الســنيور Seigneur. وكــان ســلوكه ومظهــره هــى نفسها التى كانت لأسلافه عــندما كــانوا يدبــرون المكائد بلطف فى شرفة شبرد منذ قرن مضى، فقد كان فــى زيــه الرســمى، وعصــاه الذى يغطى الذهب أحد طرفيها، وفنجان القهوة الصــغير (ســادة أو محــوج جــيداً) وســيجارته المسطحة فى المبسم العاجى، والســبحة الصــغيرة ذات الحــبات من الكهرمان، وقبل كل شىء وجهه النفيس الشــبيه بصــفحة من الرق، به عينان طيبتان ولكن ماكرتان، وحديثه الناعم الذى يمزج بين حسن النية والخبث، والذى يرمز إلى حكمة الشرق دائمة الترديد.

وقــد يقــول: قــد يتخيل الرجل الغربى أن العقلية الشرقية غامضة لأن هــناك حاجــزاً، ومن ثم فهو لن يقدر على فهم حقيقة المصرى. ولكن الأمر لــيس كذلــك؛ إذ لا يوجد شىء شديد الغموض حول الطريقة التى نفكر بها. إنهــا ببساطة ينبغى عليك ألا تحاول أن تحكم على الشرق بمفهوم الغرب. أو تنظر إلى مصر من خلال العيون الأوربية ".

وقــد يســتطرد فى حديثه بابتسامة شاحبة: " فنحن – كما تعرف – شعب عــريق الجــذور.. فهناك موضوع التقاليد، فعلى سبيل المثال قانون الخلافة الإســلامى، فقد كان من الأمور الخطرة فى الإمبراطورية العثمانية أن يتولى أحــد وراثــة العرش. وإذا نظرت إلى أسرة محمد على سترى أنه قلما ورث ولــى العهد الجلوس على العرش.. فمثلاً إبراهيم والأمير أحمد. ولذلك فهذا هــو أحد الأسباب التى جعلت إسماعيل يتلهف على صدور الفرمان الخاص بتوريث الابن الأكبر العرش .

وقد يتذكر الواحد منا أن إسماعيل نفسه لم يكن ولياً للعهد. فخلال حكم عباس قاد إسماعيل حركة معارضة قام بها الأمراء، ووجد أنه من الأكثر أماناً أن يدبر مؤامرته خارج البلاد. وكان على علاقة صداقة مع سعيد، كما كان يترأس المجلس الأعلى للقضاء. وكان الشخص التالى لوراثة عرش نائب السلطان هو النبيل أحمد. وهو رجل بخيل عرف عنه أنه كان ماهراً كرجل أعمال.

وفى عيد الأضحى عام ١٨٥٨ أقام سعيد وليمة كبيرة فى الإسكندرية أرسل من أجلها بطاقات الدعوة – بلهجة تصل إلى حد الأمر إلى كل أفراد أسرته. ولم يتغيب منهم أحد سوى إسماعيل؛ لأنه كان مريضاً. وقام قطار خاص بنقلهم فى طريق العودة إلى القاهرة، وعند كفر الزيات وسط المسافة بين الإسكندرية والقاهرة. يوجد كوبرى بناه روبرت ستيفنون Robert Stevenson، وكان فى وسطه فتحة بين دعامتين تفتح وتغلق لكى تسمح بمرور البواخر التجارية والفيلوكات (جمع فيلوكة)، وعندما أقبل القطار يلوح منه البخار، فؤجى سائقه الذى اعتلاه الرعب بأن الكوبرى مفتوح، وكان الوقت متأخراً لتجنب الكارثة، فاندفعت عربات القطار بمن فيها من الأمراء إلى قاع النيل، وفى اللحظة التى كانوا معلقين فيها فى الهواء فوق النهر، تمكن الأمير حليم من القفز إلى الماء سليماً، أما أحمد لأنه كان سميناً مترهلاً فقد غرق، وبذلك أصبح إسماعيل ولياً للعهد. وبالرغم من أن لا أحد اكتشف عما إذا كان ذلك حادثاً عارضاً أم لا، فقد زعمت دوائر القصر أن إسماعيل كان له يد فى الحادث، ومهما كان الأمر، فقد غير هذا الحادث قدر مصر، فلو قدر لأحمد أن يتولى الحكم بدلاً من إسماعيل لسارت الأمور على نحو مختلف.

«غير أن إسماعيل (استطرد الباشا العجوز) لم يكن حقيقة ذلك الشخص المحير كما كان كثيراً ما يفهم. ففى شبابه كان إقطاعياً ناجحاً، فالقطن الذى يزرعه كان الأفضل، ومصنع السكر الذى يمتلكه كان فى إدارته الأكفأ،

وعلـــى مـــدى وقت قصير للغاية ضاعف من قيمته الصناعية. ولم يكن مديناً لأحـــد بمـــال ولو يؤخذ عليه شيء هو أن الناس لاحظت عليه - لأنه عاش عيشـــة الكفـــاف - أنـــه يميل إلى الشح. ففى فندقه فى باريس- مثلاً - كان يـــرفض أن يعطـــى أى "بقشـــيش"، ولكـــن منذ اليوم الذى أصبح فيه نائباً للسلطان تغير كل ذلك تماماً، وقد يكون فى مقدرة علماء النفس أن يفسروا لنا الســـبب الـــذى يجعل أميراً شاباً شحيحاً يتحول إلى حاكم مسرف، ربما يكون خمر السلطة قد لعبت برأسه، والأكثر احتمالا أنه مثل جده محمد على اعتبر مصـــر ملكـــية شخصـــية لنائـــب الســـلطان أى أنها ضيعة خاصة يجرى اســـتغلالها على النحو الذى يراه مناسباً، فقد رأى نفسه تجسيداً لمصر، وكان مصمماً أن يحقق لبلاده العظمة من خلال تعظيم نفسه وأسرته الحاكمة، غير أنه بدلاً من أن يحقق ذلك بالحرب اختار أن يحققه بالمال.

فى القرن الخامس عشر اشتهر لورينزو دى مديتشى Lorenzo d' Medici باســـم العظيم Il Magnifico ليس من باب التباهى بحياته الخاصة، بل بسبب إنســـانيته والمجد الذى حققه لفلورنسا، أما إسماعيل فقد كان على النقيض من ذلك. ولو أن إسماعيل سمى أيضاً بالعظيم The Magnificent فإن ذلك بسبب المجـــد الـــذى حققـــه لنفســـه، فكلما كانت دولته أكثر بذخاً كلما كان تبذيره الشخصـــى أكـــبر، وكلما بدت مصر أكثر جاذبية فى عيون أوروبا. كان هذا مـــنطقه. ولكى يحقق الاستقلال لبلده كان عليه أولاً أن يرفع مصر إلى منزلة عالمـــية سامية فى مظهرها على الأقل وأن عليه أن يحاذى إن لم يكن يسبق الأمـــم الكـــبرى فى خلق وسائل الراحة ومظاهر القوة. ومنذ أن اكتشف أن الـــدول المتحضرة فى أوروبا كانت تطلق العنان باستخدام أرصدتها فى تقديم القـــروض، فقد فعل نفس الشىء. فالمال أمره سهل، لكن بعد النظر فهو الذى يعتد به.

ولكـــن بالـــرغم مـــن كل بعد النظر الشامل الذى تباهى به، لم يكن لديه إحساس بالتناسق، كما كانت قدرته على خداع نفسه لا حد لها، فقد خدع نفسه أكـــثر مما خدع أى شخص آخر، فقد كان يصدق خداع نفسه، وعندما حدث الإفلاس كما كان محتمالًه أن يحدث، كان لا يزال يبقى فى ذهنه وهماً بأنه لا

يــزال الخديــوى بمقتضى ثمة حق إلهى، وأن: "مثل هذه القداسة التى تحيط بالملك لا يمكن للخيانة معها إلا أن تسترق النظر إلى ما قد يحدث":

There is such divinity doth hedge a king that treason
can but peep to what it would"

ومــن ثــم فإن الانقلاب القوى coupol, etat أخذه على غرة، فاستسلم له دون أى مقاومة.

لقــد كانــت بدايــته طيــبة، فقد كان خطاب توليه العرش نموذجاً للتعقل والتواضع:«إن أساس الإدارة السليمة هو النظام والاقتصاد القائم على المالية، إننى سوف أتبع هذا النظام وهذا الاقتصاد بكل وسيلة ممكنة، وسوف أضرب المــثل للجمــيع لقد قررت أن أهجر النظام الذى اتبعه أسلافى، وأن ألزم نفسى بمخصصات للأسرة المالكة لن أتجاوزها أبداً».

كانــت المخصصات الملكية التى اقترحها تبلغ ضعف مخصصات الملكة فيكتوريا، وهذا غير مهم، إنما المهم هو النوايا.

غــير أن الأمــور لم تكن بالبساطة التى ظنها، إذ لم يترك له سعيد عرشاً حــل بــه الفقــر فحســب، بل ترك له الشئون العامة فى حالة من الفوضى المــزرية، فقد كانت هناك مسألة قناة السويس، كما كان هناك مائة وواحد من مصاصــي الدمــاء فى أبهاء الاستقبال بالقصر ذاته حيث ينتظرهم قناصلهم، وهــم يمارسون الضغط للحصول على مطالبات تثير الغضب، كما كان هناك الــباب العــالى وقد سن أنيابه وأظفاره كالعادة، وكان عليه أن يشترى سكوته بدفــع الرشــاوى الــباهظة، ولولا مدافع قلعة سامتر Fort Sumter(*) لوجد

(*) قلعــة فــى ميــناء شارلســتون Charleston جنوب ولاية كاليفورنيا الأمريكية قام الانفصــاليون الجنوبيون بالاستيلاء عليها فى ١٣ أبريل عام ١٨٦١ عندئذ اعتبر ابراهام لنكولــن رئــيس الولايات المتحدة أن ذلك عملاً من أعمال الحرب بين الشمال والجنوب والــتى تعرف بالحرب الأهلية الأمريكية التى استمرت من عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٥ (المترجم).

إســـماعيل نفســـه مفلســـاً قبل أن يشرع فى الحكم. فكما حدث خلقت الحرب الأهلـــية الأمريكية خلال إسبوعين طلباً على القطن المصرى بشكل لم يسبق له مثيل.

فحـــتى عام ١٨٦٠ كانت الولايات المتحدة تسد حاجة ما يربو على ثمانين فـــى المائـــة من طلبات أوروبا من القطن، غير أن حصار الاتحاد البريطانى دفـــع المضـــاربين فـــى البورصة إلى أيدى المزارعين الهنود والمصريين، وبالنسبة لهذين البلدين، كانت الهند تنتج القدر الأكبر البالغ ست مرات ضعف ما تنتجه مصر، غير أن نوعية القطن المصرى بتيلته الطويلة جعلته الأفضل بشـــكل لا يقـــارن، ومن ثم وعلى غير توقع وجدت الاسكندرية نفسها وهى تتقلـــب علـــى الذهب، فقد ارتفع سعر القطن من ٧,٥بنس للرطل عام ١٨٦١ إلـــى ٢٦,٥ بـــنس فـــى صيف عام ١٨٦٢ ثم إلى ٢٩,٧٥بنس عام ١٨٦٣. وبصـــفته أكبر مالك للأرض (لقد أصبحت شهيته لامتلاك الأرض بعد توليه العـــرش أكـــثر نهمـــاً، حتى أنه سرعان ما أصبح يمتلك ٢٠% من الأرض المزروعة فى البلاد بالتمام والكمال) فقد وجد إسماعيل نفسه فى قلب الرواج فلم يكن جنون المضاربات التجارية يجاريه سوى حمى البناء التى انتابته.

وبالنســـبة لإســـماعيل فقـــد جاءته فرصة عمره لكى ينغمس فى طقوس مفـــرطة للأشـــغال العامة هدفها تحديث مصر وتحويل القاهرة إلى عاصمة جميلة مثل أى مدينة أخرى فى أوروبا. فبين عشية وضحاها بدأ فى مشروع علـــى نطـــاق واسع من الإنفاق، وبالنسبة لفترة حكمه القصيرة نسبياً، فإنه قد أنجـــز الكثـــير فى مجال الأشغال العامة يفوق ما يقوم به أى حاكم آخر فى الأزمـــنة الحديـــثة، حتى بمعيار اليوم فإن قائمة إنجازاته تبدو مذهلة، ولكن نذكـــر بعـــض المشـــروعات على سبيل المثال: فقد تحقق لمصر بحلول عام ١٨٧٩ حفـــر ٨,٤٠٠ مـــيل(*) من الترع النيلية و٤٥٠ كوبرى و٦٤ مصنع ســـكر وحوالـــى ١٠٠٠ميل(**) من السكك الحديدية، كما أقام إسماعيل أكبر

(*) أى ما يعادل ١٣٥٠٠ كيلو متر. (المترجم).

(**) أى ما يعادل ١٦٠٠ كيلو متر. (المترجم).

ميناء على البحر المتوسط عند الاسكندرية، وأقام سلسلة من الفنارات على طول الساحل، كما أصبح واحداً من الموقعين المؤسسين لاتحاد البريد العام، بل أنه مد خطوط التلغراف جنوباً حتى أسوان، كما أسس شركات الشحن بالبواخر، وافتتح ما يقرب من ٦٠٠٠ مدرسة تعلم كل أنواع المعرفة التى قد تخطر على البال مثل الموسيقى: اللغات، والزراعة، والقانون، والطب، والعلوم العسكرية، بل كان هناك مدارس للبنات تحت رعاية إحدى زوجاته، كما إنه هو الذى افتتح السويس ومدينة الإسماعيلية الجديدة التى تقع عند منتصف الطريق إليها، كما قام بتحديث الإسكندرية وإلى حد ما بورسعيد والسويس.

غير أن أحب المشروعات إلى قلبه كان تجميل مدينة القاهرة. وعندما شرع فى ذلك كانت المدينة قد اتسعت إلى ما وراء أسوارها التى ترجع إلى العصور الوسطى، وكان هناك ما يزيد على ميل(*) من الأرض القفر تقع ما بين حدائق الأزبكية التى تحف بها المقاهى، وبين شاطئ النيل. فقام إسماعيل بشق الشوارع العريضة التى على جانبيها الأشجار، وتحف بها البواكى المسقوفة على غرار بوليفار ريفولى (بباريس). وقد شقت البواكى طريقها عبر الحارات المتدخلة كقصور التيه فى الأحياء الوطنية القديمة، وعمل على تطوير كل المنطقة تجاه النهر والتى تشكل الآن وسط القاهرة الحديثة. كما شق طريقاً عاماً يؤدى إلى القصر مشمشى اللون على شكل حرف E المقام على ضفاف النيل، والذى اشتهر بسوء السمعة عن جنود قوات الحلفاء فى الحربين العالميتين كأكثر التكنات امتلاء بالبق فى العالم (اعتاد الجنود البريطانيون عندما ينظرون من ثكناتهم أن يجزموا أن الأسدين البرونزيين كانا يزأرون عند كل مرة تمر فيها فتاة عذراء وأضافوا أن ذلك لم يحدث منذ سنين). واليوم يقوم فندق النيل هيلتون فوق قصر النيل، والمنطقة القريبة من جسر إسماعيل الكبير المؤدى إلى جزيرة "الجزيرة" وكل وسط مدينة القاهرة الحالية من تخطيط وتنفيذ إسماعيل الذى قسم الأراضى، وخفف من شروط

(*) ١٦٠٠ متر تقريباً (المترجم).

الدفــع لهــؤلاء الذيــن كانوا يرغبون فى إقامة منازل لهم. وباستثناء قصر عابديــن الجديــد الشاسع بواجهته ذات الطراز الإيطالى، والذى أصبح المقر الرســمى لإقامته، كما دقق فى اختيار المواقع الطبيعية لبناء القصور بما فى ذلــك قصــر الجزيرة الذى تم تنفيذه فى أقل من ستة شهور بمناسبة زيارة الإمــبراطورة يوجينى Eugenie، ولمرتين خلال مائة عام (منذ التسعينات من القرن التاسع عشر وحتى اليوم) أصبح الفندق المفضل لدى السائحين.

بــل امتدت أعمال البناء إلى الصحراء، خالقا عين ماء كبريتية فى حلوان، وألحــق بها فندقا كبيرًا خاصًا بالحمامات على الطراز الشائع عند الأوربيين، ويقوم على خدمته خط سكة حديد خاص يبدأ من القاهرة. وفى ظرف شهور ثلاثــة أنشــأ شارعاً جديداً يؤدى صعوداً إلى الأهرامات، مستخدماً قوة عمل قوامها ٣٠,٠٠٠ عامل حتى يتمكن الضيوف المميزون الذين وفدوا لحضور افتــتاح قــناة السويس من التوجه لمشاهدة الآثار فى سهولة ويسر. لقد كانت طاقــته للعمــل تدعــو للإعجاب. فأينما وليت وجهك قامت هناك فجأة مبان جديــدة، وتماثيل وشوارع مشجرة، ونافورات، وقد أدلى بملاحظة ذات مرة قــال فيها: " إن أغلب الناس يتيهون جنوناً بشىء ما، أما جنونى أنا فهو فى الحجر والملاط " وما فعله لويس الرابع عشر لباريس فعله إسماعيل للقاهرة. وإنــه لمن الغريب أن تظن أن كان فى شوارع القاهرة مصابيح تضاء بالغاز قبل أن يتحقق ذلك لباريس. لقد صمم إسماعيل على أن يجد الزوار الملكيون أنفسهم عندما يأتون لافتتاح القناة أنهم فى عاصمة جديرة بحاكمها العظيم.

ولقــد شغلته مسألة القناة منذ البداية، فهو لم يبتكر المشروع إنما ورثه عن ســعيد كتركة مثقلة. ولو رغب إسماعيل أن يكمل ذلك، لربما رفض صراحة الاعــتراف بشرعية الامتياز التى كان يعمل بمقتضاها دى يلسبس، ناهيك أن الســلطان لــم يكن قد أعطى موافقته بعد. إلا أن إسماعيل لم يكن مستعداً أن يــتخذ خطاً معادياً لفرنسا (ذلك البلد الذى كان شديد الإعجاب به). لقد كانت فكرة القنال تعجبه، لكن الذى رفضه هو الشروط، وعلى الأخص شرط تسليم شــريط مــن الأرض على جانبى المجرى المائى، واستخدام العمل الإجبارى لبنائها. فقد أخبر دى يلسبس أنه من أنصار القناة Canaliste مثله تماماً، لكن

امتياز الأرض يجب أن يلغى، واستخدام السخرة يجب أن يتوقف، وأصر على أن مصر هى التى يجب أن تمتلك القناة وليس القناة هى التى يجب أن تمتلك مصر!.

لقد أخفى دى يلسبس مشاعره، غير أن أوراقه كشفت بوضوح وكم كانت تلك مفاجأة. كان تمويل القناة مهتزاً، فكل حساباته قامت على أساس استخدام العمل غير مدفوع الأجر، كما أن تركيا لم تكن محبذة للمشروع ووزارة الخارجية البريطانية كانت مصممة على وقفه، ولم يكن أمامه سوى طريق واحد وهو أن يقنع الحكومة الفرنسية بالوقوف وراء مشروع القناة كأمر يهم المصلحة الوطنية. وقبل أن ينقضى وقت طويل اندلعت معركة دبلوماسية بين لندن، وباريس، والقسطنطينية، والقاهرة. ومرة أخرى ضغط على "يوجينى" لتقدم خدماتها، وفى النهاية وافق إسماعيل بدرجة كافية من السذاجة على أن يحيل الأمر إلى نابليون الثالث للتحكيم:"كجنتلمان" إلى آخر as one gentleman to another " ولم يكن فى مقدرته أن يدرك بالطبع - أن الإمبراطور لا يعترف به كند له فى المقام بالمفهوم الأوروبى على الأقل، وبالطبع لم يتوقع أن قرار الشرف الإمبراطورى سوف يسمح لنابليون الثالث أن يصدر حكماً مميتاً بدرجة ملحوظة بمنح تعويض عن الخسائر قدرة ٨٤ مليون فرنك أى بما يقارب نصف رأس المال الأصلى للشركة كتعويض عن إلغاء نظام السخرة فى العمل، والأراضى الصحراوية على جانبى القنال، ولكن التقليد الخاص بشرفه - أو على أى تقدير - كبريائه - منعه من أن يرفض قبول حكم الإمبراطور.

هكذا أصبحت الشركة قادرة على شراء أجهزة حفر الأعماق مما أعطى العمل دفعة إلى الأمام بعد أن أعيد تمويلها على حساب مصر، أما بالنسبة لإسماعيل فإن ذلك الحمل المالى الإضافي الذى تزامن مع تدهور سوق القطن كان سبباً للعجز المالى، لقد فاقه الفرنسيون فى الذكاء في وقت كانت فيه مشروعاته الكبرى تمتد على نحو شاسع. ولم تعد التيلة الطويلة البيضاء ذات الوبرة هى المحصول الذهبى كما كانت، وكلما جمع المال كلما زادت

حاجته إليه.. من تلك اللحظة فصاعداً كان السوق مفتوحًا أمام مقرضى المال الجشعين واليهود.

ولحسن الحظ كان فى استطاعة إسماعيل أن يظن وهو جالس القرفصاء فى ديوانه (ومن حين لآخر يلعب بأصابع قدمه أثناء حديثه مع زائريه). إن رصيده على ما يرام، ولم يكن هناك نقص فى المرشحين لإقراضه بلايين القروش التى كان ينفقها بغير حساب. فرجال البنوك قد هالهم حياة الأبهة المحيطة به أكثر مما هالهم مظهره الشخصى كنائب للسلطان، فقد كان يرتدى الزى التركى الأستامبولى الفضفاض (وهو نوع من عباءة راعى الأبراشية) وسروال متدلى يتسع عند الركبتين، وخفين مطاطين عند جوانبها اللذين كثيرا ما كان يخلعهما. وقد يدهشهم قبح وجهه الجامد الذى به نمنمات الأكزيماء، وخصلات شاربيه الحمراويين، ومن عينيه التى كانت إحداهما على الدوام مغمضة بينما الأخرى ترمش، لكنهم لم يقاوموا أبداً انجذابهم إلى الطربوش الذى كان يرتديه بأناقة على جانب رأسه، ودفئ ابتسامته، ومهارته فى الحديث، وكرم ضيافته السخي.

كان هذا التبذير جزءاً وقسماً من شخصيته الغامضة. كان المال هو الوسيلة التى اتبعها لشراء مركز دولى له، وفى آخر الأمر لاستقلال مصر من السلطان. وقد نجح أخيراً فى عام ١٨٦٦ فى تأمين فرمان يعطيه درجة كبيرة من الاستقلال ولقب خديوى مصر(*)، مقابل مليون جنيه استرلينى عداً ونقداً، ومضاعفة قيمة الضريبة (إلى جانب طقم مائدة من الذهب المشغول

(*) لقب فارسى – تركى يعنى "اللورد"، وقد منحه السلطان العثمانى عبد العزيز لسلالة أسرة محمد على عام ١٨٦٦، وقبل ذلك كان حكام مصر من أسرة محمد على يحملون لقب الباشا أو نائب السلطان. وكان محمد على وأولاده يحملون لقب الخديوى بطريقة غير رسمية، ولما أعلن الإنجليز الحماية على مصر عام ١٩١٤ حولوا لقب الخديوى إلى "السلطان" لتوكيد انفصال مصر عن الدولة العثمانية، ثم استبدل لقب السلطان بلقب "الملك" بعد إعلان استقلال مصر من جانب واحد عام ١٩٢٢ (المترجم).

بالجواهـر مـن أجـل السـلطان، ومائة ألف جنيه إضافية دفعت في شكل رشـاوى)، وبعـد أن أحاط به المرابون من رجال البنوك، أصبح " أفندينا " مسـتعداً لكى يبهر ذوى التيجان فى أوروبا، وفى نفس الوقت يترك أثراً فى عـالم مقدمي الديون، بثرائه الذى لا يصدق ومن ثم يغريهم لكى يستمروا فى تقديم الديون له.

وجـاءت فرصـته عند افتتاح قناة السويس، فقد انتوى إسماعيل أن يجعل مـنه استعراضاً وهكذا كان. فى البداية انطلقت الألعاب النارية لتغرق سماء بورسـعيد حتى كادت أن تهدمها، ثم فى عشية الافتتاح اكتشف وجود صخرة تحـت المـاء يـبلغ ارتفاعها خمس عشرة قدم(*)، وقد تم نسفها بالديناميت فانهارت جوانب القناة، وأخيراً عندما تحرك الركب المتألق تجاه مدخل القناة، قـام زورق خـاص بالشرطة بالدوران حول نفسه، وكان على وشك من أن يدمـر الافتتاحية كلها، لولا أن دى يلسبس قفز مسرعاً ودمر القارب بأكمله، وحتى فيردى Verdi فشل فى إكمال الترتيلة Hymn فى الوقت المحدد من أجـل افتـتاح دار الأوبرا لجديدة التى بناها إسماعيل خصيصاً لهذه المناسبة والـتى افتتحـت رسـمياً فى الأول من نوفمبر عام ١٨٦٩ وعرضت أوبرا ريجوليتو Rigoletto بدلاً منها(١٢).

غـير أن أحداً لم يعر ذلك أى اهتمام، فقد كان الترف عارماً بينما رؤساء الـدول يـتوالون فى الوصول إلى القاهرة من كل أنحاء العالم منذ بداية شهر نوفمـبر لينقلوا على حساب المضيف إلى مصر العليا لمشاهدة آثار الأقصر، ثـم إلـى بـور سعيد التى كانت تبدو فى ذلك الوقت فى أبهى حللها. وامتلأ ميناؤها الذى كان يسبح فى الشمس بالسفن التى ترفع أعلام اثني عشرة دولة.

وفـى ١٣ نوفمـبر ١٨٦٩ وصل إسماعيل على ظهر المحروسة، ثم تلاه إمـبراطور النمسا، وولى عهد بروسيا، وأمير وأميرة هولندا، وأعضاء الأسر الملكـية الأخـرى، ثم السفراء والضيوف المميزون من كل وصف.. وأخيراً

(*) أى حوالى أربعة أمتار ونصف المتر (المترجم).

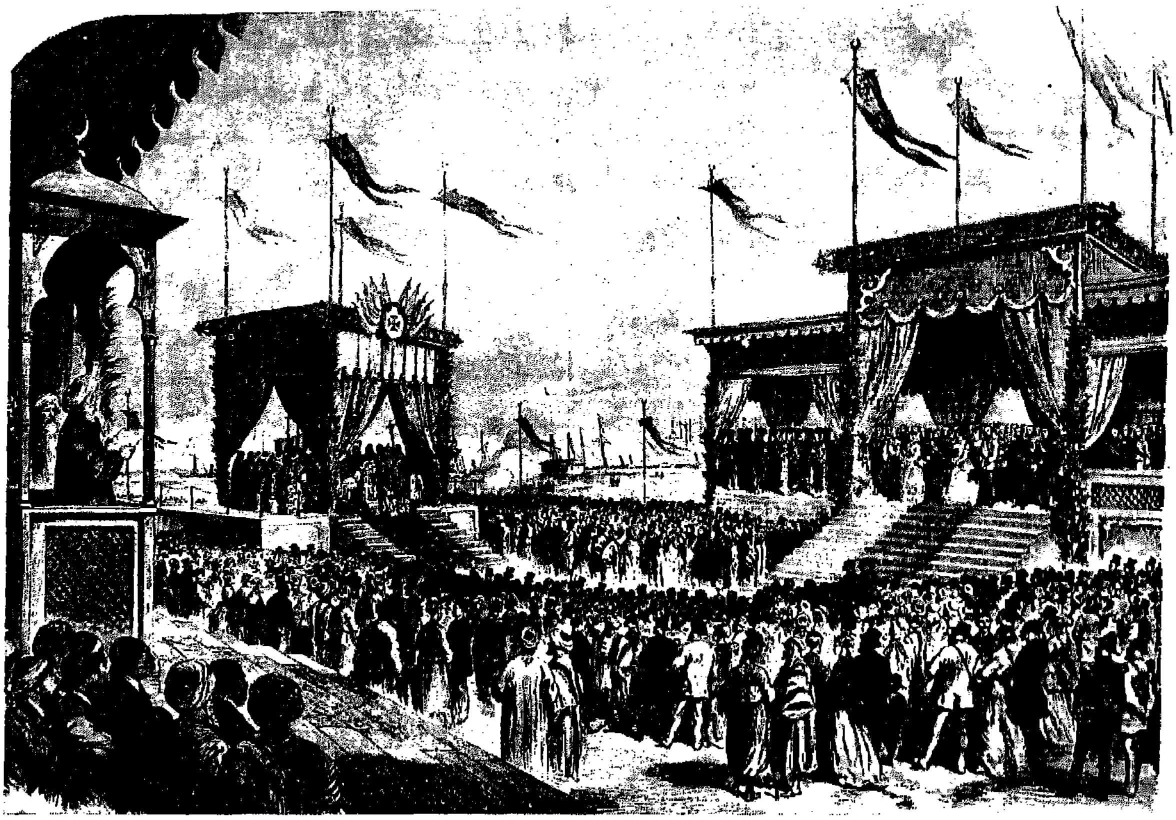
فـــى الساعة الحادية عشرة من صباح ١٦ نوفمبر بدأت مدافع القطع الحربية الـــبحرية وبطاريـــات الســـواحل تـــزأر عـــندما أقدم اليخت الإمبراطورى الفرنســـى"لاجل" L.Aigle (*) يتهادى، وعند مؤخرة ظهره وقفت الإمبراطورة يوجيـــنى، وصـــاحت الأميرة وقد غمرتها البهجة: لم أشهد فى حياتى منظراً بهـــذا القـــدر من الجمال!" وشاهد المراقبون أجمل امرأة فى أوروبا والدموع تنســـاب مـــن عينيها. ولقد استغرق موكب المرور عبر القناة ذات الأربعين مـــيلاً(**) حـــتى بحيرة التمساح اثنا عشرة ساعة. وعند مغيب شمس اليوم الـــتالى تقـــابل الموكـــب البحرى مع قافلة من السفن المصرية التى كانت قد أقلعـــت مـــن الـــبحر الأحمر فى اتجاه الشمال. وتحت أضواء عشرة آلاف فـــانوس جلس إسماعيل ويوجينى فى قصر الخديوى الجديد فى الإسماعيلية علـــى رأس وليمة ذهبت مثلاً فى التاريخ كواحدة من أكثر المآدب بذخاً، بينما انطلقت الأنباء بسرعة البرق بأن التقاء البحرين قد أصبح أخيراً حقيقة.

وبين إجراءات الاحتفالات، طلبوا من إرنســـت رينان Ernest Renan أن يلقـــــى خطـــبـــــة رحب فيهـــــا بضم دى يلسبس إلى عضوية الأكاديمية الفرنســـية L'Academie Francaise ووصـــفه بأنه "مبعوث القدر"، فقد أعلن ببصـــيرة تدعـــو للدهشة قائلاً: « إن البرزخ الذى تم حفره الآن سوف يكون مستقبلاً ساحة للمعارك. أن بوسفور واحد يكفينا حتى الآن لمشاكل العالم، لقد خلقـــت برزخا ثانيا يفوق فى أهميته الأول بكثير! ففى حالة الحرب... سوف يكون ذا أهمية قصوى... إنها نقطة الاحتلال التى من أجلها سوف يتصارع العالم بأكمله... لقد حددت الميدان للمعارك الكبرى فى المستقبل ».

يجـــب أن يكـــون واضـــحاً كل الوضوح أنه فى الوقت الذى شهد أعمال إســـماعيل العظـــيمة فـــى مجال الأشغال العامة، والرشاوى التى كان يدفعها للســـلطان، واستضافته للأمراء التى كانت تتكلف مبالغ طائلة تفوق بكثير ما

(*) أى العقاب (المترجم).

(**) أى حوالى ٦٥ كيلو متر (المترجم).



لوحة تصور جانبا من جوانب الحفل الباهظ الذى أقامه
الخديوى إسـماعيل فى مدينة بور سـعيد فى ديسـمبر
١٨٦٩ فى حضره ضيوفـه من ملوك وأمراء أوروبـا
(مجموعة مانسيل فى لندن)

كـــان لدى الخديوى أو لدى مصر، وقد يكون فى إمكان هذا البلد أن يسددها علـــى المدى الطويل كما حدث فى بعض الأحيان، لأن مصر فى الأصل بلد غـــنى بدرجـــة غير عادية، ولكن بذخ إسماعيل وإسرافه فى ذلك الوقت فاق بكثـــير مصـــادر خزانـــته. لقد أدخل مصر إلى مجال المشروعات الخاصة، والـــتى لكـــى يمـــول تنميتها كان عليه أن يستدين بكثرة من البنوك، غير أن الديـــون توالـــت دين يتبع دين، يفصل بينهما فترات فاصلة قصيرة خطيرة، وســـابق رجال المال البارزين بعضهم بعضاً، وكان أشدهم جشعاً الأوربيون فـــى محاولتهم لغشه. وكما لاحظ إميل لودفيج Emil Ludwig: " بالفائدة التى يـــبغونها، والعمـــولات والمدفوعـــات الوهمية، وبكل جيل بورصات باريس ولـــندن، وبطـــريقة قـــد تؤدى بالرجل البسيط إلى غياهب السجون. فالرجل الإنجلـــيزى فـــى ذلك الوقت كان يطلق على كبار رجال البنوك حثالة "أوربا" لأنهم كانوا يدفعون بالفعل للملك المبتهج ستين فى المائة فقط من الديون التى دونت على الورق".

فمـــن المؤكد أن ديون الدولة التى عقدت مع بنوك جوشن Goschens فى أعـــوام (١٨٦٢ /٦٤/٦٦) و اوبـــنهايم Oppenheim (١٨٧٣) ومع روتشيلد Rothschild (١٨٧٩)، تظهـــر أن من المبلغ القانونى وقدره ٧٧ مليون جنيه تسلمت مصر فى الحقيقة ٥٠ مليون جنيه فقط. ومن دين اوبنهايم عام ١٨٧٣ الـــذى كان رسمياً ٣٢ مليون جنيه بالإضافة إلى رسوم سنوية تقدر بـــ ٣,٥ ملـــيون جنيه، لم تتسلم مصر منه سوى ١٨ مليون جنيه. إن اليهودى التعس الـــذى طـــرد مـــن مصر فى أعقاب أزمة السويس قد يجد تبريراً أخلاقياً لما حـــدث له فـــى الخطايا التى ارتكبها أباؤه لأنه على حد ملاحظة جورج يونج اللاذعة: "لم يحدث نهب للمصريين بهذا الحجم قام به شعب الله المختار(١٣)".

ولـــم يكن العبرانيون وحدهم. ففى خلال حمى البناء التى انتابت إسماعيل ســـمح لـــبعض العقود أن تكافأ بمبالغ عالية لدرجة لا تصدق، كانت فوائدها تذهـــب إلـــى خارج البلاد، فعلى سبيل المثال قامت شركة بريطانية معروفة ببناء رصيف ميناء الإسكندرية، وكانت قيمة العقد ثلاثة ملايين جنيه فى حين يرى السير ريفرز ولسون Sir Rivers Wilson (فيما بعد أصبح الممثل المالى

لبريطانيا) أن نصف هذا المبلغ كان كافياً.

وعندما حدث الإفلاس، كان هناك حديث كثير عن الظلم الذى أوقعه أصحاب الديون والمرابين بالبلد، لكن لم يحظ رجال البنوك ولا الخديوى بالعطف، فلو أن هناك ظلماً وقع، فإنه بلا شك ذلك الذى حاق بالمواطن المصرى لأنه كما يحدث دائماً، فإن الذى يسدد الحساب فى النهاية هو الفلاح المسكين، ولنستعير من قول جورج يونج مرة أخرى: إن معاناة الفلاحين المصريين سواء خلال سنوات العمل الإلزامى أو من خلال الإبتزاز المالى الذى تلاه لمواجهة فوائد الديون التى كانت على القناة، يضع أوروبا فى مقدمة الدائنين. دين شرف لأوروبا لمصر، التى لم نسمع عنها كثيراً كما نسمع عن الالتزامات الأقل قيمة من جانب مصر نحو أوربا.

إن قناة السويس مثلاً بالرغم من أنها شقت بالعمل المصرى، وسددت تكاليفها من المال المصرى، كانت خسارة مميتة حقيقية لذلك البلد خلال الثمانية والثمانين عاماً التالية، وباستثناء المشاكل السياسة التى سببتها، وتحت حجة طرق المواصلات للإمبراطورية كان هذا المجرى المائى واحداً من الأسباب الرئيسية لسبعين عاماً من الاحتلال، كما أنها وضعت نهاية لتجارة الترانزيت البرى التى كانت وقتذاك تحقق دخلا وتقدم فرص عمل، والأكثر من ذلك خلال السنوات الست التى تلت افتتاح القناة، تسبب إفلاس إسماعيل فى فقد مصر حتى لنسبتها الضئيلة فى أسهم هذا المشروع.

لقد تأرجحت وجهة النظر البريطانية تجاه القناة من النقيض إلى النقيض. ففى البداية فعل بالمرستون كل ما فى وسعه لوقف المشروع، فقد قال أمام مجلس العموم.: إنني اعتقد أنه يأتى فى مرتبة المشروعات الفقاعية الكثيرة فقد قام على تأملات بعيدة المدى فيما يتعلق بالوصول السهل إلى ممتلكاتنا فى الهند. إنه مشروع بكل تفاصيله معادى ومناوئ للمصالح البريطانية »: فعلى طول خمس عشرة سنة ظلت حكومة جلالة الملكة تمارس نفوذها فى القسطنطينية ومصر لمنع تنفيذ ذلك المشروع. ولكن ما أن تم حفر القناة وأصبحت جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية حتى

أصـــبحت قصة مختلفة. فقد كتب ايرل كلارندون Earl of Clarendon وزير الخارجـــية إلى دى يلسبس يقول: إن الافتتاح الناجح للقناة قد استقبل بِرضاء كبـــير علـــى مســـتوى العـــالم . ثـــم استمر فى إطرائه المفرط قائلاً: إن المـــزايا السياســـية والـــتجارية الـــتى قد نتوقعها بكل ثقة سوف تكون نتيجة لمجهوداتـــك ". لقـــد تغـــير توجه السياسة البريطانية الأن بشكل محتوم نحو السيطرة على ذلك المجرى المائى الذى ربط بين بحرين وفصل بين قارتين. وبعد افتتاح القناة بست سنوات جاءتهم الفرصة لأن يفعلوا ذلك.

ولعقـــد كامل، ظل إسماعيل يندفع بتهور نحو الديـن، راهناً كل شىء نافع مـــن أجل أن يحصل على ديون جديدة حتى أنه أصبح أخيراً فى عام ١٨٧٥ علـــى شفا الإفلاس. ولم يتبق لديه من الممتلكات ذات القيمة سوى أسهم قناة الســـويس. ولقد رفع ستانتون Stanton القنصل البريطانى فى القاهرة تقريراً يقـــول فيه إن مجموعة مالية فرنسية تتفاوض على شرائها وفى حوار خاص أخـــبر دزرائـــيلى Disraeli اللـــيدى برادفـــيلد Lady Bradfield واللـــيدى تشســـترفيلد Chesterfield أنه لو تمت هذه الصفقة فإن: قناة السويس بأكملها سوف تصبح ملكاً لفرنسا وسيكون فى استطاعتهم إغلاقها. ومهما كان الأمر، فقـــد أبـــرق إلـــى ستانتون فى ١٧ نوفمبر بأن الحكومة البريطانية نزلت إلى الســـوق لشـــراء الأســـهم. وفـــى ٢٣ نوفمـــبر رد ستانتون أن الأسهم قد عرضـــت على بريطانيا العظمى مقابل أربعة ملايين جنيه وأن هذا العرض صالح لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط .

ولقـــد وضع ذلك دزرائيلى فى مأزق. فقد كان البرلمان منفضاً حتى شهر فبراير، وعلى ذلك لم يكن هناك من سبيل للحصول على الاعتماد المالى بعد التصـــويت عليه. ولم يكن فى إنجلترا كلها غير رجل واحد فى استطاعته أن يكتب "شيكاً" بمثل هذا المبلغ فى الحال. وأدخل سكرتير دزرائيلى على اللورد روتشيلد Rothschild الذى كان قد فرغ لتوه من تناول غذائه.

- كم المبلغ ؟ هكذا سأل رجل البنوك وهو يمرر إليه شراب البورت.
- أربعة ملايين جنيه.



THE SUEZ NEGOTIATIONS.



THE LION'S SHARE.

١ – مـــن علـــى اليمين صورة دى ليسبس فى صورة ماســـح أحذيـــة لبريطانـــيا. إشـــارة إلى الاذلال البريطانى له (مجموعة مانسيل – لندن)

٢ – مـــن علـــى اليسار صورة كاريكاتورية ظهرت فى مجلة بنش **Punch** وقد ظهر فيها دزرائيلى وهو يفاصل الخديوى على بيع أسهم قناة السويس وقد ظهـــر الأســـد الـــبريطانى يمسك بمخالبه مفتاح الدخول إلى مصر (مجموعة مانسيل)

- ومن يكون الضامن.
- الحكومة البريطانية.
- واستنشق روتشيلد كأس البورت، ثم ابتسم، ثم أفرغ الكأس وأجاب بهدوء: سوف تحصل عليها.
- وهكذا أمنت الأسهم بسلام ومنذ تلك اللحظة أولت بريطانيا اهتمامها كمالكة للعقار الذى حصلت عليه، وبالتالي فى اهتمامها بحكومة وشئون مصر. لقد أصبحت نبوءة كنجزليك فى طريقها للتحقق وكذلك نبوءة رينان.

## الفصل التاسع

# حديث بلنت

كتبــت ابنته تقول: «إن ولفريد بلنت Wifrid Blunt ولد مثيرا للشغب من رحــم الخداع الشرقى، والنفاق الأيرلندى، وأنه كان شكاكا مخادعا مع النساء » غــير أن الدكــتور سيد محمود ــ وزير الخارجية الســابق فى الحكومة الهــندية أعلن: أخيرا « إن أفكار "بلنت " وعمله سوف يخلدان ذكرى عظمة انجلــترا للأبــد » وقبل ذلك كتب يقول: « لقد تعلمت منه الأمانة فى السياسة قبل أن أقابل غاندى بوقت طويل ».

وأينما كانت الحقيقة تقبع ما بين هذين الحكمين فإن " ولفريد سكاون بلنت" Wilfrid Scawen Blunt الــذى توفــى عام ١٩٢٢ وهو يناهز الثمانين من عمــره خلــد للأجــيال التالــية صورة موثقة جيدا عن تتابع فوضى الخطط الاستعمارية البريطانية. فقد كان من كبار ملاك الأراضى ومن أقطاب حزب المحافظيــن. وكــان لديه من الثراء ما جعله يفعل ما يريد، كان أيضا رساما ونحاتــا، بــل وحــتى شاعرا، وكما لاحظ عنه ذات مرة إ.م فورستر E.M. Forster "كــان شــامل المــزاج لكــن محــدد الإنجــــاز " Wholly by temparament but only partly by achivment لكــن قــبل كل شــىء كان مثيرا للدعاية السياسية، ومعاد للاستعمار فى وقت كان المرء يحتاج فيه إلى الشــجاعة لــيكون كذلك. لقد كان البطل المدافع عن القضايا الخاسرة حسب تقاليد بيرون وشللى الأرستقراطية، ولابد أنه كان مصدر إزعاج تام لأصدقائه الذيــن كانوا يوجهون دفة السياسات فى انجلترا. غير أن مقته للدجل والخداع والاســتعمار عامة، تبدو كما لو كانت نبعت ليس من نقص فى ولائه لوطنه بل على الأصح من إحساسه العميق بالعطف على ضحايا الاستعمار.

وفــى سن الثامنة عشر التحق بالعمل بالسلك الدبلوماسى، والتحق بالبعثات البريطانــية فى مختلف أنحاء أوروبا، لكن سرعان ما خاب ظنه عندما وجد أن دور الســكرتير هــو أن يتحرك فى المجتمع، وأن يمتع نفسه بطرق لائقة

ولكـــن علـــيه ألا يـــبدى أى اهتمام فى الأمور الجارية تحت أى ظرف من الظـــروف، ولفـــترة قصـــيرة كتب شعرا أكثر مما كتب برقيات، وساهم فى بعـــض الدرامـــا الـــتى عاصرها فى أوروبا كمشاهد، بعد ذلك تقاعد ليربى الخـــيول فـــى ضـــيعته بضاحية ساسكس Sussex، ولم يكن قبل عام ١٨٧٣ عـــندما هرب من الشتاء الإنجليزى هو وزوجته حفيدة اللورد بيرون - ليقوم بـــرحلة إلـــى الشـــرق، فسافر عن طريق بلجراد جنوبا ثم من الدانوب إلى القســـطنطينية، وعـــندما كانا فى السفارة هناك اشترى نصف دستة خيول من ســـوق " المـــيدان "، وقضى بضعة أسابيع مبهجة، وهو يتجول فى تلال آسيا الصـــغرى الـــتى يغطيها زهور الخشخاش. وقد تأثر بشدة من أمانة وصداقة الناس وشرورحكومتهم. وقد أبدى " بلنت " ملاحظة فى تعليق ذى نبرة تكاد أن تكـــون ملاحظة بيئيـــة: « لقد كان جلياً أنه بالرغم من وجود القمع المالى الشـــديد توجـــد حرية شخصية بدرجة كبيرة عند الفقراء فى ريف تركيا مما يتناقض بشكل غير مقبول فى وطننا إنجلترا المكبل بالشرطة والمحاكم».

وفى الشتاء التالى ذهب إلى الجزائر، وصادف ذلك قيام الانتفاضة العربية الـــتى ســـحقها بشراســـة الفرنسيون الذين - فى رأى بلنت - انتهزوا فرصة حـــدوث الـــتمرد ليصـــادروا ممـــتلكات الســـكان الوطنيـــن، وتسليمها إلى المســـتوطنين Colonsالفرنســـيين فكتـــب يقول: " وهناك شهدنا منظراً آخر أعطانـــا الزاد للتفكير: أن شعبا شرقيا فى حالة خضوع شرس لشعب غربى. مـــع حبى للفرنسيين (وقد كنت فى باريس خلال الحرب وكنت شديد الحماس فـــى المقاومة وقت الحصار الذى ضرب عليها) إلا أننى وجدت تعاطفى فى الجزائر يتجه بكامله تجاه العرب ".

كانـــت أول نظـــرة ألقاهـــا بلنت على مصر أثناء مروره عبر بحيرة المنزلة شـــمالاً علـــى طـــول قناة السويس فى عشية العام الجديد لعام ١٨٧٥، وفى هذه الأيـــام كانـــت البحـــيرة مـــنطقة بكـــرا، ومـــن ثم سحرته أسراب الطيور مثل الفلامـــنجو، والـــبط، والـــبجع، وأبو قردان، والتى كانت تغطى سطحها، وكذلك كمـــيات الســـمك التى كانت تقفز بأعداد كبيرة حول مقدمة السفينة، ولما وصلوا إلـــى الســـويس كـــان فى انتظارهم أنباء الكارثة التى حلت بالجيش المصرى فى

الحبشـــة. وســـرت شائعة تقول أن ابن إسماعيل نفسه قد وقع فى الأسر ومثل به، وفـــيما بعـــد نفى ذلك. وكانت تلك بالطبع أنباء لا تسر ولذا قرر الزوجان بلنت، بدلاً من مواصلة الرحلة حتى كسلا أن يغيرا من خططهما ويمكثان فى مصر.

لـــم يكـــن لديهمـــا الرغـــبة أن يتـــبعا مسارات السائح العادى، ولما كان بحوزتهمـــا أدوات المعســـكر، فقـــد استأجرا جمالاً عند السويس، وركبا عبر الصحراء إلى القاهرة، ولابد أنها كانت لحظة بغيضة عندما أخطئا فى اختيار موقع إقامة معسكرهما خلف مرمى ميدان التدريب على إطلاق النار الخاصة بـــالخديوى، إذ هبا من نومهما مذعورين من صفير الطلقات، غير أنهما كانا محظوظين لأن المجندين كانوا ضعافا فى التنشين، ثم وصلا القاهرة سالمين، ولم يتوقفا بها إلا لتسلم الرسائل الخاصة بهما قبل أن يتجها فى طريقهما إلى الأهـــرامات. وعند غروب الشمس توقفا عند قرية "الطالبية" الصغيرة ولأنها كانـــت فـــى – الطريق – إلى الأهرامات فكل الأجانب كانوا يعتبرون غنيمة مشـــروعة، إلا لأنهمـــا لدهشتما استقبلا بترحاب كبير. والحقيقة لأنهما توقفا عـــند القـــرية وقضـــيا فـــيها ليلة فقد اعتبرهم السكان ضيوفا، فمن بين كافة الأوربيين الذين مروا بهذا الطريق لم يتوقف أحد قط لقضاء الليل. وكان ذلك أول اتصال بين الشاعر والفلاحين.

لقـــد لمس بلنت أن الفلاحين فى وضع مزر، فقد كان إسماعيل يترنح على شـــفا الإفـــلاس، وكان إسماعيل صديق – ذلك المفتش سيء السمعة – فى الحكـــم. وكان الأوربيون من حاملى الكوبونات السريعة يتصايحون مطالبين بحصصهم، وكان على الفلاحين أن يدفعوا. وقد انتشر جباة الضرائب فى كل مكـــان يمسكون بالكرباج فى أيديهم، وكانت مدن الأقاليم مليئة بالنساء اللاتى يعرضـــن حليهن الفضية للبيع، بل حتى ملابسهن على المرابى اليونانى الذى لـــيس أمامهن غيره، وقد اشترى "بلنت" منهن بعض حليهن الصغيرة واستمع إلـــى حكاياتهن، وشاركن فى صب اللعنات على مثل هذه الحكومة التى كانت تبغيهن عرايا، غير أنه لم يفهم أكثر مما يفهم الفلاحون أنفسهم – أن الضغط المـــالى من جانب أوروبا كان هو السبب الحقيقى للمآسى التى تحيق بهم. ولم يكتشف إلا مؤخرا أن بلاده كان يقع عليها قدر من اللوم.

وبكـــل تأكيد، كان القرويون صرحاء بما فيه الكفاية، فقد كان للإنجليز فى هذه الأيام شعبية فى البلاد الإسلامية، فقد كانوا ينظرون إليهم كمتحررين من مخططـــات " الفرنجة " الآخرين السياسية، وأنهم كأفراد أمناء فى معاملاتهم الـــتجارية. وفى مصر بالذات – كانوا يوضعون فى موضع مناقض تماما من "حـــاملى الخرج " Carpot - baggers من بلدان البحر المتوسط: كالإيطاليين، واليونانييـــن، والمالطيين، الذين كانوا بكل معانى الكلمة يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين. وكان هناك همس عن احتمال تدخل أوربى وفى نظر الفلاحيـــن (إذ ما كان ذلك من جانب الإنجليز) فإن ذلك لم يكن غير مستحب، فقـــد كانـــت الأحوال لا تطاق حتى أن أى تغيير فى نظرهم سيلقى الترحيب بالفـــرح والســـرور. وبالنسبة للفلاحين فإن حالة العوز التى هم فيها، بعد أن نهبوا وضربوا وهلكوا من الجوع، فقد بدت إنجلترا معها فى نظرهم أنها مثل المـــبعوثة الربانية كثيرة الغنى، شديدة النزاهة، التى ترد الظلم عن أصحابه، وتصادق المضطهدين مثلما بدا السواح البريطانيون فى كثير من الأحيان وهم يـــتجولون، باســـطى الأكـــف، وعلى وجوههم مسحة من التعاطف. لقد شعر "بلنت" بالخجل والخزى بمرارة أن يشعر هؤلاء البسطاء بمثل ذلك الشعور، وقلـــيلا مـــا كـــان يعتريهم الشك أن الأنانية فى التجارة هى التى قادت أبناء وطـــنه بارتكـــاب كثـــير من حالات العدوان على كثير من أجناس الأرض الضعيفة.

فقـــد كتـــب فى صحيفته يقول: " إن لدى الفلاحين كل الخصائص الكافية لخلـــق مجـــتمع سعيد وثرى، فهم مرحون، محبون للعمل، مطيعون للقانون، ومقتصـــدون بشـــكل واضـــح.. عطوفين على كبار السن، وعلى الشحاذين والـــبلهاء.. أمـــا العيـــب الكبير فيهم هو حبهم للمال، ولكن علماء الاقتصاد السياســـى على استعداد أن يغفروا لهم هذه المزية، إنه لمن الصعب أن نعثر فى أى مكان على شعب يبدو أكثر قبولاً لأن يطبق عليه النظرية الاقتصادية وهـــى توفـــير أكبر سعادة لأكبر عدد من الناس. وفى مجال السياسة لم يكن لديهـــم أمل سوى أن يعيشوا ويتركوا ليعيشوا، وأن يتركوا ليعملوا ويحتفظوا بـــثمار عملهم، وأن يشتروا ويبيعوا دون تدخل من أحد، وأن يتهربوا من دفع

الضـــرائب، لقـــد لقوا معاملة سيئة لعصور طويلة دون أن يفقدوا طيبة القلب الـــتى لديهـــم، فقد كان لديهم قليل من الفضائل الفطرية، وهم ليسوا متطرفين ولا متعصبين فى وطنيتهم ولا كرماء بدرجة رومانسية، غير أنهم خالون من الشرور الفطرية. وكل واحد منهم يعمل لنفسه، وعلى الأكثر من أجل أسرته. وهم لا يفهمون فكرة التضحية بالنفس من أجل الصالح العام، وهم أبرياء من المكائد لاستعباد زملائهم.. وبالرغم من القمع البشع الذى هم ضحاياه، إلا أننا لـــم نســـمع مـــن جانـــبهم كلمة واحدة عن الثورة، وليس ذلك بسبب نظرتهم الاعتقادية الخرافية تجاه حكامهم لأنهم ليس لديهم انحياز سياسى مسبق، ولكن لأن الـــثورة فى طبيعتهم ليست أكثر مما يحدث لقطيع الأغنام. لقد كانوا على اســـتعداد لأن يهـــتفوا لملكة إنجلترا أو البابا أو حتى ملك الاشانتى(*) بنفس القدر من الحماس، لو أن أحداً من هؤلاء جاء لهم بهدية، وهى تخفيض بنس واحد فى الجنيه فى تقدير الضرائب!.

هـــذه هى الانطباعات الأولى للشاعر، ولكنه كان لا يزال غير مدرك للأفكار السياســـة الـــتى كانت تسمع فى المدن، وللوطنية التىبدأت تنشط، وكان عليه أن يـــدرك التأثـــير الكامل للتمويل الدولى فى المصاعب التى كان الفلاحون يعانون مـــنها، وعـــندما عـــاد إلـــى القاهـــرة سرعان ما أصبح لديه فكرة عن الورطة الاقتصـــادية الـــتى وقعـــت فـــيها البلاد، وحجم الكارثة التى سببها إسماعيل، فقد وصـــلت فوائـــد الديون الأجنبية إلى أربعة ملايين جنيه إسترلينى فى السنة، وكان الـــتقدير العـــام أن تكاليف الفترة التى حكم فيها فاقت مبلغ ٤٠٠ مليون جنيه وهو مـــبلغ هائل بالنسبة لذلك الوقت.ولذا صادر كل ما اقتصده الفلاحون عبر سنوات الـــرخاء، ومعهـــا كـــل ماشيتهم التى يستخدمونها فى الزراعة، والأدهى من ذلك أنهـــم كـــانوا مدينين من ناحية خاصة بمبلغ يقارب العشرين مليونا من الجنيهات للمرابين اليونانيين وغيرهم من المرابين المحليين.

وقـــبل أن يغـــادر القاهـــرة كان " ولفريد بلنت " ضيفا فى إحدى المآدب

(*) مملكة قامت فى غانا فى القرنين السابع والثامن عشر.

الفارهـــة الـــتى أعدهـــا إســـماعيل لأعضاء إحدى البعثات المالية عند سفح الأهـــرامات، وبيـــنما هم يتناولون أطايب الطعام بوفرة، ويحتسون الشمبانيا تحـــت نظـــرات جمهـــور جائع من الفلاحين. رأى ذلك المنظر الذى يناسب الوصـــف بكـــل الـــترف والبؤس المحيط. أنه الحس المسبق الحقيقى للسببين التوأمين للثورة القادمة(١٤).

وسرعان بعد ذلك أن حدثت مراوغة غريبة من جانب الدبلوماسية العالمية تاركـــة مضـــاعفاتها علـــى مصر. فعندما كان دزرائيلى شابا قدم فيما يشبه المـــزاح فى روايته تانكرد Tancred فكرة بناء إمبراطورة أسيوية تحت التاج الـــبريطانى نواتها جزيرة قبرص، ربما مستعيدا إلى الأذهان الحقيقة التاريخية بأن رتشارد قلب الأسد كان حاكما لها. ولابد أنه ضحك بينه وبين نفسه عندما وقـــع على اتفاق سرى فى مطلع عام ١٨٧٨ مع السلطان الشاب عبد الحميد ســـلطان تركـــيا والذى بمقتضاه قبل أن تؤجر قبرص إلى انجلترا مقابل تقديم ضـــمان إلـــى السلطان (الذى كان يتعرض فى ذلك الوقت لضغط شديد من روسيا) بالحفاظ على كل ولاياته فى آسيا.

لـــم تكـــن قـــبرص فى حد ذاتها بذات فائدة خاصة لانجلترا، وفى أحسن الحـــالات كان ذلك وهماً من جانب دزرائيلى سببه أحد التقارير المزيفة عن شـــراء الجزيـــرة قدمـــه أحد القناصل الذى كانت له مصالح فيها. كان هدف دزرائـــيلى الحقيقى هو أن يفرض بشكل غير رسمى ولكن بطريقة مؤثرة — الحماية البريطانية على تركيا الأسيوية.

وبعـــد مـــرور شهر فى على افتتاح مؤتمر برلين الذى عقد لتقرير مصير تركيا الأوربية، قدم اقتراح أنه يتوجب على كل حكومة أن تتعهد بشرف أنها لـــن تلجـــأ إلى عقد أى ارتباطات سرية فى هذا الشأن، ولأنهما فوجئا بالأمر، فقـــد أعطى كل من دزرائيلى واللورد سالسبورى كلمتهم مثل الآخرين. ولما نشـــرت إحـــدى صحف لندن المسائية فى اليوم التالى النص الكامل للاتفاقية حـــول قـــبرص، شعرا بالإحراج الشديد، ولقد كان ذلك بالطبع من باب سوء الحـــظ (فقـــد باع مترجم تلك المعلومات لمجلة " العالم " The Globe مقابل

خمسة جنيهات إسترلينية) غير أن الصدمة كانت مزعجة، فبعد أن أدين أمام المجلس بتهمة الكذب المباشر، انسحب دزرئيلي إلى مقره تاركا الأمر لولبرى وهو يحاول التخلص من هذه الورطة بقدر ما استطاع، ولقد حصل الوفدان الفرنسى والروسى على أفضل المزايا، وقد خرجا وهما يتظاهران بالغضب الشديد، ولقد كانت هناك حاجة إلى عبقرية بسمارك لإرضاء الفرنسيين، والتوصل إلى اتفاق وسط الذى بمقتضاه، أن تترك فرنسا لتحتل تونس فى مقابل حصول إنجلترا على قبرص، بل حتى ــ كما زعم ــ أن يعترف لها بحق المطالبة بسوريا، وعلاوة على ذلك، بل الأهم من ذلك كله أن يكون لفرنسا رأيا مساويا لإنجلترا فيما يختص بالترتيبات المالية التى كانت تجرى فى مصر.

هكذا دفع الثمن لفرنسا، وقد وضح " ولفريد بلنت " إلى أصدقائه وهو على ظهر الباخرة ميساجيرى ماريتيمز Messageri Maritimes والتى كانت تنقلهم من مارسيليا إلى الإسكندرية أنه ساعد دزرائيلى فى العودة إلى لندن لكى يفاخر فى العلن أنه أعاد السلام مع الشرف[١٥].

لقد اعتقد أن الوصف الأكثر ملائمة هو " السلام مع الخراب " بعد أن روعه هذا الإعلان عن الاستعمار الذى لا يقوم على مبدأ فإلى مؤامرة قبرص تعزى سلسلة طويلة من الجرائم ضد حرية الشرق وشمال أفريقيا. فقد وضعت تونس تحت أقدام فرنسا، وأطلقت شرارة التقسيم الكبير لأفريقيا بين القوى الأوروبية، وجعلت المسلمين يشعرون بالمرارة إزاء إنجلترا، بل كان ذلك السبب الحتمى بعد مرور عام للسيادة المشتركة Condominium الأنجلو فرنسية على مصر.

وفى خريف العام التالى، وجد "بلنت" نفسه مرة أخرى وهو يتجه صوب الشرق بحثا عن المهور العربية للاصطبل الذى كان يملكه فى كرابت Crabbet وبينما كان يجلس على ظهر السفينة مع السير ريفرز ولسون (والذى كان قد عين كوزير مالية للتمويه على فرض الحراسة القضائية الأجنبية) ترامى إلى أسماعه ما كان يحدث فى القاهرة خلال العامين

المنصـــرمين. وكـــان ذلـــك بالدرجة الأولى حول سجل الجرائم التى ارتكبها إسماعيل. ولكن بالرغم من ذلك كان عند ولسون آمال عراض لإعادة مصر إلـــى الازدهـــار وإنقـــاذ الفلاحين من الأسر المالى لقد كان يعلم أن إسماعيل سوف يكون خصما عنيدا ومجردا من المبادىء الأخلاقية، ولكنه اعتمد على قدرته فى التمكن من الوصول إلى اتفاق معه. وبالرغم من المثل القديم القائل "ما دام الوزير ارمينى فالخراب قريب منى". An Armenian Visier & Ruin is near فقـــد وضـــع ثقته فى نوبار (رئيس الوزراء الجديد) وظن أنه يمكن جعلـــه يقـــف من ورائه ليس فقط فى تأييد وزارة الخارجية ولكن الأكثر من ذلـــك أهمـــية فى تأييد أسرة روتشليد، فقد نجح فى إغرائهم فى باريس بتقديم قـــرض بفـــائدة يقـــدر بتســـعة ملـــيون جنيه مصرى بضمان كافة ممتلكات الخديـــوى، ولقـــد انتهى ذلك الأمر أن يكون تصرفاً مميتا، عجل بالصدام فى القاهرة.

لقـــد كانـــت الفـــترة القصيرة التى شغل فيها (ولسون) وزارة المالية فشلاً ذريعـــاً، لأنـــه فى المقام الأول كان عليه أن يصارع ضد أصحاب القروض الأوروبييـــن الجشـــعين، كما أنه اعتمد كثيرا على نوبار الذى اكتسب شهرته كـــرجل أرميـــنى كـــون ثـــروته من تلقى عمولات من مقدمى القروض من الأوروبييـــن، ومن ثم كان الاعتماد عليه أشبه بالاعتماد على قشة هشة. وإذا كـــان إســـماعيل بمقتضـــى قرار عرف باسم مرسوم عام١٨٧٨ سلم إدراته الشخصـــية للدخـــل إلـــى وزارة نوبار ــ ولسون، فقد كان ذلك بمثابة البديل لإعـــلان إفلاســـه الفعلى، وكان لديه النية الخالصة للتخلص منها بأسرع ما يســـتطيع، ولـــم يكن من العسير عليه أن يثير مشاعر المسلمين ضد ولسون الـــذى هـــو أجنـــبى ومســـيحى، خاصـــة أنه بدأ بعقلية المحاسب فى سلسلة التوفـــيرات القاسية بين الموظفين المصريين فى نفس الوقت الذى زاد فيه من مرتـــبات الأوروبييـــن، كمـــا أن ولسون رغم كل نواياه الطيبة لم ينجح فى تخفـــيف الأثقـــال عن كاهل الفلاحين. لقد كان أساسيا أن يبقى الخديوى قادرا على الوفاء بديونه وهذا يعنى ان الفائدة على هذا الكم الهائل من الديون يجب

أن تسدد فى مواعيدها تماما(*) واستمر حكم الكرباج بلا رحمة كما كان دائما فـــى القرى، كما أن المسح للدخول الذى أجرى بطريقة سيئة، فسر على أنه مقدمـــة لفـــرض ضــــرائب أبهظ على الأرض جعل الأمور تسير إلى أسوأ. وعـــنــــدما ذهــــب ولســــون إلى تقديم اقتراح بإلغاء تنظيمـــاتالمقابلة» Moukabalah (والـــتى كـــان يعـــنى فـــى الواقع أن تصادر الحكومة مبلغ ٩,٥٠٠,٠٠٠ جنـــيه مصرى دفعها ملاك الأراضى مقدما على ملكياتهم من الأراضــــى)، فقـــد نشـــأ اعـــتقاد أن هناك ما هو أسوأ يمكن توقعه من هذا المحاســـب الإنجليزى بدرجة أكثر من ذى قبل. أما بالنسبة "لبلنت" فقد بدا له أنـــه أمر مناف للعقل أن يقوم أى شخص ذكى وجاد مثل صديقه بإحداث مثل هـــذه الفوضـــى فى الشئون. وتطرق إلى ذهنه أن بعض الإجراءات التى كان "ريفـــرز" يـــتخذها لابد وأن تكون من اقترحات الخديوى نفسه لكى يشوه من ســـمعته. وكانت قمة بلاهته إقدامه على تخفيض أعداد الجيش، وتسريح عدد كبير من الضباط دون أن يدفع لهم متأخراتهم.

يقول المثل الشرقى: " دع الخنازير تقطع حلوقها وهى لا تدرى ". فقد دبر الخديـــوى مظاهرة للطلبة وصلت حتى مكاتب الحكومة فى الوقت الذى كان فـــيه الوزراء يغادرون مكاتبهم، وما أن وصل نوبار إلى عربته حتى أحاط به الشـــباب وهـــم يهتفون ثم شدوه من شواربه، وضربوا أذنيه بقبضاتهم. عندئذ أطلـــق حرس الخديوى الذى كان مختبئا وراء الكواليس ــ بضع طلقات فوق

(*) صـــدرت هـــذه القوانيـــن عـــام ١٨٧١ أثناء حكم الخديوى إسماعيل بهدف الحد من المصـــاعب المالية المتسببه عن النقص فى دخل الحكومة. وقد عرضت هذه القوانين أمـــام واضـــعى الضرائب فرصة تحقيق ٥٠% إذا ما سددوا للخزانة المصرية مبلغاً يعادل ضرائب ست سنوات مقدماً، كما شمل مزايا أكثر إذا سددت ضرائب اثنا عشرة عامـــاً مقدماً. وكان لهذه القوانين آثاراً مدمرة إلى أن الغيت فى أكتوبر ١٨٧٩ على يد الإدارة المالية الأوربية.

رءوس التجمع، ثم ظهر الخديوى وأمر المتظاهرين أن يعودوا إلى منازلهم. وعن طريق هذه التمثيلية الهزلية Opera bouffe بدا أن إسماعيل قد نجح فى إقناع القنصلين الإنجليزى والفرنسى انه لولا تدخله ونفوذه الشخصى فإن أموراً كثيرة كانت ستحدث ونصح نوبار أن يقدم استقالته. وعين راغب باشا- مرشح الخديوى رئيسا للوزراء بدلاً منه. وبعد قليل جاء الدور على ولسون ففى الثلاثين من أبريل عام ١٨٧٩ كتب إلى "بلنت" يقول: ربما تكون قد سمعت أننى قد انزعجت من جراء ذلك الخديوى الوغد التافه. أنه لم يدبر اغتيالى تماما ولكن دبر عملية الهجوم على فى الطريق حيث عوملت بفظاظة... إن حكومة جلالة الملكة بولائها المعتاد لوكلائها تركتنى لقدرى».

غير ان ولسون كان أيضا يعرف المثل الشرقى، ولأن حكومته تركته فى وضع حرج ومخيب للآمال، فقد سافر عائدا إلى الوطن عن طريق باريس حيث حذر آل روتشلد من مغبة جريان أموالهم فى القاهرة، وأخبرهم أن الخديوى ينوى رفض الاعتراف بالديون كلها ، ولكى يغطى على تصرفه، سوف يعلن حكومة دستورية فى مصر ـ، فإن لم يمنعوا حدوث ذلك فسوف يجدوا أنفسهم خاسرين. وفى ضوء هذه النصيحة تصرف آل روتشلد، وبدأوا يدعون إلى تدخل فعلى من جانب القوى العظمى،غير أن الحكومة البريطانية التى كانت تواجه المتاعب فى جنوب أفريقيا، لم تكن فى مزاج يسمح لها بالتدخل. وبالمثل كانت باريس. ولما بلغ اليأس مبلغه اتجهوا إلى "بسمارك" الذى كان دائما يوليهم عطفه ومساندته منذ أيام فرانكفورت، ثم جعلوا البريطانيين والفرنسيين يفهمون أنهم إن لم يقدروا على حماية مصالح حاملى السندات فى مصر فإن الحكومة الألمانية سوف تقوم بذلك. مما حسم الأمر.

ففى السادس والعشرين من يوليو عام ١٨٧٩ سلمت برقية من الباب العالى إلى رئيس الوزراء المصرى وكانت موجهة: "إلى الخديوى السابق إسماعيل باشا" وللحظة خانت الوزير أعصابه. ثم استجمع قواه ودلف إلى مكتب الخديوى وبدون أن ترتعش عضلة واحدة من عضلاته، قرأ إسماعيل عبارة عزله، ثم اتجه بهدوء إلى رئيس الوزراء قائلا:



الخديوى إسماعيل خديوى مصر قبل أن
يعزله السلطان العثمانى عام ١٨٧٩

«أرســل فــى طلب الأمير توفيق! » وعندما دخل عليه ابنه، نهض وسار إليه عبر الحجرة، وبحركة رزينة رفع يد توفيق إلى شفتيه قائلاً:

– أحيــيك يا سيدى الخديوى !، ثم وضع كلتا يديه على كتفه وقبله على خديــه، وهــو يقــول: « أتمــنى أن تكون أكثر نجاحا من أبيك »، ثم غادر الحجرة.

وفــى خارجهــا قال للوزراء: " سوف أكون أول من يطلق عليه، ويسجل اسمه فى الكتب كأول ملك على مملكة مصر الحديثة ذات السيادة.. دعنا الآن لنذهب ونلعب دورة " ترك ــ تراك " Tric- Trac(*).

وبعــد أيــام قليلة ركب متن يخته المحروسة وأبحر إلى إيطاليا تماما مثلما قــدر لحفيدة أن يفعل ذلك بعد ثلاث وسبعين عاما. وكان آخر تصرف قام به هو أن يملأ جيوبه بالمال السائل الذى كان لا يزال موجوداً فى الخزينة.

(*) إحدى لعبات التسلية لشبيهة بلعبة تنس الطاولة اليوم.

الفصل العاشر

# إخضاع عرابى

| | |
|---|---|
| أيهـــا المصـــــريون هيا | اهجروا النــــــوم مليـــا |
| دافعـــــوا عن دينـــكم | وعـــــــن أرضــــــكم |
| ثراؤكم قـــــــد نهـــب | وأبناؤكـــم ليسوا سوى عبيد |
| العـــلم كان شمســــكم | الــتى أضــــاءت الدنيـــا |

واليـــــوم أنتم فى غـــروب

(صالح مجدى – الديوان)(*)

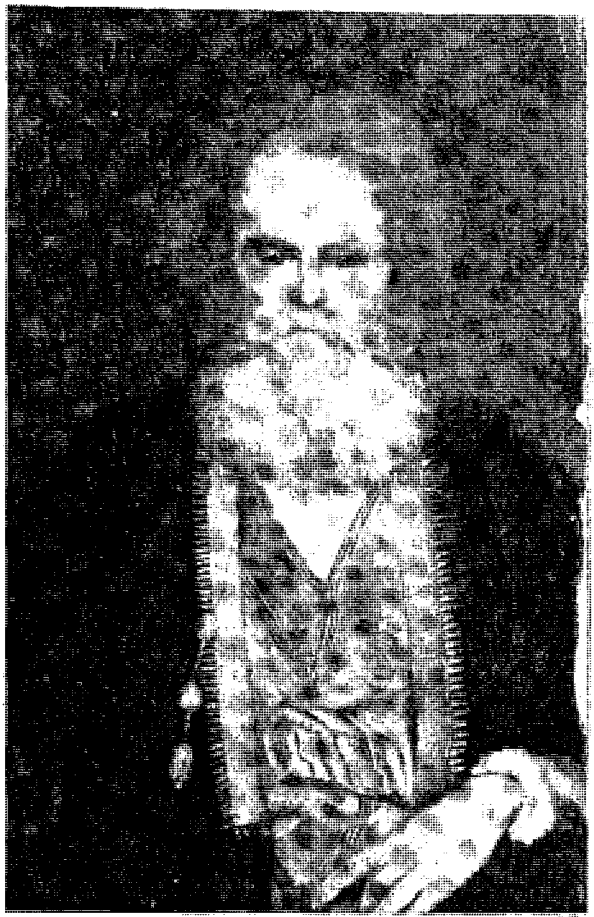
(*) هو السيد صالح مجدى بك. ولد عام ١٨٢٦ بقرية أبو رجوان القبلى مركز البدرشين محافظــة الجيزة. درس فى كتاب قرية فرغونة المجاورة، ثم التحق بمكتب (مدرسة) قــرية حلوان وهى إحدى المدارس التى أسسها محمد على باشا عام ١٨٤١. وبعد أن أتــم دراسته بها التحق بمدرسة الألسن تحت نظارة رفاعة بك رافع الطهطاوى حيث تخصص فى دراسة اللغة الفرنسية والعربية، ثم تحول إلى مجال الترجمة من الفرنسية إلـــى العربـــية التى برع فيها خاصة فى المجالات العلمية والرياضيات والطوبوغرافيا والجيولوجيا والهندسة الوصفية، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسين ببولاق عام ١٨٤٣م، حيــث عكف على ترجمات العلوم الهندسية والحربية وعلوم الميكانيكا بعدها انتقل إلى آلاى المهندســين حيــث عين بوظيفة باشمترجم وحظى برعاية الخديوى محمد سعيد باشــا الذى كتب فيه العديد من قصائد المديح فى عدة مناسبات، وبعد وفاة سعيد تحول ولاؤه إلـــى إسماعيل باشا الذى أكثر من المديح فيه، كما مدح بعض الشخصيات سيئة السمعة مثل إسماعيل باشا المفتش..كما مدح باى تونس المرحوم محمد الصادق الذى أنعــم عليه بعدة نياشين. وبالرغم من حرص صالح مجدى على ولائه للأسرة العلوية إلا أنه كان يحث من حين لآخر أبناء الفلاحين كمصريين كان لهم يوماً ما شأن عظيم

بوجهـه الرقـيق الذى ينم عن الزهد، وبلحيته السوداء المتليفة، وبعاطفته المشـبوبة التى تسرى فى كيانه، كان ذلك المعمم من أفغانستان ثوريا بمعنى الكلمـة. فليلة تلى ليلة فى قهوة الفيشاوى بالقرب من الأزهر، كان يحيط به جمهـور مبـتهج من الشعراء والنحاة والطلاب والصحفيين حيث نجح جمال الدين الأفغانى فى بلورة عواطفهم إلى كلمات.

كانـت رسالته واضحة، وهى: حض المسلمين على النهوض، واكتساب القوة والزعامة، حتى يتمكن المجتمع الإسلامى من اللحاق بأمم العالم المتقدمة . كـان الـرجل مقتنعاً بأن المصريين يملكون كل المقومات لبناء الأمة مثل الشـعور الديـنى العمـيق، واللغة ذات الجذور الضاربة فى الأرض، وكيان وتقالـيد كونوها عبر القرون، غير أنه – كما أدرك – أنه ينقصهم الإحساس بالكـرامة، وأنـه ليس لديهم التعطش للمغامرة، وكما قال لجمهوره: بسبب خوفكـم مـن المـوت تدهور بكم الحال إلى الموت... إن سنوات الخضوع جعلـت المصريين لا هدف لهم، فاترى الشعور، مستكينين، ينقصهم المثابرة ومتذللين لدرجة لا تطاق!.

ولمـا اشـتدت ورطة البلاد تدهوراً خلال سنوات حكم إسماعيل الأخيرة المشؤمة، بذر الأفغانى أولى بذور الوطنية القومية، وبالفعل شرع فى محاولة مـنظمة لتأليب الشباب على السلطة، وبدأ الوطنيون من الشباب يوزعون فى الشـوارع لـيلاً منشـورات غـير موقعة تهاجم الخديوى، والطبقة التركية الحاكمـة، ولقد وجـدت احساسـاتهم بالإحباط متنفسا فى نظم الشعر مثل تلك المنسوبة إلى صالح مجدى:

ويحـث جيش الخديوى على الكفاح والجهاد لرفعة الدين والوطن وقد بحثت فى ديوانه الذى نشـره ابنه محمد مجدى بك بعد وفاته بالمطبعة الأميرية ببولاق المحمية عام (١٨٩٤م / ١٣١١هـ)، عن ترجمة للأبيات التى أوردها المؤلف بالحرف الواحد فلم أجـد، وقـد اسـتعنت بالأسـتاذ الدكـتور عبد اللطيف عبدالحليم الأستاذ بدار العلوم والمتخصـص فـى شعر هذه الفترة، فنصحنى بالترجمة الحرفية لما ورد عن المؤلف وإلقاء المسئولية عليه فربما نشرت هذه الأبيات فى مناسبات خاصة. (المترجم).



"ولفريد سكافن بلنت" (١٨٤٠ - ١٩٢٢) شاعر وأديب وسياسى بريطانى، تزعم الدفاع عن مصر والعرب وتحدى السياسين الإنجليز الاستعماريين فى قمة التطرف الوطنى البريطانى وكان صديقاً لأحمد عرابى (قاعة عرض اللوحات الوطنية بلندن National Portrait Gallery)

« لقد زجوا بوطنكم إلى الجحيم... ليستمتع النذل اللئيم، وأموالكم قد بعثرت على الخطاة والبغايا... الرجل عادة تكفيه زوجة أما هو فيبغى مليون زوجة والرجل عادة تأويه دار أما هو فعنده تسعون دارًا. أيها المصريون هناك عار من حولكم. فاستيقظوا استيقظوا ".

ومن بين مختلف الطلاب الذين واظبوا على حضور دروس الأفغاني، لم تسحر بلاغة الشيخ أكثر مما سحرت محمد عبده. فيما بعد عندما أصبح كبير فلاسفة عصره، وصف الأفغانى بوصف يكاد أن يكون صوفيا، كولى من أولياء الله الصالحين وكمخلّص، وعندما انتهى الأمر بالقبض على الأفغانى وطرده من البلاد. كانت آخر كلماته على أرض مصر: إنى أترك لكم الشيخ محمد عبده.. فهو يكفى مصر.

وفى سبتمبر من عام ١٨٨٠، عين محمد عبده رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية الوقائع المصرية. وخلال وقت وجيز، تمكن من تحويل هذه الجريدة الكئيبة – لسان حال السلطة – إلى أداة لتوعية الرأى العام، فكان يصر على أن يكون المساهمون فيها من ذوى المستوى الأدبى الراقي، مما أتاح للجيل الجديد من المصريين فرصته للتعبير الواضح والناضج. وكان يعظ أنه من الضرورى أن تتم الإصلاحات الداخلية فى مصر بمجهوداتها الخاصة. أما تطلعاته للتعبير فكانت تتأرجح بين فكرة المستبد العادل (هل يا ترى يبرز مستبد عادل فى الشرق؟)، إلى إيضاحات عن متطلبات الديموقراطية: إن الخطوة الأولى لتحقيق قدر معين من الحرية يتمثل فى تكوين المجالس القروية، ثم يتلوها بعد بضع سنين المجالس البلدية شريطة أن لا تكون وسيلة لسيطرة هذا أو ذاك، بل تكون مصدراً للآراء ووجهات النظر، بعد ذلك يجيء التمثيل البرلمانى ، وعند الضرورة لم يتردد فى أن ينتقد الحكومة ذاتها. فقد وصف مرة الجيش بأنه يقوده عساكر ذوى عقلية بلهاء! ».

كان هذا هو الزاد والزواد لبعض الضباط المصريين من أبناء البلد. فقد كانوا غاضبين ليس من مسلك الأجانب فحسب، بل كانوا ساخطين من الترف

وكذلك من المحاباة والتحيز الذى يظهر بوضوح تجاه الأتراك والشراكسة. وعندما وقعت الهزيمة المهينة فى الحبشة تلاها الإجراء الاقتصادى الصارم الذى قام به ريفرز ولسون والذى خفض بمقتضاه إلى النصف رواتب ٢٥٠٠ ضابط، وسرح عدداً آخر لا حصر له، وزاد على ذلك كله تعيين عثمان رفقى - وهو جركسى سىء السمعة ومعدوم الجماهيرية - وزيرا للحربية: مما أوصل غيظهم إلى درجة الغليان. فقد بدأت مجموعة من رتب الجيش من الشباب تجتمع من آن لآخر فى بيوت بعضهم البعض فى محاولة للتخطيط لوضع نهاية للمحاباة نحو العناصر التركية فى الجيش حتى وإن استدعى الأمر عزل الخديوى. وعندما نما إلى علمهم ذات مساء أنهم فى طريقهم إلى التسريح، قرروا أن يتجه قائدهم البكباشى أحمد عرابى(*) مباشرة إلى رئيس الوزراء ليقدم التماساً[١٦].

غير أن رد الفعل من جانب رئيس الوزراء لم يكن مشجعاً بتاتاً، إذ تحدث إليهم بلهجة خشنة وحذرهم أن مثل هذا العصيان جريمة تستوجب الإعدام شنقاً، ثم أضاف بلهجة شديدة السخرية: هل فى نيتهم أن يغيروا الحكومة ولو كان ذلك كذلك فبمن ينوون استبدالها؟ فرد عرابى: هل مصر امرأة عاقر لم تنجب سوى ثمانية أبناء؟ وهو فى ذلك يشير إلى رئيس الوزراء وأعضاء حكومته السبعة، عندئذ لوح رئيس الوزراء له بيده غاضباً لكى يخرج من مكتبه. وهنا بدأت فصول الدراما تتوالى.

فبعد أيام قلائل، استدعى البكباشية الثلاثة الذين كانوا قد وقعوا على العريضة إلى ثكنات قصر النيل على زعم التخطيط لإقامة استعراض بمناسبة زواج إحدى الأميرات، وما أن وصلوا إلى هناك حتى ألقى القبض عليهم، وجردوا من أسلحتهم. وبدأت محاكمة عسكرية عاجلة. وكان عرابى يؤكد دائماً أن النية كانت معقودة على وضعهم على ظهر باخرة تقف خارج الثكنات، وتلقى بهم فى هدوء فى النيل بعد وضع أثقال حول أقدامهم. غير أن

(*) كان أحمد عرابى « أمير الاى » وليس « بكباشى » (المراجع).

« الميرالايات » كانوا قد أخذوا حذرهم، فلم يظهروا فى الوقت المحدد، بينما قامت جنود فرقهم بالسير إلى الثكنات حيث اقتحموا المحكمة العسكرية. وكان علـــى القـــادة الشراكسة أن يشقوا طريقهم متقهقرين بطريقة مهنية، فقد هرب عثمان رفقى من خلال فتحة نافذة فى حين سار عرابى وأصدقاؤه على رأس قواتهم عائدين منتصرين.

هكـــذا حـــاول عـــرابى أن يسبق التاريخ إلى حد ما بطريقة خرقاء ولكن درامية. لقد كان صورة نموذجية للفلاح، فارع القامة، ثقيـــل الأطراف، بطئ الحـــركة، وكمـــا صـــورته كلمـــات (ولفـــريد بلنت): إنه يعتمد على القوة الجسمانية الضخمة التى هى صفة لفلاح الدلتا الكادح... لقد كان هناك تصنع فـــى حـــركاته لكـــى تعطيه ذلك الوقار الذى تراه عند مشايخ القرى وأحيانا كانـــت تبدو فى عينيه نظرة الحالم شارد الذهن غير انه حين يبتسم كان يعلو وجهه إشراقة شديدة التواضع كإشراقة الشمس على منظر طبيعى معتم .

لـــم يكن عرابى فى عيون الطبقة التركية الحاكمة سوى مجرد فلاح جلف من النوعية التى سيطروا عليها لقرون عديدة. وفى البداية شك فى أمره حتى مصلحو الأزهر من رجال الفكر على أنه قوة سياسية، لكن بالنسبة لطبقته من الفلاحين فقد كان بطلاً على شاكلتهم وواحداً منهم.

لقد كانت ثورة ١٨٨١ فى المقام الأول حركة للفلاحين المصريين من أهل الـــبلاد الأصـــليين موجهـــة ضد طبقة رجال البلاط الأتراك الذين تسببوا فى خـــراب الـــبلاد، كما وجهت أيضاً كراهيتها نحو الأوروبيين بعد أن انحازت السيطرة الأنجلو – فرنسية علناً إلى جانب توفيق.

لقـــد قادت محاولات إسماعيل لتحـــويل وادى النيل إلى قطعة من أوروبا، وتـــزايد تدخـــل القـــوى الأوروبـــية بعد عزله، إلى قيام تحالف غريزى بين السياســـيين الأحـــرار مـــن أعضـــاء الجمعية الوطنية، وبين الضباط الذين يـــنحدرون مـــن أصول مصرية فى الجيش، وفى مواجهة الإحباط الناتج عن إغـــلاق مجلـــس الـــنواب الذى كان قد بدأ تدريجياً يتحول إلى ساحة للوطنية المصـــرية، اتجـــه الوطنيون من السياسيين إلى الجيش باعتباره القوة الوحيدة

القـــادرة على الحفاظ على الحريات فى البلاد فى مواجهة أوروبا والخديوى. وبـــرز أحمد عرابى كزعيم الوطنيين المصريين الأول، غير أن حركته كانت تمـــثل أبعـــد بكثـــير مـــن مجرد تحالف مؤقت بين ضباط الجيش الساخطين والسياســـيين الأحرار: لقد كانت الشرارة الأولى لليقظة الوطنية التى استمدت قوتها من قلب وروح أرض مضطربة، سلبية، وتواكلية.

فـــى البداية ساير توفيق المتمردين، فطرد عثمان رفقى، وبالتالى قبل قسم الـــولاء له مـــن جانـــبهم. غير أن شهر العسل بين الخديوى والبكباشية كان قصـــيراً. فمـــا أن جرؤ، حتى عين توفيق زوج شقيقته وزيراً للحربية، وقام بنقل عرابى إلى الإسكندرية والبكباشيين الآخرين إلى الأقاليم.

وببساطة رأى عرابى أن فرصته قد حانت ساعتها أو لا فرصة إلى الأبد، فلو قبلوا أن يبعدوا عن القاهرة، سوف يسهل إخضاعهم، وأحسن ما يتوقعونه هـــو طلقة رصاصة سريعة أو إغراق فى النيل. ويتذكر عرابى الأحداث التى وقعت صباح أحد أيام سبتمبر عام ١٨٨١: لقد كتبت خطاباً يتضمن مطالبنا، وبعثـــت بـــه إلـــى الخديـــوى أقـــول فيه. أننا سوف نقوم بمسيرة إلى قصر عابديـــن... كـــى نتلقى رده ؛ عندما وصل الخديوى... وجدنا نحتل الميدان، وكانـــت المدفعية والفرسان أمام المدخل الغربى بينما، أنا وقواتى أمام المدخل الرئيســـى... نـــادى علىّ الخديوى أن أترجل وترجلت، ونادى علىّ أن أضع ســـيفى فـــى غمده ووضعت سيفى فى غمده، غير أن أصدقائى من الضباط اقـــتربوا مـــنى لمـــنع وقوع غدر أو خيانة، كان عددهم ما يقارب الخمسين، وبعضـــهم وضـــعوا أنفســـهم بيـــنى وبيـــن القصر.: وعندما سلمت الرسالة وعرضـــت مطالبى الثلاثة على الخديوى، قال: أنا الخديوى وسوف أفعل ما يحلـــو لـــى . ورددت على ذلك بقولى: لسنا عبيداً ولن نعامل بعد اليوم بهذه الطريقة ولم ينبس ببنت شفه، إنما استدار ورجع إلى القصر .

إن عـــرابى كرجل ثورى – كما يتضح من روايته على الأقل – كان يبدو معتدلاً بما فيه الكفاية.

وكمـــا يبدو الموقف من الجانب المقابل، ومن خلال عيون السير اوكلاند

كولفيـــن Auckland Colvin فـــإن ما حدث كان يكفى ويزيد بالنسبة لتوفيق الجـــبان. فمـــنذ الصباح الباكر كان كلوفين يحثه على اتخاذ خطوة قوية ضد عـــرابى، غير أن الخديوى الذى كان يصيح كصياح الدجاجة المذعورة قضى يومـــه (يكاكى) ويدور من حوله متنقلاً من وحدة الحرس الخديوى إلى أخرى ليـــتأكد من ولائهم له – وفى النهاية اضطر كولفين – وهو رجل متخصص فـــى الـــتعامل مع المواقف التى تتطلب الحذر إلى إخراجه من هذا الموقف. وعـــندما خـــرجا أخـــيراً من القصر قال للخديوى: عندما يقدم عرابى نفسه أطلـــب مـــنه أن يسلمك سيفه. ثم أصدر أوامرك إلى قواته لتتفرق ثم تجول حول الميدان مخاطباً كل وحدة على حدة ثم أعطهم أمر الانصراف .

كانـــت المـــبانى الـــتى تحيط بميدان عابدين مكتظة بالمتفرجين عندما قدم عـــرابى فوق صهوة جواده. وهمس كولفيـــن فى أذن توفيق المضطرب: «أطلـــب مـــنه أن يترجل»: فقال توفيق: انزل! فنزل عرابى، وتقدم ماشياً علـــى قدمـــيه يتـــبعه الحرس وحراب بنادقهم مسددة، بينما أمسكت الجماهير أنفاســـها، وهـــنا همس كولفين: الآن جاءت فرصتك فرد الخديوى توفيق: « ولكنـــنا محاطيـــن بأربعـــة نيران.. سوف نلقى حتفنا فرد كولفين: أأمره أن يضـــع سيفه فى غمده ونفذ عرابى الأمر بعد أن أدى التحية، ثم عرض مطالب إقالة الوزراء، وعودة مجلس النواب إلى الانعقاد، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠رجل وفى، نفس المساء وافق توفيق عليها جميعاً.

وقـــد أظهر كولفين فى مذكرته التى رفعها إلى وزارة الخارجية مشاعره حـــول هـــذا الأمر إذ كتب يقول: ليس هناك من سبب يجعلنا نعتقد أن أحداً آخـــر غـــير هـــؤلاء الضـــباط أنفسهم هم المسئولون عن الحركة. لقد كانت مظاهـــرة عســـكرية بحتة. ولم يؤثر فى نفسى شىء بالأمس أكثر من عدم إدراكهـــم العمـــيق بالأخطـــار التى سوف يجلبونها على أنفسهم.. أنهم فاقدو البصيرة لعدم إدراكهم لتصرفهم .

ربمـــا كـــان ذلـــك حقاً، غير أن مصر استيقظت فى صباح اليوم التالى لتكتشـــف أن مـــا حدث لم يكن مجرد حركة تمرد، بل ثورة. وكتب (ولفريد

بلنــت): ودوت عـــبر مصر كلها صيحة من الفرح والابتهاج لم يسمع مثلها مـــنذ مئات السنين على ضفاف النيل فقد كان الناس يوقفون بعضهم البعض فـــى شوارع القاهرة دون أن يعرف بعضهم بعضاً ليعانق كل منهم الآخر معبريـــن عن فرحتهم جميعاً لهذا الحكم الجديد المفاجئ، وللحرية والتى تدعو للإعجاب الذى بدا لهم.

لقد عين عرابى وزيراً للحربية فى حكومة رئيس وزراء من اختياره، ولم يكن هناك أدنى شك فى أنه قد أصبح الآن القوة الحقيقية فى مصر، فقد أعلن عـــن ولائه الخالص للخديوى (طالما وفى بوعده)، لأنه كان يرى نفسه ممثلاً للجـــيش القوة الوطنية الوحيدة التى تقف بين مصر وحكامها من الأتراك. كما كـــان الراعى لمصالح الشعب. وكما شرح ذلك بقوله إن وضعنا نحن معشر العســـكر كوضـــع هؤلاء العرب الذين ردوا على الخليفة عمر عندما تقدم به العمـــر، وســـأل الـــناس عما إذا كان قد اتبع طريق العدل المستقيم. فأجابوه ملـــتويًا: « يـــا ابـــن الخطاب. إنك قد سرت حقاً فى الطريق المستقيم. وأنا لنحبك، غير إنك تعلم أننا جاهزون مستعدون إذا ما سلكت سلوكاً معوجاً فإننا سوف نقومك بسيوفنا (*).

وبالـــرغم مـــن كـــل نويـــاه الطيبة، لم يكن لدى عرابى برنامجاً أبعد من الـــتطلعات العامة والمثالية إلى حد ما من قبل الوطنيين لذلك قام محمد عبده ولفريد بلنت قرب نهاية العام بالتعاون معه فى رسم خطوط وثيقة أطلق عليها

(*) روى عـــن عمـــر بـــن الخطـــاب أنه قال يوماً على المنبر: يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو ملْتُ برأسى إلى الدنيا كذا – وميل رأسه – فقام إليه رجل فسل سيفه وقال: أجـــل كـــنا نقـــول بالسيف كذا – وأشار إلى قطعه. فقال: إياى تعنى بقولك ؟ فقال: نعـــم إيـــاك أعـــنى بقولى فنهره عمر ثلاث وهو ينهر عمر: رحمك الله. الحمد لله الـــذى جعـــل فى رعيتى من إذا تعوجت قومنى (خرجه الملاء فى سيرته) عن كتاب: الـــرياض النفيرة فى مناقب العشيرة لأبى جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى، الجزء الأول طنطا ١٩٥٣، ص٦٦ (المترجم).

(برنامج الحزب الوطنى المصرى). وهذه الوثيقة أقرت بالخدمات التى أدتها الحكومتان الإنجليزية والفرنسية لمصر، بل حتى اعترفت بأن كل مظاهر الحرية والعدالة التى تم الحصول عليها فى الماضى كانت بفضلهم وأعلنت إن الحزب الوطنى يعترف بالسيطرة الأوروبية كضرورة بالنسبة لوضعنا المالى، وأن استمرارها هو أفضل الضمانات لرخائنا، ونعلن ذلك كأمل من آمالنا أن نخلص بلادنا تدريجياً من براثن أصحاب الديون ».

وقام (بلنت) بإرسال هذه الوثيقة إلى جلادستون Gladstone على أمل أن يباركها بما عرف عن تعاطفه مع شباب الوطنيين الذين يكافحون من أجل الاستقلال، ومهما كانت تقبع عواطف جلادستون الشخصية. فقد كانت هناك ضغوط خارجية لا يمكن تجاهلها، فالسلطان كان يرغى ويزبد فى القسطنطينية، وأصحاب الديون كانوا يحثون على اتخاذ خطوة، كما كانت هناك مفاوضات وتنازلات بارعة تتم مع الفرنسيين.

كان جامبيتا Gambetta يسن سكاكينه لمواجهة الثورة الإسلامية فى كل من تونس والجزائر. فقد كان منزعجاً من الطابع العام لهذه الحركة، ورأى أن بعضاً من تأثيرها بدأ يتحرك فى مصر. وقال يجب على إنجلترا الانضمام إلى حملة صليبية حضارية - كما أطلق عليها - للحفاظ على الوضع القائم فى مصر. والذى بمقتضاه كان يعنى التنظيمات المالية القائمة (كان جامبيتا من خلال أصوله اليهودية على اتصال وثيق بأسرة روتشيلد وآخرين) أما صيغة التدخل التى كانت فى ذهنه فهى أن ترسل إنجلترا أسطولاً إلى الإسكندرية، بينما ترسو القوات الفرنسية براً.

وعلى الجانب الآخر كان الهوايتهول متلهفاً على تجديد المعاهدة التجارية مع فرنسا والتى كانت مدة سريانها على وشك الانتهاء، كما أن السير تشارلز ديلك Charles Dilke الذى كان يقود المفاوضات، أخبر جامبيتا مبتهجاً: أنه على استعداد لإدماج مصر فى معاهدته التجارية.

ولو قدر لجامبيتا ألا يسقط بعد ذلك بقليل بفارق صوت واحد معارض حول موضوع مختلف، لربما قام الفرنسيون بغزو الدلتا، ولكان تاريخ مصر

قـد اتخذ مساراً مختلفاً جذرياً، وكنتيجة لذلك حصل ديلك على معاهدته، كما حصـل علـى حملته الصليبية فى شكل مذكرة مشتركة ذكرت بصراحة أن «الحكومتيـن تعتـبران أن بقاء الخديوى على العرش هو وحده القادر على ضـمان النظام والرخاء لمصر وأنهما ينويان مراقبة مجهوداتهما المشتركة فى مواجهة كل أسباب التعقيد، فى الداخل أو الخارج والذى من شأنه قد يهدد النظام القائم فى مصر.

لقد كان واضحاً ما كان يعنيه جامبيتا بذلك، فقد كانت قد تشكلت قوة لحملة عسكرية فى طولون، أما ما كان يعنيه جلادستون كان يمكن لأى أحد تخمينه منذ أن أضـاف خاتمة للمذكرة بطريقة غامضة تقول: إن حكومة جلالة الملك يجب ألا تفهم على أنها تلزم نفسها بخصوص ذلك بأى شكل معين من أشـكال التصـرف غـير أن التشـابه المحزن لأسلوب موليه Mollet وهو الضـرب بالعصا، وتذبذب تصرفاته كما حدثت فى ظروف مشابهة بعد ذلك بأربعـة وسـبعين عاماً كان فى آخر الأمر واضحاً كل الوضوح باستثناء أنه فى عام ١٨٨٢م، كانت كل من بريطانيا وفرنسا فى أوج قوتهما الاستعمارية.

أمـا فى مصر فقد كان تأثير ذلك كارثة، ففى صباح اليوم الذى أعلن فيه عـن نص المذكرة، قام ولفريد بلنت بزيارة عرابى فى الوزارة، ولأول مرة كمـا يتذكر، وجد عرابى يتأجج غضباً: فقد كان وجهه مثل الصاعقة، وكان فـى عينيه وميض غريب فقد فاجأ الإعلان عن أن سياسة بريطانيا وفرنسا واحدة تجاه ذلك الجندى الفلاح، لأن ذلك يعنى أنه مثلما غزت فرنسا تونس، فـإن مـن حـق بريطانيا أن تغزو مصر، ثم أضاف بوجه عابس: دعوهم يأتون.. إن كل رجل وطفل فى مصر سيقاتلهم.. أن نبدأ بالضربة الأولى أمر مناف لمبادئنا، لكننا نعرف كيف نرد الضربة .

لقـد كان هناك ضجة تحدث فى مكان ليس ببعيد.ففى القاهرة كان الصدع بيـن المصريين الثوريين، وبين طبقة بلاط القصر التركية آخذ فى الاتساع، وكانـت تثـير الغبار الرملى مثلما تفعل رياح الخماسين(تلك الرياح الجنوبية غـير المـريحة والتى تنفذ إلى كل فتحة من مسـام جسـم كل إنسان)، أما

الأوروبيون سريعو الفهم فقد كانوا يتوقعون شن حملة وحشية ضدهم فى أى لحظة.

وفى لندن بدأت الصحافة حملة منسقة ضد عرابى، صورته فيها كثائر متعطش للدماء ومتعصب خائن. وعندما يقرأ الإنجليز وهم يتناولون إفطارهم من الخبز المقدد والمربى أن عرابى الذى هو الآن باشا قد سحق مؤامرة اغتيال دبرها له بعض الضباط الأتراك، وأنه حالياً يجند فرقة جديدة للمقاومة الوطنية ضد التدخل البريطانى، فإن إقناعهم بأن حركة تمرد أخرى مثل تلك التى قامت فى الهند، وأن مذبحة للإنجليز، يعد لها لن تحتاج إلى وقت طويل. فقد ألقى أحد القسس عظة فى الريف قال فيها: يجب تدمير عرابى بدانة مدفع واقترح أحد اللوردات المتقدمين فى العمر « أن تذهب مجموعة من كبار القناصة لشنق ذلك الوغد » ووجد ولفريد بلنت أنه دائماً: على خلاف مرير مع أصدقائه بخصوص مصر . ولذا قام بنفسه بعرض موضوع عرابى على جلادستون.

غير أن الرأى العام كله لم يكن متحيزاً ضد المصريين، فقد أصدرت الجبهة المعادية للعدوان Anti Aggression League نشرة أوضحت فيها أنه بينما ليس من واجب المواطنين العاديين أن يتدخلوا فى الشئون العامة، إلا أن عليهم أن يصروا أنه يتوجب على الحكومة ألا تجر الأمة إلى حافة الحرب وأن تتصنع أزمة مع شعب أجنبى بدون سبب مشروع كما أرسل حاكم سيلان السابق إلى جريدة التايمز The Times رسالة مطولة يرجو بالتصرف العادل مع الوطنيين ويقول فيها: إننى اعتقد أن الزعيم عرابى رجل أمين ووطنى واعتقد أنه لا توجد سياسة أكثر وضوحاً لإنجلترا من تأييد ودعم الحكومة المصرية القائمة، وأنها سوف تكون آسفة بالنسبة لمصالحنا لو أنها فشلت والحقيقة أنه كلما تزايدت المؤامرات والشائعات والأحداث نشأ إحساس إما لصالح عرابى أو ضده بنفس القدر الذى كان فى إنجلترا وفى مصر. وأخيراً لجأت القوى إلى خططها التقليدية: فقد بعثت بأسطول مشترك إلى الإسكندرية تحت قيادة (بو شامب سيمور) Beauchamp Seymour. وطلب من عرابى أن يستقيل ويغادر البلاد!.

وفى السابع والعشرين من مايو استجابت الحكومة الوطنية باستسلام كاف لتجد نفسها تعاد إلى السلطة عن طريق انتفاضة شعبية عفوية فى القاهرة. وفى ظروف كانت فيها الإدارة العامة للحكومة فى حالة تفكك، بمعنى أن التعاون مع رجال الخديوى والقصر كان قد انتهى فعلاً، لم يصبح عرابى دكتاتورا عسكرياً فحسب، بل بطلاً قومياً بالمثل. وأطلقت صحف القاهرة صيحة تطالب فيها بإحياء الإسلام واستقلال مصر ؛ ولما وجدت الجالية الأوربية نفسها وقد تملكها الذعر، ولت هاربة إلى الإسكندرية لتكون فى مأمن تحت حماية الأساطيل الحربية المتحالفة. ولما كان عرابى يحاصر بالمطالب المحمومة أينما ذهب، فقد بدأ يستعد للحرب، وأشتعل الفتيل فى تلك اللحظة: وأصبح حدوث الانفجار مجرد وقت بكل معانى الكلمة. وفى العاشر من شهر يونيو اندلع الشغب العنيف فى الإسكندرية.

كانت المدينة فى عام ١٨٨٢ يونانية أكثر منها مصرية، فقد كان يسكنها جاليات كبيرة من رجال الأعمال من بلدان البحر المتوسط، كثير منهم مرابون، واختفى الود الضئيل الذى كان قائماً بين الأوروبيين والمصريين. ومن الطبيعى أن يصل هذا الإحساس المرير إلى ذروته بوصول أسطول الحلفاء لحماية المصالح الأوربية، وفى هذا الجو المعبأ كان حدوث شجار فى الشارع بين رجل من مالطة وصبى حمّار حول قرش صاغ كافيا لتفجير الموقف. فبعد ذلك بساعة انفجر الغضب فى المدينة. واندفعت الغوغاء وهى تصرخ وتنهب، وعند نهاية اليوم عندما استعاد عرابى النظام بحزم، كان هناك بضع مئات من الناس إما قتلى أو جرحى. وقد أصيب القنصل البريطانى بجرح خطير، أما القنصلان اليونانى والإيطالى فقد لقيا معاملة جافة، وبدا الوضع كما قال العالمين ببواطن الأمور فى الهوايتهول أن مصر فى حالة فوضى شاملة. وأنه يجب القيام بعمل حازم، لأن أى هزيمة لوزارة الخارجية لن تكون سوى فضيحة كبرى. لقد طلب من عرابى أن يغادر البلاد ولم يمتثل للأمر وبدلاً من ذلك راح ينظم أعمال الشغب، ثم يقوم بقمعها كاستعراض لقوته، فقد كانت شهرته تتزايد فى الشرق على حساب بريطانيا، ولو ترك ليستمر لكان فى الإمكان حدوث ثورة إسلامية شاملة فى الهند. كان

الموقف لا يحتمل، وكانت هناك ضرورة قصوى لاتخاذ إجراءات قوية.

فـــى ذلـــك الوقـــت كان جامبيتا قد استقال، وكان الفرنسيون يتراجعون، وأصـــبح الوضع يتوقف على إنجلترا وحدها، ولما كان جلادستون ممزقاً بين اقتـــناعاته الشخصية وبين « شوفينية » زملائه المتطرفة، فقد بذل أقصى ما يســـتطيع لتجنـــب اتخاذ قرار. ولذا قرر «أن يترك الأمر للرجل الموجود فى الموقع».

كانت مدافع السير بوشامب سيمور فى حالة استعداد فى ميناء الإسكندرية، ويتذكر رجل سويسرى عجوز من المقيمين أنه كان يشاهد الأميرال فجـــر كـــل يـــوم على ظهر السفينة مرتدياً قميصه الصدفى الضيق غير العسكرى، وتـــبرز قدمـــاه الحافيتان من سروال بيجامته، ليعاين التحصينات المصرية. واســـتطرد مواطن: « اتحاد برن » بصوت أجش ولأنه كان رجلاً ريفياً فقد كـــان مـــن الصـــعب عليه أن نتوقع من جانبه معرفة بروتوكول التواجـــد علـــى مؤخرة السفينـــة:« كان السير بوشامب يلعب لعبة "دورة جوبيتر" ويثير رعب الجميع وهو يقسم بأغلظ الأيمان » أما الحقيقة فقد كان الأدميرال ينتظر حتى يتم جلاء كل الأوروبيين قبل أن يفجر التحصينات إلى شظايا.

وفـــى العاشر من يوليو أرسل إنذارًا إلى عرابى: « سلم القلعة خلال أربع وعشـــرين ساعة أو أننا سوف سنطلق النار ». وقد رد الخديوى على ذلك – تحـــت تلقين عرابى – باحتجاج مهذب ولكنه حازم، وذلك قبل أن ينسحب من مـــنطقـــــة الخطـــر (حيث قضى اليومين التاليين وهو يناقش عما إذا كانت كرامـــته تســـمح لـــه أن يلجأ إلى سفينة حربية بريطانية التى ربما تتعرض للإغـــراق). أمـــا السفن الأجنبية فقد أدارت ماكيناتها البخارية، وخرجت إلى عـــرض الـــبحر، وهـــى تطلـــق صفاراتها بشكل رسمى تحية لسفينة القيادة البريطانـــية، بيـــنما قامت الفرقة الموسيقية الخاصة بالإدميرال بعزف النشيد الوطـــنى المناسب لجنسية كل سفينة تمر عبرها. وكان آخر من غادر السفن الفرنسية.

وعند فجر اليوم التالى بدأ القصف.

ومـــن قلعـــــة العجمـــى (حيث يمتلك الآن ذوى اليسار من أبناء المنطقة «شـــاليهات صغيرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع) حتى منطقة السلسلة (حيث كـــان يوجـــد قصـــر بطلـــيموس قديمـــاً، وحيث يخطط الآن لإقامة هيلتون الإسكندرية فى نفس الموقع)(*) كانت القذائف تنهال. وقد ردت الخمس عشرة قلعـــة علـــى النيران بكل ما استطاعت من قوة. ولكن لم يكن هناك أدنى شك فـــى نتـــيجة ذلـــك، وقـــد جـــاء فى تقرير سيمور إلى قيادة البحرية: « أن المصـــريين قـــد حاربوا بشجاعة وعناد وهم يردون على جحيم النيران من مدافعنا الثقيلة حتى بدوا كما لو كانوا قد هلكوا جميعاً. وعند الساعة الخامسة والنصـــف مـــن بعـــد ظهر اليوم، كان أكثر من ألفى مصرى قتلى، والقلاع حطام».

ولم تلتهم النيران القلاع وحدها فحسب، بل التهمت الإسكندرية ذاتها عندما تهـــاوت علـــيها القذائـــف التى تسبب عنها اندلاع الحرائق. وقامت الغوغاء بدورهـــا بإشـــعال النـــيران ونهب كل شيء وقع عليه بصرهم. وسرعان ما احترق الحى الأوروبى عن آخره. واندفعت عصابات قطع الرءوس من مبنى إلـــى مبنى يمزقون كل شىء يصل إلى أيديهم، وينشرون الحرائق عن طريق القطن المشبع بالبرافين. وفى الصباح الباكر لليوم التالى بدأ موكب حزين من العـــربات الـــتى تقعقع عجلاتها وعليها أكوام من الجثث تتجه نحو الجبانات، ومـــن خلـــف كـــل عربة سار جمع من النسوة وهن يولولن. وكان القنصل الـــيونانى أول من رسا إلى البر بعد توقف القصف ويتذكر ذلك قائلاً: " كان الرعـــب يتملكنا فى كل خطوة أن نحاصر تحت حطام المنازل المشتعلة التى كانـــت تنهار فى الطريق محدثة دوياً عنيفاً.. وكانت كل الحوانيت قد نهبت، وكـــان الطريق مملوءاً بالعلب والصناديق التى تركها النهابون بعد أن ذهبوا. وكـــان هـــناك خمس أو ست بيوت فى الشارع مليئة بفجوات أحدثتها قذائف مدافع الأسطول البريطانى ". وكان شهود العيان مذعورين من حجم الخراب. وأعلن مدير شبكات المياه الإنجليزى أن كثيراً من الشوارع أصبحت لا يمكن

(*) تم إقامته فعلا بعد ذلك وهو هيلتون المنتزه.

الســير فيها. وحتى للشخص الذى يعرف المدينة جيداً لم يكن من السهل عليه أن يجـد طـريقه فـيها ". وقال: " إن الشيء الوحيد الذى بقى على حاله فى وسط المدينة هو تمثال محمد على، فيما عدا ذلك كل شيء كان حطاماً أسود اللون، حتى الأشجار آتت عليها الحرائق ».

ولقـد أسفر القصف عن انشقاق ظاهر بين حزب القصر وبين الوطنيين، فحـتى هـذه اللحظة كان عرابى يتصرف ولو اسمياً تحت سلطة الخديوى، ولكـن لما شاهد توفيق بنفسه من فوق سطح قصره فى الرمل أن البريطانيين يعـنون ما يقولون، لم يضيع وقته ليضع نفسه تحت الحماية البريطانية وتحت حراسة سرية من جنود الأسطول، ثم أصدر بياناً أعلن فيه أن عرابى متمرد، ثم جلس ينتظر هزيمة رعاياه!.

وفـى أثـناء ذلك انسحب عرابى وجيشه إلى موقع قريب من كفر الدوار والذى تحول إلى مقر لقيادة الحزب الوطنى. ولكن يبدو أن أغلب وقته ضيعه فى الاستقبالات. فقد كان هناك سيل لا يتوقف من العلماء والمشايخ والأعيان من كل الفئات يتدفق على الخيمة الكبيرة التى كانت يوماً ما خاصة بسعيد، ثم أهدتها أرملة نائب السلطان إلى عرابى. وقد لاحظ نينيه Ninet(*) السويسرى الممثل لهيئة الصليب الأحمر وجود زوار من مناطق بعيدة كالحجاز واليمن. وكـان عرابى يأمل فى الحصول على تأييدهم، وبالرغم من أن قوة بريطانية بقـيادة الجـنرال الليسون Allison كانت قد تقدمت خلال شهر أغسطس من الإسكندرية إلا أنها ردت على أعقابها خاسرة، غير أنه من الملاحظ أن قليلاً مـن الاسـتعدادات أعطيت لمواجهة هجوم القوات الرئيسية التى كان يقودها الجـنرال ولسـلى Wolseley. ولقـد تلقى عرابى تحذيراً أن البريطانيين قد يأتون من ناحية القناة لتلتف حول موقعه، لكنه صدق دى يلسبس عندما وعده بأنـه القـناة سوف تبقى محايدة، ورفض أن يعطى أوامره النهائية بردم القناة حتى أصبح الوقت متأخراً. وكانت تلك غلطته الكبرى، فقد سجل ولسلى فى

(*) نينـيه Ninet صـاحب كـتاب معـروف عنوانه « عرابى باشا Arabi Pasha » (المراجع).

تقريـــره: " لـــو نجح عرابى فى ردم القناة كما انتوى، لكنا حتى هذه اللحظة نحاصر مصر من أعالى البحار.. لقد أنقذتنا أربع وعشرين ساعة".

وبيـــنما كان « نينيه » يتجول حول المواقع المصرية خلال شهرى يوليو وأغســـطس شـــديدى الحرارة، صدم فى الواقع من عدم المبالاة أو بالأحرى وجهـــة الـــنظر القدريـــة لجيش الفلاحين، فبخلاف إقامة بعض الاستحكامات القلـــيلة من الطين، لم يأخذ المصريون سوى القليل من الحيطة، صحيح أنهم كـــانوا يقومون بالتسلل خلف الخطوط البريطانية ليلاً،ولكن ذلك فقط من أجل أن يـــروا مـــا يقـــدرون علـــى سرقته. وما أن يعودوا ومعهم بعض البزات النظامـــية لجنود الفرسان (الهوسار Hussar) والخوذات البيضاء ذات الطرف المدبب، حتى ينفجروا من الضحك وهم يرتدونها، وأكثر ما كان يضحكهم أن البريطانيـــن يـــتجردون مـــن ملابسهم قبل النوم تماماً، ولكنهم عموماً كانوا يقضـــون لـــيالى الصـــيف يستمعون إلى القرآن الكريم أو يجلسون فى دوائر ويطلقون النكات.

وفـــى الثانى عشر من شهر سبتمبر تلاشت ضحكاتهم فجأة، إذ قام جيش الجـــنرال ولســـلى الذى جاء عن طريق قناة السويس بالتسلل ليلاً لأكثر من ســـبعة أمـــيال فى الظلام الدامس ليباغتهم فجأة. لقد كانت معركة التل الكبير الـــتى حســـمت مصـــير مصر لجيلين أو أكثر، أقصر ما سجلت الوثائق، إذ يـــروى السير وليام بتلر Willam Butler: « لقد هبطنا عليهم هبوط الصاعقة على رجل نائم إذ استغرق الأمر كله خمس وثلاثون دقيقة». وربما كان أول علم للمصريين بالهجوم كان التدفق المفاجئ عندما قام رجال الحرس الأسود بـــالهجوم على التحصينات الطينية وقد خفضوا رءوسهم وسددوا حرابهم التى هـــى فـــى مقدمة بنادقهم. وبالرغم من أنهم أخذوا على غرة إلا أن المدافعين ردوا على النيران بغضب » ويذكر أحد جنود السرايا إنه: " بينما اندفع جنود الفـــرقة ٤٢ نحو الخنادق كالنمور، وبينما كانت الطلقات تدوى وتصفر وتئز أزيـــز النحل وهى تنطلق، وللحظة قصيرة كان هناك قتال السنكى للسنكى لقد حـــارب المصريون كالمجانين »، ويعبر الجنرال الليسون عن دهشته قائلاً: " لقـــد كان رجال المدفعية المصريون جادين لدرجة أنهم كانوا يقاتلون بالسنكى

مـــن المؤخرة بينما كانوا يضربون بمدافعهم " ثم فجأة أقبل الفرسان الإنجليز يعدون بخيولهم وسط الغبار والفوضى والضجيج، وهذا وضع نهاية للموقف. لقــد انتهــت المعركة قبل أن تبدأ، فقد تحول جيش عرابى إلى مجرد حشود مشـــتتة انطلقــت نحــو الصحراء فى كل مكان. كان عرابى نائماً عندما بدأ القـــتال، ودون أن يتوقف حتى ليضع نعليه فى قدميه، ألقى بنفسه فوق صهوة جــواده. وبعـــد أن استولى على قاطرة ذات محرك بخارى عند بلبيس وصل إلـــى القاهـــرة وهو داخل مقصورة الوقادين ليصل فى الوقت المناسب ليشهد الاحتفالات التى أقامها الخديوى على شرف الجيش البريطانى المنتصر، (ولو أنـــه لـــم يشـــارك فيها فعلاً) وأشارت صحيفة التايمز The Times إلى حفل رســمى أقامه توفيق وهو يستقبل التحية من ١٨,٠٠٠ بريطانى الذين أعادوه إلى العرش، بينما عرابى يشاهد من نافذة سجنه فى نفس الميدان عار جيشه، فقــد بعثرت الرياح فى عشرين دقيقة عمله الطموح طوال العام ". لقد انهال توفـــيق بســـخاء كبير على الجنرالات الإنجليز بكل أعمال التكريم، وكان أقل ســـخاء فـــى معاملـــته لجيشه الخاص، إذ بأربعة كلمات بالتمام والكمال ألغى وجـــوده، إذ أصدر توفيق قرارًا يقول L'Arme Egyptienne est dissolue: « لقـــد سرح الجيش المصرى »، ولم يكن يستطيع أن يكون أوجز من ذلك، فما حققـــه وولسلى فى ميدان الحرب، أكمله توفيق فى مقصورته الفارهة، بل أنه فـــى الواقـــع فعل أكثر منذ ذلك. فقد حاول كبح الوطنية ذاتها عند شعبه، فلم يمـــض وقـــت طويـــل حـــتى كادت الحركة الوطنية أن تنسى، وأن يرضى المصريون بما خطه القدر وهو أن يحكمهم البريطانيون. فى أثناء ذلك سارع أصحاب الحوانيت باستبدال صور عرابى بأخرى لتوفيق. واحتلت فرقة كولد ستريم Coldstream القلعة، ووصل الفرح لدى الأوروبيين إلى حد الجنون.

وقـــد قال الباورن دى كوسل Baron de Kusel وهو يهز كتفيه مستهجناً: "الله وحـــده يعلـــم بمـــا يشعر به المصريون" أما تجران باشا وكيل وزارة الخارجية الأرميـــنى، فقـــد عبر عن الشعور بالهزيمة والضياع، فقد قال بنبرة الحزن: "لقد جرفـــنا التـــيار كجـــزع شـــجرة" وترك للأفغانى ومحمد عبده وهما فى المنفـــى ليبقيـــا على لهيب الوطنية مشتعلاً من خلال صحيفتهما «العروة الوثقى».



صــورة للبطـل أحمد عرابى وهو في سجنه بالقاهرة
١٨٨٢ بعد هزيمته فى التل الكبير على يد البريطانين
(مجموعة مانسيل)

ومنذ أن أيقظ نابليون البلاد من سباتها العميق بهزها هزاً عنيفاً قبل ثمانية عقود، عرفت مصر البعث الجديد كما عرفت الإحباط، فقد جعلها محمد على قــوة مــن قوى البحر المتوسط، لكن ذلك كان على حساب الفلاح، كما دعم إسماعيل طموحات جده بالعمل المحموم طول ست عشرة عاماً، غير أن سوء إدارتــه "للاســتعمار المالى" الأجنبى عجل بالاحتلال الأوربى للبلاد. ولعدة شــهور كــان عــرابى لسان حال ورمزاً لمصر المتعطشة للعدل والكرامة. ويؤكد جمال محمد أحمد: " أن انهيار حركته عندما واجهت القوة البريطانية، وكمــا أن معالجــة قضيته بالطريقة الملتوية فى الصحافة الأوروبية فى ذلك الوقــت، ربما جعلت منه أقل حجماً مما كان ". وربما من أهم الملامح اللافتة للــنظر فــى أحــداث ١٨٨٢ لم يكن من المستغرب أن ينبعث الجيش كقوة ثوريــة، بــل كان ذلك ببساطة أنه أصبح رأس الحربة لحركة شاملة التى قد يــنكر الوجــود الــبريطانى الاستمتاع بثمارها لمدة سبعين عاماً أخرى. هذه الثورة التى طويت صفحتها كانت المقدمة لانتفاضة عام ١٩١٩ وانقلاب عبد الناصر فى النهاية عام ١٩٥٢.

## الفصل الحادى عشر

# الحاكم بأمره على ضفاف النيل

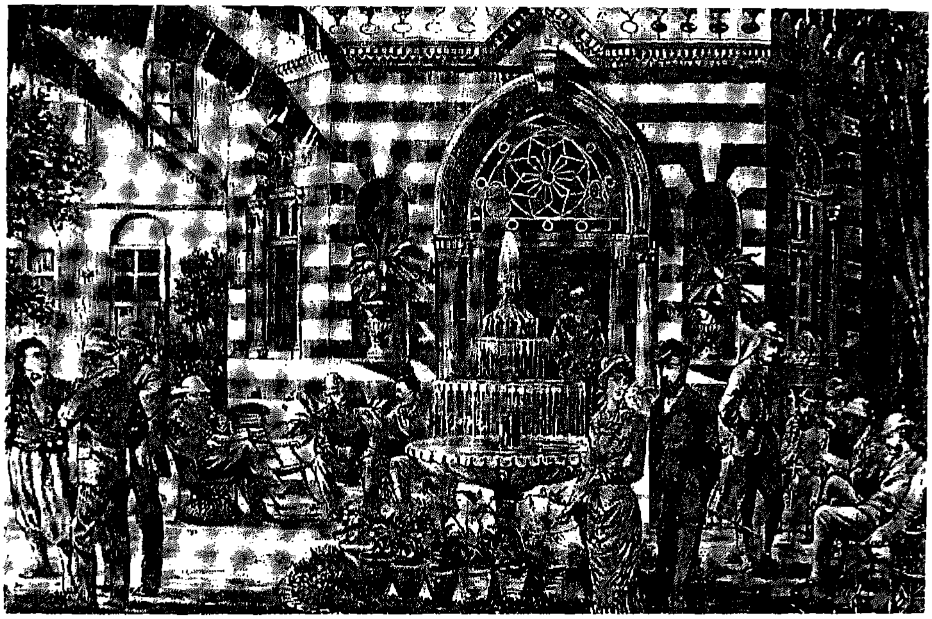
كـــان الـــناس فى عصر الملكة فكتوريا بالطبع يبدون على قدر كبير من الغـــرابة، وذلـــك من خلال بكاة بيكاديللى Piccadilly Weepers ومن خلال مظهرهم، ومن تجمعاتهم المزدحمة بشكل محب للاستطلاع، غير أن الذى لا شـــك فـــيه أن الـــناس ذوو المظهر الوسيم فى أيامنا هذه قد يبدون لنا خلال خمســـين سنة قادمة فى شكل يدعو للسخرية. وبالمثل فأنه من العدل أن نحكم على اللورد كرومر المعتمد البريطاني من منظور عصره، فالذى لا شك فيه أنـــه من خلال عصر كان يعتبر بطلاً، كان بكل معانى الكلمة فكتوريا عظيما ، فقـــد كان إداريا كفئا، ونائب قنصل رائع، فحتى فى شبابه كان مسئولا فى الهـــند باسم الميجور ايفلين بارنج Major Evelyn Baring(*) فقد كسب شهرة بأنـــه غلـــيظ الطـــبع حيث عرف بين رفاقه بأنه شخص لا يطاق، فما أن جلـــس علـــى كرســـى المفـــوض العـــام فى القاهـــرة وهو يخفى ســـلطاته الدكـــتاتوريـــة تحـــت اللقـــب المتواضـــع: القنصـــل العام، كما يصف ذلك هـــــ. أ. ل. فشـــر H. A. L. وسرعان ما كشف كرومر للجميع وبسرعة أنه ليس بالرجل الهازل، فى بلد قد يمارس فيه قليل من الهزل – أو على الأقل– قلـــيل من التعاطف البسيط – البلسم الشافى للشعور الوطنى المجروح – ففى الشـــرق تســـير الحساســـية المرهفة جنبًا إلى جنبٍ مع كرامة تمتد عبر ثقافة العمر، فالجرح قد يغتفر، أما الإهانة فلا تغتفر أبداً، فبنظرته الباردة كالصقيع وغير المقبولة، وبشاربيه الفظين اللذين يغطيان فمه المحكم، وباعتداد الرجل الفكتورى بنفسه الذى يجعل النفس تضيق به ذرعا فى بلد أجنبى، والذى يبدو فـــيه كرمـــز للهيمـــنة المتغطرسة للغرب النشط الجشع على الشرق المقدس الغـــارق فـــي الفوضـــى وسهل الانقياد. وبالرغم من تجرده من اللباقة، كان كرومر موظفاً أميناً يؤدى كل ما فى طاقته من جهد صعب. ولأنه كان ينتمى

(*) أيفلين بابرنج كان اسم كرومر قبل أن يحصل على اللوردية عام ١٨٩١.

لأســرة معــروفة فى مجال البنوك، فقد تلقى تدريباً فى الحلقة الداخلية للنظام المــالى العــالمى، فبخبرة رجل المال جلس يتعامل مع ما وصفه اللورد ملنر Milner « الســباق لوقــف الإفــلاس » فقــد كان السبب الرئيسى للاحتلال الــبريطانى هــو الــتأكد أن مصــر قــد سددت ديونها، لقد كانت كل النوايا والأهــداف تــتجه نحو إقامة حراسة قضائية عليها ولقد مهدت البراعة التى عــالج بهــا كرومر الموقف المالى السبيل لحدوث معجزة اقتصادية صغيرة، دفعت مصر بعيدا عن الخط الأحمر بالرغم من حدوث الكثير من المناورات الخفــية مــن جانــب الفرنسيين لإعاقة هذا الشفاء، فحتى عقد الاتفاق الودى Entente Cordiale(*) عام ١٩٠٤ كانت السياسة الفرنسية مستعدة للقتال ضد الإنجلــيز لدرجــة أن فرنســا بالرغم من امتلاكها ثلثى الديون إلا أنها كانت مســتعدة لدفع مصر إلى حالة الإفلاس لمجرد أن تنسف الاحتلال البريطانى الــذى كــان مرفوضا بالمرة من جانب باريس لأنه كان يشكل بشكل واضح جرحا أصابت به فرنسا نفسها.

وعلى أى حال اعتدل ميزان المدفوعات مع نهاية عام ١٨٨٦ (وباعتراف الجمــيع أن ذلــك قد تم عن طريق بعض المهارة والحسابات المضادة) وكما عــبر عن ذلك بوضوح جورج يونج George Young لقد بدأت نقاهة شعب كــادح بعد مرض جاء من الخارج. فقد بدأت التجارة تزدهر مرة أخرى، هذا الرواج الذى دعمه الإنجليز بحرابهم هو الذى أتى بأوروبا إلى مصر. فخلال التســعينات مــن القــرن التاسع عشر، أصبح قضاء الشتاء فى القاهرة عمل مســتحب لــذوى اليسار. فقد امتلأت الفنادق الكبرى مثل شبرد ومينا هاوس

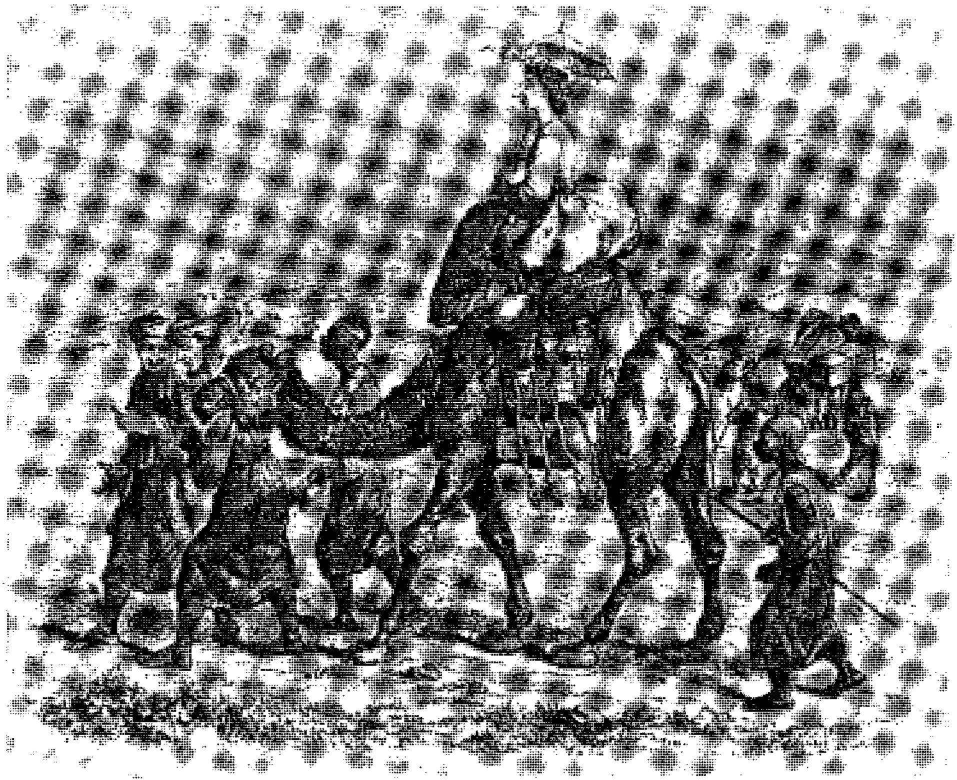
(*) اتفــاق وقــع بيــن فرنسا إنجلترا لوضع نهاية للصراع الاستعمارى بينهما على مدى ثلاثيــن عاماً خاصة حول مصر، فقد أقر هذا الاتفاق اعتراف فرنسا بإدارة بريطانيا لمصــر مقــابل إقرار بريطانيا بادعاءات فرنسا فى المغرب، وعدم تدخل صندوق الدين فى شئون مصر الداخلية أو فرض ديون جديد أو تحديد الإنفاق الحكومى. وقد اعتــبر أنصــار فرنسا من المصريين على رأسهم مصطفى كامل أن توقيع مثل هذا الاتفاق طعنة لهم فى الظهر من جانبها (المترجم).



بدأ تدفق السواح البريطانين على مصر لقضاء فصل الشتاء كما بدأ بناء الفنادق على النمط الأوروبى الحديث بدلاً من الخانات المملوكية والعثمانية. وكان فندق شبرد أولى الفنادق التى بناها المستثمرون الإنجليز فى قطاع السياحة وهذه صورة لقاعة التدخين فى فندق شبرد (مجموعة مانسيل)

وقصـــر الجزيـــرة (الذى بناه إسماعيل خصيصا ليوجينى) وعشرات الفنادق الأخـــرى بأعضاء الأسر المالكة وصفوة المجتمعات الأوروبية جنبا إلى جنب مـــع عدد من عامة الناس الذين كانوا ينوون الهروب من الشتاء الإنجليزى. فقـــد كـــان مـــن بـــاب المباهاة استئجار فيللا على الجزيرة أو اكتراء عوامة للسكنى على ضفاف النيل، وإذ أراد الشخص السياحة فيمكنه أن ينقله المستر تومـــاس كـــوك Thomas Cook إلـــى مصر العليا فقد كان قد بدأ فى تنظيم رحـــلات إلى أعالى النيل (وبقيامه بهذا العمل فقد كان بالطبع يعيد إحياء تقليد قديـــم. فقد ترك السياح فى العصور الإغريقية والرومانية آثارهم فوق تمثالى ممـــنون فـــى طيـــبة، وفوق الجرانيت المصقول فى أبى سنبل)، ومن ثم فان ضـــيوف المســـتر كـــوك كانوا يتبعون نفس البرنامج الذى اتبعه هيرودوت وإســـترابون، فقد كان فى مقدور أى شخص أن يقضى شهرا أو شهرين، ولم يكن أمامه أجمل منطقة يقضى فيها الشتاء أفضل من أعالى النيل، كما قدمت المعـــابد والمقابـــر إقبالاً ممتازا لرحلات الخيول الطويلة أو تناول الطعام فى الصحراء. وعندما يعود (السائح) إلى القاهرة فهناك نادى الخديوى الرياضى الـــذى كان يقع فى الجزيرة والذى كان واحدا من أجمل النوادى الرياضية فى العـــالم. ففيه يستطيع المرء أن يرقص طوال الليل، وعندما يقترب الفجر يبدأ ركـــوب الخيل إلى مينا هاوس حيث يسبح فى الصباح الباكر، يتلو ذلك إفطار شـــهى قـــبل أن يتوجه إلى رحلات الصيد فى الصحراء، وبعد غفوة القيلولة يقضى العصر فى النادى وهو يستعد لاختيار الملبس المناسب للعشاء، ثم يبدأ الـــدورة من جديد،وبالطبع كل هذا الإجراء المحبب لم يضف شيئا يذكر لثراء مصر، أو أفاد المصريين الذين كانوا غالبا ما يهملون، أو ببساطة يتجاهلون. وبالرغم من أن قدرا كبيرا من الأموال كان ينفق خلال الموسم. إلا أن أغلبه كـــان يعـــود إلى أوروبا فى شكل أرباح الوكالات السياحية وشركات البواخر والفـــنادق الـــتى يديرها رأس المال العالمى. فقد كانت الفنادق تكاد أن تكون مليـــئة بالمديرين السويسريين، والجرسونات الألمان، أما الأموال التى كانت تـــنفق فـــى حوانيـــت القاهرة الراقية، فكانت تذهب إلى جيوب أصحابها من اليونانيين والإيطاليين، والفرنسيين، وليس للمصريين.

وبـــالفعل فإن أغلب الزوار الذين كانوا يقضون الشتاء فى القاهرة يتخيلون أن مصـــر مـــن ممـــتلكات بريطانـــيا العظمى حيث كان اللورد كرومر فى



سائحة بريطانية تركب الجمل ومن أمامها وحولها الترجمانات وسائس الجمل، لقد بدأت السياحة إلى مصر تدر دخلاً طيباً لكن الثروة كانت تذهب إلى جيوب الأجانب الأوروبيين من أصحاب الشركات السياحية، ولم يذهب إلى المصريين إلى النذر القليل

القاهـــرة يقــوم بـــدور كـــرمويل(*) (فـــى لندن)، وفقد كان الزى العسكرى الـــبريطانى يظهـــر فـــى كل مكان. ومن الصعب أن نلومهم على التفكير فى ذلـــك. وكـــان يعلمـــون أنه يوجد فى مكان ما - فى الخلفية الخديوى، وكان بالكـــاد يـــبدو تابعـــا لإدارة شكلية من مولاه فى تركيا، إلا أن الخديوى كان حاكمـــا ذا سيادة على دولة مستقلة، من الناحية الرسمية كان هذا هو الوضع. وكانت الهوايتهول على علم واضح بذلك. فبريطانيا من وجهة النظر الرسمية قـــد قامـــت بقصـــف الإسكندرية لمجرد حماية حياة الأوروبيين الذين كانت تهددهـــم الغوغـــاء العسكرية، وأنها أرسلت اللورد وولسلى Woolsely على رأس جيش لاستعادة سلطة الخديوى التى أضعفتها ثورة البكباشية المتمردين، وأنهـــا منذ تلك اللحظة تحافظ وتدعم سلطة الخديوى. أما الوحدات التى كانت تعســـكر فـــى القلعة وفى قصر الأسماعيلية على النيل، فلم تكن حقيقة حامية بريطانـــية، بل بقايا جيش احتلال لمساعدة الخديوى للحفاظ على النظام العام. وفـــى نظـــر لندن فان مسألة الانسحاب بعد ثورة عرابى سوف تكون بمثابة ترك مصر لتسلق نفسها فى عصارتها، وقد كانت الهوايتهول على ثقة من أن ذلك سوف يؤدى إلى المزيد من اندلاع حركات التمرد والعصيان والثورات، ثـــم يـــتلوها تدخـــل أوروبى من جهة أو أخرى. ولهذا السبب فان إنجلترا لا ضـــمت مصـــر إلـــيها ولا جلت عنها، وكما شرح اللورد كرومر أن الرجل الانجلـــو - سكســـونى يؤكـــد عبقريته النظرية عن طريق ابتكار نظام - قد يـــبدو - غـــير فعال طبقا لكل قوانين الفكر السياسى، فبينما كان لا يتدخل من

(*) كـــرمويل Cromwell (١٤٨٥ - ١٥٤٠) سياســـى إنجليزى ظهر فى عصر الإصلاح المـــبكر. كان فى البداية رجلاً عصاميا عمل تاجراً ومرابيًا ومحاميًا، ثم أصبح عضوًا فـــى البرلمان. لفتت مهارته الملك هنرى الثامن فأوكل إليه شئون المملكة حتى أضحى الحـــاكم بأمره خلال السنوات السبع (١٥٣٣ - ١٥٤٠). كان ثوريا ومصلحاً اجتماعياً وكان من المشجعين على فصل الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما الكاثوليكية. انقلب علـــيه الملك هنرى الثامن وأعداؤه المحافظون فاعدم دون محاكمة فى ٢٨ يوليو عام ١٥٤٠ (المترجم).

الناحية الرسمية فى حرية الحكومة المصرية، ولكن من الناحية الفعلية كان متأكدا أن الخديوى والوزراء المصريين ينفذون بالضبط ما يطلبه منهم. كما أنه كما يبدو لم يجد شيئا غريبا حول احتلال جزء من الإمبراطورية التركية عن طريق القوات البريطانية، وفى نفس الوقت يتجنب بحرص شديد التعدى على الحقوق الشرعية للسلطان، ففى نظر اللورد كرومر أن مثل ذلك التصرف هو الطريقة العملية الاستعمارية المعقولة (مع الغياب الكلى لأى خطة محددة) التى تميز أغلب السياسة الاستعمارية البريطانية.

بالفعل لم يكن الضباط البريطانيون فى وحدات الجيش المصرى وفى وزارة الحرب المصرية فى الخدمة البريطانية بتاتا، بل كانوا معارين مؤقتا للخديوى لمساعدته فى تدريب وفرض النظام على جيشه، وبنفس الطريقة كان الموظفون المدنيون البريطانيون يخدمون تحت إمرة الخديوى لتقديم العون فى مسالك إدارته وتصريف شئونه المالية. فقد كانوا موظفين يتلقون رواتبهم من الخديوى وليس من إنجلترا. ولهذا بقى الخديوى اسميا القوة العليا فى الدولة فكل قرار إدارى أو مادة تشريعية كان من المفروض أن تصدر منه.

وباختصار إذا ما استخدمنا كلمات كرومر نفسه إن البريطانيين لا يحكمون مصر، إنما فقط يحكمون حكام مصر وكانت وجهة نظر صريحة وواضحة فقد كان لكل إدارة وزير مصرى على رأسها. وهؤلاء المسئولون لا يتلقون رواتبهم فحسب، بل بدلات وظائفهم. فقد يجد الزائر الوزير جالسا فى مكتب كبير يحيط به السكرتارية والحجاب، وبعد أن يحتسى فنجانا من القهوة مع الباشا، يؤخذ إلى حجرة صغيرة يجلس فيها رجل إنجليزى يعتلى وجهه الإرهاق على مكتب مليء بالملفات، ويعطى أوامر عاجلة للكتبة والسعادة. هذا الرجل الإنجليزى هو المستشار وهو من الناحية الاسمية اقل مرتبة من الوزير، معين لمساعدته فى عمله، ويقدم نصائحه المفيدة بقدر ما يرى ذلك ضروريا، وهو لا يأمر » أبدا بل قد يقول فقط: أظن أنه من باب النصح أن يصدر فخامتكم هذا الأمر » أو نما إلى علمى أن كيت وكيت قد حدث وأنا أرجو فخامتكم أن يعتقد أنه من الأصلح أن تفعل كذا وكذا لإعادة

الأمـــور إلـــى مجـــراها الصـــحيح أمـــا إذا فشل فخامته فى الاستجابة فان المستشــــار بالطـــبع ســـوف ينقل الأمر إلى دار المعتمدية، والتى سوف تقوم بدورها على الفوز بممارسة الضغط على الخديوى، لذا لم يكن من المستغرب أن يـــريح الـــوزراء المصـــريون أنفسهم بتدخين السجائر، وقراءة الروايات الفرنســـية فـــى مكاتبهم الرسمية اللهم فى بعض الأحيان كانوا يكلفون أنفسهم عناء وضع توقيعاتهم على الوثائق التى أعدها المستشار الإنجليزى حتى دون أن يقرءوها.

هـــذه الرواية المحكمة التى يمكن مقارنتها بحكاية عن مهارة الحاج نصر الدين الذى حمل حماره فوق ظهره ليعبر به النهر حتى لا يلقيه (الحمار) من فـــوق ظهـــره إلى الماء، قد نسجت (فى مصر) إلى حد كبير لتجنب الصدام المباشـــر مـــع تركـــيا وكذلك من أجل الظهور بمظهر الرجل الطيب Bella Figura أمـــام القـــوى العظمـــى، ولكـــنها قلما تحسب حسابها لكسب رضا المصـــريين أو أقـــل مـــا يقال لكسب رضا الخديوى. وفى عام ١٨٩٢ مات توفـــيق بعد أن عاش خنوعا حتى النهاية، وخلفه ابنه عباس حلمى الذى تلقى تعلـــيمه فـــى مـــدارس فيينا Vienna ليؤمن بالسلطات الإلهية للأمراء، على عـــرش صـــورى وهـــو فـــى الثامنة عشرة من عمره، وعلى الفور اصطدم بالمعـــتمد البريطانى، وقد علق اللورد كرومر فى خطاب بعث به إلى اللورد سالســـبرى Salisbury بعـــد مـــا يقرب من شهر بعد تولى عباس يقول: إن الخديـــوى على وشك أن يصبح مصريا خالصا »، ولم يدخر وقته فى توجيه الإهانة العلنية للخديوى الشاب، فالنسبة لرجل فى عقلية كرومر كما يقول: ولفـــريد بلنـــت فـــإن معرفـــته الحقيقية عن الشرق ضئيلة لا تتعدى ما قد يتســـرب إلـــيه من خلال الوثائق الرسمية القابعة فوق مكتبه، ولذا فإن قص أجـــنحة الخديوى بالنسبة له يسبق فى الأهمية تدعيم الصداقة معه، حتى أن الســـنوات المتبقـــية من السياسة الكرومرية، أنزلت من قدر عباس إلى مدبر مكـــائد، يشـــعر بالمرارة إزاء السلطان (الذى كان يفكر فى محاربة إنجلترا) ويدبـــر المؤامرات سراً مع الحركات المعادية للمسيحية فى مراكش ومقدونيا وقد فعل السير الدون جورست Eldon Gorst الذى تبع كرومر فى المعتمدية

كـــل مـــا فى وسعه لتضييق هوة الخلاف، وبالرغم من أنه قد نجح فى إقامة صـــداقة وطـــيدة مـــع الخديوى، إلا أنه لم يستطع أن يمحو الشعور المعادى لبريطانيا الذى كان ضاربا فى الأعماق والذى أيقظه كرومر من رقاده(١٧).

لقـــد بـــدأت نفس الأساليب الأوتوقراطية تثير الكراهية عند المصريين أنفسهم، فمـــن العبـــث أن يـــتوقع المحـــتلون أن يكونوا محبوبين فهم يظنون أن وظائفهم عمـــل بـــناء، أو أن يعتقد فيلق السلام Peace Corps أن عملهم عمل هام وخطير وإلـــى حـــد مـــا قليل الراتب، وهو يتفق كثيرا مع أجل الصالح العام، ولكنهم لا ينـــتظرون الشـــكر علـــيه، لكن يتوجب علينا أن نتذكر أنه خلال السنوات الأولى للحكـــم الـــبريطانى لـــم يكن لدى رجل الشارع شىء آخر غير الشعور بالعرفان للإنجلـــيز لأنـــه كـــان يـــتذكر حالة البؤس التى كان يعيشها فى عهد إسماعيل، وكـــبار الســـن مـــن الفلاحيـــن لم ينسوا الكرباج، ولا الاستدعاء لأعمال السخرة بمجـــرد ســـماع صـــفارة، وأن الـــذى يتلكأ ويصل متأخرا يعاقب بعشرين جلدة، والآن نســـيت جـــراح مـــثل هذا الظلم، كما أن الأمور أصبحت أحسن مما كانت علـــيه، وأصـــبح الـــرخاء علـــى مرمى البصر ولكن سرعان ما تبين لهم أن أى عصـــر ذهـــبى ســـوف يكـــون فـــى المقام الأول للأوروبيين ومن يسيرون فى ركـــابهم وقـــد يكـــون هـــناك مكان فى عربة الحظ للمصريين أنفسهم، بل على العكـــس أصـــبح الـــتمايز الاجـــتماعى أكـــثر اتساعا، فالأغنياء يزدادون غنى، «والمصـــري أفـــندى يـــدرج فى موقع مواطن من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة، والأكـــثر مـــن ذلك بالرغم من التأكيدات المتكررة بأن الاحتلال البريطاني مجرد مســـألة مؤقـــتة (وبحساب حذر صدر فى عام ١٨٨٣ قدره بأربعين عاماً) إلا أن الشـــكوك كانـــت تـــتزايد أن اللورد فى مكتبه داخل المعتمدية كان يخطط بشكل منظم لبقاء البريطانيين إلى الأبد، وتحويل مصر إلى هند صغيرة(١٨).

بدأت الحركة الوطنية فى أول الأمر فى الخفاء، فى المقاهى الواقعة حول الأزهر، ثم بعد أن اكتسبت الشجاعة بعد أن أحست بتأييد الشعب ووقوفه من ورائهـــا، بدأ صوتها يسمع مرة أخرى بعد أن كانت خامدة لمدة عشرين سنة تقريـــبا فقد بدأ مصطفى كامل من خلال جريدة اللواء يعبر عن مشاعر جيل جديد، ويلتمس أيضاً التأييد فى فرنسا.

وإذا ما قرأنا كراساته اليوم، فقد تبدو فى لهجتها معتدلة إلى حد كبير وتضرب على وتر حساس بخصوص موضوعات كانت قد قبلت كأمور مسلم بها منذ زمن طويل. فمثلا يعلن فى كراسته التى تحمل عنوان: الخطر الإنجليزى : نتائج احتلال مصر بواسطة إنجلترا »

le peril Anglais: consequences de l' occupatien de l' Egypte par l' Angleterre.

والتى نشرت فى باريس عام ١٨٩٩. ورد فيها أن الناس تتجاهل الأهمية الحقيقية لمصر: موقعها الجغرافى، وأن القوى التى قد تصبح سيدة بلا منازع على وادى النيل سوف تصبح من الناحية الفعلية صاحبة السيادة على أفريقيا... وعلى الأراضى المقدسة وعلى البحر الأحمر. إن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر وتهيمن على الطريق إلى الهند والصين وأستراليا. إن إنجلترا تسيطر الآن على البحر المتوسط، وأنه لمن الأمور الحيوية للقوى الأوروبية الأخرى ألا تتركها تسيطر على طرق التجارة فى إفريقيا ومن ثم فان الاحتلال البريطانى لمصر.. يمثل خطرا يهدد القوى الأخرى فى أوروبا».

ولكن بالنسبة لكرومر كانت تلك هى الفوضى بعينها، وتفاهات توبيخية خطيرة تثبت أن المصريين لا يمكن الثقة بهم، وأن بعثة بريطانيا فى مصر ليس فى مقدرتها أن تنتهى فى المستقبل المنظور، وبالمثل اشترطت أولويات فيما يختص بالانفاق العام، فمثلاً بينما كان مستعدا للموافقة على عدد من المشروعات لتطوير نظام الزراعة بما فى ذلك بناء السد الجديد الكبير فى أسوان، والذى كان من الناحية المادية سيطور إنتاج البلاد الزراعى(١٩)، وقد خصص أقل ما يمكن تخصيصه لشئون التعليم، بناء على مبدئه الذى يفترض بأن المصريين ليس فى مقدرتهم الالتحاق بالمدارس الخاصة على النظام الإنجليزى l Anglais ومن ثم فمن الأفضل لهم أن يبقوا ملازمين للأرض حيث يكون فى استطاعتهم إنتاج المواد الخام المفيدة لمصانع النسيج فى مانشستر. إن فشل كرومر فى الواقع – كان على المستوى الإنسانى ذلك

المستوى الذى من أجله بدا أن عرابى المنزعج يكافح - والذى يعنى أن أى واحد من الشرق سوف يتفهم عندما يعطى الأهمية اللازمة لبعض الأشياء التى يعطيها المصرى أهمية قصوى مثل ديانته وأسرته، قريته، وطنه، أهله، كرامته، الشخصية، كل هذه الأمور التى لم يكن كرومر يهملها إلى حد ما فحسب بل تجاهلها تماما. وبالرغم من أنه حكم مصرٍ لخمس وعشرين سنة، وهى فترة مدة حكم أى فرعون، إلا أن كرومر نادراً ما جرؤ على الخروج من دار المعتمدية للقيام بزيارة رسمية للقصر إلا لتوبيخ الخديوى حول بعض الأمور، أو لترأس سباق الخيل فى نادى الجزيرة، إنما كان يحكم من مكتبه طبقاً لما تمليه عليه أوراق الميزانية، وليس من المستبعد أنه فى سريرة نفسه لم يفكر على الإطلاق فى المصريين كشعب.

وأخيراً كشفت الأضواء عن هذه الهوة بين فكر كرومر وفكر المصريين عندما وقعت حادثة دنشواى. ففى أحد أيام شهر يونيو الحارة عام ١٩٠٦ خرج بعض الضباط الإنجليز للصيد، غير أن جمعاً غفيراً من القرويين الغاضبين أحاط بهم معترضين على صيد الحمام لأنه يمثل طعاما غاية فى الأهمية بالنسبة لهم فى وجباتهم الهزيلة، وأثناء الصخب انطلقت رصاصة من إحدى البنادق أدت إلى إصابة امرأة بجرح، ومن ثم فر الضباط طالبين النجاة، وسقط أحدهم ميتا بعد أن تلقى ضربة شمس، بينما أمسك جنود وحدة الضابط فتى قرويا لا شأن له بالأمر كله، بل أنه جاء لتقديم المساعدة للضابط، وانهالوا عليه ضربا بالعصى حتى مات. عندئذ شعرت الجاليات الاوروبية فى القاهرة بالذعر متصورين أن مذبحة عامة على وشك الحدوث.

وأدانت محكمة خاصة شكلت من ثلاثة مسئولين بريطانيين واثنين من المصريين، أربعة من القرويين وحكمت عليهم بالإعدام، كما حكمت على ثلاثة منهم بالجلد خمسين جلدة لكل واحد، وأدانت عدداً آخر وحكمت عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة لفترة طويلة. وصدق كرومر على الأحكام. وغلت مصر بالكراهية. وضاعت بذلك إنجازاته الإيجابية لعقدين من الزمن. ومنذ تلك اللحظة أصبح غالبية المصريين متعاطفين مع الوطنيين، وشعروا أنهم أنفسهم محاربون يقاومون عدواً مشتركاً. بالرغم من ذلك لم يشعر

كرومـــر بالفزع ففى خطاب الوداع الذى ألقاه فى العام التالى للحادث(*) عدد فـيه مـزايا الحكم البريطانى الذى قدر لمصر أن تهنأ به، وأشار إلى أنصار الحـركة الوطنية باحتقار معلنا: إننى سأستنكر أى تغيير - ولو كان طفيفاً - أو أى بدايـة جديدة تتسم بالعنف. والأكثر خصوصاً سوف أحث على أن هذه الحـركة غـير الشـرعية والمصـطنعة - والـتى تدعو إلى تطور سريع للمؤسسات البرلمانية - لكي تعامل كما تستحقه.. ودعونى أضيف أيها السادة أنها حقاً تستحق قدراً ضئيلاً من الاهتمام.

وفى اليوم التالى سار موكبه عبر شوارع خالية إلى المحطة، وفى إنجلترا تقـاعد، حيـث قضى وقته على نحو يميز شخصيته معارضاً لحركة تحرير المـرأة. وجاء تعليق مصر على خروج آخر الأوتوقراط الأجانب فى أبيات الشاعر أحمد شوقى:

| | |
|---|---|
| **أيامكـم أم عهـد إسـماعيلا** | **أم أنت فرعون تسـوس النيلا** |
| **أم حاكم فى أرض مصر بأمره** | **لا سائـلا أبدا ولا مسـئولا** |
| **يا مالكـا رق الرقاب ببأسـه** | **هل اتخذت إلى القلوب سـبيلا** |
| **لما رحلت عن البـلاد تشهدت** | **فكأنك الداء العـياء رحيـلا** |
| **أوسـعتنا يوم الوداع إهانـة** | **أدب لعمرك لا يصيب مثيلا(**)** |

(*) هـذا الحفـل أقامـه مصطفى باشا فهى رئيس الوزراء - التركى الأصل - فى دار الأوبـرا لـتوديع كرومـر، وخطـب يثنى عليه لكن كرومر ألقى كلمة أهان فيها المصـريين وأهان الخديوى عباس حلمى الثانى فى وجود الأمير حسين كامل الذى أصـبح سـلطاناً علـى مصـر فـيما بعد، ولم يراع كرومر مشاعر الحاضرين. (المترجم).

(**) تنتهى القصيدة بالبيت التالى:

من سـب دين محمـد فمحمـد — متمكـن عنـد الإلـه رسـولا



صـــورة للورد كرومر الحاكم الفعلى لمصـــر عام ١٨٨٤
والصورة تعبر عن الصرامة والقسوة وكراهية المصريين
وقد خلفه السير إلدون جورست عام ١٩٠٧ وكان لا يقل
عنه قســـوة ولكن يرتدى قفاز من حريـــر (صالة عرض
اللوحات الوطنية بلندن National Portrait Gallery)

لا شـــىء يصـــور التغيير بعيداً عن الكرومرية أفضل من حفل الاستقبال الــذى أقامته الدولة فى صيف عام ١٩٠٧. فسلطة الخديوى قد تكون وهنت ولكــن، الأبهة الملكية استمرت فى بذخها بنفس الدرجة التى كانت عليها فى أى قصـــر مـــن قصور أوروبا، فقد اصطف أعضاء السلك الدبلوماسى وقد ارتــدوا بــدلات التشريفة ذات الطراز الرسمى وقد غطى وجوههم قليل من العـــرق وهـــم يمـــرون ببطىء فى طابور طويل أمام عرش الخديوى حيث ينحنون لجلالته. وكان أعضاء الوفود يتقدمون طبقاً لأقدمية التعيين، ففى أول الصف وقف وكيل شركة بواخر هولندية متقدم فى السن ممثلاً لملكة هولندا، يليه الآخرون حسب ترتيبهم: المندوب الأسبانى، ثم النمسوى، ثم الروسى، ثم الألمـــانى، بعدهـــا يجـــىء ما تبقى من ممثلى الدول الصغرى التى كانت لها علاقـــات دبلوماســـية، ويكـــاد يأتى فى مؤخرة الجميع رجل إنجليزى قصير القامـــة إلى حد ما يضع نظارة مستديرة ذهبية، ويبدو فى هيئة لا تلفت النظر بقـــدر الإمكـــان، يـــرتدى معطفاً مزرراً وسروالاً مزين بشريط ذهبى، وكان يتقدمه المندوب السويسرى والبلجيكى، ولم يكن خلفه سوى رجل سويدى ذات مكانـــة أقـــل منه بكثير، وقد يظن الذى لا يعرفه أنه شخص غير ذى أهمية، لكـــن هذا الشخص كان السير الدون جورست Sir Eldon Gorst الذى خلف اللـــورد كرومـــر – الحاكم الفعلى لمصر، وله من السلطة والقوة التى تفوق سلطة الخديوى وكل وزرائه مجتمعين.

كـــان جورســـت من أنصار الاتصال غير الرسمى والإقناع الناعم، فبينما كـــان كرومـــر بقبعـــته العالية يجوب شوارع القاهرة فى عربته التى يتقدمها راكـــبو الجـــياد والسياس يجرون من خلفه لاهثين، نجد خليفته يستخدم سيارة

وذلـــك رداً علـــى تقرير كتبه كرومر عام ١٩٠٦ طعن فيه فى الدين الإسلامى زاعماً أنه ديـــن لا يصـــلح لهـــذا العصـــر، كما انتقد شوقى فى هذه القصيدة سياسة اللورد كرومر الاستعمارية فى إدخال لعبة كرة القدم فى المدارس التى الهبت روح الصراع والفرقة بين صفوف جبهة الطلاب وذلك على حساب تلقى العلم: فجاء قوله:

هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولاً (المترجم)

من ماركة وولسلى Woolsely ذات مقعدين، وهى أول مجموعة سيارات استوردتها شركة القاهرة للسيارات، وقد فتح قميصه، ويثرثر بالعامية مع المارة، غير أن هذا التغيير فى الاقتراب الذى جاء به صاحبه لم يفصح عن تغيير فى السياسة البريطانية.

فخيوط السياسة ظلت كما كانت من قبل، إنما الذى تغير ببساطة هو الغلاف الخارجى.

والحق يقال، كاد أسلوب السير إلدون الناعم الذى أدهش حتى غلاة الوطنيين وأثار غضب الجالية البريطانية - أن ينجح فى إخماد المشاعر المعادية للبريطانيين فى مصر. ففى غضون فترة قصيرة أقام صداقة مع الخديوى، كما أرضى الطبقة المثقفة بتبنيه مشروع الجامعة المصرية الجديدة (والتى كان كرومر قد اعترض عليه فى العام السابق) كما أطلق سراح سجناء دنشواى، وقلل من درجة غليان الوطنيين باستقطاب أكثرهم نفوذاً وتعيينهم فى مناصب عامة. وبتحريض منه تولى رئاسة الوزارة مصرى خالص، ولكن بسبب حادث مؤسف ساهم ذلك أكثر من أى عامل آخر فى إفساد تجربته الشجاعة فى المصالحة. فقد كان رؤساء الوزراء السابقون خلال فترة الاحتلال جميعا من عنصر أجنبى: شريف باشا ومصطفى باشا فهمى كانا أتراك، بينما كان نوبار باشا أرمنى، ورياض باشا يهودى، غير أن بطرس باشا غالى وهو شخصية عامة كبيرة فى البلاد كان قبطياً. والأكثر من ذلك كان الرجل الذى ترأس محكمة دنشواى. ومن ثم عندما أشار جورست إلى بطرس: كأول مصرى حقيقى وصل إلى قمة المناصب فى البلاد كانت تلك العبارة من وجهة نظر المسلمين عبارة مثيرة للشعور أكثر منها دقيقة، وبذلك بدا كما لو كان يدق إسفيناً بين المسلمين ذوى المشاعر الوطنية وبين المتعاونين معهم من الأقباط. وبالنسبة للوطنيين الذين كانوا يتحرقون لأحداث اختراق مثلما فعل شباب تركيا الفتاة، وكان ذلك بمثابة لطمة على الوجه. وعندما أبدى بطرس رغبته فى تعزيز المصالح الأوروبية بالموافقة على اقتراح لمد فترة امتياز شركة قناة السويس لفترة أطول مقابل زيادة نسبة من دخلها ثارت الصحف الوطنية والرأى العام

المصرى عن بكرة أبيه، ولم يمر يومان على هذا حتى اغتيل بطرس.

وجـــاء الآن الـــدور على الرأى العام الأوروبى ليغلى غضباً، فمن خلال محاولـــته للسماح للمصريين بإبداء رأيهم فى شئونهم، واستمراره فى استبدال الموظفيـــن الرســـميين البريطانيين بالأقباط، فقد شعروا أن جورست قد شجع علـــى إحـــداث موقـــف خطير، فقد أصبحت حياة الأوروبيين وممتلكاتهم فى خطـــر حـــتى ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt الذى ضم صوته إلى صـــوت الآخريـــن عـــندما كـــان يقضى أجازته فى مصر فقد قال متذمرا: احكمـــوا أو اخرجوا Govern or Get out، ولكن فى ذلك الوقت كان السير إلـــدون جورست مريضاً فى المستشفى يعانى سكرات الموت من السرطان. وقلـــيل من الناس أدركوا فى ذلك الوقت مدى قيمة ما كان يحاول هذا الرجل القليل الحجم أن يعمله لمصر، ولذا فان الخديوى نفسه تحمل عناء السفر إلى إنجلـــترا لكى يودع صديقه، وقد عدد السير رولاند ستورز Roland Storrs إنجازاته وهو يؤبنه: لقد خاض حربه وحيث رأى العالم فشله كان قد نجح.

He had Fought his fight and where the world saw his failure , he had succeded.(*)

وعلى أى حال كانت وجهة نظر الهوايتهول أن زمن البراعة قد ولى، وأن مصـــر فى حاجة لعودة الرجل الصارم Gauleiter. وفى نوفمبر عام ١٩١٠ خـــرج اللـــورد كتشنر « أوف خرطوم » من محطة القاهرة بقامته الفارعة، المتصـــلبة، الوضاءة بنفس العينين الزرقاويين الشاحبتين، وشاربيه المرعبين، اللتين كانتا فيما بعد تطلان من ملصقات التجنيد. وكانت فخامة وأبهة موكبه، وموكـــب حراسه اللامع المتلألئ، « والسياس » فى ردائهم الأحمر والذهبى كلهـــا ضـــمن حســـاباته لإغراء أى مصرى وطنى أو أيا كان بأن رمسيس

(*) وهـــو لقـــبه اللورديـــة الذى جعل عليه بعد أن قاد حملة إسقاط الدولة المصرية إعادة احتلال الخرطوم عام ١٨٩٨م (المراجع).

والإسكندر ونابليون مجتمعين جميعا فى شخص رجل واحد وأن هذا الرجل قد وصل. وربما تخيل ضابط الألغام السابق أن ذلك قد حدث بالفعل. ومن الناحية الشخصية كان يسعى من أجل الهند فمظاهر نائب الحاكم التى فرضها على دار المعتمد البريطانى، والتى اندفعت فجأة على عجل لإعداد البزات القرمزية، وطاقم المائدة الذهبى، وقاعة الرقص الجديدة، ربما كانت من أجل تعويضه عن شعوره باليأس لخداعه بتعيينه فى مصر.

وفى صبيحة يوم وصوله، تصادف إعلان إيطاليا الحرب على تركيا، ولأن ما تبقى من الجيش المصرى كان لا يزال من الناحية الرسمية تحت سيادة السلطان والذى كان من المتوقع أن يجعله تحت إمرته للقيام بعمليات ضد الإيطاليين الذين كانوا يقومون بغزو طرابلس، لكن أوضح الأمر على الفور أن مصر بالرغم من أنها لا تزال تحتفظ بالفكرة الخيالية بأنها من الناحية القانونية de Jure جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. لكن البلاد من ناحية الأمر الواقع de facto كانت أقرب إلى أن تكون جزءاً من الإمبراطورية البريطانية.

وللسبب نفسه، صدر سيل من المراسيم: مثل قانون التآمر الإجرامى، وقانون الرقابة على الصحف، وقانون النظام فى المدارس وكانت إنذاراً واضحاً لغلاة الوطنيين عن الأسلوب الذى ينوى المستبد الجديد تناول أى مشكلة من خلاله، وخلال بضعة أيام وجد الوطنيون البارزون أنفسهم يلقون فى المعتقلات لأقل سبب واه بمقتضى قانون النفى (وهذا القانون قصد به أصلاً التعامل مع قطاع الطرق) فمثلا نفى زعيمهم فريد بك - لأنه كتب بضعة سطور كمقدمة لديوان شعر وطنى، وحكم عليه بالسجن لفترة قاسية، بينما تمت مطاردة محرر مجلة أدبية لأنها تحدثت بطريقة خارجة عن الحدود وهو بعيد فى القسطنطينية، لكن كتشنر أعاده ليقدمه للمحاكمة، حتى حال الوطنيين المتعاونين لم يكن أحسن حالاً، فقد طرد سعد زغلول من منصبه، كما قدم الصوفانى بك للمحاكمة، وهو عضو بارز معتدل فى المجلس الوطنى لأنه أصر على الدستور، ولا حتى الخديوى منح مساحة أكبر من حرية التصرف، إذ لم يكن هناك مكان فى مصر يوجد فيه رئيسان فى وقت

واحـــد. ولمـــا أدرك الوطنـــيون ذلك خافوا على أنفسهم، ولجأوا إلى العمل السـرى، بيـنما حـط مـن شـأن عباس حلمى حتى أصبح يشغل نفسه فى مضاربات تجارية مشبوهة، ويدخل فى جدل مع العلماء لكى يعترفوا بشرعية زواجـه مـن زوجته الجديدة التى كان كل فرد فى القاهرة يعرف أنها بدأت حياتها فى إحدى النوادى الليلية فى فيينا.

وحـتى كتشـنر سرعان ما تبين له أن سياسة العودة إلى أسلوب السياسة «الكرومـرية شـديدة القسوة، وإلى تعنت الدولة البوليسية، ليس سوى طريقة سـلبية للـتعامل مع الموقف فى مصر. فحاول أن يوازن بين قسوة تصرفاته فى بداية عهده ببذل مجهودات إلى حد ما لتحسين أوضاع الفلاحين، لأن حبه الصـادق لأرض مصـر قدم له فى النهاية فرصة عمره. فمنها برز نجمه - مـثل محمد على - من الغموض إلى عالم الشهرة، بوصفه كتـشـنر أوف خـرطوم (وهذا الموضوع سوف نعالجه فى الفصل الخاص بالسودان)، وبدا مثل محمد على كما لو كان قد تفهم الطريقة التى يعمل بها العقل المصرى.

ولأن كتشـنر كـان يمـتلك إلى جانب قدرته العظيمة على التنظيم مسحة مسـرحية سـاعدته على تبين مدى الأهمية التى يقدرونها للنجاح فى الشرق لقـياس الشخصية، فبينما كان كرومر وهو يقبض علي كل شئ يختفى وراء أسـوار الوكالـة البريطانية، وكان كتشنر شخصاً بارزاً فى مقدرة أى أحد أن يـراه. ويقـول جـورج يونج George Young لقد طور كثيراً فى الأقاليم، فكـان يستقبل الالتماسات ويرد عليها باللهجة العامية مع تباسط الاوتوقراطى الشـرقى، وقـد تـبلورت عقليـته إلـى مزيج محير من إصدار القرارات الاسـتبدادية، والنفاق الدبلوماسى، الذى هو أمر غريب على أمراء الشرق. لقـد كانـت لغته العاميه أحياناً غير مفهومه، ولكنه كان يعرف كيف يستحوذ علـى مشـاعر مستمعيه، فلقد أخبر شيخ تقدمت به السنون السير أرثرفيجال Arthar Weigall. أنـه وضـع كلتا يديه على كتفى وقال له: ألست أنا مثال أبيك؟ هل يمكن للأب أن ينسى أبناءه؟

فـى كثير من الأحوال كان يبدو طيباً مثل كلماته، فقانون الأفدنة الخمسة

الــذى سنه والذى بمقتضاه أصبح من المخالف أن يستحوذ الفرد على مساحة مــن الأرض الزراعية تقل عن خمسة أفدنة داخل زمام قريته(*)، إلى جانب تأسيسه البنك الزراعى الذى أنقذ الفلاحين من براثن المرابين وحقق نوعاً من الاطمئـــنان لأول مـــرة فـــى حياة المزارعين، كما تأسست وزارة للزراعة، وبـــدأت مشـــاريع عديـــدة للصـــرف والرى، هيأت للقطن بالذات أن تتوسع زراعـــته. إن مثل هذه الخطوات الأولية إلى جانب صدور دستور جديد عام ١٩١٣ والـــذى بمقتضاه منحت البلديات المحلية لأول مرة بعضاً من السلطة، وتأسس المجلس التشريعى الجديد. كل ذلك جعل كثير من المصريين يعبرون عـــن تقديرهم لنظام حكم كتشنر بالرغم من القسوة التى اتصف بها. إنه لأمر محـــير كـــيف كتشـــنر الذى كان فى حياته الخاصة سيء السمعة لكونه نكد المـــزاج، شديد الوقاحة بدرجة لا تطاق لكل من حوله خاصة إذا ما افرط فى الشـــراب - كـــيف تمكن بطريقته ثقيلة الوطأة أن يقدم نفسه للمصريين بهذا الـــنجاح حتى أن الحرب عندما اندلعت عام ١٩١٤ كانت العلاقات بين مصر وبريطانـــيا على خير ما يرام. وأفضل بكثير مما كانت عليه فى أى وقت منذ الاحتلال.

(*) مـــنع هـــذا القـــانون رهن الأراضى للملاك الذين يحوزون على خمسة أفدنه أو أقل (المراجع).

## الفصل الثانى عشر

# الحرب والثورة

لقـد غـيرت الحرب وجه أوروبا، أما فى مصر فإنها لم تفعل سوى أنها كشـفت عـن تظاهرات ولطائف وتفاصيل دبلوماسية، أقرت بما كان واضحاً للعيان منذ زمن طويل بأن مصر قد أصبحت جزءاً من الممتلكات البريطانية بأبسـط الحقـوق وهو حق الفتح، وأن لندن ليس لديها النية فى أن تخفف من قبضتها على منطقة بمثل هذه الأهمية الإستراتيجية.

ففـى نوفمبر عام ١٩١٤ أعلن الأتراك الحرب على إنجلترا بعد أن نجح الألمـان بمهارة ولباقة فى كسبهم إلى جانبهم، وبعد ذلك بقليل ألغت بريطانيا العظمى السيادة التركية وأعلنت مصر محمية بريطانية. وقامت بعزل الخديو عباس حلمى وعينت مكانه عمه حسين كامل بعد أن منحته لقب السلطان.

وفى خلال أيام قليلة، قام جمال باشا أحد أبرز رجال تركيا باختراق سيناء علـى رأس حملة عسكرية لاستعادة مصر من الكفار، وقال لأصدقائه تملأه الـثقة: سـوف أعود من القاهرة بحراً غير أن التحصينات البريطانية على طـول القـناة صدت الهجوم، ولم ينهض أحد من الدلتا ليظهر أى علامة من علامات الثورة كطابور خامس كما كان يتمنى الأتراك. ولكن حملة الصحراء الـتى مضـت بطيـئة حتى عام ١٩١٦ لفتت الانتباه الشديد إلى القناة، وبأن مصر بالرغم من كونها محايدة من الناحية النظرية، سرعان ما وجدت نفسها وقـد اسـتقر بها الحال لتكون إلى جانب الحلفاء، فخلال شهور تحولت البلاد جمـيعها إلـى قاعدة كبرى للقوات البريطانية، كما أن الشعب المصرى كان بعـيداً عن تأثير الدعاية المنادية بوحدة العالم الإسلامى، ولم يبذل أى مجهود ليعلـن الـثورة لتأيـيد الأتـراك كما كانوا يتوقعون خاصة أن معظم الطبقة الحاكمة كانت من أصول تركية.

ومـن هنا استنتج توم ليتل Tom little أن حركة الوحدة الإسلامية لم تكن

فـــى حد ذاتها قوة محركة للعمل الشعبى فى مصر، ولكنها كانت آلة المقاومة المصـــرية بعـــد أن حرمـــت من قيادتها الوطنية التى أرغمت على البقاء فى الظـــل بسبب الإجراءات الصارمة التى فرضتها الحرب، لقد عملت جماهير المصـــريين بإخلاص من وراء الحكام البريطانيين حتى وجدوا فى النهاية أن الإسلام ذاته يقف إلى جانبهم ممثلاً فى شخص شريف مكة.

لقد أعطى البريطانيون كلمتهم أن المصريين لن يدعون للخدمة الفعلية فى الحـــرب، لكن سرعان ما تخلى البريطانيون عن وعدهم، وقاموا بتجنيد فيلق للأشـــغال الشـــاقة، فـــى أول الأمر كان التطوع اختيارياً، ثم بعد ذلك أصبح إجباريا. وربما كانت الأجور المرتفعة التى كان يدفعها الجيش البريطانى هى الدافـــع الأكبر الذى يفوق أى اقتناع بقضية الحلفاء أنفسهم، ولكن تبقى الحقيقة أن أكثر من ١٢٠,٠٠٠ مصرى شاركوا فى الخدمة العسكرية ليس فى داخل مصر بل أيضاً فى الحملات على غاليبولى، والعراق و ١٠,٠٠٠ خدموا فى فرنســا وقـــد تردد فى بعض الأحيان الرأى القائل أن مصر لم تفعل شيئاً فى الحـــرب ســـوى أنها ازدادت ثراء، غير أن ذلك رأى ملتو ولا يمثل الحقيقة. وبالـــرغم مـــن كل شىء لم يستفد من ذلك سوى رجال الأعمال من الجاليات الأجنبية أكثر مما استفاد منه المصريون أنفسهم.

ومـــع أكـــوام الذهب المتراكمة جاءت سيول من اللوائح المدنية أصدرتها مركـــز القيادة العامة البريطانى أغلبها يبدو أنه خطط لتحويل المصريين إلى بريطانييـــن، فقـــد صـــدر مـــثلاً حظر على نحر الخراف فى عيد الأضحى كأضـــحيات، وأن يحظـــر تقديـــم المشـــروبات فى المحال العامة إلا ما بين منتصف النهار حتى الثانية والنصف من بعد الظهر، وما بين الساعة السادسة والنصـــف حـــتى العاشرة ليلاً، كذلك يتذكر سكان مصر القديمة بشىء من الرهبة المتزايدة مجىء الأستراليين.

فجـــأة امتلأ المكان بأقوام لفحت الشمس وجوههم، يضعون فوق رءوسهم قبعات كبيرة من اللباد فى وضع مقلوب على أحد الجوانب، وكان تجولهم ليلا عـــبر شـــوارع القاهـــرة أشـــبه بفريق سباق القوارب الليلى. وكانوا يقومون

بغارات على الممتلكات، ويسابق بعضهم البعض فى شوارع القاهرة الرئيسية حــتى تخور قوى جيادهم، ثم يلعبون الكرة فى ميدان الأوبرا بطرابيش رجال البوليس فالسلطة لا تعنى لهم شيئا، وتذكر بريسيلا نابييه Prisilla Napier فى مذكــرات طفولــتها الــرائعة فى مصر: لقد كانوا أشبه بصبيان مستهترين انطلقــوا لأقصى درجة فى عبث صاخب لاحد له، فقد كانوا يسابقون بعضهم بعضا فى تسلق الهرم الأكبر والنزول منه، وخلال الأسبوعين الأولين سقط عشــرة منهم من فوقه ودقت أعناقهم، ولذا فرض حظر على ذلك، غير أنهم كرروا الاستعراض فوق هرم سقارة المدرج. لقد كانوا يجلسون أعلى عربات الــترام غــيرا آبهيــن بسائقى الترام المصريين وهم يتصايحون، ويدخنون، ويضـــحكون ويغــنون وباستمرار يصعقون أنفسهم بالكهرباء وكانوا يسابقون بعضهم البعض فوق حاجز الكبارى على النيل من أجل رهان ويسقطون من أعــلاه إلى النهر ويغرقون. وقبل أن يغادروا إلى غاليبولى ذلك اللسان البارز الحزيــن والــذى لم يعد منهم سوى القليل، قاموا بالإغارة على كل الحوانيت والــبارات الــتى كان بينها وبينهم ضغينة ودمروا تماما مبنى فندق « الضوء الأحمــر »، فقد كانوا يلقون بالأثاث وبالنزلاء من النوافذ، ثم أشعلوا النيران فــى المبــنى، ويقــول هــؤلاء الذين كانوا يعرفون المنطقة أن البركة (حى الأزبكية) لم تعد تماما كما كانت.

وإذا مــا قورنت بالصراع الشرس الذى كان يدور فى أرجاء أوروبا، فإن حــرب الصــحراء كانت أشبه برحلة سفارى، وتحولت مواخير القاهرة إلى أســطورة بيــن الآلاف مــن جنود الحلفاء الذين كانوا يتدفقون بشوق عليها لقضاء إجازاتهم القصيرة.

لقــد كانت تلك أيام القاهرة العظيمة التى ازدحمت بمروجى الأنباء من كل صــنف ونــوع ابــتداء مــن لورانس العرب وحتى رواية المرأة المشئومة Femme Fatale والــتى من الواضح أنها كانت على قمة الرواتب من جانب الألمان.

غــير أن هــذا الرواج والصخب لم يصل منه شىء لا لرجل الشارع أو

للفلاحيــن الكادحين فى حقولهم، والذين بدءوا يدركون - كلما زادت مطالب الحــرب - أن حمــيرهم وجمــالهم يستولى عليها، وقمحهم يصادر، بل أنهم أنفســهم كانوا يجندون للخدمة فى الصحراء مثلما كان الحال فى أيام السخرة فــى الأيــام الخوالى، وبالطبع كل شىء كان يدفع له مقابل من قبل السلطات الإنجليزية، غير أن كثيراً ما كان هذا المقابل يضل طريقه على يد فئة ماكرة مــن الــناس قبل أن يصل إلى جيوب مستحقيه، والذى لا مناص منه وقوع قدر كبير من الإجحاف.. كان يغذى الإحساس العام بالسخط على تلك الرقابة ذات الــبطش، وإجــراءات الأمن البوليسية التى وصلت إلى حد التعدى على حــرمة النســاء بطــريقة وصفتها جريدة التيمز The Times بأنها: الأكثر رعونــة، والأكــثر حمقا، والأقسى شراسة من أى بلد آخر وقع تحت الحكم الــبريطانى». أما عن حكومة السلطان حسين التى كانت كالدمية، فقد تعاونت دون أن تبالى، ولم يكن لدى الوزراء سوى القليل لوقف هذه التعديات، وكانوا مقتنعيــن تماما بإلقاء اللوم بسبب المصاعب والآلام زمن الحرب على عاتق البريطانييــن وبنهاية سنوات الحرب الأربع هبط البريطانيون فى نظر الناس مــن درجــة الحكــام الذين يخشى جانبهم، وينظر إليهم باحترام، إلى أناس مســتغلين يخاف الناس منهم، ويشعرون نحوهم بالكراهية كما عبر عن ذلك سيمون لاكوتير Simon Lacouture بقوله: «رجال شرطة قصيرى النظر فى أمــة متعطشة للحصول على حقوقها » فالكراهية تجاه الاحتلال وتجاه تدخل الأجانــب فىشــئون حياتهم اليومية وأن هؤلاء الأجانب يتحكمون فىبلادهم، ســرت حتىنخاع عظامهم.ولم يكن المتطرفون وحدهم الذين كانوا يتهامسون بل المصريون على كافة طبقاتهم يغنون:

**إنجلترا مصيبة نزلت علينا** — **بالقــوة سلبتنــا قمحنــا**
**وبالقــوة سلبتنــا ماشيتنا** — **وبالقــوة سلبتنــا إبلنــا**
**وبالقــوة سلبــت أبناءنــا** — **ولــم تترك غير الكفاف لنا**
**وحبــاً فــى اللــــه الآن** — **اتركــــونــا لحــالنــا**

ففــى مصر كما فى أى بلد آخر - برز دور الإنسان. والرجل الذى خطا

إلــى الأمام ليلعب دور المتحدث باسم مصر كان سعد زغلول، الذى لم يكن وطنــياً فحسب، بل كان إنسانيا Humanist وعبر عن مبادئه فى جمل بسيطة ولكــن بصـــورة رائعـــة. فذات مرة قال لصبى حمار كان ينهال ضربا على الحــيوان المســكين: إن الحــيوانات لا تــتكلم ولكـــنها تفهم، بينما الآدميين يستطيعون الكلام لكنهم فى غالب الأحيان لا يفهمون ».

لقــد أبقـــى ســعد زغلول غضب العناصر الوطنية تحت السيطرة طالما اســتمرت الحرب، وخلال ما بدا لهم أنه صيف من الغضب طويل و لا نهاية لـــه. كان دائماً يكبح مثيرى الشغب الذين كانوا يتحرقون لعمل شيء ما، أى شـــيء للتنفيــث عـــن مشاعرهم التى كانوا يكبتونها إزاء البريطانيين. ولكن أخـــيراً بعد يومين من عقد الهدنة، ترأس وفـــداً زار السير ريجنالد وينجيت Sir Reginald Wingate ليطلب الإذن لعرض قضية مصر من أجل الاستقلال علـــى لندن. وكان التوقيت يبدو مناسبا. فمبادئ السلام التى تضمنتها الأربع عشـــرة مـــادة الشـــهيرة والتى كان الرئيس ولسون قد أعلنها منذ وقت قليل، والإعلان الأنجلو فرنسى عام ١٩١٨ الذى قصد به تحرير البلدان التى كانت مـــن قـــبل تحـــت سيطرة الأتراك، وكذلك وعود البريطانيين لبعض البلدان العربية الأخرى، كل ذلك أعطى الإحساس بأن من المتوقع عقد صفقة جديدة فى الشرق الأدنى، وأن مطالب مصر القوية للاستقلال سوف يكون الأهم.

ومـــا بـــدا توقيته مناسبا فى القاهرة كان بالنسبة للندن على العكس تماما. فبيـــنما كانـــت الجالية البريطانية فى مصر - والأوروبيون عامة - يحتفلون بابـــتهاج بانـــتهاء الحـــرب بالألعـــاب النارية والحفلات الصاخبة، وقداسات صـــلوات الشـــكر، والاستعراضات، أقام اليونانيون والإيطاليون استعراضات للنصـــر، نافســـوا فيها بعضهم البعض، انتهت بالمصادمات بين الجانبين فى قصـــر النيل، إذ رفض كل فريق أن يفسح الطريق للطرف الأخر، مما تسبب عـــنه معـــركة شرسة فيما بينهم بينما كان الناس فى إنجلترا يحتفلون بعقد الهدنـــة بطـــريقة تتســـم بالوقار، فقد كانوا مشغولين بالدرجة الأولى فى لعق جـــراحهم، وجمـــع حطام حياتهم اليومية. فمن الناحية الفعلية كان لكل واحد خســـائره الـــتى كـــان يـــبكى علـــيها. فالمواد الغذائية كانت لا تزال توزع

بالبطاقات. وكل شيء فى حاجة إلى طبقة من الطلاء إن لم يكن أكثر من طبقة، لقد خرجت بريطانيا منتصرة من الحرب لكنها كانت فى حالة يرثى لها ومرهقة بعد أربع سنوات من المجهود المتواصل الشامل، وأصبحت الآن تواجه المشاكل الملحة التى تولدت عن السلام، فخريطة أوروبا يجب إعادة رسمها من جديد، كما يجب معاقبة ألمانيا ووضعها تحت الحراسة. كما كانت هناك مئات من القضايا الكبرى تنتظر الحل، ومن ثم فإن موضوع مثل مطالب مصر بالاستقلال كان يعتبر بالنسبة لتفكير المسئولين المرهقين فى الهوايتهول قليل الأهمية للغاية، إذ شعروا أنه ليس هو الوقت المناسب لمصر – محور الاتصالات فى الإمبراطورية وقاعدة بريطانيا الرئيسية فى الشرق الأوسط، وأكثر من ذلك أنها بلد أصبح ثريا من الحرب – أن تبدأ فى هز القارب. وبدت فكرة طلب الاستقلال بالذات فى وقت كانت فيه بريطانيا قد فرغت للتو من إنقاذها من غزو العدو لها، فكرة لا مكان لها بصورة تدعو للسخرية. وجاءت الإجابة من لندن وهو الرفض السريع وغير القابل للتفاوض.

وقد يكون لدى الهوايتهول بعض المبررات لذلك، ولكن كالعادة كان ينقصها التفاهم. هذا الرفض الجاف لم يؤد إلا زيادة تأجج النيران فى صدور الوطنيين. لقد كانت طريقة سعد زغلول الأولى لبقة، فقد قال "لوينجيت" إن إنجلترا هى أقوى القوى الكبرى، وأكثرها ليبرالية، وباسم هذه المبادئ التحررية التى تقودها نطلب صداقتها ولكن لما فشل فى تحقيق أى مطلب تقدم إلى الأمام بصيحة تردد صداها: الاستقلال التام(أو الموت الزؤام) » وفى اجتماع جماهيرى كبير قوبل برنامج الوطنيين بتصفيق حاد. كانت المادة الأولى منه هى إرسال وفد إلى لندن، ووفد آخر إلى مؤتمر السلام، ولما رفض ذلك مرة أخرى بالرغم من أن بلدانا صغيرة كالحجاز والحبشة مثلت رسميا فى المؤتمر وسمح لبلدان أخرى غير ذى أهمية بالحضور، وصل الإحساس بالمرارة فى مصر إلى ذروة الانفجار، وأرسل مذكرات تشرح وضع مصر إلى الرئيس ولسون، وإلى المسيو كلمنسو، Clemenceau(*)

(*) رئيس وزراء فرنسا.

وإلى السنيور أورلاندى Signor Orlandi(*)، وبالمثل إلى لويد جورج lloyd George(**) وفى مارس عام ١٩١٩ أرسل البريطانيون زغلول ورفاقه ليس إلى باريس ولكن إلى السجن فى مالطة.

وفى اليوم التالى انفجرت الثورة فى مصر، فقد جاءت الأنباء من أقصى البلاد إلى أقصاها بحدوث اضطرابات وأعمال تمرد ونهب، فقد نزعت قضبان السكك الحديدية، وحطمت القطارات وأعمدة التلغراف، وأضرمت النيران فى المبانى العامة، وتدفق الآلاف من الطلاب وتلاميذ المدارس وهم يهتفون بالشعارات، ودارت معارك ضارية فى بعض مدن الأقاليم مثل طنطا، ودمنهور، والمنصورة. وحوصر النزلاء البريطانيون فى أسيوط لمدة أسبوع. لقد كانت ثورة حقيقية بكل تفاصيلها وعنفوانها تشبه انتفاضة المجر عام ١٩٥٦، واستغرق الأمر أسبوعين من جانب الجيش البريطانى لكى يفرض سيطرته مستخدما العربات المصفحة والدبابات، وخلال هذه الأحداث لقى مائة من المتظاهرين حتفهم وجرح ألف آخر منهم، غير أنه خلال هذه «الهوجة» المفاجئة لم يرتكب سوى القليل من الأعمال الوحشية باستثناء ديروط حيث هاجمت الغوغاء قطارا وقتلت سبعة جنود بريطانيين بطريقة وحشية (مزقوا أحدهم إلى قطع صغيرة، وحمل الأطفال قطعاً منها تقطر دماً وداروا فى الشوارع يصيحون لحم إنجليزى للبيع!!). وانتقاماً لذلك نفذ حكم الإعدام فى ثلاثين مصريا. حقا أنه بالرغم أن بعض الوحدات البريطانية أطلقت العنان لمشاعرها بإطلاق النيران على الجماهير فى المليان بدلاً من إطلاق النار فوق رؤوسهم، إلا أن الجاليات الأجنبية التى كانت تتوقع أن تقع فى أى لحظة حمامات الدم، أصابتها الدهشة لمدى ضبط النفس الذى أظهروه، إذ همهم دبلوماسى فرنسى قائلاً: رداً على ما حدث أو ربعه أو حتى ذرة من مثل هذا التصرف لكان الفرنسيون حولوا القاهرة كلها إلى كوم رماد وربما لو قدر لهم لفعلوا ذلك أيضاً.

(*) رئيس وزراء إيطاليا.

(**) رئيس وزراء بريطانيا.

وإلى حد ما هزت هذه المشاعر الهوايتهول وأخرجتها عن انشغالها.

وقد حدث أن التقى لويد جورج بالجنرال اللنبى Allenby فى إحدى الحفلات (وكان فى ذلك الوقت فى قمة شهرته كفاتح لفلسطين)، واتخذ قراراً سريعاً بإرساله إلى القاهرة كمعتمد خاص لإعادة الأمور إلى نصابها. وكان أول تصرف قام به اللنبى هو الإعلان عن إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه من مالطة، وترك الأمر لهم ليسافروا إلى باريس، وعندئذ وبطريقة محيرة متقلبة المزاج لا يمكن أن تحدث فى أى مكان آخر إلا فى مصر، وجدت القوات البريطانية نفسها تستقبل بالتحية كلما مرت فى الشوارع حتى السلطان فؤاد الذى كان الناس يعتبرونه فى جيب بريطانيا - لقى تصفيقا هو الآخر.

لقد فاز الوطنيون فى الجولة الأولى بالنقاط، غير أن الصراع كان لا يزال مستمرا، فأحد الخصمين كان يريد إنهاء الحماية، والآخر كان يريد الإبقاء عليها وأصبح كل منهما يناور الآخر.ولقد أرادت الحكومة البريطانية كسب بعض الوقت بإرسال بعثة لتقصى الحقائق برئاسة اللورد ملنر Lord Milner والذى كان فى شبابه أحد نجوم الصحافة، وكان قد أرسل خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر لتسويق فكرة الاحتلال البريطانى، أما الوطنيون فقد أدركوا أن العنف رغم أنه مؤثر، إلا أنه يحمل المجازفة برد الفعل الذى قد يقضى عليهم، فلجأوا إلى المقاومة السلبية، وربما نقلوا هذه الفكرة عن غاندى، وبالفعل تحولوا إلى الإضرابات وأعمال التخريب والتباطؤ المتعمد فى العمل مما جعل البلاد فى حالة ركود. وعندما وصل ملنر ورفاقه إلى مسرح الأحداث، وجدوا كل مصرى قابلوه يبدو كما لو كان أصم وأبكم. وكانت المقاطعة للبعثة شاملة، فمثلا إذا ذهب أعضاؤها لحضور اجتماع، يعلن على الفور تأجيل انعقاده، وإذا تحدثوا إلى فلاح أدار ظهره لهم. وبعد ثلاثة شهور من هذه المعاملة عادت البعثة إلى لندن بخفى حنين، ولم يعرفوا سوى القليل عن مصر، لكنهم عرفوا الكثير عن الحركة الوطنية المصرية. وعندما أصدر ملنر تقريره، ظهر أنه قطعة من الخطابة المنمقة الجميلة بقلمٍ محترف، وبالرغم من تملقه للامانى الوطنية المصرية إلا أنه يبال بها تماماً، إنما اقترح فى الواقع استمرار الحماية بطريقة مقنعة مناسبة، ولمدة غير

محـــددة. وبالنسبة للقاهرة كانت قد ضاقت ذرعاً بالصبر، إذ بدا لها ذلك بأنه عـــودة إلى نفس الأسلوب القديم الذى كان من قبل، فنفس اللحم المفروم يقدم اليوم، ولكن مع تغيير مناديل المائدة، وأن أى وزير يحترم نفسه لن يقبل ذلك أو يقـــبل الـــتفاوض علـــى هـــذا الأساس، وحتى لو حاول فلن يجد التأييد أو المســـاندة. هكذا أصبحت مصر فى مزاج غير قابل للحل الوسط، وعلت نبرة الاستقلال التام بدرجة أعلى، وعندما أبعد أيضاً سعد زغلول الذى كان يجسد الحلـــم الوطنى والرجل الوحيد الذى كان فى مقدرته التحدث باسم مصر بقدر مؤثـــر مـــع رفاقـــه أعضاء الوفد ونفى إلى جزيرة سيشل Seychelles عندئذ انفجرت البلاد فى غليان من جديد واندلعت أعمال الشغب والإرهاب.

وعند هذا الحد كاد اللورد اللنبى الذى كانت لديه صورة أكثر وضوحاً عن الموقـــف أكـــثر مـــن رؤســـائه فى وزارة الخارجية يفقد صبره إزاء هذه الأعمال التى لا طائل منها، وتحمل المسئولية وخرج بخطة ألغى فيها الحماية وأعلـــن أن مصـــر دولـــة مســـتقلة دون أى شروط، وبعد تبادل سلسلة من البرقـــيات اللاذعة (والتى عرض فى إحداها استقالته) هرول عائداً إلى لندن حيـــث تحـــدث بنفســـه إلى أعضاء الحكومة وشرح لهم وجهة نظره، وكانت النتـــيجة الإعـــلان باستقلال مصر من جانب واحد وذلك فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ ولكـــن بـــتحفظات أربعـــة حددت بالفعل سيادتها وبقيت مسألة شائكة خلال الثلاثين سنة التى تلت(٢٠).

وبعـــد مـــرور شـــهر وبالتحديد فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ أعلنت مصر رســـميا كمملكـــة مستقلة، وأصبح من حق أحمد فؤاد أن يرتدى التاج، وولى زمن الحماية، وجاء عصر الاستقلال، وبدا بذلك كما لو كان نصراً لمصر أول نصـــر بالفعل حققه شعب على الاستعمار الأوروبى خلال القرن التاسع عشـــر. غـــير أنه لم يكن بالطبع فى حقيقته انتصارا قط: فالتحفظات الأربعة أعطـــت بريطانيا تبريراً لتوجيه دفة سياسة البلاد كما تمليه عليها مصالحـها. وأن تفـــرض نفوذها بوضع قوات فيها أينما يحلو لها، فالملك فؤاد نفسه جلس علـــى العرش بفضل وبجميل جعلاه رغم أنفه عميلاً لسياســـات لندن. وهذا جعـــل الوطنيين يتذمرون بحنق بأنه لا هو استقلال ولا حتى ارتباط متداخل،

إنمـــا هـــو بمـــثابة لطمة عنيفة براحة اليد استهزاء بتطلعات مصر، حقق لها مجرد احتلال متخفى يستمر تحت قناع الدستور، وكشف حقدهم عن نفسه فى زوبعـــة جديـــدة من الإرهاب، لا يسر أحدا بالمرة لأنه كان أساساً عبارة عن إطلاق النيران من الخلف على أفراد أبرياء من الإنجليز.

وفى اللحظة المناسبة، وعندما سمح لسعد زغلول لكى يعود، تحول التذمر إلـــى حمـــاس عندما انتهز ذلك القائد الوطنى الانتخابات المزمعة ليقدم نفسه كرئيس للوفد خاصة أن شعبيته بلغت فى ذلك الوقت درجة لم تبلغها من قبل. وهـــنا ظهر تأثيره الذى جعل البلاد كلها تسير من ورائه. فقد أعيد الوفديون بعد أن حظوا بتسعين فى المائة، ومن ثم أصبح سعد زغلول الذى صار بطل مصر غير الرسمى، أول وفدى أو وطنى يصبح رئيساً للوزارة.

وتصـــادف ذلـــك مـــع مجـــيء أول حكومـــة مـــن حـــزب العمال فى إنجلـــترا، فقـــد كـــان رمـــزى ماكدونـــالد Ramsay Macdonald يعلن دائماً وهـــو فـــى مقعـــد المعارضـــة أنـــه يؤيد استقلال مصر، وبدا ذلك كما لو كـــان فرصـــة معـــدة وجاهـــزة للتخلص من قوات الاحتلال، غير أن سعد زغلـــول اعـــتقد أن حكومـــة العمـــال ســـوف تخضع وتسحب قواتها، وهنا خـــاب ظـــنه، فقـــد أشـــار رمـــزى ماكدونـــالد إلى دستور ١٩٢٣ قائلاً أن ذلـــك قـــدم لمصـــر كـــل الاســـتقلال الـــتى كانت فى حاجة إليه فى الوقت الحاضـــر. ولمـــا وضـــعت العراقـــيل أمـــام هذا المطلب، غير زغلول فى أوراقـــه إذ فجـــأة تحـــول ذلـــك الزعـــيم الوطنى إلى زعيم استعمارى فقد طالب بالسودان.

## الفصل الثالث عشر

# نظرة سريعة على السودان

كـــان المصــــريون دائماً مسحورين بالسودان، فهو بالنسبة لهم ليس مجرد جار فى الجنوب، على وفاق معه أو غير ذلك، ولكن بالنسبة لمناطق الأعماق الـــتى يكتـــنفها الغموض والتى يأتى منها النيل فهى: تذكار أبدى وملزم بأن مصـــر ذاتها هى هبة النيل. فلو قدر لمياه الفيضان ذات اللون الذى يميل إلى الحمـــرة أن تعجز عن الظهور فى مجاريها فى وادى حلفا، فإن الدلتا بأكملها تصـــبح أرضاً قفر كالصحراء المحيطة بها. ولذا فإن الصيحة " وحدة وادى النيل " ليست مجرد ألعوبة غوغائية Spiel كان يحلم بها مصطفى كامل إنما شوق قديم قدم التاريخ نفسه.

وبـــلاد الســـودان كمـــا كانت تسمى – هى فى نظر أغلب المصريين تلك الـــبراري الشاســـعة المقبضـــة، شديدة التشبع بالبخار، جمع الثروة فيها غير مضـــمون مـــثل ضربة الحظ فى اليانصيب، وذلك لمن يغامر بالذهاب إليها بحـــثا عن الثروة من خلال الحرارة والمشقة والخطر. وبالنسبة لعقلية القرن التاســـع عشـــر كان للسودان نفس الجاذبية التى هى للقمر اليوم بالنسبة لمن يمتلكون روح المغامرة والإقدام. فقد بعث إليها محمد على بحملات بحثاً عن الذهب والعاج والرقيق، كما أن سعيد قام بزيارة رسمية لها، وورث إسماعيل عـــنهما مليون ميل مربع من المناطق المجهولة، وفكر وقتها فى ضم المزيد منها. ولذا فقد أرسل السير صمويل بيكر Sir Samuel Baker على رأس حملة مصـــرية إلـــى مناطق أعالى النيل، بل عين ثم فيما بعد الكولونيل جوردون Colonel Gordon حاكمـــاً على منطقة ذات اتساع يعادل اتساع عدة بلدان من بلـــدان السوق الأوروبية المشتركة إذ ضمت مجتمعه، وتمتد من أسوان حتى خط الاستواء، ومن البحر الأحمر إلى الحدود الغربية لدارفور.

وتحـــت رعاية إسماعيل، كان جوردون مطلق اليد فى السودان، وتمكن بأســـلوبه المتقلـــب والمتفاني من اجتياز هذا البلد الشاسع من فوق ظهر جمل بطـــريقة تتســـم بالكفـــاءة والمثابرة التى لم تتوقف. لكن طبقة الموظفين التى

قويــت شــوكتها فــى القاهرة بعد عزل إسماعيل، بدأت على الفور فى قص أجنحته. وفى عام ١٨٧٩ استقال جوردون من وظيفته كقائد عام وحاكم على الســودان وهــو مســتاء، وحل محله رؤوف باشا وهو رجل تركى من أسوأ أنواع البلطجية، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وقد بلغت قسوته وفساده حداً جعــل الســودانيين لا يطــيقونه، ومن ثم بدأوا يتدفقون إلى جانب شخصية مــتطرفة تعــيش فى إحدى جزر النيل، وقد همس للمقربين إليه بأنه المسيح المنتظر. فقد كان لهذا الداعية المحارب نصفه طبيب ساحر، ونصفه الآخر رجــل مظهرى، بلحيته المدببة السوداء له تأثير السحر على أتباعه فقد دعى إلى تطبيق تعاليم الإسلام الصارمة، وبسيل جارف من الخطابة حثهم على « طرد الأتراك المكروهين إلى البحر ».

ويقــول عــنه ليــتون ســتاركى Lytton Starkey: كــان لحضوره مهابة خاصة.. عيناه مكحلتان تشع منهما النيران بطريقة غير عادية.. وعندما كان يــرفع صــوته للصــلاة فى خشوع كانت الآلاف تحس بأن أبواب السماء قد فتحــت وأنهــم أقــرب مــا يكون إلى الله. كانت طبول الحرب تدعو بدقاتها المشــئومة الجمــوع إلــى حمل السلاح وترفع الرايات الخضراء والحمراء والسوداء فوق الحشود. عندئذ يتقدم الجيش العظيم إلى الأمام ".

وفــى نفس الوقت وعلى نحو لافت للنظر، ولنفس الأسباب التى من أجلها انقلــب عــرابى والوطنــيون على الحكم التركى – المصرى فى مصر، بدأ المهــدى ثورتــه فى السودان. وفى البداية لم يأخذها الباشوات ومستشاريهم البريطانــيون مــأخذ الجد، فقد كان يكفيهم ما لديهم من مشاكل كان عليهم أن يواجهوهــا فــى مصر بكل الطرق، ولكن عندما سقطت سنار أولاً، ثم تلاها «الأبــيض » فى يد الثوار، أصبح واضحاً أنه يتوجب عمل شيء. ولكن ذلك لــم يكــن بالأمر السهل على الإطلاق فى ظروف كانت البلاد تعانى فيها من نقــص فــى الأموال والرجال، وأخيراً أرسلت حملة لجس النبض كان أغلب رجالها من أتباع عرابى القدامى الذين أطلق سراحهم من السجون وبعث بهم إلــى أعالى النيل تحت قيادة ضابط إنجليزى لقمع هذه الثورة. لقد كان جيش الكولونــيل هكــس Hicks المــتداعى محــتوم عليه بالهزيمة منذ البداية فى مواجهــة الحمــاس الدينى لحشود المهدى. وأخيراً عندما تسربت الأنباء أن

الحملة قد ذبحت لأخر رجل، اشتعل الرأى العام فى إنجلترا غضباً. وبرزت مدرســتان للفكر: أولهما هو الجلاء عن السودان وتركها لتستوى فى سليقتها، أمــا الثانــية التى تبنتها الصحافة الشعبية، فقد طالبت باتخاذ عمل صارم لرد الاعتبار للكارثة التى لقيها هكس.

فــى تلــك اللحظة تذكر محرر جريدة يومية الحاكم العام السابق، فظهرت المانشــتات بكل وقار تقول أن جوردون هو الرجل الذى يجب أن نرسله إلى الخــرطوم. فبخــبرته الشاســعة فــى السودان يعرف كيف يعيد الأمور إلى نصــابها. وعــندما أجريــت معــه مقابلــة فى لندن وافق الجنرال، فقد كان ضرورياً اتخاذ خط صارم.

وفــى مواجهة هذا الصخب عما يجب القيام به لإنقاذ حامية بلد أجنبى من ثــورة قام بها بلد أجنبى آخر، راحت الحكومة تدور وتلف. وكان جلادستون قــد هــداه تفكيره لاتخاذ قرار بالانسحاب من السودان، غير أن الرأى العام يجــب أن يعمل له حساب، ومن ثم وافق على خطة وسط بالرغم من أن ذلك كان يتعارض مع حكمة الأفضل، غير أن الجنرال الذى شاعت شهرته العامة كمؤيــد لاتخاذ إجراءات صارمة، أرسل لينفذ عكس الخطة المرسومة تماماً، فقد كانت مدة صلاحيته أن يضع حداً للأحداث فى السودان وأن يقوم بإجلاء المصريين والأوروبيين بأسرع ما يمكن.

وما تلا ذلك هو القصة الأسطورية لجوردون الخرطوم.. قطعة من روائع التراجــيديا الإغريقــية ومعهــا مقومــات روايــة ناجحة لمغامرات الغرب الأمــريكى. فما أن عاد إلى مقره القديم، حتى بدأ جوردون يعيد الأمور إلى نصــابها بقــدر ما استطاع. فقد خفف من الضرائب، وأطلق سراح السجناء، وألغــى الــتجاوزات المخــزية الــتى جلبــتها إدارة رؤوف، وبالمثل التزم بالتعلــيمات التى صدرت إليه وأعلن أنه سيتم الجلاء عن السودان. ولكن بعد ذلــك طبقاً لأصدق تقاليد المدارس الراقية، أقسم أنه لم يترك الخرطوم حتى تعطــى كــل القــوات المصرية فى الأقاليم المترامية الفرصة للانسحاب إلى مناطق آمنة. وفى أثناء ذلك كان المهدى وجيوشه الجرارة يتقدم. وحاصر أم درمان، وقطع خطوط التلغراف، وبهذا حوصر جوردون فى الخرطوم ومعه

حفنة من قوات الحامية و ٣٠،٠٠٠ من السكان المدنيين.

ومرة أخرى آثار الرآى العام فى إنجلترا الحكومة، ولكن فى هذه المرة من أجل إنقاذ جوردون نفسه. وكانت الحكومة تشعر بشكل غير واضح أنه لو كان فى موقف صعب، فذلك خطؤه تماماً، بل فى الحقيقة ساورها شك بشىء من السخط إلى حد ما أنه كل ما حدث من تدبيره لكى يضغط على الحكومة لكى ترسل حملة إنقاذ. وتبادلت إرسال واستقبال البرقيات مع اللورد كرومر فى القاهرة ماذا يحدث فى الخرطوم؟ وقالت الهوايتهول لو أن الجنرال جوردون يستمر فى البقاء هنا، فمن الضرورى عليه أن « يحدد لنا السبب ونواياه التى تجعله يستمر على هذا الحال » ولما هرب إليه هذا التساؤل البيروقراطى من وراء خطوط العدو تمكن من تهريب الرد على هذا الطلب بقوله: " إنكم تطلبون منى أن أوضح السبب والقصد من بقائى فى الخرطوم ولأنى أعرف أن الحكومة تقصد أن أغادر السودان، وللإجابة على ذلك أقول: أنا باق فى الخرطوم لأن العرب ضربت من حولى الحصار ولم تدعنا نفلت منه.

ولمدة أطول استمرت الحكومة فى وضع القضية على الرف حتى عبرت الملك فكتوريا فى النهاية عن آرائها الخاصة وآراء البلاد بشكل واضح إلى وزارة الخارجية، فقد قالت للورد هارتنجتون: " إنك ملزم بإنقاذه! " وهنا اتخذ جلادستون الذى ساءه أن يشهر جوردون بالحكومة بمثل هذه الطريقة خطوة، إذ عين اللورد وولسلى Wolseley بطل معركة التل الكبير لقيادة حملة من أجل إنقاذ الجنرال.

وبقدر محتوم لا مفر منه بدأ الفصل الأخير من المأساة يرفع الستار عنه ببطىء. فمن فوق قصر الحكم فى الخرطوم راح جوردون يمسح الأفق دون توقف من خلال منظاره المكبر بحثاً عن أول بادرة إنقاذ قادمة. وبطريقة ما جعل الحياة اليومية تسير داخل المكان بالرغم من النقص الحاد فى التموين لدرجة أنهم اضطروا إلى أكل كل حيوان حى بما فى ذلك الحمير والقطط والكلاب، والفئران، بل وحتى القرود. وعلى الجانب الآخر من النيل فى أم درمان كان جيش المهدى ينتظر بتلهف شرس أن تستسلم المدينة الجائعة،

ولم يكن المهـــــدى (لو صدقنا الأسرى الأوربيين) مستعجلاً متلهفاً لحدوث ذلك، إذ لم تكن حياته الخاصة تخضع لهذه القيود المزعجة فى مخالفة التعاليم الصـــارمة التى أصدرت باسم الإسلام، والتى طبقها بقسوة على أتباعه الذين كانوا عرضة للجلد حتى الموت بكرباج مصنوع من جلد وحيد القرن لمجرد ارتكابهم ذنب شرب الخمر أو التدخين أو التنابذ بالسباب، إذ كان يقضى أيامه مضـــجعاً علـــى وسائد مطرزة بخيوط الذهب، ويقوم على خدمته ثلاثون فتاة فـــى مقتـــبل العمر، وهن يهززن المراوح المصنوعة من ريش النعام لتهويته مـــن الحر، ويقمن بتدليك أطرافه لإحداث نرفانا لذيذة، ولا تقطع ذلك إلا من حين لآخر عندما يخرج للصلاة أو لترأس مجلس الحرب.

وفى أثناء ذلك كانت قوة الإنقاذ تشق طريقها ببطىء، بل ببطىء ممل فى اتجـــاه أعـــالى النـــيل. فقد وصل اللورد وولسلى إلى القاهرة فى التاسع من سبتمبر، وبعد قضاء ثلاثة أسابيع فى فندق شبرد انطلــــق تجاه وادى حلفا، بعـــد أن توقـــف لبعض الوقت فى أسوان لينقب عن الآثار، وعند نهاية شهر ديسمبر، وصلت الحملة إلى كورتى korti وعند مقترب منتصف يناير أصبح علـــى مشارف الخرطوم. وفى السابع عشر من يناير وقـــع أول اشتباك مع الســـودانيين، وضاعت منه أياماً غالية وهو يصلح المراكب والإشراف على حـــل المعضـــلات. ويقول اللورد وولسلى أنه كان يرى أن جوردون لا يزال خـــارج نطـــاق منظاره المقرب، وأن أياماً تزيد أو تنقص لن يتغير من الأمر شيئاً، وأن جوردون صمد فى الخرطوم عاماً كاملاً ومن ثم ففى استطاعته أن يصمد لوقت قليل آخر.

كـــان فـــى الإمكـــان أن يبقى المهدى يمارس النيرفانا، ويبقى جوردون محاصراً لو أن أنباء حملة الإنقاذ البريطانية لم تصل إلى السودانيين بتاتاً فى وقت كانت فيه مياه النيل فى أدنى مستوى لها حتى أن شواطئه الطينية جعلت عـــبوره سهلاً. وفى فجر ٢٦يناير ضرب المهدى ضربته فقد اجتاحت جموع الدراويـــش وهـــى تتصايح الاستحكامات لتدخل الخرطوم. وعندما سارعت بواخر حملة الإنقاذ أخيراً إلى جنوب النيل فى اليوم التالى كان كل ما وجدوه حطامـــاً يتصاعد منه الدخان، ولا يعرف أحد عما إذا كان الجنرال جوردون قـــد رصـــد قدومهـــم بمنظاره المقرب، لكن الشيء المؤكد أن الحملة عندما

وصـــلت إلـــى الخرطوم وجدت رأس جوردون لا تزال تقطر دماً موضوعه فوق حربه خارج خيمة المهدى. لقد وصل وولسلى ولكن بعد فوات الأوان.

وفـــى مواجهـــة العجز عن القيام بحملة لتطهير البلاد كلها، لم يكن أمامه شـــىء سوى أن يعود أدراجه ويسدل الستار عن السودان. ولذا تركت (بلاد الســـود) لمآربهـــا لمـــدة خمـــس عشر سنة تلت والتى كما يستدل من الأنباء المـــتفرقة الـــتى تســـللت إلـــى العالم الخارجى، كانت بالكاد تحدث السرور للسودانيين.

غـــير أن المهـــدى لم يستمتع بانتصاراته لوقت طويل، فبعد مرور خمسة شـــهور مـــن ســـقوط الخرطوم مات أما عن طريق وضع السم له من قبل حـــريمه أو كنتـــيجة للإغـــراق فـــى ملذاتـــه: وتولى من بعده قائد جيوشه «الخليفة»(*) الذى إلى جانب قيامه بدور المهدى، بدأ عهداً من الإرهاب على الفور أشد سوءاً مما شهدته الأيام السابقة وهذه (البربرية) انطلقت من عقالها بـــلا ســـيطرة علـــيها لـــتدخل القرن العشرين، لكن بالنسبة لحمى الاستعمار المســـتعيرة فى التسعينات من القرن العشرين فقد كانت القوى الأوروبية كل تمســـك بعـــنف الأخـــرى فى صراع دولى للسيطرة على الأراضى. فقد بدأ الألمـــان يـــتحركون نحو شرق أفريقيا والإيطاليـــون نحو الحبشة، ولو لم يتخذ البريطانيون خطوة نحو السودان لربما كان الفرنسيون قد فعلوا ذلك[٢]. وفى عام ١٨٨٥ استبدلت حكومة حزب الأحرار برئاسة جلادستون بحكومة محافظة قوية كانت على استعداد للثأر لمقتل جوردون، كذلك أن فشل كل من هكس وولسلى، خاصة أنه قد أشيع أن لدى الخليفة خطط لغزو صعيد مصر.

لا يوجـــد شـــىء يصور التلاحم الإنجليزى المصرى الغريب أكثر من إعـــادة فتح السودان عام ١٨٩٨ تحت ادعاء أن الوقت قد حان لإبعاد الخطر عـــن حدود مصر الجنوبية. فقد تقدم الجنرال كتشنر، بصفته سيردار الجيش المصـــرى، وباسم سلطان تركيا، ولكن منفذاً للأوامر الصادرة إليه من لندن، وبـــتمويل مـــن الخزانة المصرية تقدم جنوباً على رأس جيش أنجلو مصرى

(*) يقصد عبد الله التعايشى خليفة المهدى (المترجم).



إيرل كتشنر الخرطوم يرتدى الزى العسكرى كسردار الجيش المصرى فى السودان - وقد اشتهر عند الإنجليز بأنه بطل الخرطوم الذى سحق الثورة المهدية فى معركة أم درمان عام ١٨٩٨
(مجموعة مانسيل فى لندن)

ليتأكد أن السودان أصبح بريطانياً وليس فرنسياً. ولقد استغرقت حملة كتشنر مـا يقـرب مـن عامين لكى تصل إلى الخرطوم. وكان يقيم خط سكة حديد صـحراوى وهـو فـى توغله حتى وصل إلى بربرة Berber، وعلى مسافة مسـيرة خمس ساعات فقط ليسحق الخليفة فى السهل المقفر خارج أم درمان. لقد كانت معركة غير عادية وذلك لأن أربعة ألوية أنجلو مصرية تحت قيادة ضـباط أكفـاء تمكنت من سحق ٤٠,٠٠٠ درويش تماماً، مخلفة من ورائها عشـرة آلاف قتيل مقابل خسائر بلغت ١٧٥ بريطانى، ٢٧٣ مصرى ما بين قتـيل وجريح[٢٢]. كذلك قامت الكتيبة المعروفة باسم اللانسر Lancers والتى كان من بينها الملازم و.س تشرشل بهجوم مثيـر للعجب (ولكن ربما لم يكن ضـروريا) مـن قـبل سلاح الفرسان. وفى النهاية سار كتشنر فوق صهوة جـواده المعد للقتال إلى الخرطوم، حيث آخذ تأره لمقتل سلفه بطريقة مروعة لافـتة للـنظر، إذ أمـر بنبش قبر المهدى، وبعد أن فصل رأسه ألقى به فى النيل، وأخذ رأسه لنفسه ليصنع منها محبرة، ولما علمت الملكة فيكتوريا بذلك التصـرف صـدمت بشدة، وعبرت عن ذلك بقولها: إن مثل هذا التصرف كـان مستسـاغاً بشدة فى العصور الوسطى فقط ولما أدرك كرومر بشاعة الفعـل الذى قام به كتشنر، دبر فى الوقت المناسب اخفاء الجمجمة بعيداً عنه ليأمر بدفنها بهدوء فى وادى حلفا.

ومـنذ تلـك اللحظـة رفـرف العلمان البريطانى والمصرى فوق الخرطوم، ولكـن كـان جلـياً مـنذ البداية أن إنجلترا كانت تنوى إطلاق يدها فى السودان تمامـاً مـثلما كانت الإدارة البريطانية تفعل فى مصر – متخفية بمهارة تحت اسم « السـيادة الثنائـية المالية » Financial Condominiun وبذلك أعلن ضم السودان إلـى حـوزة الإمـبراطورة البريطانية سياسياً فى شكل الحكم الثنائى. وفى ١٩ يـناير عـام ١٨٩٩ تم التوقيع فى القاهرة على واحدة من الألاعيب القانونية التى سـعت بلطـف إلـى إعطـاء الإيحـاء للاستجابة للمطالب التى أصبحت مطلباً شـرعياً لحكومـة جلالة ملكة بريطانيا بحق الفتح، وهذا فى الحقيقة وضع مصر وبريطانـيا فـى حالة صدام حول الحقوق الخاصة بكل منهما. إن حكم الخليفة لم يعيـث فـى البلاد كلها فساداً فحسب، بل أنه قضى على كل آثار الحكم المصرى القديـم. وبذلـك أسسـت إدارة بريطانـية خاصـة عرفت باسم « إدارة الخدمة

المدنـــية الســـودانية » Sudan Civil Service، وبذلـــك أصـــبحت الإدارة فى تزايد لتصـــبح أكـــثر « بريطانية » وأصبحت المساهمة المصرية فى النهاية ذات تأثير رمزى يماثل السيادة التركية على مصر ذاتها.

لـــم يكـــن هناك أدنى شك فى كفاءة الإدارة الجديدة، فمن أرض قفر كئيبة (بلـــغ دخلهـــا بالكـــاد عـــام ١٨٩٨ حوالى ٣٥،٠٠٠ جنيه إسترلينى مقابل ٢٣٥,٠٠٠ جنـــيه أنفـــق علـــيها) إلى سودان مزدهر قابل للنمو الاقتصادى مستقلاً تماماً عن مصر. لكن إحساسهم بأنهم قد أزيحو جانباً بعد أن ساهموا بأغلـــب الـــرجال والأموال لإعادة فتح السودان لكى تتمكن إنجلترا من إقامة اتصال آخر فى مسيرتها الاستعمارية من القاهرة حتى رأس الرجاء الصالح، كـــان أمـــراً يثير ضيق الصدر بشكل متزايد لدى الكبرياء الوطنى، حتى ولو من وجهة نظرى الخاصة رغم أن المصريين ربما يفضلون الابتعاد كلية عن السودان المتقد حرارة، إلا أنه لا يزال فى نظرهم هو تلك الأرض التى يتدفق مـــنها نهر النيل واهب الحياة لبلادهم. ومنذ اللحظة التى أطلق فيها مصطفى كـــامل صيحته: « وحدة وادى النيل » أصبحت المطالبة بالسيادة الكاملة على الســـودان جـــزءاً لا يتجزأ من الأمانى الوطنية تماماً مثل الجلاء عن مصر ذاتها.

ومـــن ثم، عندما شعر سعد زغلول بالإحباط من الطريقة التى خدعت بها مصـــر بإعلان عام ١٩٢٢، من الأمل المفعم بالثقة للحصول على الاستقلال إلـــى نـــوع من الاستقلال الناقص الزائف، فقد بدأ يضغط للحصول على ما اعترفـــت بـــه لندن وهى متمنعة « بالحقوق الطبيعية والتاريخية لمصر على نهـــر النيل ». بالرغم من أن سعد زغلول كان يقصد فعلاً السيادة الكاملةعلى الســـودان، وهـــنا تركـــز الصراع على رجل واحد بدرجة تثير الإرباك وهو السير لى ستاك Lee Stack بصفته " سيردار " على السودان وفى نفس الوقت القـــائد الأعلـــى للجـــيش المصرى. فقد كان يتمثل فى منصبه ليس أكثر من إيماءة ضعيفة تجاه حقوق مصر كما كانت ترغب فيها، بينما كان يميل بشكل رمـــزى واضح كل الوضوح لخضوع مصر للتاج البريطانى. وعندما اشتكى ســـعد زغلـــول أن قـــائداً أجنبـــياً أعلى لقوات الجيش المصرى: «فى وضع بـــتعارض مع كرامة مصر المستقلة » ردت وزارة الخارجية ببرود أن ذلك

قد وضع السردار « فى وضع صعب » ولكن لما حول سعد زغلول هجومه الدبلوماسى نحو السودان، وواجه الشخص التعس، أصبح موقف السير لى ستاك ليس صعباً فحسب، ولكن شديد الخطورة خاصة عندما ترامى إلى أسماع البرلمان بمجلسيه عبارة أن بريطانيا العظمى « ليس فى نيتها مغادرة السودان تحت أى ظروف كان »، فقد كان ذلك دعوة مفتوحة لوضع الأصبع على الزناد، ففى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٢٤ بينما كان السير لى ستاك يقود سيارة من مكتبه فى وزارة الحربية عائداً إلى منزله فى أرض الجزيرة، تلقى وابلاً من الرصاص أطلقها سبعة من الرجال يرتدون زى الطلاب، وفى خلال ساعة من إطلاق الرصاص سارع سعد زغلول مذهولاً إلى دار المعتمد البريطانى ليعبر عن آسفة وفزعه غير أن ذلك لم يجدى شيئاً.

وهنا قام اللورد اللنبى الذى وصفه ويفل Wavell بأنه جنرال متفجر An Explosive General بالسير وهو فى زيه العسكرى الكامل إلى المجلس. وسلم إنذاراً كالرعد طالب فيه بتقديم اعتذار رسمى، وإجراء تحقيق شامل لحادثة الاغتيال، وحظر كل المظاهرات السياسية ودفع غرامة تعويض قدرها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى والانسحاب الفورى لكافة القوات المصرية من السودان، وتحويل مياه النيل للقيام بمشروعات للرى فى السودان، وأحكام قبضة بريطانيا على وزرات العدل والمالية والداخلية. وعندما رفض المجلس الشروط الثلاثة الأخيرة « والتى كان لها علاقة ضئيلة على آية حال بالمأساة »، قامت القوات البريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية وفرضت نفس التعليمات على السودان ذاته.

لقد كان الوضع خطيراً أن تفقد مصر استقلالها ومعها السودان، ولذا اتخذ سعد زغلول الخطوة الوحيدة التى كان يقدر عليها وهى تقديم استقالته. وقام الملك بحل البرلمان الذى كان يسيطر عليه الوفد، وتشكلت حكومة إمعة تحت رئيس وزراء من اختيار القصر وهو زيوار باشا، الذى كان بديناً للغاية.

ونفذ حكم الإعدام فى عدد من قيادات الوطنين وعندما عادت كل الأطراف المعنية لى ثوابها كان واضحاً أنها كانت سحابة صيف قد انقشعت،

وبذلك أسدل الستار عن الفترة الثورية التى بدأت عام ١٩١٩.

لقد حصلت مصر على صيغة رمزية للاستقلال بمعنى أن أحمد فؤاد كان مـن الناحـية الظاهرية ملكاً على مملكة مستقلة، وأصبح سعد زغلول ومن ورائـه كـل آمـال وتطلعات المصريين صعيداً تحت تهمة أنه المسئول عن الموجة الإرهابية عامة، إن لم يكن المسئول الفعلى عن اغتيال السردار. ومن ثم أصبحت بريطانيا ممثلة فى اللورد لويد Lloyd تمسك تماماً بزمام الأمور، وخـلال السـبع والعشرين سنة القادمة سيطر على المسرح السياسى صراع مثلث الأضلاع بين المعتمد البريطانى، والقصر، والوفد.

الفصل الرابع عشر

# الصراع الثلاثى للقوة

تعـني كلمة (وفد) الممثلين المفوضين، وهو فى نشأته كحزب سياسى كان أمـراً غريبا، غير متبلور على نحو نموذجى "كاليخنى " الطبق الشعبى بدءاً مـن الشربة الخضراء المعصجة المليئة بالتوابل صعبة الهضم والتى يضاف إليها كل شىء: تلال من الأرز، الدجاج، ولحم الضأن، والزبيب، والخل وكل مـا يجـده الطباخ لديه(*). فقد كان الوفد خليطا من كل الجماعات السياسية، لسـان حـال الطـبقات المختلفة لكل الشعب، فقد اشتمل على – حد كلمات لاكوتـير Lacoutures – « كل من جاد بنفسه كالمثقفين، والمشوشين فكريا، والأنـاس الطيبيـن سليمى الطوية، والمتناقضات وحب المبالغة والإفراط فى التخيلات للملايين من مؤيديه».

لقـد كان الوفد استكمالاً لمنهج سعد زغلول (الزغلولية) Zaghloulis، فقد كـان سـعد زغلـول هـو كاهنه الأكبر. كما أنه نبع من ينبوع الصراع مع المعـتمد الـبريطانى، ولـم يكـن لديـه سياسة واضحة سوى التخلص من البريطانيين، كذلك لم يكن للوفد لون سياسى معين، فلم يكن من الأحرار ولا الاشـتراكيين، ولا حـتى أى مذهب يمكن تحديده، ولكنه لكل الناس كان كل شـىء، إذ أن تعدديته الديموقراطية جذبت إليه الناس من سائر الطبقات: من أكـبر مـلاك الأراضى، وأفقر الفلاحين، وأشد الغوغاء ميلا للإثارة. وأكثر المثقفيـن ميلا للتفكير الهادئ. كل طرف انجذب إليه مدفوعا باعتقاداته حول الشـكل الـذى يجب أن تكون عليه القضية الوطنية وما يمكن اصطياده من أسماك البركة.

وعلـى مدى ثلاثين عاما كان يلعب دورصمام الأمان للكبت العاطفى، فقد

(*) الكلمـة التى وردت فى النص هى الملوخية Molochia واعتقد أن ما يقصده المؤلف هو اليخنى لأن تفاصيل الوصف هى التى تنطبق على ما يقصده المؤلف.

كـــان مـــيدانا آمـــنا للصيد للبشوات، إذ لم يكن لديه جناح يسارى ينحاز إليه بعــض الأعضـــاء، بل ساحة للاحتجاج ذى الضجيج يستطيع من خلاله أدنى الفلاحين وضعا أن يجد فيه بعضا من أمانيه المشوشة، ونقمته وسخطه، حتى الشـــباب المـــيال إلى اليسار والمثقفين وجدوا أنفسهم يخطبون «ديما جوجية» ســعد زغلـــول ومصـــطفى النحاس غير المعقدة، وكلاهما جاءا من خلفيات فلاحـــية، وبذلك كان فى استطاعتهم اللعب بأمزجة الجماهير على نحو بارع، ولكـــن بسبب عدم وجود نظرية أو برنامج محدد كان الوفد دائم الاندفاع، وله تأثـــير كبـــير وله نفوذ عندما يكون فى المعارضة. وفى كل مرة تجرى فيها انـــتخابات حرة يعود الوفد بأغلبية ساحقة، وراح يشق طريقه بصعوبة، ثم بدأ الجانـــب المظلـــم مـــنه فى الظهور، فقد كان قادته مهتمين بلا مواربة بجمع الـــثروات بشتى الطرق والوسائل الممكنة حتى أصبح فساد الوفد نكات تتردد فى قاعات الموسيقى. وتابع الناس فى المقاهى والبارات غرائب حرم النحاس باشـــا وأســـرتها خـــلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين بضحك كالـــبكاء، كما أن صورة الوفد لم تتحسن كثيرا بسبب النزاعات المستمرة بين قادتـــه، وبسبب الأحزاب التى انشقت عنه. كان الوفد ببساطة فى المعارضة ثلاثـــة أربـــاع الوقت، فمن ناحية غرر به القصر بدهاء ليبقى خارج الحكم، ومـــن ناحـــية أخرى فعل البريطانيون نفس الشىء وكلاهما لم يطق بقاءه فى الحكـــم إلا عند الضرورة كما حدث عام ١٩٣٦ من أجل التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ بيـــن إنجلـــترا ومصر.، وكذلك فى أكثر الأوقات حرجا وخطورة فى الحـــرب العالمـــية الثانـــية وذلك للحصول على ثقل التأييد الجماهيرى خلف الحكومة.

إن مثل هذه المنـــاورة ضد حزب يمثل الأغلبية - إن كان ممكنا بالمرة - تفســـره حقـــيقة أن إعلان ١٩٢٢ الذى جعل من فؤاد ملكا على مصر، كان بمـــثابة عـــودة زمـــام السلطة إلى أسرة محمد على، فطبقا للدستور كان لدى الملـــك ســـلطة تعييـــن رئيس الوزراء وتعطيل البرلمان، ومثل أغلب الملوك الذيـــن يحكمون دون موافقة شعوبهم، كان ينظر إلى الوفد وجماهيريته بعين الشـــك لأنه كان يعلم أنه فى أعماقه جمهورى الهوى، وعاطفيا يقف فى وجه

المعارضـــة للقصر ولطبقة الباشوات المميزة الذين كانوا رجال الملك. وكان نفوذ القصر والباشوات يضمنه وجود الحاميات البريطانية، وأن يكون الجيش المصرى تحت قيادة كبار الضباط البريطانيين، وكان فى مصلحة القصر كلية أن يعقـد اتفاقـا صلبا وطويل المدى مع إنجلترا، وطوال فترة خلط الأوراق الــذى لا طــائل منها فى السياسة المصرية خلال العشرينات والثلاثينات من القــرن العشــرين، بل فى واقع الأمر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كانت السياسة تســير على نفس الوتيرة: القصر يحاول الحكم بدون مساندة الجماهير، الوفد يــريد التخلص من البريطانيين وفى نفس الوقت من طبقة الباشوات الرجعية المغلقــة على نفسها، والبريطانيون (الذى ظلوا فى مصر لأسباب استعمارية واســتراتيجية) القوة الحقيقية يقبعون فى الخلفية. لقد كان الوضع أشبه بمثلث سياســى تمكــن ضــلعان فيه من وضع الضلع الثالث عند حده ففى كل مرة تجرى فيها انتخابات نزيهة كان الوفد يعود إلى الحكم بأغلبية ساحقة، وما أن يشــرع فى إثارة مسألة إخراج الإنجليز وتصبح مثارا للقلق، حتى يقوم الملك فؤاد بحل البرلمان ويحكم بالقرار الملكى، ولم يكن فؤاد الذى تلقى تعليمه فى إيطاليا بعاشق للبريطانيين الذين كان مفوضوهم ميالين للضرب على الأصابع الملكــية بــألم، إلا أن الملــك والباشوات على حد سواء كانوا فى حاجة إلى الوجود البريطانى كنوع من سياسة تأمين بقائهم الأبدى بالرغم من أنهم كانوا ينافقون الجماهير فى مطلبها بالجلاء.

هكذا كان الحال، ففى كل مرة كان فيها الوفد يصرخ محدثا ضوضاء لكى يخرج البريطانيون، كان يبعد عن الحكم عن طريق الوسائل الدستورية إذا ما تجــاوز حــدوده، بيــنما كان رجال القصر يتظاهر بدعم الحركات المطالبة بــالجلاء نفاقــا، وفــى الخفاء يؤكدون لدار المعتمد البريطانى أن ذلك مجرد استهلاك محلى وأنهم فى الحقيقة يؤيدون بقاء البريطانيين.

ومهمــا مــا قــد يقوله ضلعا المثلث الآخران، ومهما ما قد يفعلانه، فإن البريطانييــن كانوا هم القوة المهيمنة، وكانوا ينوون البقــــاء بــقدر ما كان يناســبهم، وقــد أعلن المندوب السامى اللورد لويد - حاكم بومباى السابق - عــن ذلــك بوضــوح، والذى كان الحل عنده لأى مشكلة هو إرسال بارجة

حربية، حتى ضاقت به الهوايتهول ذرعا، فاستبدلته بالسير بيرسى لورين Percy Lorraine الذى كان يميل نحو الأسلوب الدبلوماسى.

ولأنه كان يمتلك ملعبا لسباق الخيول، « وسنيور » بمعنى الكلمة، فقد كان السير بيرسى لورين خبيرا فى تهدئة الأوضاع الثائرة، كما لعب أسلوبه المجامل وشعبيته الشخصية دوراً كبيرا فى تمهيد الأرضية لعقد معاهدة ١٩٣٦. كان السبب الرئيسى لعقد هذه المعاهدة هو تدهور الموقف فى العالم إذ لم يكن من المستطاع تجاهل الغزو الإيطالى لكل من طرابلس والحبشة، وصدور التهديدات الداعية للحرب من قصر بلانزو فينيسيا Palazzo Venezia فى روما(*) ومن أجل اعتبارهم الدولى، لم يكن البريطانيون على استعداد للسماح تحت أى ظرف من الظروف لحدوث تآكل فى وضعهم المهيمن على البحر المتوسط، ومن ثم كان واضحا أنه لابد لهم من العثور على حل للوضع فى مصر. ذلك الوضع الذى كان قابلا للانفجار فى أى لحظة. وعن طريق المناورات اللبقة أمكن التوصل إلى اتفاق بين أضلاع المثلث الثلاث. فقد أجريت فى عام ١٩٣٦ الانتخابات، وكما هو معتاد جاءت بالوفد إلى السلطة. وتوصل النحاس باشا الذى كان على رأس وفد من الوفديين وبعض القيادات السياسية. والأحزاب الأخرى إلى اتفاق معقول مع لندن بعد لأى طويل. فلقد كانت معاهدة ١٩٣٦ وثيقة واقعية فى ضوء الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت. إذ أعلنت انتهاء الاحتلال العسكرى البريطانى لمصر، فى حين أن بريطانيا احتفظت لنفسها بحق وضع قواتها على طول قناة السويس ما دام التحالف قائما والذى كان ينتهى عام ١٩٥٦، ما لم تمد المعاهدة باتفاق الطرفين. كما ألغت نظام الامتيازات الأجنبية، ووافقت بريطانيا على تبنى طلب مصر للحصول على عضوية مقعد فى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة، كما حرص الطرفان على تجنب طرح مسألة السيادة على السودان، غير أن الحظر الذى كان قد فرض على المشاركة المصرية فى الحكم الثنائى عقب اغتيال السير لى ستاك قد رفع تماما.

(*) مقر الدوتشى موسولينى زعيم الفاشية الرسمى.

ولقد حمل هذا الاتفاق قائمة مثيرة من التوقيعات شملت تقريبا كل من كان له نفوذ فى ميدان السياسة المصرية فى ذلك الوقت. كما أنها أرضت تطلعات أحـزاب الوسـط والوطنيين على السواء، وحقق لمصر السيطرة التى تطلبها على القناة. لقد كان بالفعل خطوة حقيقية إلى الأمام بالنسبة لمصر أعطت كل الآمـال بدعم علاقات الصداقة بين البلدين. غير أن هناك بعض العوامل التى خدعـت عيون الناظرين فى الكرة البللورية لقراءة المستقبل، وهى أن سحب الحـرب التى كانت قد بدأت تتجمع سوف تؤدى إلى تزايد التدخل البريطانى فـى شـئون مصـر وليس الإقلال منه، فقد ظهر السير مايلز لامبسون Sir Miles Lampson الـذى وقع المعاهدة نيابة عن بريطانيا فى هيئة رجل ذى كـرش كبـيرة كمـا ظهر فى الكاريكاتير - كرمز للبيروقراطية البريطانية. ومـات الملـك فـؤاد الداهية عشية توقيع المعاهدة وخلفه ابنه النحيل البنية، العارم الشعبية، والمسمى بفاروق.

وبصـرف النظر عن الفوران الثورى لعام ١٩١٩ الذى جلب السياسة إلى الشوارع، فإن مثلث القوة فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين كان قد انحسر، وتحول إلى دوامات من خلف القصور الملكية ذات الوجهات على الطـراز الإيطالى، وأبواب قصر الأميرة شويكار ذات الطابع البندقى الحديث المنتشـر فى كل مكان (والذى أصبح فيما بعد مقر مجلس الوزراء)(*) وفى قاعـات الاستقبال ذات الأعمدة فى مبنى دار المعتمد البريطانى. وإذا أسقطنا من حسابنا بعض المجموعات المعممة التى كانت تتقابل فى الأركان الجانبية به فى قهوة الفيشاوى فى خان الخليلي، وهتافات الشعارات التى كان يقوم بها الطلـبة مـن آن لآخر حيث يفرجون عن انفعالاتهم بإشعال النار فى ترام أو ترامين إلى أن تتولى الشرطة مطاردتهم، فإن الأجنبى العادى (وهو لا يدرى أن القـوات البريطانية تحميه) ظل يمارس أعماله بعدم اكتراث وترفع خاصة

(*) أوصت الأميرة شويكار بأن يتحول قصرها بعد وفاتها إلى مقر لمجلس الوزراء. وقد توفيت عام ١٩٣٥ (المترجم).

إذا كـــان يعـــيش في الإسكندرية التى تقابل فيها أحداث القاهرة بهز الكتفين استهجانا، وبابتسامة الظرف الساخرة.

ولأن الإسكندرية – رغم أنها كانت المركز التجارى لمصر – كانت تعتبر نفسها مصرية بصعوبة. فموقعها الغريب الذى يشبه موقع جزيرة يكاد يفصل رأســـها عـــن البر الرئيسى بحيرات مريوط ذات الملوحة الفاترة، يجعل فى اســتطاعة الإســكندرية أن تمــد أذرعتها التجارية الطويلة إلى قلب الصعيد الأســمر اللـــون، بـــل إلى أعمق من ذلك إلى قلب أفريقيا السوداء، غير أن محيطها وروحها كان أوربيا وليس مصريا تماما مثلما كان حالها عندما كانت عاصـــمة للإســكندر الأكبر منذ ألفى عام مضت. وإذا كانت اليوم لم تعـــد تتــبـــاهى كمـــا كانـــت تفعل قديماً فى العصور الإغريقو – رومانية بأنها المديـــنة التى تجلس على عرش البحر المتوسط، إلا أنها من الناحية الحسابية كانـــت أكـــبر ميـــناء تقع عليه (ولا يسبقها فى ذلك غير مارسيليا)، كما أن رجـــال الأعمـــال فـــيها كانوا يمثلون دول العالم كله، وعلى اتصال بعواصم أوروبا[٢٣]، وليس عن طريق السيارة البنتلى Bentley التى تحمل رقم ٢[*]، بل عن طريق جوازات سفرهم أيضا، وحتى البطالمة المقدونيين كانوا نسيجا أوروبـــيا، غـــير مرتبطيـــن سواء من خلال الثقافة أو الذوق العام أو طريقة المعيشـــة بباقى سكان الدلتا المتكدسين من خلفهم – حتى بعد تجديدات محمد علـــى فـــى القرن التاسع عشر التى أولاها للمدينة، إلا أن هذه التجديدات لم تغـــير ســـوى القليل فى شكل المدينة ذات المبانى من الرخام، والتى وصفها عمرو الفاتح العربى بأن تحوى ٤٠٠٠ قصر، ٤٠٠٠ حمام (٤٠٠مسرح{؟}) ١٢,٠٠٠ مـــتجر و٤٠,٠٠٠ يهودى، أما المدينة الجديدة فقد نجحت بطريقة غريـــبة فـــى تحقيق الرخاء من جراء المضاربين فى بورصة القطن، وتجار البصـــل لكـــى تبعث من جديد فى نزعتها اليومية فى ثوب ذى مذاق ورونق سهل، مثل أناقتها الماكرة التى كانت عليها أيام العصر الهللينى.

وربمـــا كان قدر كبير من روحها المشرقة يعود ببساطة إلى مقاهيها ذات

(*) يقصد سيارة المعتمد البريطانى (المترجم).

طراز بلدان البحر المتوسط لأن ذلك لم يكن أكثر من مظهر تخيلى، إذ كانت التعاملات اليومية تتم فى مناخ خانق من المخادعات والمغالطات التى دائما تحلق فوق حافة الممارسة الحادة، غير أن الحياة الاجتماعية كانت إلى مالا نهاية عالمية الطابع، ذات خليط مغر لحياة الدعة والوفرة التى تعكس صدى، بل تشبعها بالإشعاع الدولى القادم من روما وخاصة الارستقراطية القادمة من أثينا ولذة الحياة dulce vita مثل بالرمو أو الجزائر، فقد كان أمرا عاديا أن يخرج المرء ليتناول عشاءه أربع أو خمس ليال أسبوعيا، وأقل ما يتوقع المرء على المائدة ستة عشر شخصاً حيث يتناولون أطباقاً فى غير موسمها، وكثيرا ما كانت تجلب من فرنسا أو إيطاليا. وغنى عن القول أنه لم توجد فى ذلك المجتمع سيدة لا يمر ببالها أن ترتدى نفس الثياب أو حتى نفس القبعة مرتين (كان هناك بعض الحوانيت المفيدة التى تؤجرها لفترة المساء، أما فى المناسبات الكبرى فقد كان من المعتاد de riggeur أن تطلب الواحدة ملابسها ومصففى شعرها ليصل من باريس صباح يوم المناسبة، وكن يتعرضن لخفقان القلب والقلق خوفا من ألا تصل فى الوقت المحدد بالرغم من أنها كانت تصل فى حينها) « فالمودة » كانت تعتبر إحدى وسائل الإمتاع. فالمضيفة إذا كانت تود أن تصبح سيدة مجتمع فإنها تتصدر المائدة التى يقدم عليها وجبة تتكون من اثنى عشر طبقا، بينما تضع أمامها طبق شربة به ببساطة مجرد ماء ساخن، ومن آن لآخر يحضر السفرجى جهاز التليفون لتقوم صاحبة المأدبة بأجراء محادثة مفعمة بالحيوية مليئة بآخر الأخبار، أو تقوم المضيفة بالتفاوض على صفقة مهمة، أما الصفقات التجارية فقد انسابت بلا توقف خارج المكاتب لتعقد حول موائد الشاى، أو فى مقاصير خاصة ملحقة بدور السينما، حيث تعقد صفقات مثيرة للاهتمام مثل بعض الكماليات كشحنات ورق الحمام، أو علب البيرة. أما البرنامج اليومى للمثقفين من كل الأعمار فقد كان مليئا بكل أنواع التسلية: تناول القهوة المثلجة فى مقهى ونكى Wenki صباحا، يتلوها تناول مشروب فاتح للشهية فى مقهى بودروت Baudrot، ثم تناول الغداء فى اليونيون بار Union Bar (الذى كان

فى أوج عصره ربما أحسن مطعم فـــى أفريقيا) ثم ممارسة لعبة الجولف أو الـــبولو بعد الظهر فى النادى الرياضـــى (اسبورتنج كلب) Sporting Club. ومـــن خلف النوافذ ذات الإطار النحاسى لنادى اليخت الملكى بتراءى طيف العجائـــز مـــن النساء بشعورهن المصبوغة باللون الأزرق، وبالألماس لكى يتباهيـــن بأنهـــن مـــن علـــية القوم (beau monde) وهن يحملقن من خلال نظارات الأوبرا المقربة ليشاهدن مجموعات الشباب وهم يتلقون المساعدة فى مراكـــب شـــراعية تـــنطلق بســـرعة للقـــيام بنزهة بحرية فى الميناء وقت العصارى، مزودين بجهاز الجرامافون وعلب الفطائر المغطاة بالكريمة. وفى داخـــل حجـــرات النادى لم يكن مسموحا بارتداء زى الإبحار، فقد حدث ذات مرة عام ١٩٤٢ أن طلب سكرتير النادى الإنجليزى من مجموعة تضم: ملك الـــيونان، ونيل كوارد Noel Coward ولورد كيس Lord kayes أن يغادروا المكان لأنهم كانوا يرتدون السراويل البيضاء القصيرة الخاصة بالبحرية.

وخـــلال فصل الشتاء كان تقام حفلات الرقص مرة أو مرتين فى الفنادق المخـــتلفة، أما كازينو سان ستيفانو فقد اشتهر بالديكورات ذات المغزى التى كـــان يـــنفذها بمهارة مهندس الديكور الروسى رانكوفيتش Rancovich فمثلا عـــندما أضـــرب عمال الفحم فى أوروبا، صمم قاعة الرقص فى هيئة منجم فحـــم. كانـــت حفـــلات الشـــاى الراقصة th dansants كثيرة ومتعددة، أما ســـهرات الشـــاى th prolonges فى البيوت الخاصة فقد كانت نادراً ما تبدأ قـــبل الســـابعة والنصـــف والـــتى كانت فى الحقيقة تشتمل على بوفيه عامر بالوجـــبات الســـريعة. هذا كله يعنى أن النساء المتتبعات لأحدث الموضة كن يرتدين ثياب السهرة أغلب الأمسيات. أما الرجال فقد كانوا أقل اهتماما بزى الســـهرة، حـــتى أن رئيس الجالية اليونانية كان حظه سيئا عندما ظنه البعض جرســـونا! لقد كان جمال السكندريات وعلو ثقافتهن، ولطف الرجال يكاد أن يكـــون شيئاً أسطوريا، وبالفعل كان كل شيء يدور حول الجنس اللطيف مع شـــيء مـــن الغرابة أو النرجسية، والتى جنباً إلى جنب مع حب المال تمثلان الرغـــبة الوحـــيدة الحقيقية عند السكندريين، والتى كانت المحك ليس لدهائهم

الجـــاد الماكر فحسب، بل لصداقتهم الدافئة المفعمة بالنفاق. هكذا كانت الثقافة فـــى موطـــن افلوطين Plotnus وأنسطاسيوس تكاد تلمس سطح حياة الناس المكرسة لراحة البال والرفاهية. فكثير من الشخصيات المرفهة تنقلها سيارات الليموزيـــن إلى حفل موسيقى فى قاعة الهامبرا Alhampra أو إلى موعد فى الأتليـــيه L Atelier وكانـــت قادرة على التفاهم بست لغات، لكنها لم تكد تجيد واحدة منها. ولكن بالرغم من كل عيوبهم كان هناك سحر مقدر ومتألق لدور الإســـكندرية فـــى الـــبحر المتوســـط، والتى ماتت وخمدت الآن مثل المدينة الإغريقـــية للبطالمة التى ألهمت إ.م فورستر E.M Forster لكى يؤلف أحسن كتاب مرشد كتب حتى الآن عن أى مكان، ويرسم لورانس داريل Lawrence Durrellملامـــح تدهـــور جوانـــبها الـــتى كانت مشرقة والتى دفعت بكافافى Cavafy أن يصبح شاعر المدينة الأول. هل أدرك كفافى أن الإسكندرية التى يبغـــيها قد حكم عليها بالفناء؟ ربما أدرك ذلك لأنه عندما رجع بذاكرته الفى عـــام إلـــى الـــوراء، حيث كان انطونيوس يعانى سكرات الموت بدأ قصيدته بطـــريقة غريـــبة كمـــا لو كان يكتب تأبينا لمدينته الوهمية التى كان وقتذاك شديدة الازدهار، وواثقة من نفسها، لكنها فجأة تتحلل إلى مجرد ذكرى واهية تحمـــل عطر الياسمين، واليوم كل ما تبقى من المدينة التى أحبها حباً جماً هو مجـــرد الشـــوارع، والمبانى، والنسيم القادم من البحر كالبلسم، الشافى والتى كتب وداعا لها كما لو كان يتنبأ قال فيه:

إذا سمعت فجأة عند انتصاف الليل ترنيما
من منشدين عابرين يعزفون فى الدجى لحنا شجيا
فقم ولا تندب أفول نجمك الذى قد غاب
أو سعى عمرك الذى قد خاب
أو كل ما دبرته فبات وهما كالسراب
عليك أن تكون قد أخذت أهبتك
مثل الكماة درعا لشجاعتك

حتى تقول للحبيبة وداعا يا إسكندرية
وقبل كل شيء لا تخادع نفسك العصية
لا تقل كان مناما فصحوت
أو أن أذنى أخطأت أدرك صوت
حذار من تلك الأمانى الخاويات لا تذعن لهن
عليك أن تكون قد أخذت أهبتك
مثل الكماة من زمن
عليك أن تكون أهلاً للمدينة
فقم إلى الشباب فى سكينة
أنصت إلى الأنغام فى شجن
لكن بلا صلاة أو شكاة من جبن
هذا انفصام الزمن
أنصت إلى الألحان فى آلات سحر عبقرية
علوية الأوتار صوفية
هذا وداعى الآن يا إسكندرية
(قلها وزد)
تلك التى تضيع الآن من بين يديه(*)

(*) صاغها شعراً لى الزميل الأستاذ الدكتور محمد عنانى رئيس قسم اللغة الإنجليزية.

## الفصل الخامس عشر

# بذور الثورة

كتب مسئول بريطانى فى منتصف الثلاثينيات (من القرن العشرين) يقول: «أنه على الرغم من أن مصر يحكمها ملك، ويقدم له المشــورة برلمان، لكن هــذا الــنظام نظــام مزعج لدرجة تبنيه أسلوب حكم طلبة المدارس، وذوى القمصـــان الـــزرقاء: لقــد كـــان تلاميذ المدارس يفرضون رأيهم بالحجارة والـــزجاجات المهشـــمة، أمـــا ذوى القمصـــان الزرق فبالخناجر والهروات المكســـوة بـــالجلد »، ثم استطرد الكاتب موضحاً لصالح قراء مجلة: أضواء شـــرقية Oriental Spotlight: « هـــذان الحـــزبان السياســـيان طويلاً النظر والمـــتعقلان قـــد اندمجـــا الآن فى جبهة واحدة، ويطلقان على نفسيهما اسم «الجـــبهة المتحدة » أنها صيغة رخيصة لدرجـــة التواضـــع للحكومات، ولا تكلـــف شـــيئاً، فـــلا رواتب ولا أجور تدفع لزعمائها، وكل ما يتوجب على الـــبلاد فعلـــه هو تعويض شركات التزام عن العربات التى أحرقوها، وإعادة تركيـــب مصـــابيح الشـــوارع مرة كل أسبوع، وتعويض رجال البوليس عن جماجمهم المحطمة ».

وربمـــا أدرك قراء مجلة « الأورينتال سبوت لايت » ذلك التفسير. ولكن كمـــا حـــدث كان أكثر الشـــخصيات الذين أطلـــق عليهـــم الميجـــور: س. جارفـــيز C. S. Jarvis «حكومة التلاميذ» حماساً شاب طويل القامة، ذا بشرة داكـــنة بلون زيت الزيتون، يبلغ من العمر سبع عشرة عاماً، وخلال الأحدى عشرة عاماً من دراسته فى المدارس نجحت محاولاته فى اجتياز مرة واحدة فـــى المـــرحلة الـــثانوية، وثلاث مرات فى المرحلة الابتدائية. فخلال شهر رمضـــان عام ١٩٣٥م أصدرت الخارجية البريطانية ما يمكن أن نسميه الآن بالبيان الروتينى من أجل سكب الماء البارد على اقتراح مصر لتخليص البلاد من القوات البريطانية. ورد النحاس باشا – زعيم الوفد – بتوبيخ روتينى من جاردن سيتى. إذ صاح قالاً: « إن المصريين سيحاربون ويموتون طالما بقى جندى انجليزى واحد على التراب المصرى»: واستجابت له الجماهير – كما

كانـــت تفعـــل دائماً، فتدفقت مجموعات من المظاهرات غير المنظمة يقودها الطلاب عبر الشوارع. ووقع صدام مع رجال البوليس تلقى خلاله ذلك التلميذ ذى البشـــرة الزيتـــية جرحاً أحدث فتحاً فى جبهته. وفى اليوم التالى وصفت الصحف هذا الصدام، وذكرت أن من بين المصابين وزير الحربية الذى تلقى كســـراً فـــى جمجمـــته وطالب اسمه جمال عبد الناصر. وبعد انقضاء شهر وتحـــت ضـــغط موجات المظاهرات، وافقت بريطانيا على أجراء مفاوضات توجت بعقد معاهدة ١٩٣٦.

ولـــد جمـــال عبد الناصر فى ١٥ يناير عام ١٩١٨ فى حى « باكوس » بالإســـكندرية ذلـــك الحى الملئ بالأسواق، فقد كان أبوه رئيساً لمكتب البريد، وعـــندما نقـــل أبوه فيما بعد إلى قرية الخطاطبة الصغيرة الواقعة على حدود صـــحراء مصـــر الغريـــبة، انتقل هذا التلميذ إلى مدرسة فى القاهرة، وهناك عاش مع عمه فى شقة صغيرة آيلة للسقوط فى قلب حى الموسكى. كان عمه مـــن الـــثوار وكان قد خرج لتوه من السجن بعد قضاء عدة سنوات لتنظيمه مظاهرات ضد البريطانيين.

أما بالنسبة له فقد بدأ الشاب جمال ينمي عاطفة وميلا نحو العمل السرى، وتدبـــير المؤامـــرات، لقد كان ولداً صغيراً ولكنه عنيد، شديد الاعتماد على نفســـه، قضـــى أيامه فى الحوارى الضيقة المزدحمة بحى الأزهر. فهو مثل نموذجـــى لابن الشارع الذى يتصف بالعداونية، لا يطيق أى سلطة بأى شكل من الأشكال.

لقـــد كان فى التاسعة من عمره عندما رحلت أمه، ومنذ تلك اللحظة لم تعد لحـــياة الأسرة أى معنى عنده، فقد اتجه أكثر فأكثر إلى التوقوقع على نفسه، يضـــفى علـــى أكثر الأحداث ضوضاء ستاراً من السرية، تسعده المؤامرات والمؤامرات المضادة، وشيئاً فشيئاً بدأ يتلقى من عمه مذاق الأحلام الثورية.

وفـــى أثـــناء المـــرحلة الـــثانوية سرعان ما تورط فى مظاهرات غذتها الأحـــزاب المعارضـــة، فقـــد انضم إلى حزب « مصر الفتاة ». وهو حزب

الشـــباب المصـــرى، ولـــم يمض وقت طويل حتى راح يقضى أيامه متحدياً معلمـــية، ومحدثاً لأعمال الشغب فى ساحة جامعة القاهرة، أو متلقياً أو منفذاً تعلـــيمات الحـــزب. كـــان ذلك بالنسبة له أكثر إثارة من الجلوس فى الفصل حزيـــناً، يسترجع ذكريات الأيام التى تدور بذاكرته أن أحد الكتب المقررة فى دروس الإنجلـــيزية كـــان كتاب البارونة أوركيزى Baroness Orczy المسمى Scarlet Pimpernel (كزبـــرة الثعلـــب القرمـــزيه)(*) لقـــد كان يستمتع بهذه الـــرواية. وربمـــا قال لنفسه: « هذا رجل بدأ حياته كما لو كان بدون فائدة، ولكـــن انتهى به المطاف أن يكون زعيماً ». ومن بين الأبطال الذين عرفهم أيام صباه «نيلسون»، وهكذا نسج التلميذ الثائر خيالاته الخاصة. فقد بدا لنفسه أنه بطل يبحث عن دور، وفيمـــا بعـــد بوقت طويل عاد إلى نفس الفكرة فى كتابه فلسفة الثورة(**).

وفى أثناء ذلك، ومع وجود أثر للضربه على جبهته، أصبح له ملف لدى الشرطة، وقد حاول ناظر مدرسته الذى ضاق ذرعاً بذلك الصبى الذى يسبب المشـــاكل، أن يـــتخذ مـــن ذلك حجة لفصله. وكان رد الفعل أن قدم التلاميذ الآخرون التماساً طالبن إعادته، وعندما رفض الناظر ذلك، أعلنوا الإضراب، وهـــددوا بإشـــعال النيران فى المدرسة، واضطر ناظر المدرسة إلى إحضار جمال فى عربته الخاصة إلى المدرسة. وكان ذلك انتصاراً شخصياً لناصر – الأول فى حياته.

وبعـــد مضـــى بضعة شهور، وقعت مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦ معاهدة تعـــترف بالمســـاواة عند التعامل بين البلدين، وتحدد وجود القوات البريطانية بمـــنطقة قـــناة السويس المحددة إلى أن تصبح مصر ذاتها قادرة على ضمان

(*) إحـــدى النباتات ذات أزهار قرمزية أو أرجوانية تغلق على نفسها حين تسوء الأحوال الجوية (المترجم).

(**) جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة، دار المعارف بمصر، سلسلة اخترنا لك ص ٦١، ٦٢ (شخصيات تبحث عن مؤلف)..... المترجم.

تأميـــن الملاحـــة عـــبر ذلك الممر المائى. ولقد استقبل هذا الاتفاق بالترحاب كنصر كبير تحقق لمصر، غير أن العينين النافذتين للشاب جمال عبد الناصر لـــم تكونـــا مقتنعتين. فالإنجليز لا يزالون فوق الأرض المصرية، وعلى أى حـــال انتهت أيام المظاهرات، وكان عليه الآن أن يفكر فى مستقبله، فقد تقدم للالـــتحاق بالكلـــية الحربية، ولما لم يكن لأسرته أى نفوذ، فقد رفض طلبه. فالتحق لفترة وجيز بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

وكـــان ذلك يعنى أنه سوف يعيش لوقت يكاد أن يكون غير محدد فى بيت والـــده ولمـــا كـــان عل علاقة غير طيبة بوالده وزوجه والده، فقد سعى مرة أخـــرى للالـــتحاق بالجـــيش بالتجرأ على مقابلة سكرتير وزارة الحربية فى مكتـــبة. ولقـــد تأثـــر اللواء بروح المبادرة لديه، وبالحماس الذى عرض بها حالـــته، فســـجل اسمه للعرض على لجنة الاختيار، وحتى ذلك الوقت كانت رتـــب الجيش العليا وقفاً على أبناء الأثرياء، فلكى يصبح المرء ضابطاً كان علـــى المـــتقدم فـــى أغلـــب الحالات أن يقنع السلطات (بطريقة غير رسمية بالطبع) أن لدى اسرته دخلاً لا يقل عن ٢٠٠٠ جنيه استرلينى سنوياً ليضمن افتراضـــا أنـــه جـــزء من « المؤسسة »، ولكن بعد أن حصلت مصر على اســـتقلالها عـــام ١٩٣٦، فتحت الكلية الحربية أبوابها أمام أبناء جميع طبقات المجـــتمع، وكانـــت خطـــوة أساسية - كما ثبت فيما بعد - إذ أن قادة ثورة ١٩٥٢ كـــانوا تقريباً جميعاً أعضاء دفعة المرشحين الذين اختيروا أساساً بناءً علـــى هـــذه الشـــروط الجديدة، ورغم ذلك لم يقع الاختيار من بين المتقدمين ســـوى علـــى عشرة فى المائة، وكان من بينهم لدهشته الكبرى - جمال عبد الناصر، وبعد انقضاء ستة عشرة شهراً تخرج برتبة ملازم ثان.

« كـــان أول تعييـــن له فى أسيوط التى تبعد بضعة كيلو مترات من قرية بنى مر التى يكسوها التراب الداكن، حيث كان لأسرته جذور فيها، وهنا وجد الفـــتى جمـــال ذتـــه، فقد كان يمثل أول جيل ابتعد عن طبقة الفلاحين الذين يعملـــون فـــى حقـــول صـــعيد مصر. ولقد وجد كتيبته تعمل جنباً إلى جنب وبالتعاون مع الضباط الإنجليز هذا من الناحية الرسمية، لكن كان غير راض

عـــن أسلوب التعالى التى تعاملوا بها مع الرتب المقابلة من المصريين، وذلك كـــان واضحاً للعيان. وكانت الدماء تغلى فى عروقه عندما يشيرون بسخرية إلـــى المصـــريين بألفـــاظ لا تلـــيق مـــثل Gyppies (المحتاليـــن) و Wogs (السفلة)(*)(**).

ومـــن هـــنا تربت لديه عقدت الكراهية للعنصر الأنجليزى Anglophobia وكذلـــك كراهيته لرجال السلطة، فقد أدهشه أن يرى الرتب العليا من الضباط المصـــريين، وهـــم يمـــثلون عـــاراً للزى العسكرى الذى يرتدونه، فقد كانوا كســـالى، فاســـدين، فقدوا لياقتهم بالترهل، وكان غالباً ما يتفق مع الإنـجليزى الـــذى قال أن رتبهم الأعلى تحدد حسب وزن كل منهم. وبالإضافة إلى ذلك كـــان يـــتاجج غضـــباً مـــن الطريقة التى كانوا يتملقون بها البعثة العسكرية البريطانية، وكاد بغريزته أن يصبح ثائراً.

وقـــد شاركه فى مشاعره بعض رفاقه من الضباط. وكان أحدهم هو أنور الســـادات والآخر هو زكريا محى الدين. وعندما كانوا يجلسون أمام خيمتهم فـــى المســـاء كانوا لا يتوقفون عن مناقشة سخطهم، وكانوا يقولون لبعضهم الـــبعض أن «الـــبلاد فى حاله من الفوضى يديرها الأجانب من أجل مصلحة الأجانـــب وحدهم»، وهؤلاء لم يستغلوا المصريين فحسب، بل كانوا ينظرون إلـــيهم باحـــتقار أيضـــاً، بالـــرغم، أو ربمـــا بســـبب معاهدة ١٩٣٦ سيطر البريطانـــيون علـــى الـــبلاد، فقد وقعت مصر فى شباك الالتزامات السياسية والعسكرية التى كانت ضد مصالحها الحقيقية، والتى لم تستطيع الفكاك منها. وقـــد تســـاءل جمـــال عبد الناصر بأسلوب بليغ فى كتابه « فلسفة الثورة ». «مـــتى اكتشـــفت أن بـــذور الثورة قد غرست فى أعماق نفسى؟ لقد وجدت

(*) وذلـــك بفضل سياسة حزب الوفد الذى كان يتجه إلى زيادة نفوذه الشعبى فى صفوف الجيش (المترجم).

(**) أى الغجـــر أما الثانية فهى اختصار لمصطلح Wild Orient al Gentlemen. أى شخص مهذب شرى شرس.

بذورها فى أعماق نفوس الآخرين. بذور لم تنبت بعد بل أنها تطلعات مكبوته تركــت كتراث لنا من الجيل السابق »(*). وبأبسط وأوضح الأساليب كان قد أصــبح شــاباً غاضباً وساخطاً. وكان يشاركه فى ذلك الشعور فى فجر عام ١٩٣٩ كثير من المصريين.

وعــندما وضــعت الحــرب أوزارها، تفرقت وحدته، ووجد الملازم عبد الناصر نفسه، يعسكر فى حامية نائية ومعزولة فى أعماق السودان.

وكــان الضابط الوحيد الذ كان معه وبرتبة ملازم أيضًا عبد الحكيم عامر، وحــتى عــندما اكتسحت جيوش هتلر بلجيكا وهولندا وفرنسا، وقامت القوات الإيطالــية بغــزو مصر، وتقدمت فى طريقها حتى سيدى برانى، كان هذان المصــريان يتحدثان بلا توقف عن المستقبل. وكان كل واحد يسر إلى الآخر بابــتهاج: ســوف يخسر البريطانيون الحرب! وربما كان فى ذلك فرصة لنا للفكاك من النير البريطانى مرة واحدة وللأبد!

كــان موقف بريطانيا إزاء مصر خلال تلك الفترة فى غاية البساطة، فقد تعاطفــت إلى حد كبير مع تطلعات المصريين، فقد منحت فى معاهدة ١٩٣٦ الكثــير مــن التــنازلات بقــدر ما استطاعت للاستجابة لرغبات مصر فى الحصــول علــى حــق السيادة الكاملة، لكنها كانت ترى فى نفس الوقت أن المســألة المصــرية يجب أن تعرض فى ضوء خلفية الأوضاع العالمية. فقد كانــت بريطانيا غارقة - إلى حد ما بمفردها - فى معركة الموت والحياة مع دكــتاتورية ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، ولم يكن الوقت مناسباً لبدء القلق حــول مشــاعر المصــريين. فلخيرها أو لشرها كانت مصر مسرحاً أساسياً للحرب، ويجب إلا تقع فى حوزة العدو.

ولــم يكن سراً أن كثيراً من المصريين كانوا متعاطفين مع دول المحور، فببســاطة كمــا يقول العرب: « عدد عدوى صديقى »، أو لأن النازيين بدوا

(*) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٧ (المترجم).

كمـــا لـــو كـــانوا سيكســـيون الحرب، بل أيضاً بسبب العقيدة الغريبة لنظرية الاشـــتراكية الوطنية التى وضعها الدكتور جيبلز Dr. Goebbels كانت بمثابة اللحـــم والشراب لأى واحد يتحمل وزر الصراع. لذلك فأن البطش العكسرى للحكم الشمولى سحر ألباب صغار الضباط مثل ناصر وزملائه والذين لم يدر يـــبالهم أنها سوف تشكل تهديداً لمصر، ومن ثم لأن البريطانيين كانوا يشكون فـــى ولاء الجـــيش المصرى، فقد اعتبروه مصدر إزعاج لابد من إبقائه على الحـــياد الـــتام، وهو تصرف كان له ما يبرره، فقد حاول القائد العام للقوات (المصـــرية) بعد طرده من الخدمة بناءً على طلب القيادة العامة البريطانية أن يلحق بالقوات الألمانية مستخدماً طائرة فاروق الخاصة(*).

وبكـــل تأكـــيد بـــدت الأمور حالكة فى الأيام المبكرة لعام١٩٤٢ بالنسبة للحلفـــاء، فخـــلال الشـــهور القليلة الماضية أغار العدو فى عدة طلعات على مديـــنة الإســـكندرية، وكان بلاد اليونان قد سقطت فى يديه، كما وقع انقلاب عســـكرى موالى لقوات المحور فى العراق، وكان الأمريكيون لا يزالون فى حالـــة مـــن الذهـــول من جراء ما حدث فى بيرل هاربور Pearl Harbour، وكانـــت قـــوات روميل Rommel تتقدم عبر ليبيا. ولقد فعلت حكومة حسين ســـرى باشا كل ما فى وسعها لتؤازر البريطانيين، غير أن النقص فى الغذاء والأسعار المنطلقة كالصاروخ كانت قد بدأت فى إحداث قلق خطير بين عامة المصـــريين الذيـــن شعروا أنه قد زج بهم فى حرب ليس لهم فيها مصلحة، ولـــيقفوا مـــع الجانـــب الخاطئ. وسار التلاميذ فـ مواكب فى الشوارع وهم يهـــتفون و « نحن جنود روميل ». ولقد اراد القصر – الذى كان من الناحية التقلـــيدية مواليا لإيطاليا – أن يؤمن نفسه من انتصار دول المحور الذى بدأ علـــى وشك الحدوث، فقام بتعيين وزارة مقبولة لألمانيا وإيطاليا. ومن ناحية أخـــرى كـــان القلق يساور البريطانيين لدرجة اليأس لبقاء البلاد هادئة. وهو أمر لا يقدر على تحقيقه سوى النحاس وحده على رأس حكومة الوفد.

وفى مطلع عام ١٩٤٢ استقال سرى بعد أن أجبره البريطانيون على قطع

(*) وهو عزيز المصرى.

العلاقـــات مـــع حكومة فيشى Vichy(*)، وبدأ كما لو كان الملك فاروق يمهد الطـــريق لعلى ماهر باشا (الذى كانت اتجاهاته نحو المحور تثير القلق) لكى يعود إلى السلطة، ولقطع الطريق على ذلك قام السفير البريطانى السير مايلز لامبســـون Sir Miles Lampeon الـــذى أصبح فيما بعد اللورد كيللرن Lord Kellern) بزيارة القصر. وبدون أن يدور ويلف حول الموضوع، أخبر الملك أنـــه لا يوجـــد سوى رجل واحد قادر على السيطرة على الوضع فى الداخل بطـــريقة ترضـــى الحكومة البريطانية فى وقت بدأ فيه الموقف الاستراتيجى أبعـــد بكثير من أن يكون مرضياً، وذلك الرجل هو النحاس باشا زعيم الوفد، ثـــم اســـتطرد لـــيقدم أنذاره: « ما لم أسمع حتى السادسة من صباح الغد أن الـــنحاس باشا كلف بتشكيل الوزارة فعلى جلالتكم تحمل عواقب ذلك ». وقد رفـــض فاروق، الأنذار. ولكن ما أن غادر السفير. حتى اتصل الملك تليفونياً بـــزعماء الأحـــزاب السياسية المختلفة للقائه من أجل تكوين حكومة ائتلافية برئاســـة الـــنحاس. وقـــد وافقوا جميعاً على ذلك فيما عدا النجاس نفسه الذى رفـــض أن يـــترأس حكومة ائتلاف، وأصر على تشكيل حكومة من اختياره الشخصـــى أى أن تكـــون كلهـــا من الوفد، وما بين الطعم البريطانى القديم والسفارة، كان واضحاً أن صفقه ما قد عقدت.

وبعد التاسعة من مساء اليوم الرابع من فبراير بدقائق تحرك جنود المشاة البريطانـــيون نحـــو ميدان عابدين، ثم اتخذت وحدة دبابات ستيورات مارك Stuart Mark مواقعهـــا وصوبت مدافعها تجاه القصر. وأخيراً وصلت سيارة اللـــورد كيللرن الصفراء من طراز « فانتوم ٣ » Phantom III تتقدمها عربة مصفحة إلى القصر، لكن بواباته كانت مغلقة، عندئذ اندفعت العربة المصفحة بقـــوة وفتحـــتها، ثـــم قاموا بتجريد الحرس الملكى من سلاحه، واتخذ السفير طـــريقه إلى مكتب فاروق يصحبه الجنرال ستون Stone القائد العام للقوات، وثمانـــية ضباط شاهرين مسدساتهم. وهنا بحث الملك الذى كان يبلغ وقتذاك الثانـــية والعشرين من عمرة والذى كان يراقب ما يحدث من خلال النافذة، –

(*) حكومة فرنسا الموالية لألمانيا النازية (المترجم).

بحـــث عن مسدسه – وقد استشاط غضباً، غير أن ياوره نصحه بالعدول عن ذلك. لأن طلقة طائشة واحدة كافية لاسقاطه عن عرشه. ودلف اللورد كيللرن وجماعته إلى حجرة المكتب حيث كان فاروق جالساً إلى مكتبه. وقال السفير بطـــريقة فظـــة: «لقد جئت من أجل تلقى رد جلالتكم»! ورد فاروق مظهراً بقدر ما استطاع كل الوقار: « لقد سبق لنا وأن أصدرنا تعلمياتنا للنحاس باشا أن يشكل حكومة من اختياره».

وربما كان أكثر الحاضرين فى الحجرة شعوراً بالخجل هو الجنرال ستون نفسه، فحتى ثلاثة أسابيع فقط كان يشغل وظيفة المعاون الشخصى للملك، فقد أســـر لـــبعض أصـــدقائه فيما بعد قوله: « لقد كان شيئاً بغيضاً أن ألقاه مرة أخرى بإنذار مثل هذا » غير أن الغاية تبرر الوسيلة وقد رد حزب الوفد ذلك الجميل بإخلاص للسفير البريطانى، وطوال العامين التاليين أبقى النحاس باشا البلاد ثابته من وراء الحلفاء.

لكـــن بالنســـبة لغالبـــية المصـــريين كانت صدمة الرابع من فبراير أمراً مزعجاً، فعن طريق اليد العليا ذات البطش ترك كيللرن جرحاً لم يندمل أبداً، وأكـــثر مـــن ذلك، فبتحطيمه لمثلث السلطة الذى كان يسير مصر منذ وقت طويـــل، ساعد على سلب الثقة من القصر، وجعل من الملك عدواً، وفى نفس الوقـــت أظهـــر النحاس باشا كدمية يحركها البريطانيون، وكما وضح مكرم عبيد ذلك بقوله: « إهمال مصالح الأمة من أجل مصلحة البريطانيين» فالوفد الـــذى عرف منذ وقت طويل بأنه قائد الكفاح ضد البريطانيين لم يبرأ أبداً من وصـــمة العـــار بأنـــه جاء إلى الحكم على أسنة رماح البريطانيين. وقد كتب جمـــال عـــبد الناصـــر إلى صديق له خطاباً قال فيه: « أما القلوب فكلها نار وأســـى، والواقـــع أن هـــذه الحركة،... هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجســـاد، وعرفـــتهم أن هـــناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها »(*). وارتفعـــت الأصـــوات الغاضبة فى نادى الضباط صائحين « لقد بصقوا على

(*) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص١٥ (المترجم).

رأس الدولـــة! وأن الملـــك لم يعد سوى صفر لا قيمة له، سجين قصره. لقد أهيــن جيشـــه، وأهينت أمته كلها، ولم تعد مصر سوى بلد محتل، تخضعها ســرية دبابات واحدة »، وقام أحد أعضاء القيادة وهو البكباشى محمد نجيب بـــتقديم اســتقالته. وعرض ثلاثة من الملازمين » الشبان وهم: عبد اللطيف الــبغدادى وصلاح سالم، وأنور السادات، أنفسهم ليكونوا فريقاً انتحارياً يقوم بأى عمل يكلفون به ضد البريطانيين.

غير أن جمال عبد الناصر بدأ فى ٤ فبراير عام ١٩٤٢ بالتخطيط للثورة بطريقة منهجية.

وســقطت طبرق، ودخل الفيلق الأفريقى مصر Afrika Korps، ثم سقطت مرســـى مطـــروح. وأصـــبح روميل عند العلمين. ووصل رتل من الدبابات الألمانـــية إلـــى بـــرج العرب التى لا تبعد سوى أميال قليلة إلى الغرب من الأســكندرية، كما صعد عمود من الدخان غطى سماء حى « جاردن سيتى » أظهـــر أن القـــيادة البريطانية العامة تحرق وثائقها السرية. وأجليب عائلات البريطانيين عن مصر. وفى الثالث من يوليو كلما وردت الأنباء ساعة بساعة وهـــى تحمل أنباء تجعل الموقف أكثر يأساً، أعلنت سكرتيرة قيادة القوات أنها سوف تتزوج فى الحال من ضابط مدفعية من روديسيا فى صباح ذلك اليوم. وأعـــد مديـــر شـــبرد أفضل ما عنده من الشمبانيا لحفل الغداء، وقال بطريقة ســاخطة: « إنـــه مـــن الأفضـــل لنا أن نحتسيها الآن ونحن مازلنا على قيد الحياة»!.

وقـــال جـــنرال بريطانى وهو يشرب نخب العروسين بطريقة ميلودرامية: «أيها السيدات والسادة... إننا نشهد سقوط إمبراطورية!! »(٢٤).

وفـــى الخـــارج كانت الجماهير تجوب الشوارع وهى تهتف: «روميل... روميل »، وفى نادى السيارات الملكى والذى كان يترأسه الأمير عباس حليم، والـــذى كان جندياً فى سريه الرختهوفن Richthofen (الألمانية) أبان الحرب العالمـــية الأولى، تمت مناقشة خطط استقبال الألمان، كما أن بعض الضباط

من بينهم أنور السادات تهامسوا أن الوقت قد حان للقيام بانقلاب عسكرى لعزل النحاس، وإعادة على ماهر، والقيام بغارات على القوات البريطانية، والانضمام للمحور. وخطب المرشد الأعلى لمنظمة دينية متطرفة تدعى « الأخوان المسلمون» وهو الشيخ حسن البنا بنبرة صوفية عن مصر، وهى تحمل السلاح لتحرر نفسها من قيودها. كل ذلك حتى الآن كان كلاماً لا فعلاً. فقد ظل النحاس باشا يقف من وراء الإنجليز دون أن يهتز، قابضا بشدة على الأمن، بل أنه أمر بإغلاق نادى السيارات، وألقى القبض على الطابور الخامس، مؤكداً الأمن والطمأنينة للمدنيين. ومرت لحظة القلق الحادة كحد « موس الحلاقة »، وأوقف تقدم روميل عند العلمين، وبعد ثلاث شهور أخرى تعقبوه وهو يتقهقر عبر ليبيا. وانحسرت الحرب عن مصر، وسرعان ما أزاح الحلفاء الألمان عن شمال أفريقيا كلها، وبدأ غزو إيطاليا، وفتحت جبهة ثانية فى نورماندى.

وفى القاهرة عين النقيب جمال عبد الناصر معلماً فى الكلية الحربية. وفى نفس الوقت تقريباً إلتحق صديقة عبد الحكيم عامر بكلية أركان الحرب. وكان ذلك فرصة مثالية للاتصال من أجل وضع البذور الأولى للثورة، فقد تخرج على يديه مئات من الضباط الشباب، كان يتفحص بهدوء وبطريقة منهجية كلا منهم على حدة وبدوره، منصتاً إلى ما قد يصدر عنهم من قول، وهو يقيس درجه النار التى تستعر فى صدورهم، لكنه قليلاً ما كان يتحدث عن نفسه، إذ أنه أغلب الوقت كان يشغل نفسه بقياس قدرات كل فرد من أفراد الثورة، التى كان قد بدأ بخطط لها. وشيئاً فشيئاً تكونت « جمعية الضباط الأحرار السرية » دون أن يوضع شئ على الورق بتاتاً لأن فى ذلك خطر كبير. فمن هم الضباط الأحرار؟ وما هى الأدوار الموكلة لكل منهم؟ هذا أمر لا يعرفه أحد سوى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. إذا لم يكن هناك ما يشبه قوائم العضوية. غير ان التنظيم أخذ فى الانتشار، وتكونت التخصصات المختلفة فيه: مثل شعبة التمويل، وشئون الأفراد، والأمن، والأعلام، والإرهابيين المدنيين. وكانت كل شعبة تشتمل على عشرين خلية، وكل خلية تتكون ما بين خمسة إلى عشرة أعضاء. ولم يكن لدى أى ضابط

من الضباط الأحرار أى معرفة بالآخرين سوى أعضاء خليته. وأكثر الأشياء التى حرصوا عليها تماماً هى « شخصية القائد ». التى تم إخفاؤها بنجاح، حتى أنه بالرغم من وجود بعض تحركات الضباط التى عرفت لدى السلطات فى القاهرة، لم يكن فى مقدرة أحد خارج حلقة التآمر من تخمين مصدر الإلهام أو معرفة حتى بعد أن قامت الثورة من هو القائد الحقيقى، حتى أن التشكيل الأساسى للضباط الأحرار بقى غامضاً حتى لزملائهم، كما أن عادة ناصر فى لقاء كل واحد منهم على حدة فى كل مرة، وأن ينصت إليه أكثر مما يتحدث إليه، كان يعطى الإيحاء «أنه وعبد الناصر» هما الزعماء. هكذا صور خالد محيى الدين فيما بعد تكتيك الثورة فى مقال نشر فى إحدى الصحف. كما كتب بعد مرور عقد: « قرب نهاية عام ١٩٤٤ » كنت أتمشى فى شارع رمسيس فى صحبة أحد أصدقائى. وكان كلانا أعضاء فى منظمة سرية تأسست داخل الجيش عام ١٩٤٢، فجأة قال لى صديقى: « أسمع يا خالد. عندى موعد مع ضابط آخر، إنه شاب طيب سوف يعجبك تعال معى وقابلة ». ثم استدرنا إلى شارع الجلالى، وصعدنا إلى الطابق الثالث فى من مبنى ضخم به وحدات سكنية كثيرة. وفتح لنا الباب شاب طويل القامة، وعرفنى صديقى به قائلاً: «النقيب جمال عبد الناصر. معلم فى الكلية الحربية ». وأخذنا جمال إلى حجرة الطعام، وجلسنا على الجانب المقابل من المائدة التى كانت تغطيها الكتب. ثم ابتسم لنا وهو يقول أنه يستعد للتقدم إلى اختبار بكلية أركان الحرب، ثم تطرق الحديث إلى التنظيم السياسى السرى الذى كنا جميعاً أعضاء فيه. وبدأ كما لو كان على معرفة به. وعندما هممت بالانصراف قال لى: « أود أن أراك مرة أخرى فى القريب العاجل. فهناك أشياء كثيرة سوف نتحدث عنها».

كانت أساليب عبد الناصر على قدر كبير من الحذر حتى أن خالد لم يدرك أنه يتعامل مع زعيم الضباط الأحرار، أو أن ابن عمه زكريا محى الدين كان أحد الأعضاء المؤسسين المسجلين فيه. لقد كان توخى الحذر هو الصفة المميزة لكل أنشطة التنظيم السرى. ولقد كان هناك بعض الضباط المتلهفين للقيام بعمل فورى، فقد اقترح أنور السادات، الذى كان قد زجت به السلطات

البريطانية فى السجن بسبب تعاونه مع اثنين من الجواسيس الألمان الذين ك
يديــران شــبكتهما مــن غواصة على النيل - اقترح أنه يقوم بنسف السفا
البريطانية إلا أن عبد الناصر اعترض بشدة على هذه الخطة، مذكراً إياه ب
الفعــل الذى جاء فى أعقاب اغتيال السير لى ستاك Lee Stack عام ١٩٢٤
وبدلاً من ذلك بدأ أنور يخطط لعمليات اغتيال سياسية. فبعد محاولة فاشلة ا
وضــح الــنهار للاعــتداء على النحاس باشا زعيم الوفد، الذى أظهر نف
كصــديق شــديد الإخــلاص للبريطانيين، قامت جماعة السادات الإرها
بالتركــيز، علــى السياســى التالى فى القائمــة: أمين عثمان باشــا وز
المالــية فــى حكومة الوفد إبان الحرب، والذى أهلته مجهوداته الراسخة ا
تحســين العلاقات الأنجلو مصرية للحصول على نوط الفرسان الإمبراطور
(KBE)(*) مــن لندن. وقد لقى حتفه على أيدى الضباط الأحرار. فعندما ك
يهــم بدخــول النادى الفكتورى العتيق وقت الغداء فى أحد الأيام أطلق ع
الــنار مــن مسافة قريبة. غير أنه ألقى القبض على القتلة. وصدر على أنو
الســادات الــذى ورد اسمه فى اعترافاتهم حكماً لمدة طويلة فى السجن.وب
هــذه الحادثة، شدد ناصر بقوة لوقف مثل هذه التصرفات، لأنها كانت تعرض
التنظــيم الســرى كله للخطر. وركز فقط على نسج خيوط الثورة بأحكام ا
هــدوء وفــى أماكــن نائية، وهو يتنقل من بيت زميل لآخر، دائم البحث ف
عيون شباب الضباط عن بريق التطرف التى تنم عن مرشح جديد. وفى أثن
ذلــك كان منكبا على تعليم نفسه أصول وفن الثورة، واضعاً الأسس للانقلا
الذى أخذ على نفسه بأنه سو يقوم به يوماً ما.

---

(*) هى اختصار Knightofthe Brtish Enpire

## الفصل السادس عشر

# أفول شمس العهد البائد

لـــم تكـــن كل الجماعات الثورية فى تلك الفترة تأخذ حذرها، فقد أصبحت جماعـــة « الأخوان المسلمون » فى ذلك الوقت، والتى يرجع تأسيسها أصلاً إلى عام ١٩٢٨ على يد الشيخ حسن البنا كحركة دينية لأحياء الإسلام، تعمل فـــى العلـــن كمنظمة متطرفة، تنشر نوعاً من التصوف العنيف، وأكثر صيغ الـــنظريات القرآنية تطرفاً، وكان المرشد العام يقطع البلاد وهو يتلفح بعباءته الحمـــراء التى تكاد تخفى أغلب أجزاء وجهة، وهو يلقى مواعظة ضد وجود الكفـــار والامتـــيازات الـــتى ينعمون بها، وعن فساد الأحزاب السياسة، وقد اعتـــبره بعـــض الناس أنه من أوليـــاء الله الصالحين، أما البعض الآخر فقد ظـــنوة غريب الأطوار Eccentric، غير أن سحر شخصية حسن البنا جعلت الآلاف مـــن الناس، وعلى رأسها العناصر اليائسة المتطرفة من حزب الوفد تتحدث بنفس النبرة التى كان الدراويش السودانيون يتحدثون بها عن المهدى.

وفى الأساس كانت رسالة الأخوان المسلمين رسالة انتقام وأمل: تميل نحو الهـــدوء فـــى العمـــل أكـــثر من كونها قوة ثورية. وكان الأخوان المسلمون واضـــحى المعنى بأنهم مستعدون للعب الكرة مع كل من القصر والبريطانيين بينما فى الظاهر يبدون وكأنهم يصبون اللعنات على كليهما.

ومـــنذ وقت مبكر حاول الضباط الأحرار، استطلاع إمكانية عقد اتفاق مع المرشـــد العـــام، لكن تبين لهم فى النهاية أنه رغم أن خطاب الدعوة ذا تأثير بلاغـــى جـــزل، موجـــه إلى الغلاة من الناس الذين أعمتهم الكراهية، إلا أن الأخـــوان المســـلمين فى الحقيقة ليسوا سوى صمام أمان نسبياً لنشر السخط الـــذى عـــاد يجـــتاح الأمة من جديد. ولهذا السبب ذاته لم تتخذ السلطات أى إجـــراء ضدهم إلى إن ثم اقتفاء أثر موجة من الاغتيالات نسبت إلى الأخوان المسلمين فى فترة ما بعد الحرب.

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية وجدت مصر نفسها كدولة قابلة للانفجار

تماماً مثلما كانت بعد حرب ١٩١٤ – ١٩١٨. فالجيش البريطاني الذى كان يتوجب عليه أن يكون طبقا لبنود معاهدة ١٩٣٦ قد توارى عن الأنظار ليتركز فى منطقة القنال، أصبح أكثر ظهوراً من أى وقت مضى. ولم يجد بقاء القوات طبقاً للمادة السابعة من نفس المعاهدة لتأمين وسلامة مصر غير قليل من السلوى من جانب أولئك المصريين الذى شعروا – ولهم بعض المبررات فى ذلك – أن بريطانيا والحلفاء يخوضون الحرب من أجل بقاء أنفسهم وليس من أجل بقاء مصر.

فقد كان فرض البوليس الحربى البريطاني لقواعد القانون العسكرى ذات القبضة الصارمة أحياناً فى كل مكان أمر يثيرالسخط. وذلك لما يقرب من اربع سنوات كاملة بعد انتهاء الخطر الذى كان تمثلة دول المحور لمصر. كما كانت هناك أسباب أخرى تبعث على السخط فمكاسب الحرب العارمة الأغنياء جعلت مرة أخرى أكثر غنى، فى حين ضرب التضخم الجماهير بشدة، ومن ثم زادت الهوة بين الطبقات الاجتماعية، فظروف الحرب حتمت مركزية التحكم فى الاقتصاد، وكذلك أدى تركيز كل شئون الأعمال فى القاهرة وحدها قد إلى تضاعف عدد سكانها فى أقل من خمس سنوات، بينما أدى العودة إلى الاستيراد إلى إغلاق الكثير من المصانع المحلية الصغيرة، والتى كانت قد ازدهرت أيام الحرب مما زاد من تضخم أعداد العاطلين. غير إن أكبر مصدر للسخط ربما كان عجز الحكومة الكامل. فالقيادة السياسية كانت لا تزال فى أيدى القصر والباشوات وكانت تسير من سئ إلى أسوأ.

فخلال الحرب وبعدها، استمر كبار الأقطاعيين يديرون إقطاعياتهم على طريقة الاستعباد الأقطاعى (فى العصور الوسطى)، وهم يجنون الدخول العالية من ارض الدلتا الثرية التى كان فى مقدورها أن تدر ثلاث محاصيل فى السنة وكان إنتاج الفدان الواحد يعطى دخلاً لا يقل عن خمسين جنيها. وفى أغلب الأمور أنه إذا قدر لأغلبهم أن يقوموا بزيارة لضياعهم، فقد كانت هذه الزيارة الروتينية عادة لمقر الدايرة فى القاهرة لمدة نصف ساعة عادة من أجل تحصيل بعض الأموال النقدية، وأجراء بعض المكالمات التليفونية

مـــع أصــــدقائهم فى الوزارة أو الدخول فى المراهنات على سباق الخيل التى تجرى عصراً، أو التحدث عن خصائص طراز حديث لسيارة ما، أو الحديث عن رحلة مزمعة إلى أوروبا. بعدها يقود الواحد منهم سيارته إلى نادى محمد علـــى للدردشــــة لمدة ساعة حول أمور السياسة قبل تناول الغداء. أما الإدارة الفعلية لاقطاعياتهم فكانت تترك فى أيدى الناظر الذى كان يمارس الغش من كـــل جانـــب، غـــير أنهم كانوا يعتمدون عليه فى متابعة الناخبين فى القرى المجـــاورة والذين كان أغلبهم يعمل فى الضيعة لكى يضعوا علامة الموافقة أمام اسم الباشا وقت الانتخابات.

وباســـتثناء بعـــض الشخصيات البارزة مثل طلعت حرب باشا الذى أسس مجموعة شركات مصر، وأحمد عبود الذى جعلته مجموعة شركاته الصناعية واحداً من أغنى الرجال فى العالم، إلا أن قليلاً من النبلاء المصريين غامروا فـــى مشروعات تجارية. فقد كانوا راضيين بترك الأعمال التجارية فى أيدى الأجانـــب، وأن يشرفوا بحضورهم من أن لآخر (بدافع المظاهر) اجتماعات مجالس الإدارة دون أن يعتريهم الخجل بأنهم مجرد أسماء، وربما كان السبب فـــى ذلـــك أنهـــم كـــانوا يشعرون بعدم الجدوى فى الدخول فى منافسة مع عـــبقريات رجـــال الأعمال الأوربيين واليهود فى مشروعات تتسم بالخداع، وربمـــا أنهم أحسوا بعدم الفائدة فى إقامة مشروعات جديدة فى سوق تخضع للـــتحكم الصارم، أو لأنهم لم يكن يعنيهم أبداً أى اهتمام جدى بالمشروعات، علـــى نحو أو آخر. ما الأرض، وممارسة السياسة كانا كافيين الفترة إقامتهم الموسمية فى القاهرة، وقضاء الصيف الطويل فى أوروبا.

كـــان الأجانـــب الذيـــن يملكـــون المصانع، وكذلك الأسر اليهودية الثرية أصـــحاب مســـتودعات البضائع، والمستوردون من الشوام، وبالمثل الملحقين الدبلوماســـيين يـــتحركون بحرية فى دوائر المجتمع الراقى يمارسون لعبة « الـــبولو » و«الجولـــف» و« التـــنس » فـــى فترة ما بعد الظهيرة، يتلو ذلك الحفـــلات الفارهـــة. فمنذ وقت قريب استرجع مصرى من رجال العهد البائد الذكريات بلهجة يغلب عليها الحنين إلى الماضى فقال: « هل تتذكر الفترة من ١٩٤١ وحـــتى ١٩٥١؟ كم كانت رائعة. فى كل مساء ثلاث حفلات كوكتيل،

وتناول الغداء في الأوبرج، ولعب القمار في نادى السيارات إنى أتذكر فاروق وهو يلعب الورق مع بطانته: محمد سلطان، باروك، النبيل إسماعيل، إميل عدس ومن على شاكلتهم، ففي كل دورة من دورات اللعب كان يلقى إلى المائدة ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني. وقد خسر توتو عدس في تلك الليلة ٣٠,٠٠٠ إسترليني. وهذا بالطبع لا يقارن كثيراً بما يحدث في نوادى القمار في مونت كارلو ولكنه كان يناسب القاهرة ».

ويكاد المرء يدهش مع وجود هذه المقامرات أن كان هناك عرف غير مكتوب يشترط على عضو النادى أن يثبت أنه مليونير، وأن يخاطب الأعضاء بعضهم البعض بلقب: صاحب السعادة!! كما كان عشاء ليلة رأس السنة من الشئون ذات الاعتبار، إذا كان يقدم في قائمة الطعام ثلاثين أو أربعين صنفاً. وكانت بارات الشمبانيا في كل حجرة، كما كان هناك بوفية دائم الخدمة على مدار الساعة لتقديم الوجبات لأى عضو لا يزال يشعر بوخزات الجوع، ولم يكن ذلك أمراً بعيداً عن المعتاد، فعندما تزوجت ابنة عبد الحميد الشواربى، اكتست أرضية الفيلا الشاسعة بالسجاد العجمى. وشمل البوفيه مائدة خاصة طولها ٢٠ متراً لتقديم الكافيار وحده الذى كان يقدم بوفرة كما لو كان عصيدة لآلاف الضيوف المميزين الذين رقصوا كل حسب اختياره على ثلاث فرق موسيقية. كانت معيشة الترف ذاتها Train de vie تمارس في منتجعات أوروبا كل موسم صيف، ولذا كانت شكوى اندريا بادروت Andrea Badrutt صاحب فندق البالاس أوتيل في سانت موريتز Palace Hotel, st Moritz بأن ثورة ١٩٥٢ قد دمرت تماماً مواسمه السياحية شكوى لها ما يبررها من أسباب.

ويجئ على رأس هذه الفئة المرفهة بل التى ينخر الفساد فيها شخصية الملك. فعندما جاء فاروق إلى العرش كان يحظى بشعبية عارمة تؤيده؛ فقد اتجهت قلوب الناس إلى ذلك الأمير الرشيق الأنيق الذى كان لا يزال في سن المراهقة، عندما استدعى للعودة من إنجلترا على إثر وفاة والده المفاجئة عام ١٩٣٦. وقد زاد من شعبيته زواجه من « فريدة » تلك الفتاة الجميلة التى كانت في مقتبل العمر. وتنعكس هذه الشعبية في ان آلاف الأطفال الذين

ولــدوا خــلال تلك الفترة تسموا باسمه، حتى ألد أعداء الحكم الملكى انجذبت قلوبهــم إليه خلال تلك الفترة، غير أن حصانة التعليم الذى تلقاه والذى توقف فجــأة وهو لا يزال فى سن السابعة عشرة لم يقدم له الحماية من الوقوع فى مســتنقع الفســاد الــذى كــان مبعثه تلك الطغمة المتشربة بالروح الإيطالية المــتواجدة بالقصر، كما أن الحرب تسببت فى حدوث انحسار «شيزوفرانى» تجــاه الولاء له. وربما كان فى استطاعته أن يتغلب على هذه المعضلة لو أن أكثر مستشاريه تعقلاً وهو حسنين باشا لم يلق حتفه فى حادث انزلاق شاحنة بريطانــية، أو ان اللورد كيللرن لم يواجهه فى يوم ٤ فبراير بطريقة جرحت كرامــته بوضعه أمام اختيار حاسم: إما التنازل عن العرش أو الانصياع التام لمطالــبه. فقد كان هناك أعضاء آخرون من الأسرة المالكة من أمثال الأمير محمد على، والأمير عبد المنعم بالذات على استعداد تام لأن يحلوا محله. كما كان الأمير عباس حلمى(*) يتفاخر وهو يكرر عدة مرات وهو جالس أمام بار نــادى السيارات حكاية أنه قبل حدوث هذه المباغتة المفاجئة Coup de main انــتحى بــه اللــورد كــيللرن جانباً وقال له هذا السفير: « أن الصبى يسئ التصــرف. وإذا قررنا إحداث تغيير.. هل عندك استعداد لتولى العرش؟ »: وقــبل أن يجيــبه عــباس أشعل سيجاره « الباراتاجاس » وقال: « ولو أننى أيضـــاً أسأت التصرف هل ستستبدلوننى بالأمير محمد على أو عبد المنعم ». عــندئذ رد كيللرن بصرامة: « أظن أننا سوف نفعل ذلك!» عندئذ نفث عباس دخان من سيجارة ورد قائلاً: « إن الأمر كما لو كان يبدو نكتة! » قالها بشئ مــن السخرية والاشمئزاز. غير أن السفير لم يكن فى مزاج يسمح له بتبادل الــنكات فـــى مثل هذه الأيام، إذ وجد عباس حليم نفسه بعد بضعة أسابيع إنه رهن السجن لمدة عامين بناءً على أمر مباشر من كيللرن وذلك لأنه أقام حفل شــامبانيا فى نادى السيارات ليلة سقوط طبرق فى أيدى الألمان. والحق يقال أنــه لم يقيم هذا الحفل متعمداً فى تلك الليلة: لكنه كان حفلاً أقيم على شرف «بوبى الخياط» أحد أعيان الأقباط الذى تصادف عيد ميلاده فى ذلك التاريخ. وكــان الحفــل قــد أعــد له منذ وقت طويل قبل وصول الأنباء من طبرق.

(*) كان لقب عباس حليم النبيل وليس الأمير (المراجع).

ويروى عباس حليم أنه بعد أن أطلق سراحه أخيراً، أن أول شخص قابلة فى نادى السيارات هو كيللرن الذى ربت علي ظهرة قائلاً بلطف: «يا فتاى العزيز: لقد مر دهر طويل منذ أن رأيتك آخر مرة.. أين على ظهر البسيطة. كنت؟».

وربما لم يكن حال فاروق أفضل من حال ابن عمه لو لم يستسلم إلى الإنذار البريطانى فى مساء ذلك اليوم من شهر فبراير، إذ تحول هذا الحادث ليصبح نقطة تحول فى التاريخ المصرى، لأنها لم تكن فقط بداية العمل المعترف به بالنسبة لحركة الضباط الأحرار، بل كانت أيضاً اللحظة التى تنازل فيها (الملك) عن شخصيته، فمنذ تلك اللحظة فصاعداً يتفق المراقبون على أنه توقف عن الاهتمام بشئون الدولة تماماً، واتجه مواسياً نفسه بالملذات الشخصية، ويمارس بسخرية لعبة الملوك، جاعلاً مآدب الولائم فى حالة من الاستعداد من أجل أغراض ملذاته الخفية Boutades، لقد كان أمراً مسلياً بالطبع أن يقدر الواحد على وصف كيف أن فاروق كان يقود عربته الستروين السوداء من طراز جانجستر Gangster وهو يدور عدة مرات حول ميدان الأوبرا وهو يسير فوق الرصيف، يستخدم بوقها المصمم بحيث يشبه صوت صراخ الكلب الذى دهسته سيارة. أو أن يصور ما حدث فى استراحة وادى النطرون عندما وصل رهط ملكى فى منتصف الليل وهم يعيثون فى المكان فساداً. وكان من بين وسائل تسلياته عمل قوائم لكبار رجال الأعمال الذين تواروا عن الأنظار لأن فاروق كان يسعى وراء زوجاتهم، وكان من بين الطرائف التى تناقلتها الألسن حكاية الملك عندما كان فى زيه المدنى وقد أطلق لحيته عندما تلقى صفعة على وجهة من إحدى السيدات التى ظننته ضابطاً بحرياً على أثر قيامه بقرص مؤخرتها. كل هذا ما كان ليحسن من صورة التاج.

ولقد تطور لديه مزاج ساخر Falstaffian ازداد مع ازدياد حجمه كان يهيىء له فرصة المزاح من آن لآخر على حساب البريطانيين، إذ حدث ذات مرة فى نادى صيد الطيور والأسماك الملكى Royal Shooting & Fishing Club، والذى سمح لرجال الخدمة العسكرية من جيوش الحلفاء بالعضوية

المؤقـتة فيه، غير أن الشرطة العسكرية للحلفاء قررت ان يكون الدخول إليه وقفاً على الضباط وحدهم. وصل القائد العام البريطانى بصحبة عدد من كبار الضـباط جميعهم متألقون بالشرائط الحمراء، وقبعاتهم ذات اللون الذى يجمع مـا بين لون صفار البيض وبياضه، باستثناء واحد أقل منهم فى الرتبة وهو بدرجـة مقـدم. ومـن على مائدته على الجانب الآخر من القاعة كان الملك فـاروق ينظر إلى كبار الضباط بامتعاض، ثم فتح الباب فجأة ودلف جنديان نفـر من نيوزيلاندا وساراً حتى جلساً على إحدى الطاولات، وطلباً أن يشربا البـيرة. وكـان مـن الواضح أنهما غير مدركين لملامح الغضب التى كانت تـرمقهم من طاولة القائد العام، وبعد برهة قصيرة، نهض المقدم بإيمائه من الجنرال، وسار إلى طاولة الجنديين وقال لهما وهو يدون أسماءهما وأرقامها: « أنه محظور عليكما الدخول إلى هنا. وعليكما مغادرة المكان فوراً! » وقبل أن ينهض الجنديان النيوزيلنديان أقبل كبير الأندال مهرولا وهو يحمل زجاجة شـمبانيا كبـيرة مـن نـوع « الفيف كليكوت » الفاخر Veave Clicquot وبأنخنائه رسمية إلى الجنديين، وضح لهما وهو يملأ كأسيهما بالشمبانيا. «مع تحـيات جلالة الملك »، « وفى مقابل نظرات الغضب من طاولة القائد العام قابلتها ابتسامه ملكية متكلفة.

وأحـياناً كانـت المضايقات تصل إلى حد العلن، فقد روى عن الملك أنه أبـدى ملحوظة فى النادى السورى، بدون وجه حق – فى حق اللورد كيللرن عـندما قـال: « أنـه من الأفضل للورد كيللرن ألا يجلس على مائدة القمار نهائـياً مـا لم يكن لديه النية لتسديد ديونه ». أو ما حدث فى أثناء حفل كان يقـام فى إحدى شقق الزمالك عندما أمضى فاروق المساء وهو يلقى بقبعات الضباط البريطانيين من الشرفة مسدداً مسدسه نحوهم بينما انبطحوا أرضاً!.

لقـد استمر الهزل الملكى الماجن فى جو البذخ لدرجة إخلاء الشوارع من حـركة المرور لمدة ساعة أو أكثر قبل أن يندفع فاروق مسرعاً فى عربته « الرولز رويس » القرمزية اللون، وقد اعتاد أعضاء نادى السيارات أن يجدوا وهـم يسـلمون قـبعاتهم وطرابيشهم غير مكترثين لطاولة البواب وقد جلس علـيها الملـك وهو يلتهم طبقاً من القواقع، فأى شئ كان متوقعاً من فاروق.

ففــي إحــدى المناســبات الرسمية فى منتصف الصيف، كان عدد من كبار رجــالات الدولة يصطفون ليقدموا أنفسهم للملك وكان من بينهم زوجة طبيب مشهور، وكانت شابة جذابة، وعندما جاء دورها انحنت بشدة لتجد أن فاروق قــد وضع يده على كتفها مانعًا إياها ومنعها من النهوض، ثم قال لها بطريقة ودية: « يا له من يوم حار، دعينى أقدم لك شيئاً مرطباً » ثم تناول قطعة من الثلج الموضوع على المائدة من خلفه وأسقطها بين ثدييها.

ومــن بين الطرائف التى كان مجتمع رجال الأعمال فى القاهرة يتندرون بهــا ما حدث ذات مساء فى شرفة « الروف جاردن » فى فندق سميراميس، عــندما تصــادف وجود حفل أقيم بمناسبة زيارة رئيس شركة «الكوكاكولا»، فى نفس الوقت كان هناك حفل آخر يقام احتفاءً برئيس شركة «البيبسى كولا » وهــو موقف مناسب رأى أن لا يفوته. فبعد لحظات جمع كل الحاضرين، وأمــر بــتقديم لرئيس شركة الكوكاكولا كأساً من البيبسى، بينما قدم للمسئول عــن شــركة البيبسى كولا كأساً من الكوكاكولا، ومع كل منها بطاقة تقول: «مع تحيات صاحب الجلالة». وكان يرفع كأسه ليشرب فى نخب كل منهما، واضطروا مجبرين على شرب كل منهما فى نخب منتجات الطرف الآخر.

كــان لعــب القمــار من أهم نزوات الملك فاروق، فكثيراً ما قضى الليل بطوله على موائده، وهذا يعنى أن أحداً من المقامرين لا يستطيع الانصراف، وإذا تصــادف وكانت « البرتيته » غير مكتملة، عندئذ كان يذهب بنفسه إلى بــيوت الــناس ويطلق نفير سيارته حتى ينتزعهم من أسرتهم. لقد كان يقامر بشــئ مــن التمـيز، وكثيراً ما يلجأ إلى الغش رغم أنه كان فى الحقيقة هو الخاســر. وبعــد قيام الثورة عثر على مفكرة فى قصر عابدين سجل فيها انه فــى سنة واحدة خسر ٨٥٠,٠٠٠ جنيه استرلينى. ولما كان يكره أن يخسر، يكــن يتوانى عن التلاعب فى الورق لصالحه، حتى أن بعض رجال الأعمال الذيــن كــانوا يعتمدون على مكرماته كانوا يخفون أنفسهم تماماً عندما تصبح صحبته مكلفة لهذه الدرجة. ففى إحدى المناسبات الشهيرة فى نادى السيارات ســحب ثلاثة « ملوك » من ملوك الكوتشينة، وراهن على عشرة آلاف جنيه

فــــى هــــذه الـــدورة، وسرعان ما تصاعدت أرقام الرهان، ولما طلب منه ان يكشف عن ورقة، عندما كشف منافسه عن ثلاثة ملوك وعشرتين بينما كشف فاروق عن ثلاثة ملوك مخفياً فى اليد الأخرى بعض الأوراق الرابحة سحبها مـــن المـــائدة، عـــندئذ احتج اللاعب الآخر، غير أن الملك رفض احتجاجه، وأصـــر اللاعـــب الآخـــر علـــى موقفه قائلاً: « يا صاحب الجلالة »: « أن أوراقـــى تـــتفوق علـــى أوراقك فليس لديك سوى ثلاثة ملوك »! عندئذ رد فاروق بلهجة ملكية: « أنا الملك الرابع! » وعبأ جيوبه بمبلغ الرهان كله!!!.

كانـــت النساء هن أكبر نزواته بلا شك، فمنذ يوم زفافه على فريدة الجميلة والـــتى تحملـــته طويـــلاً، كان زواجه على حافة الهاوية. فقد توالت قائمة لا تنـــتهى بمـــن ارتـــبط بهـــن، ولم يمض وقت طويل حتى توقف التأييد للملك ليـــتحول إلـــى مجرد أضحوكة فجة. وقد ذكر أحد مؤرخى سيرته حديثاً أنه خـــلال حـــياته القصـــيرة نسبياً (مات الملك فى سن الخامسة والأربعين) أقام اتصـــالاً جنسياً مع ما يزيد عن خمسة آلاف امرأة!! ولم يعد سراً فى القاهرة أن شـــطحاته فى هذا المجال كانت من باب التظاهر، فأقل ما قيل كما أدعى بعض الناس إلى أنه كان عاجزاً جنسياً برغم كل أفعاله: لكن ذلك لم يكن من بـــاب الحقـــيقة لأن المشكلة كانت أنه كان غير ناضج، وهذا بلا شك يحسب لصالح شذوذ سلوكه لدرجة كبيرة.

لقد كان فى كل نادى ليلى فى العاصمة، طاولة فى جانب خاص محجوزة علـــى الدوام للملك، لكـــى يتأتى لفاروق أن يشرفه بحضوره بين حين وآخر علـــى حـــد مـــا كانت تشير إلى ذلك الصحف، وكان فى يصحبه اثنان من الياورات اللذان قد يكلفان بحمل رسالة ملكية إلى أى امرأة شابة تستولى على خـــياله، وكثـــيراً مـــا كانت النتائج مربكة، ولكن الويل كل الويل لأى غريب يعترض على هذه الطريقة التى يتقدم بها.

ففـــى إحدى المناسبات التقط مغنية كابارية، وخلال دقائق كان يسرع بها فـــى عربته الكاديلاك ذات الغطاء القابل للطى فى الطريق المؤدى إلى مصر الجديـــدة، حيـــث انتحى بعربته جانباً فى مكان يناسبه ومشبوه غير مطروق،

وبـــدأ يمـــارس معهـــا الجـــنس فى المقعد الأمامى للسيارة بطريقة روتينية وبتصـــرف لا يلـــيق إلا بطالـــب جامعى مراهق. وكما حدث، كانت شرطة الآداب تحرس المكان فى تلك الليلة، ولفت هذا المنظر غير المعتاد والمشبوه فجـــأة أضواء سيارة الشرطة، عندئذ سحب فاروق مسدسه من جرابه، وأطلق بجنون وابلاً من الرصاص تجاههم، في نفس الوقت كان يضغط على دواسة البنزيـــن لينطلق بسرعة جنونية مبتعداً بينما كانت سيارة الشرطة تقتفى أثره وتطـــارده، وعـــندما إجـــبر أخيراً علي أن ينعطف فى ركن ويتوقف، ونزل الضـــابط مـــن ســـيارة الشرطة متجهاً نحوه وهو مكفهر الوجه متأهبا لإلقاء القـــبض عليه، فوجئ أن شجاعته تخونه وهو يواجه جسد مليكه السمين الذى قام بصفعه علي وجهه وجرده من مسدسه، ثم أطلق وابلاً من الرصاص نحو ســـيارة الشرطة مطلقاً قهقه مدوية، ثم عاد إلى عجلة القيادة وانطلق بسيارته بسرعة حتى اختفى فى دياجير الظلام.

وفـــى مناســـبة أخرى مشابهة، وقع هو ومن كانت معه فى كمين نصبته عصابة من قطاع الطرق فى أحد الطرق الفرعية المتجهة إلى الريف بالقرب مـــن حلـــوان، ولمـــا كانت العصابة تجهل هويته، فقد قامت بسلبهما من كل نفائســـهما. بل كانت العصابة على وشك من أن تقطع رأسه لولا أن زعيمها صـــاح بـــازدراء: « كفى دعوا ذلك الخنزير السمين فهو لا يساوى المجهود الـــذى يـــبذل فى قتله ». وفى صباح اليوم التالى، وضعت كافة قوات شرطة القاهـــرة فـــى حالـــة طـــوارئ. وفى الوقت المناسب ألقى القبض على أفراد العصـــابة. وتنفـــيذاً لتعليمات صادرة من فاروق نفذ فى أفراد العصابة حكم الإعـــدام فى نفس الموقع فيما عدا زعيمهم الذى صدر الأمر بجلده مائة جلدة لمجـــرد أنـــه أشار إلى مليكة بلفظ «الخنزير السمين» ومنحه ألف جنيه لأنه أبقى على حياته.

وأحـــياناً كـــان لطيشه جانب شرير، ففى إحدى المرات، وجد ضابط شاب برتـــبة نقيـــب، ومتزوج من فتاة جميلة نفسه منقولاً فجأة إلى السودان، وبعد مـــرور أربعـــة أســـابيع تمكن الضابط من الحصول على أجازة لبضعة أيام، وعـــندما فـــتح باب شقته علته الدهشة، إذ وجد قائد قوات حرس الملك، وهو

برتبة لواء سئ السمعة، يجلس فى حجرة المعيشة، وبعد أن تبادل معه لدقائق محادثة مهذبة، اتجه إلى حجرة النوم، عندئذ صاح رئيس الحرس بلهجة حادة « إيـــاك أن تدخـــل!» فـــأخذت الكبرياء الضابط الشاب، وكرر اللواء القول: «إنـــى أحـــذرك!»، وهو يسحب مسدسه: « إياك أن تفتح الباب! » وعندما وجد الشاب نفسه وقد جحظت عيناه يندفع إلى داخل حجرة نومه، رفع اللواء مسدســـة وأطلـــق رصاصة سقط بعدها الضابط قتيلاً فى مكانه، وقال الذين يتهامســـون الأســـرار « إنهـــا لجريمة وحشية »، ولكن المهم أن الذى كان يضاجع الزوجة فى الفراش هو الملك نفسه ».

كـــان الملـــك لا يزال يستند إلى ولاء الجيش (ومؤمنا نفسه بوجود القوات البريطانـــية المعســـكرة فـــى منطقة القناة) ومحاطاً ببطانة فى القصر يتزايد عددهـــا وهـــى ذات سمعة سيئة، وأخذ هذا الملك - ضخم الجثة - يزيد من مجونه على الملأ، دون اعتبار لما تبقى مـــــــن كرامـــــــة العرش. وكانت النتـــيجة أنه لم يعد لديه أى أوهام (بالبقاء على العرش) فيما يبدو، إذ سرعان مـــا أصـــبح مغـــرماً بتكرار مقولته: « لن يبقى من الملوك فى العالم سوى خمس: ملك إنجلترا «وملوك الكوتشينة الأربعة» وهم: ملك القلوب King of hearts، وملـــك البســـتونى King of Spades، وملـــك الديـــنارى King of Diamonds، وملـــك الأســـباتى (الوردة المثلثة) ». وكلما مر الزمن تضاءلت ســـلطة نفوذ وزرائه فى حين تزايدت أهمية مجلسه الخاص الذى كان يتكون من خادمه المعنى بملبسه (الشماشرجى)، وحلاقة، وسائقة الخصوصى، وقليل مـــن الآخرين، وكان هؤلاء يتلاعبون بالوزراء، ويمنحون الترقيات بطريقة فجـــة أثناء قيامه بالترتيب له لارتباطاته الشخصية، هؤلاء. هم رجال السلطة فى المراحل الأخير من حكم فاروق!!

وفـــى ربـــيع عام ١٩٤٩، بينما كانت القاهرة تغلى وتزيد بسبب الإحباط الذى سببته مهزلة حرب فلسطين، تمكن هؤلاء من إقناع الملك بان الوقت قد حـــان لكى يتزوج من امرأة ثانية. فقد أثار طلاقه - الذى تم وحرب فلسطين عـــام ١٩٤٨ فـــى ذروتها - الرأى العام، لكن كان ضرورياً لهيبته أن يكون لديه وريث ذكر يرث العرش من بعده، وقد هز فاروق كتفيه تعبيراً عن عدم

اكـــتراثه، إذ لم يكن يعنيه أن يتزوج بأى امرأة أخرى، غير أنه أخبرهم أنهم ما داموا مصرين على ذلك – فهم على دراية بذوقه وعليهم أن يبحثوا له عن زوجة مناسبة.

وبعـــد مـــرور بضـــعة أيـــام، دلـــف خطيبان فى مقتبل العمر إلى محل جواهـــرجى مفضل عند الملك ويقع محله فى شارع سليمان باشا لاختيار دبل خطوبـــتهما، وكـــان للفـــتاة وجـــه صغير ممتلئ الوجنات، ومفعمة بالحيوية والنشـــاط ولهـــا قوام ملتف Rounded وذات بشرة شركسية بيضاء كالقشدة. وبيـــنما كان يعرض عليهما صوانى « الخواتم » خطرت فجأة فكرة فى عقل الجواهـــرجى. ومن داخل مكتبة أدار قرص « التليفون » طالباً الرقم الخاص بـــالملك، وقـــال له: « يـــا صاحب الجلالة أظن أننى قد عثرت على ضالتك المنشـــودة الـــتى تريدها » ورد عليه الملك أنه سوف يحوم حول المكان فى الحـــال، وعلـــيه أن يطيل بقدر ما يستطيع بقاء الفتاة، خلال ذلك الوقت كان الخطيـــبان قد استقر رأيهما على الاختيار. وبأسلوبه الناعم أصر الجواهرجى أن يريهم كل ما عنده، وبعد مرور ما يقرب من نصف ساعة لمح الملك وهو يخـــتلس النظر من خلال فترينه العرض وهو يتفحص الفتاة مقيماً إياها، وبعد لحظـــة التقت عيناه بعينى الملك وأعطاه إشارة الموافقة بضم أطراف أصبعة الســـبابة إلـــى إبهامة فى شكل دائرة، عندئذ شرع الجواهرجى بالقيام بالدور الموكل به. ومن داخل خزانه أخرج خاتما ثميناً من الألماس النادر، واستبدله بالخاتم المتواضع الذى كانت الفتاة قد وضعته فى إصبعها، بينما علت الدهشة الشاب، ثم همس (الجواهرجى) قائلاً: « هذا أمر صاحب الجلالة!! ».

هكـــذا كانـــت الظروف التى أصبحت فيها ناريمان – فتاة مصر الجديدة– آحر ملكة على مصر.

ومـــنذ ثلاثـــة سنوات سبقت، أقنعت سلسلة من أعمال الشغب البشعة ضد الـــتواجد المستمر للجيش البريطانى فى القاهرة القيادة العامة – ضد رغبتها الشـــديدة – أن الوقـــت قـــد حان لأن يقولوا وداعاً إلى حياة الدعة فى شبرد ونـــادى الجزيرة الرياضى. وفى الرابع من شهر يوليو (وهو يوم مشهود كما

يعرفه الأمريكيون) وبعد عشرة سنوات كاملة متأخرة عن التاريخ الذى حددته معاهدة ١٩٣٦، قام القائد العام للقوات البريطانية بتسليم مفتاح القلعة الفضى إلى رئيس الأركان المصرى، ثم غادر بعد تناول الغداء إلى مقر قيادته الجديد فى صحراء «فايد» الجرداء فى منطقة القناة.

ولقد أزاح رحيل وجادلهم القوات البريطانية، وما تلاه من عقد مفاوضات أعطت خلالها حكومة المستر أتلى Atlee الانطباع باحتمال الجلاء أيضاً عن منطقة القناة الكثير من السخط الكامن فى نفوس الضباط الأحرار[٢٥] إذ شعر بعضهم أنه فى قدرتهم الاسترخاء، إلا أن جمال عبد الناصر اعترض بشدة على مثل ذلك القول، وجادلهم بأن أهدافهم لن تتحقق حتى يغادر آخر جندى بريطانى أرض مصر، أما فى الحقيقة فقد كانت أهدافه تمتد وقتذاك إلى ما هو أبعد بكثير من ذلك، فقد كانت فكرة الثورة جزءاً لا يتجزأ من وجدانه، وظل يخطط بقدر كبير من الصبر والحيطة، مستطلعاً بسرية كاملة كل الاتصالات الممكنة، وكما يتذكر ثروت عكاشة: «لقد كان حقاً دينامو.. دائم العمل والقراءة والنقاش» مستبقاً اللحظة التى يقوم فيها بانقلابه اليائس ضد شئ بدا لناظرية أنه يخنق روح البلاد.

غير أن جماعة الضباط الأحرار وجدت نفسها فجأة ى عام ١٩٤٨. تتورط فى مغامرة من نوع مختلف. فقد صوتت الأمم المتحدة بالموافقة على تقسيم فلسطين. وكانت بريطانيا قد أنهت انتدابها فى الخامس عشر من شهر مايو، وأعلن اليهود قيام دولة إسرائيل المستقلة، واصدر العرب أوامرهم إلى قواتهم للسير إلى فلسطين. لقد كانت حرب فلسطين بالنسبة لأغلب الضباط الأحرار تجربة ملتهبة، فقد لقى خلالها الكثير منهم مصرعه أو تلقى جروحاً، وكان البعض منهم قد ذهب إلى جبهة القتال يملؤه الحماس الوطنى، ولكن عندما عاد كان قد تجرد من الوهم وأصبح أكثر نضجاً، أما البعض الآخر مثل اللواء محمد نجيب الذى تلقى جرحاً للمرة الثالثة، والصاغ جمال عبد الناصر الذى تلقى جرحاً هو الآخر قد حققاً شهرة لنفسيهما غير أن الحملة كانت إخفاقا يدعو للسخرية، فالبرغم من شتى أنواع التحريض والإثارة التى

أذاعها راديو القاهرة فى شكل تقارير تتحدث كيف أن القوات المصرية قد قامت بتدمير كيبوتزات العدو: « وهى تهتف عاش الملك فاروق القائد الأعلى المظفر للجيش! ». أما الحقيقة فإن أغلب القوات ولت هاربة لأنها لم تكن مسلحة تسليحاً مناسباً، وذلك لأن قيادتها العليا كانت خالية تماماً من الفكر العسكرى، وقلما غادرت القاهرة، كما أن أسلوب نقل الجنود وإعاشتهم كانت فى حالة من الفوضى التى لا أمل يرجى من ورائها. فقد لقى المصريون هزيمة على يد جيش صغير من الإسرائيليين رغم تفوقهم عليه بنسبة خمسين إلى واحد، ولم يصمد سوى جيب صغير بالقرب من غزة، وبذلك أنقذ الجيش المصرى بأكمله من إهانة الهزيمة، ولد وجد فى عملية الصمود فى الفالوجا كثير من الضباط الأحرار أنفسهم محاصرين من بينهم: ناصر، وعامر، وزكريا محيى الدين، وصلاح سالم، وعكاشة، وجدوا الفرصة التى حقق من خلالها الصاغ جمال عبد الناصر شهرته العسكرية من خلال هجوم مضاد مندفع منع الإسرائيليين من اجتياح المواقع المصرية. فلقد أصبحت الفالوجا بالنسبة له رمزاً، فقد كتب فيما بعد فى « فلسفة الثورة » يقول: « هذا هو وطننا هناك... إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير... وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء وغرر به، ودفع إلى معركة لم يعد لها، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات»(*). كما كانت كلمات صديقه أحمد عبد العزيز أحد الضباط الأحرار الذى لقى مصرعه فى الجبهة ترن فى أذنه وهو يحتضر قائلاً: «إن ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر(**)».

عاد جمال عبد الناصر من الجبهة وهو يحمل نفوراً وكراهية للحرب، مقسماً أنه لو كان الأمر بيده « لفكر ألف مرة قبل أن يقحم مواطنيه فى الحرب إلا إذا لم يكن هناك من خيار عندما يكون شرف الأمة وسلامتها معرضين للخطر، ولا يوجد شئ آخر على إنقاذها سوى المعركة ». عندئذ وفى هذه الحالة يقرر العودة لحمل السلاح. لقد عاد هو ورفاقه وهم يتحرقون

(*) فلسفة الثورة – نفس الطبعة السابقة ص ١٤.

(**) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٣.

غضباً من « مؤسسة » الفساد الشامل فى القاهرة التى ورطت مصر فى هذا الموقف الشائن، بل كانت تتكسب علانية الأموال من ورائه، ولم يعد سراً أن القصـــر الملكـــى نفسه كان مشوش الذهن فى صفقات سلاح مشبوهة قدمت خلالهـــا معـــدات فاسدة لتزود بها القوات المسلحة، وشعر الجيش أن قادته قد غـــرروا بـــه عن طريق خيانته وفى جو الهزيمة الحزين الذى لا يقدر على التغطية عليه أى قدر من الدعاية واستعراضات النصر، تلاشت آخر شذرات الثقة فى العهد البائد.

مـــنذ وقـــت طويل كان الأخوان المسلمون يجنون ثمرات هذا القلق العام، وربمـــا كان فى استطاعتهم تدبير انقلاب ما لم يأمر رئيس الوزراء بقمعهم، وبعد مرور شهر اغتيل النقراشى باشا فى مبنى وزارة الداخلية رغم أنه كان محاطاً بضباط الحراسة، وقام خليفته عبد الهادى باشا باتخاذ خطوات صارمة ضـــد المتطرفين، فقد زج فى السجن بكل قيادات الشيوعيين، أما الآلاف من جموع أعضاء الأخوان المسلمين فقد وضعهم فى معسكرات الاعتقال. وكان اغتـــيال حسن البنا جزءاً من خطة التطهير، حتى تنظيم الضباط الأحرار كان علـــى وشك من أن يكشف أمره، بل قام رئيس الوزراء باستجواب جمال عبد الناصـــر نفســـه لاشـــتباهه فـــى وجود مؤامرة يدبرها الجيش بالاشتراك مع الأخـــوان المســـلمين، غير أنه بطريقة ما اثبت براءته من هنا الاتهام مذكراً مســـتجوبيه فى عاصفة من الغضب الدال على استقامته بأنه قد عاد لتوه من جبهة القتال من أجل بلده، ورغم أنه سمح له بمغادرة المكان حراً طليقاً، لكنه ظـــل لوقـــت طويل والعيون مركزة عليه، ولم يحول دون الكشف عن ثوار الجيش سوى الحرص الشديد بالإضافة إلى قدر كبير من حسن الحظ.

ومـــا أن قـــام إبراهـــيم عـــبد الهادى ورجال البوليس السرى بمحاصرة العناصـــر الإرهابية، حتى حاول القصر أن يمتص غضب الرأى العام وذلك بإعادة الوفد إلى السلطة. وعلى الفور سنّ النحاس باشا عدداً من الإصلاحات الاجتماعـــية الـــتى شـــملت توزيـــع أراضـــى الحكومة والأراضى الملكية وتخصيص ميزانية للمحتاجين، غير أنه سرعان ما تبين أن الوفد قد عاد إلى ألاعيبه القديمة، ذلك لأن معظم المنتفعين كانوا من أقارب حرم النحاس باشا

وأقارب بعض الوزراء، وزاد على ذلك فضيحة لم يكن من الممكن إخفاؤها، وهـي التلاعـب بسـوق القطن فى الإسكندرية فى أعقاب الحرب الكورية، ولأبعـاد انتـباه الـناس عن فساد الوفديين كان لابد من إطلاق سحابة دخان لإخفائهـا. وبما أن للنحاس باع طويل وقديم فقد كان يجيد اللعبة ويعرف ما يجـب عملـه بالضبط. فدق الطبول ضد الوجود البريطانى كان على الدوام الطريقة المؤكدة لتحويل انتباه الرأى العام عن المشاكل الداخلية القائمة. وففى الثامـن من أكتوبر عام ١٩٥١ ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد، تلـك المعاهدة التى كان قد وقعها بنفسه، معلنا أن فاروق ملكاً على السودان كما هو ملك على مصر.

كانـت تلـك الخطوة غاية فى الخطورة لأنها كانت تناسب هدف الحكومة كصـمام أمان تنفث من خلاله العواطف المشبوبة. ولم يكن لدى النحاس نية لإعـلان الحرب على إنجلترا والتى كانت تعتبر حماقة منه إذا ما وضع في الاعتـبار قـوة القـاعدة المتواجدة فى منطقة القناة، غير أنها أعطت مجالاً لاسـتخدام سـخط الغـلاة فى القيام بعمليات فدائية ضد البريطانيين ولوضع بعـض المـزايا السياسية لصالحه عند بدء المفاوضات، وكما هو متوقع فقد تحولـت الجماهـير مـن الهتاف ضد جرائم الوفد لتندفع إلى الشوارع وهى تهتف: « يسقط البريطانيون ويحيا الوفد ».

وما أطلقت عليه صحف القاهرة بصيغة المبالغة: « معركة القناة » لم يكن يـزيد عن سلسلة من « تكتيك اضرب واجرى » قامت به العناصر الفدائية، فقـد كان من وجهة نظر النحاس أنه من الأفضل استخدام الأخوان المسلمين والشـيوعيين، وذوى القمصان الخضر التابعين لأحمد حسين فى إلقاء القنابل الـيدوية على قوافل الحراسة البريطانية، أو القيام بخطف اللوريات العسكرية مـن وإثارة القلاقل فى العاصمة، غير ان الجيش المصرى لم يشارك فى هذا العمـل بالرغم من أن الضباط الأحرار كانوا يقومون سراً بتقديم ما يقدرون عليه لمساعدة هذه الجماعات السياسية.

وبـناء على إصرار السفارة البريطانية قامت قوات الحامية فى أول الأمر

بالرد المضاد على هذه الأنشطة (والتى لم يزد عن أكثر من أحداث مضايقات أقــرب إلى التهديد) بما لا يجاوز الدفاع التقليدى عن النفس، فقد كان واضحاً للســفير أنــه لا يمكن تحقيق أى مكسب إذا ما فقد الإنسان أعصابه، ولسحق هــذه الجماعــات السياسية كان الأمر يتطلب التحرك خارج منطقة المعاهدة والــتى يمكــن حلهــا بالدبلوماســية حلاً وسطاً. وأنه بمجرد البدء فى حملة عســكرية، قد تتصاعد إلى الاحتلال العسكرى الكامل للبلاد. والذى لا يناسب مــن الناحــية العملــية فى الظروف القائمة (وهى حقيقة واضحة أغفلت عام ١٩٥٦).

كــان لصــبر الجنرال « إرسكين Erskin » القائد العام للقوات البريطانية حدود، فقد كان رجلاً عسكرياً وليس سياسيًا، وعندما تبين له على إثر هجوم علــى نقطة تموين فى التل الكبير – أن قوات البوليس الاحتياطية (بولوكات الــنظام) كانــت تعمل فى الخفاء جنبًا إلى جانب مع الفدائيين، قرر أن يلقنهم درســاً لا ينســوه. ففى الساعة السابعة من صباح أحد الأيام ضرب الحصار بالدبابات حول قيادة البوليس فى الإسماعيلية ووجه إنذاراً إلى قوات بولوكات النظام بتسليم أسلحتهم والاستسلام.

وقــد وصلت أنباء هذه التطورات إلى سراج الدين وزير الداخلية وهو فى الحمــام، وبكبرياء يتجاهل حقائق الموقف أصدر أوامره على الفور بالقتال « لآخر رجل ولآخر رصاصة ».

وفــى الخــامس والعشــرين مــن يــناير قاومت بلوكات النظام بشجاعة وبســلاحهم غــير المتكافــئ لدرجة تثير الشفقة حتى نفذت ذخيرتها. وما أن قدمــت الساعة الحادية عشرة حتى كانت مقر قيادة بلوكات النظام كومة من الحطام. فقد لقى أربع وستون جندياً من قوات البوليس مصرعهم بينما جرح مائة آخرون.

وقــد حــذر الأصدقاء المصريون أن الموقف جد خطير بالنسبة للأجانب، وما ان أقبل فجر اليوم حتى ساد إحساس ثقيل بالغثيان وبالقدر المشئوم، وبدأ

بضعة آلاف من المتظاهرين الغاضبين - إلا أنهم كانوا منظمين - يتجمعون بالقرب من الجامعة بينما تم نقل طابور من سيارات الرولز رويس التى تبرق فى شمس الشتاء المشرقة من صالات العرض فى وسط المدينة إلى موقع أقل تعرضاً للخطر. وعلى وجوه رجال الشرطة فى بزاتهم السوداء علت نظرة تشف عن تهكم وهى التى كانت عادة تعلوها الابتسامة. وفى الدواوين التى كانت عادة تعج بالصخب كان هناك وجوم حذر. ومع اقتراب الثالثة بعد الظهر كانت هناك سحابة كبيرة ذات لون رمادى تميل إلى السواد تتصاعد فوق المدينة وتتجه تدريجياً جنوباً الأهرامات. وجاء صوت متشنج على الهاتف يصرخ: « كل شئ يحترق.. أنهم يحرقون كل شئ... القاهرة كلها مشتعلة... كل شئ قد تحطم! » وسرت شائعات غاضبة عن حدوث مذبحة للأجانب. وفى وسط هذه الصدمة وهذه الكارثة الغامضة جاء صوت النحاس يعلن الأحكام العرفية. وبعد الكارثة قام بجولة وهو غائب الذهن فى شوارع المدينة التى أضحت أطلالاً يتصاعد منها الدخان، وشوارعها مليئة بالحطام المبعثر، لا شئ فيها سوى قطع الدبش وحطام الأشياء التى التوت بفعل النيران حيث كانت معالم المدينة الشهيرة قائمة. كانت الجماهير صامتة وقد علتها الكآبة وفى عيونها بريق شرير ينم عن الثأر. أنه يوم السبت الأسود فى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢، فى ذلك اليوم انفجر بركان الغضب الذى كان محتزناً منذ عقود فى شكل محرقة للانتقام. اشتغل فيه إطار العهد البائد بأكمله وغطته سحب الدخان.

الفصل السابع عشر

# حركة الضباط الأحرار

قد لا يمكن أبداً معرفة العقل المخطط لحريق القاهرة تماماً مثل استعراض كـل الحقـائق حول حادثة اغتيال الرئيس كنيدى التى لم يصل فيها أحد إلى تفسـير واضـح حتى الآن فبعض الناس يعتقدون أنه من تدبير الملك لتشويه سـمعة الوفـد ، بيـنما البعض الآخر يعتقد أنه من تدبير الوفد لتشويه سمعة الملـك . أو مـن عمل الشيوعيين على أمل الاستيلاء على الحكم من خلال أحداث الفوضى ، بل اقترح بعضهم الذين تتحكم فيهم غريزتهم اللاإرادية بأن أيـدى البريطانيـين الـتى تمتد إلى كل مكان ، بأن وراء ذلك كانت السفارة البريطانـية . وأكثر الأجابات احتمالاً أنها نتاج حريق ذاتى من تدبير مؤامرة صـامتة وغـير مسئولة دبرتها السلطات والمتطرفون من كل صنف واتجاه للقـيام بمظاهـرة شيطانية فقدوا السيطرة عليها تماماً بطريقة سارت بها نحو الكارثـة ، وكمـا يتضح من الموقف أنه كان فى الإمكان تجنب ذلك كله كما حـدث فـى موقف مواز بالإسكندرية حيث حالت الإجراءات الصارمة التى اتخذها محافظها مرتضى المراغى من وقوع أى عمل فوضوى .

فطـوال اللـيل أدت أنـباء مذبحـة بلوكات النظام إلى غليان الدماء فى العـروق. فمـنذ الصباح الباكر بدأت الجماهير تتجمع فى الميدان الكبير أمام الجـامع الأزهر . حشود هائلة تمثل كل عناصر السخط : الإخوان المسلمون والشيوعيون ، والاشتراكيون من ذوى القمصان الخضر ، والعامة من الناس مـن لابسى الجلابية ، جميعهم يزأرون طلباً للثأر . ولم يكن فى مقدورهم أن يعلمـوا أن مجلس الوزراء قد اتخذ قراراً فى جلسة عقدت عند منتصف الليل بقطـع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى ، والقبض على ثمانين من الإنجليز المقيمين كرهائن وسرعان ما تبين لهم أن رجال البوليس بدلاً من أن يـنهالوا على رءوسهم بالهراوات كما اعتادوا قد انضموا إليهم فى المظاهرة بالفعل . ومن ثم لم يكن أمامهم عائق خاصة بعدما خطب فيهم وزير الشئون الاجتماعية من شرفته قائلاً : "أنه يومكم سنثأر لكم ! » .

ولمعظـــم ســـاعات الصباح لم تقم الجماهير بفعل شئ خطير غير الهتاف بالشعارات . لكن قبل الظهيرة وقع حادث هو الذى أشعل فتيل الحريق . ففى شـــرفه كاباريه بديعة فى ميدان الأوبرا ، جلس أحد الضباط يحتسى الويسكى فـــى صحبة إحدى مضيفات الكاباريه . عندئذ وجه إليه أحدهم اللوم لأنه يمتع نفسه بهذه الطريقة المبتذلة بينما رفاقه يذبحون فى الإسماعيلية ، ووقع بينهما شـــجار ، فاندفعت الغوغاء إلى داخل الكاباريه ، وصبوا البرافين على الأثاث الموجـــود فـــيه، وفى لحظات كانت النار تتأجج فى المكان . وفى نفس ذلك الوقـــت تمامـــاً كانت سيارات الجيب المعبأة بالرجال والبرافين تجوب أنحاء العاصـــمة المختلفة ، وبدأت المشاعل تؤجج النيران بطريقة منظمة من مكان إلى آخر . وكان تركيزهم بوجه خاص على الشركات والمؤسسات المعروفة بأنهـــا إمـــا بريطانية أو يهودية ، ولم يعرف أحد هوية هؤلاء بالرغم من أن شخصية رجل شرير محترف إشعال حرائق – قيل أنه من السفارة البولندية– كان دائماً متواجدا فى قلب أى مظاهرة .

وفـــى نـــادى "التـــيرف » Turf Club الـــبريطانى حيـــث اعتاد عدد من المترددیـــن علـــى تناول مشروباتهم المعتادة قبل تناول الغداء كان من بينهم القـــائم بالأعمال الكندى والمستشرق الشهير جيمس كريج James Craig . إذ لـــم يكـــن أحد ياخذ أعمال الشغب مأخذ الجد ، فقد شاهدوا من قبل مثل هذه الأشياء.

ويسترجع "دينيس بيـــرش » Dennis Birch وكيل شـــركة فورد ذكرياته: "فجـــأة ظهـــر ســـائقى فى البار ، وأصر على مغادرتى المكان فوراً بل أنه جذبـــنى مـــن ذراعى تقريباً لإخراجى إلى سيارتى ، ولو كنت بقيت دقيقتين لكـــان حـــدث ما حدث » . إذ اندفعت الجماهير إلى مبنى النادى ، وبللت كل شـــئ فـــيه بالبترول ، ثم أشعلت عود ثقاب ، وقد حاول سبعة من الأعضاء الهـــروب بينما كانت النيران تمسك بثيابهم ، ولكنهم اجبروا على العودة إلى داخل المبنى مرة أخرى. وهلكوا وسط النيران.

فـــى ذلك الوقت كانت المبانى فى كافة أنحاء وسط المدينة مشتعلة ، وكان

الأوربـيون يهربون بطـرق تشيب لها الولدان . فمثلا مدير شركة جيه أرثر رانـك J. Arthar Rank التى كانت تمتلك دار سينما ريفولى تعرض للمطاردة عـبر الدهاليز من جانب عصابة من الرجال المسلحين بالسكاكين ولم يسعفه بالهـرب سـوى القفـز من نافذة فى الطابق الثانى . أما فى صالات عرض شـركة القاهرة للسيارات فقد ثقب مضرمو النيران السواتر الحديدية الثقيلة ، وأحرقوا السيارات فى الشوارع قبل أن يضرموا النيران فى المكاتب . وذكر أحـد الحراس أنه : "عندما وصلت عربات الأطفاء ، قاموا باستخدامها لفتح البـترول على المبانى وفى ثوان قليلة كان كل شئ تشتعل فيه النيران » لقد كانـت الوسـائل التى اتبعوها تتسم بالعنف حتى أن اثنين من مثيرى الشغب حاصـرتهم النـيران بالداخل وحرقوا حتى الموت . وكذلك انتشرت مناظر مشابهة فى كل أنحاء المدينة .

وربما أكثر ما حدث من إثارة ذلك الذى حدث فى فندق شبرد ، الذى كان لوقـت طويـل قـبلة المسافرين . فخلال ساعات الصباح اقبل لورى محمل بالرجال قدموا أنفسهم إلى الإدارة على أنهم فرقة من البلدية جاءوا لرش الـ د. د. ت. ، ثـم قاموا برش مسحوق فى معظم الحجرات ، لكنهم فى الحقيقة كانوا يستخدمون مادة سريعة الاشتعال ، وعندما وصل مضرمو النيران قرب السـاعة الثالـثة من بعد الظهر ، لم يستغرق منهم سوى دقائق حتى تشتغل النـيران فى كافة جوانب البناء الكبير الممتد . كم من الزوار حوصروا وسط النيران فى حجراتهم لا أحد يدرى؟، فقد دمرت السجلات مع تدمير الفندق.

ولمعظم ساعات النهار استعر الجحيم بلا سيطرة على الإطلاق . وفى قمة أحـداث الشـغب كان رئيس الوزراء النحاس باشا يتلقى العناية بأظافره من متخصص بيدكير "Pedicure » . وكان الإجراء الوحيد الذى صدر منه خلال هـذه الساعات هو أنه أرسل عربة مصفحة لإحضار حرمه من عند مصفف الشـعر الخاص بها فى قصر النيل ، أما فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فقد كـان مختلـياً فـى مكتـبه الخـاص يتفاوض على شراء ضيعة بالفرنكات السويسـرية . وعـندما وصلته الأنباء قام على الفور بالاتصال هاتفياً بالقائد العام للقوات المسلحة فى قصر عابدين، غير أنه لم يستطع الوصول إليه لأن

الملك كان يقيم حفل غداء لأربعمائه من كبار ضباط الجيش احتفاء بمولد ابنه الأمير أحمد فؤاد ، ولا يريد إزعاج أحد من الحاضرين فى الحفل. ولم يكن قبل الغسق عندما قامت أولى فصائل الجنود بمحاولة جاءت متأخرة لإعادة النظام. وخلال ذلك الوقت كانت رعاع القاهرة تفتش حولها فى الحطام باحثة عن أى شئ يمكن التقاطه ، واستمرت أعمال السلب والنهب طوال الليل . وعندما حل الإرهاق الكامل بمثيرى الشغب لدرجة التوقف ، كان تقريباً كل بار ، أو دار سينما أو كاباريه فى المدينة قد دمر تماماً . وانهار أو اتلف بفعل الحريق ما يقرب من أربعمائة بناية . وبدا وسط المدينة كما لو كان قد تعرض لقصف جوى . وحقيقة الأمر أن ما حدث كان مقدمة لثورة لم تسفك فيها دماء .

وكبطيخة كبيرة انشطرت مصر إلى شطرين ، لأن كل واحد كان يرى أن الثورة ترشح من كل بذرة . ولقد نجح الملك فى تشويه سمعة الوفد مرة أخر، عندما اعتبر النحاس مسئولاً عن أحداث يوم السبت الأسود لكنه فى نفس الوقت كان قد أشعل فتيل قنبلة موقوته أسفل كرسى العرش ذاته فلم تعد رعاية الله تحيطه بسياج .

فى الأصل وضع الضباط الأحرار تاريخ التحرك نحو هدفهم للقيام بأنقلابهم تاريخاً متأخراً من عام ١٩٥٢ . فجمال عبد الناصر لم يخطط لضربته ما لم يكن متأكداً تماماً من نجاحه نجاحاً كاملاً . فقد وضح للآخرين قائلاً : «من ناحية المبدأ أنا لا أقوم بفعل ، إنما أنا أقوم بالرد على الفعل فقط» . كانت الظروف فى صالحهم فى تلك اللحظة ، غير أنه تبين لهم أنه حتى ولو قدر لهم النجاح في الاستيلاء على الحكم ، فأن مجموعة الضباط غير المعروفة قد تفشل تماماً فى كسب الرأى العام ، وكذلك القبول العام بها سواء داخل مصر أو خارجها . وقبل كل شئ فأن الجيش البريطانى يعسكر على مقربة من العاصمة . ومن المعروف أن الوحدات البريطانية كانت قد وضعت فى حالة تأهب للتحرك نحو القاهرة عند أول أمر يصدر إليها إذا ما تصاعدت أعمال الشغب . فقد كان الجيش البريطانى هو الخندق لاخير لتأمين سياسة القصر . وفى لحظة اليأس فأن الملك قد يدعوهم للتدخل إذا

وجد عرشه فى خطر . أما على الجانب الآخر فأن المتآمرين كانوا يراهنون علـــى أن البريطانييــن أنفسهم قد ضاقوا ذرعاً بالملك فاروق وبطانته لدرجة المـــوت ، وأنهم سوف يرحبون بقيام "دكتاتورية العسكر » بشرط أن تحظى بالاحـــترام ( هذا الاقتراض كان حقيقيا تماماً : فقيادة القوات البريطانية كانت دائمـــاً تعتـــبر الجيش أهم الركائز فى البلاد التى يمكن الاعتماد عليها ، ربما لأنهم شعروا أنه قد تلقى تدريبه إلى حد كبير على الأسلوب البريطانى ، وما كان الضباط الأحرار فى حاجة ماسة إليه هو العثور على شخصية ذات هيبة ووقـــار لتكون الواجهة – رجل من الجيش قادر على كسب احترام على نحو واسع.

وأول اسم رشح لهذا الدور راعيهم القديم – ذلك الثعلب العجوز . «عزيز المصـــرى» الذى كان قد حاول مساعدة روميل فى الحرب لكنهم أدركوا أن العمـــر قد تقدم به ، ومضى على تقاعده زمن طويل ، أما الشخص الثانى فى القائمة فقد كان اللواء فؤاد صادق الذى أثبت جدارته فى حرب فلسطين : وما كـــادوا يقـــررون الاتصال به حتى فاجأتهم الأنباء بأن الملك فاروق قد عينه رئيســـاً للأركان. وبناء على اقتراح من عبد الحكيم عامر فقد طرح اسم قائده المباشر اللواء محمد نجيب ، ووافق ناصر على الفور بأن ذلك اختيار ممتاز ، فقد كان قائد سلاح الحدود ذو القلب الطيب والذى كان يدخن الغليون يمثل رمـــز البطل فى الجيش ، فلقد جرح ثلاث مرات بدرجة خطيرة فى فلسطين حـــتى أنهم فى إحدى المرات تركوه بعد أن ظنوا أنه قد لقى مصرعه . كما كان الرجل الوحيد الذى يحمل فى صدره آثار ثلاثة جروح غائرة ، كما كان على اتصال بحركة الضباط الأحرار عن طريق مساعده عبد الحكيم عامر ، وكانـــت بـــادرة الشك من جانب ناصر هل هذا اللواء ذو الرتبة العالية سوف يقبل أن يكون مجرد واجهة ؟ ، إلا أن عبد الحكيم عامر أعاد التأكيد له على هذه النقطة .

كـــان الضـــباط الأحرار آخذين فى الظهور شيئاً فشيئاً ، فمنذ عام ١٩٥١ أصـــبحت الحركة غير شرعية لمجرد أن قادتها كانوا غير معروفين ، وكان بعـــض المشـــاركين ذوى عقلية تنظيمية قد تتفوق على عقلية ناصر يريدون

تأسـيس أنفسـهم فـي هيئة رسمية لها مجالس وخطط وبرامج ، وقد رفض ناصـر ذلـك بشكل مطلق ، وكتقدير له وافقوا أن يصبح على رأس مجلس تنفيذى ، والذى بالرغم من تغير أعضائه من آن لآخر كان عادة يعرف باسم «مجلـس التسـعة»، وعلى أى حال لم يكن هناك أى شئ رسمى بخصوص ذلـك . كـان العضوان الوحيدان فى هذا المجلس اللذان يعرفان أسماء جميع الضـباط الأحـرار هما ناصر وعامر . كانت المسالك إليه موصدة بطريقة سـرية حتى لا بوليس الملك السرى ولا وزارة الداخلية كان لدى أيهما أدنى شك فى أن لناصر يد فى الحركة حتى مجئ يوم الثورة .

ولمـا كـان من المحال عقد اجتماعات جماهيرية أو العمل فى العلن، فقد بـدأوا يوزعـون منشـورات تهـاجم تبذير الملك وإسراف الحكومة . وهذه المنشـورات كانـت تكتـب بمشـقة على الآلة الكاتبة المحمولة عن طريق أصـبعين، والـتى كانـت تخص زكريا محيى الدين ، ثم تنسخ . وتنقل إلى ثكنات الجنود ، وتحت مقاعد سيارات الضباط . وبعد برهة تجرأوا واصبحوا يوزعونهـا عن طريق البريد العلنى بالرغم أنهم كانوا بجرأة يرسلونها دائماً مـن صناديق بريد متباعدة لدرجة أن نسخاً منها أرسلت إلى القصر ووزارة الداخلية التى كانت مهمتها الأولى قمع المؤامرات.

إن مثل هذه النشاطات كلها كانت معروفة ، غير أن ناصر كان يعرف أن هناك شيئاً جوهرياً ضرورياً كشرط لاختبار القدرة الحقيقية للضباط الأحرار، ربما كان عددهم الشامل ما يقرب من ألف ، لكن كان يتوجب استطلاع رأى الجيش كله لقياس مدى تأييده الكامل فى حالة حدوث حركة التمرد . ومن ثم اختـير نجيب كمرشح لمنصب حساس من الناحية السياسية وهو رئيس نادى الضباط فى الزمالك . وانتشر الترويج بوجوب أعطاء الأصوات للرجل الذى يحمل ثلاثة جروح فى صدره . أما مرشح الملك فقد كان اللواء حسين سرى عامـر والـذى كـان مكـروها بشدة بسبب دوره فى بعض صفقات السلاح المشـبوهة . ولقـد بدات الإجراءات على غير توقع ، وذلك بالوقوف ثلاث دقـائق فى صمت فى ذكرى أحد الضباط الذى لقى مصرعه على يد البوليس

السرى ، ثم بدأ الأعضاء يعطون أصواتهم ، وفاز نجيب إذ حصل على أكثر من ثمانين فى المائة من مجموع الأصوات .

كـــان ذلـــك بمثابة صفعة مريرة تلقاها الملك الذى ألغى على الفور نتيجة الانـــتخابات الـــتى أظهرت إلى أى اتجاه تهب الريح ، فلم يعد فاروق يعتمد علـــى ولاء الجـــيش . ولقد أكد ذلك بشدة محاولة اغتيال اللواء حسين سرى عامـــر وظهور خنجر مثبت به مذكرة على مكتبه فى قصر عابدين وكانت المذكرة تقول : «قريباً جداً ستكون أنت الهدف ذاته ، وليس فى ظهرك فقط» وبالمثل كان من المحال بالنسبة لناصر أن يؤجل التصرف لأبعد من ذلك إذا ما أراد أن يهرب من المصيدة التى كانت يعدها بوليس القصر السرى . ولقد كان مرتضى المراغى الذى أصبح أقوى رجل فى وزارة الداخلية على وشك مـــن أن يضـــع يداه على صلب حركة الضباط الأحرار . وكان الملك يناور ليعيـــن صهره إسماعيل شيرين وزيرا للحرب. كل بات ينذر بحدوث كارثة ، فقد حدث أن نقل عدد من الخلايا الداخلية للضباط الأحرار إلى وحدات بعيداً عـــن القاهـــرة ، والحصار المحكم كان يضيق عليهم ، وأصبح الأمر مجرد أيام. وأن الضربة سوف تنزل بهم فى أى لحظة .

فـــى مطلع شهر يوليو غادر الملك وبطانته القاهرة لقضاء أجازة الصيف للاستمتاع بنسيم الإسكندرية المنعش ، وتبعه الوزراء والهيئات الدبلوماسية ، وطـــبقاً للتقالـــيد المتبعة منذ زمن طويل ، فقد كانت فترة خمول واستجمام ، حيـــث يكـــاد أن يصل خلالها نشاط الحكومة إلى أدنى درجة. ولكن فى ذلك العـــام جعل التغيير الوزارى المستمر كل شئ عند حافة الهاوية. وفى القاهرة بدأ مناخ الصيف الخانق معبأ بالتهديد .

ويـــروى ثـــروت عكاشة – أحد أعضاء الخلية الداخلية للضباط الأحرار: «وفـــى العاشـــر مـــن شهر يوليو جاء إلى منزلى كل من جمال وخالد(محيى الديـــن) وطلـــبا مـــنى ، كمـــا كانا يفعلان فى أغلب الأحيان – أن أدير لهم إســـطوانه رمســـكى كورساكوف Rimsky - Korsakov "شهر زاد » ، وكان جمـــال ينصت كما لو كان يحلم ، وعندما توقفت الأسطوانة نهض ورفع أبرة

التشغيل عن الأسطوانة . ثم قال فجأة : «سوف نضرب ضربتنا فى مطلع الشهر القادم» .

فلقد كان الخامس من أغسطس هو التاريخ الذى اختاره وذلك بسبب رئيسى وهو إتاحة الفرصة لهم لقبض مرتباتهم فى نهاية شهر يوليو . وما كاد القرار أن يتخذ حتى اعترى ناصر الشك . فقد كان يقلقه أن عدداً كبيراً من رجاله الأساسيين قد تفرقوا ، أو متواجدين فى أماكن بعيدة . فبعد أسبوع ذكر أمام المجلس أنه يخشى أن يفشل الانقلاب وأنه من الأفضل أن تكون هناك موجة من الاغتيالات .

وبينما كانوا فى حالة من الحيرة ، دق جرس التليفون فى العشرين من يوليو فى مكالمة بعيدة من الإسكندرية ، ويستطرد ثروت عكاشة فى مذكراته: «لقد كان المتحدث هو صهرى أحمد أبو الفتح (محرر جريدة المصرى) الذى نقل إلى أن حسين سرى على وشك من تقديم استقالته من رئاسة الوزارة ، وأن الملك يعمل على فرض تعيين اللواء سرى عامر على الوزارة كوزير للحربية . وأن أربعة عشر فردا من رجالنا مطلوب القبض عليهم».

هكذا لم يكن هناك من خيار ، وكان عليهم أن يتصرفوا فى الحال . ومما يدعو للدهشة أن الحكومة لم تكن على دراية بما يحدث حتى فى هذه المرحلة المتأخرة. ففى العشرين من يوليو أدلى حسين سرى بملاحظة إلى مساعدة العسكرى فى لهجة يغلب عليها المزاح : "لقد نما إلى علمى أن هناك بعض القلاقل فى الجيش فهل هذا صحيح ؟ » ولقد علت الدهشة وجه مساعده بحق إزاء هذه المعلومة وأجاب قائلاً : "يا صاحب الفخامة : أننى لم ألاحظ أى شئ بنفسى». ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف عن التفكير كيف كان مخطئاً إلى هذا الحد .

كان مخططاً للثورة أن تتم على مرحلتين : المرحلة الأول وهى السيطرة على الجيش ذاته عن طريق قيام الفرقة الثالثة عشر مشاة باحتلال القيادة

العامـــة، بيـــنما تقـــوم وحدات الدبابات والمدرعات بالسيطرة على المراكز الحـــيوية مثل المطار، ومحطة الإذاعة ، وهيئة التليفونات ، وبعض المناطق الحيوية الأخرى . وما أن يتم ذلك حتى يبدأ التعامل مع الملك وحددت ساعة الصـــفر عـــند الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو حيث تكون شوارع العاصمة خالية ، ويكون كبار ضباط الجيش فى أسرتهم نائمين فى أمان .

وكمـــا يحدث فى كثير من الأحيان لأدق الخطط حيطة وحذراً ، وقع عدد مـــن المواقف غير المتوقعة فى اللحظات الأخيرة . أن أحداث ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ مرت كما لو كانت سيناريو لفيلم إثارة .

كانـــت الحرارة فى ظهر ذلك اليوم كالجحيم إذا ارتفعت درجتها إلي ١١٧ْ درجـــة فهرانيتـــيه(*). وتحولت القاهرة كلها كما لو كانت حماماً تركياً، ولأن محمـــد نجيب كان موضوعاً تحت المراقبة الدقيقة من قبل البوليس السرى ، فلـــم يكن متوقعاً له أن يلعب أى دور فى الانقلاب الفعلى . فقد أمضـــى عصر ذلـــك الـــيوم فى نادى التجديف الواقع على النيل . وما أن مالت الشمس نحو المغيـــب خلـــف الأهرامات ، وهب نسيم منعش قادم عبر النهر ، حتى جاءه أحد الصحفيين بأنباء مزعجة . فقد سمع لتوه من الإسكندرية أن الهلالى باشا ســـوف يشكل الحكومة وأنه انتوى إلقاء القبض على مجموعة من المتآمرين على رأسهم محمد نجيب .

وفـــى مكـــان آخـــر مـــن المدينة ، كان ضابط شاب يقرع باب شقة عبد الناصـــر – فـــى اللحظة التى انسحب فيها جمال ليرتدى بزته العسكرية . لقد كـــان النقيـــب ســـعد توفيق أحد الضباط الأحرار ، غير أنه لم يكن من بين الســـبعين ضـــابطاً المـــنوط بهم القيام بالانقلاب . وفقد شرح أنه كان مكلفاً بالخدمـــة فـــى وزارة الداخلية ، وأنه ظن أنه من الأفضل أن ينسل ليحذره . فلقد جاءت الأنباء من الإسكندرية أنه نما إلى علم الملك أن انقلاباً يخطط له، وأنـــه تحـــدث علـــى الهـــاتف لرئيس الأركان . وأن أمراً صدر لجميع قادة

(*) أى ما يعادل ٤٢ درجة مؤية .

الوحـــدات بالتواجد فى مقر القيادة بالقبة . ولقد اعترف ناصر أن "تلك كانت لحظـــة كريهة . وأن الخطوة الوحيدة التى يجب اتخاذها هى التصرف فوراً ، وبضـــربة حـــظ يمكـــن محاصرة القيادة العليا داخل مقرها » . ثم اصطحب النقيـــب توفـــيق معه ، وقفز إلى سيارته الأوستن السوداء الصغيرة ، واتجها إلى بيت عبد الحكيم عامر ليخبره بأن ساعة الصفر يجب أن تقدم من الواحدة بعد منتصف الليل إلى منتصف الليل إن أمكن . لكن كيف يوصل هذا القرار إلـــى الآخريـــن ؟ وفى صحبة عامر وتوفيق اندفعا مرة أخرى إلى الأوستن بحثاً عن أنور السادات غير أن الثورى أنور السادات ، ذلك الرجل الذى كان يتنفـــث الثورة منذ سنوات، كان قد اتخذ الحيطة بأن اصطحب زوجته وابنته إلـــى دار الســـينما(*) لكـــن لم يكن فى مقدرتهم غير ترك مذكرة بأن يتصل بعامر فى الحال.

كانـــت محطـــته الثالـــثة هى بيت أحد الضباط الأحرار الذى كان يختزن أســـلحتهم ، لكـــنه كان أيضاً خارج الدار ، واسترسل ناصر فى السباب وهو يهمـــس فى نفسه . هل كل مخططاته التى استغرقت عشر سنين من الإعداد الدقيق سوف تذهب سدى فى اللحظات الأخيرة ؟ . «وأمام ثكنات قصر النيل شاهد رجال البوليس فى زيهم الأبيض هم يصطفون . ولم يكن ذلك جزءاً من التخطيط ، وهرولت السيارة السوداء الصغيرة متجهة إلى المحطة التالية .

وفجـــأة ظهـــر اثـــنان من راكبى "الموتوسيكلات » من رجال البوليس ، وأمـــروهم بالتوقف إلى جانب الطريق ، ثم طلب أحدهما بوجه عابس أوراق مـــن بداخـــل السيارة ، ثم سأل ناصر عن السبب ورد رجل البوليس ببرود : أنـــك تقـــــــود السيارة والأضواء مطفأة – هل تدرى أن ذلك ممنوع ؟ "ولم يجب ناصر ببنت شفة ، فلقد نسى فعلاً أن يضىء الأنوار الرئيسية لسيارته . أمـــا رجل البوليس الآخر فقد تجول ببصره فى شك فى السيارة وتساءل عن ســـبب قـــيادتهما السيارة والأضواء مطفأة . هل فى نيتهما القيام بشئ خارج

(*) وهى سينما الروضة التى كانت قائمة فى شارع المنيل ( المترجم ) .

القانون أم أنهما هاربان من شئ؟ وبعد لحظات مجنونة كاد فيها مصير الثورة أن يحسم . فقد كان من قمة الغرابة فى هذه اللحظة الحرجة أن يقاد الزعيمان إلى مركز البوليس بسبب مخالفة مرور تافهة . واستمر رجلا الشرطة يتفحصان أوراقهما . وأخيراً بعد توجيه اللوم الشديد لهما ، ركب رجلا الشرطة الموتوسيكلات ، وتبادل الثائران ابتسامة عصبية. ثم اندفعا إلى هليوبوليس ليلتقيا بشركائهما فى المؤامرة .

وبعد دقائق ، شاهدا طابورا من الأضواء الأمامية قادماً وهو يهبط من الشارع الرئيسى من ناحية الثكنات الذى كان به ثلاث حارات للمرور ، وعلى جانبيه الأشجار. لقد كان من الصعب تبين من مسافة بعيدة من هم ؟ هل هم قواتهم؟ أم وحدات عبأها الملك فجأة ؟ وركن ناصر سيارته إلى جانب الطريق ليتأكد من ذلك . ومرت أولى العربات المحملة بلابسى الكاكى، ثم توقفت عربة قيادة فجأة ، وأحاطت وحدة من حاملى الرشاشات بالسيارة الأوستن ، وصوب ضابط شاب مسدسه نحو البكباشى ناصر ، بينما قال للنقيب عامر والملازم : توفيق "فى استطاعتكما الذهاب أما أنت فبرتبة بكباشى وجميع الرتب العليا سوف يلقى القبض عليها الليلة . أننى أسف لكن يجب أن تعتبر نفسك مقبوضا عليك عسكرياً !! » .

وقد حاولوا المجادلة لكن لم يكن من ورائها فائدة . تلك هى عقوبة الزعيم الذى يخفى شخصيته فى سرية تامة ! وصاح الضابط الشاب وهو يضغط على أسنانه لأحد الجنود : "خذه وضعه تحت الحراسة !! » . وفى هذه اللحظة توقفت عربة جيب ونزل منها قائد وحدة الرشاشات . لقد كان البكباشى يوسف صديق أحد أقرب الأصدقاء إلي عبد الناصر . ثم صاح : «ماذا يحدث بحق» فأجاب عبد الناصر متجهماً : «لقد القى رجالك القبض على ! » . وبسرعة لخص له الموقف حول الاجتماع الذى كان منعقداً فى مقر القيادة العامة وهنا صاح قائلاً : «هيا بنا لنمسك بهذه المجموعة كلها».

تحرك الطابور نحو مركز القيادة فى القبة ، وخارج مركز القيادة تولى عبد الحكيم مهمة تأمين العملية ، وسرعان ما حوصر ذلك البناء الجاثم فى

صمت ، ولبضع دقائق أبدى الحراس مقاومة شكلية ثم توقف إطلاق النيران. وهـــرول عامر وصديق وناصر صاعدين درجات السلم وقد أمسك كل منهم بمسدســـه، واندفعوا إلى مكتب القائد العام ، ولم يبد المقاومة فى الداخل سوى لـــواء واحـــد أطلق ثلاث طلقات من وراء ساتر فى أحد أركان الحجرة ، أما الباقون فقد رفعوا أيديهم مستسلمين دون أن ينطقوا بكلمة واحدة .

وخـــلال ذلك الوقت كانت دبابات حسين الشافعى تحتل محطة الإذاعة(*) والمطـــار ، بيـــنما اســـتولت ســـرية الفرسان التابعة لخالد محيى الدين على القشـــلاق الكبـــير فـــى العباسية . وبذلك أصبح فى إمكانهم توجيه ضربتهم، وبصـــرف الـــنظر عن المناوشة التى وقعت فى مقر القيادة العامة والتى لقى فـــيها جنديان مصرعهما. وهما الإصابتان الوحيدتان فى الانقلاب - سقطت القاهـــرة ومراكز أعصاب الجيش كلها فى أيدى الضباط الأحرار دون إطلاق طلقـــة واحدة وبالرغم من العثرات التى ظهرت فى اللحظات الأخيرة ، نفذت الخطة تماماً مثل عقارب الساعة . وعند الساعة الواحدة والنصف من صباح ٢٣ يولـــيو جلس ناصر - ذو الأربعة والثلاثين ربيعاً - والذى خطط للثورة لأكـــثر من عشر سنوات والتى لم يستغرق تنفيذها بالكاد ساعة - على مكتب رئيس الأركان ومعه حفنه من رفاقه ، وهم يواجهون مشكلة جسيمة لم يسبق لهـــم خوضها وهى إدارة شئون الأمة . ومن خارج النافذة كان هناك شخص يطأطـــئ رأسه ليتفادى طلقات الرصاص أكان ذلك انقلابا مضاداً؟ لا لم يكن ذلـــك ســـوى أنور السادات الذى كان قد عاد لتوه من السينما ، والذى أوقفه الحرس بدوره .

إن هذا النجاح الذى تحقق بسهولة فى لحظة حرجة لا يمكن تصديقها كان يتطلـــب تعزيزه . فأرسل ضابطان فى عربة مدرعة لإحضار محمد نجيب . وفـــى الســـاعة الثالثة كان اللواء يهرول وهو يصعد السلم وقد ارتسمت على وجهـــة ابتســـامة عريضة وهو يكرر كلمة : «مبروك ... مبروك » مصافحا

(*) فى شارع الشريفين بقصر النيل .

كل من يقابله . إلى أن قام أحدهم بتقديم سماعه التليفون إليه . لقد كان الهلالى باشا رئيس الوزراء يتحدث من الإسكندرية . وعلى مدى نصف ساعة راح يحاور نجيب عارضاً كل الإغراءات لكى يلغى الانقلاب ، فقد كان الهلالى يظن أنه يتعامل مع حركة تمرد صغيرة قام بها الجنود الساخطون والتى يمكن حل أسباب السخط بمنحهم بعض الحقوق . وعندما وضع سماعه التليفون كان قد أدرك أن الأمر أكبر مما كان يتصور .

كما جاءت مكالمات هاتفية أخرى أيضاً ومعها أخبار النجاح من خارج العاصمة ، غير أن ناصر كان يعلم جيداً أن المخاطر لا تزال هائلة . فقد كان يحدث عدد من الأشياء كانت قادرة على إصابة الانقلاب باخفاق تام . فقد كانت القوات البريطانية فى منطقة القنال تمثل الخطر الأكبر ، ومن أجل هذا السبب أرسل على صبرى إلى السفارة الأمريكية حتى قبل ساعة الصفر ليطمئن السفير ويحظى بتأييده ، إذ لم يكن من المحتمل أن يكون حدوث الانقلاب قد جاء مفاجئاً للأمريكيين . فقد كان مساعده جيفرسون كافرى Jefferson Caffery على اتصال سرى بالضباط الأحرار منذ وقت ليس بالقصير ، بالإضافة إلى ذلك مررت إشارة مقنعة إلى الملحق البحرى الأمريكى أثناء حفل كوكتيل كان قد أقيم قبل أسبوعين ، غير أنه من المؤكد أن تأثير «كافرى» فعل الكثير لتهدئه مخاوف السفارة البريطانية والتى كانت قد وضعت قواتها فى فايد فى حالة طوارئ . وأخيراً قبلوا أنه شأن داخلى لا يبرر التدخل .

ظل الطابق العلوى فى مبنى قيادة الجيش يتلالأ بالأضواء طوال الليل. ووسط مناخ من الإثارة والانفعال والتهانى ، اتخذت أولى القرارات . فقد تم الاتفاق على أن يلقب محمد نجيب بلقب : "القائد العام لقوات مصر المسلحة» وأن الثورة يجب أن تعلن باسمه . وخط عامر نص البيان على بعض صفحات كراسة مدرسية مهلهلة . وعلى عجل أرسل إلى الصحف . وفى الساعة السادسة صباحاً أذاعه أنور السادات على الهواء مباشرة من استديوهات إذاعة الحكومة المصرية والتى كان قد تم الاستيلاء عليها . هذا

بالنســبة للجانــب الأول. ثــم تلا ذلك مسألة الحكومة المدنية ، ولقد بدا على ماهــر الذى كثيراً ما تولى المنصب فى أوقات الطوارئ بأنه الرجل المناسب لــتولى تصــريف الأمور فى هدوء ، ويستطيع التعامل مع الملك . بالإضافة إلــى ذلــك فقــد كــان معروفاً أنه معاد للإنجليز . وللمرة الثانية ذهب أنور الســادات بصــحبة كمال الدين حسين حيث وجدا رئيس الوزراء السابق فى الحمــام . ولقــد كان الأمر شائكاً إلا أنه أمكن التوصل إلى اتفاق جعل نجيب يعلــن فــى أول مؤتمــر صــحفى يعقده أن على ماهر سوف يرأس مجلس الوزراء.

فى غداة اليوم التالى جاءت الأنباء من الإسكندرية بأن فاروق يخطط للقيام بــانقلاب مضــاد ، وقــد تــم اعــتراض رسالة لاسلكية موجهة إلى القيادة البريطانــية العامــة فــى فــايد يرجو فيها التدخل لحمايته . ومن هنا أصبح التخلص من فاروق ضرورة ملحة . وكان ناصر مصراً على ذلك بشدة . فقد اخــبر نجيــب أن على فاروق مغادرة البلاد خلال ثمان وأربعين ساعة على الأكــثر. غــير أن بعــض الضباط لم يكونوا مقتنعين بذلك بتاتاً . فقد كانوا يســعون وراء رأس فــاروق ففى خلال ساعات قليلة من الليل دارت مناقشة مثــيرة . كانــت فى الواقع محاكمة لفاروق. وردد جمال سالم كلمات عزيز المصــرى(*) الذى كان قد طلب منه المشورة حول أفضل الطرق للتعامل مع

(*) اسمه الحقيقى عبد العزيز زكى . ولد فى القاهرة لأبوين شركسين عام ١٨٧٩ وكفلته أخــته وهو فى الخامسة عشرة من عمره بعد وفاة والديه . حصل على البكالوريا من مدرســة التوفيقــية عــام ١٨٩٦ ، التحق بمدرسة الحقوق على غير إرادته ورغبته ونزعــته العسكرية . سافر إلى الاستانة حيث التحق بالمدرسة العسكرية وهناك اشتهر باســم عزيز المصرى . وذاع صيته كمحارب وعسكرى أثناء الحروب العثمانية فى الــبلقان عــام ١٩٠٤ حيــث ابــتكر هناك حرب العصابات ، كون مع مجموعة من الساخطين على السلطان عبد الحميد جمعية الوطن عام ١٩٠٦ التى أسفرت عن عزل السلطان ونفيه إلى خارج البلاد ونعيين السلطان محمد الخامس بدلاً منه . بدأ دعوته إلــى الوحــدة العربية والقومية العربية . اشترك فى الحرب التركية الإيطالية وتطوع

الملك. فقد قال آكل النار العجوز بازدراء: «إن رأس فاروق هى التى تهمنى بالذات بعد أن تسقط... إذا أردتم تطهير البلاد فعليكم بالقتل والاستمرار فى القتل » . غير أن ناصر نفسه حبذ فكرة النفى لأن الدماء ما أن تبدأ تسيل فلن يكون هناك من يقدر على وقفها . وأن الاعتدال سوف يحسن من صورة الثورة . "أن منظر الملك السمين فى نوادى أوروبا الليلية على الأقل سوف يبررها » . وفى النهاية تم التصويت ، فقد صوت ستة من مجلس قيادة الثورة بأن فاروق يجب أن يشنق ، بينما صوت سبعة بأنه يجب أن ينفى .

لمحاربة الإيطاليين فى ليبيا حيث درب قوات المقاومة الليبية بزعامة عمر المختار على أسلوب حرب العصابات . أقلقت ميوله العربية الدولة العثمانية فاعتقل وحكم عليه بالإعدام لكن أفرج عنه تحت غضب العرب العارم واعتراضات بريطانيا . انضم بعد ذلك إلى الشريف حسين بعد قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ . لكنه اختلف مع الشريف حسين فعزله عن القيادة فعاد إلى القاهرة عام ١٩١٧ . اختاره الملك فؤاد ضمن بعثه الإشراف على فاروق أثناء تعليمة فى إنجلترا . قضى معظم سنوات الحرب العالمية الأولى وما بعدها فى عدد من الدول الأوربية ثم عاد إلى مصر فى بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم وتولى عدداً من المناصب وحصل خلالها على الباشوية ورتبة فريق ، وعين عام ١٩٣٩ رئيساً للأركان وبعدها أحيل إلى التقاعد . وفى عام ١٩٤١ حاول مع اثنين من أصدقائه الهروب على طائرة من مطار ألماظة الحربى إلى خطوط القوات الألمانية بالصحراء الغربية إلا أن المحاولة فشلت وتم اعتقاله . وفى عام ١٩٤٨ استعاد نشاطه الوطنى حيث قام بدور هام فى تنظيم كتائب المتطوعين فى حرب فلسطين . وفى عام ١٩٥١ شارك كتائب التحرير الفدائية فى منطقة القناة . وعرف عنه أنه الأب الروحى لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . فقد تعرف على أنور السادات ثم جمال عبد الناصر الذى رأى فيه شبابه الثائر ، فعينه سفيراً لمصر فى موسكو عام ١٩٥٣ حيث شارك فى تسليح الجيش المصرى . وآخر مساهماته الفعالة هى وضع خطة لانسحاب الجيش المصرى من سيناء أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ فأنقذ بذلك جزءاً كبيراً من الجيش المصرى . توفى عزيز المصرى فى ١٥ يونيو عام ١٩٦٥ وتم تشييع جثمانه فى جنازة عسكرية ( المترجم عن غادة المصرى – من أوراق القرن العشرين ) الأهرام ١٩٩٩ .

وطار محمد نجيب وأنور السادات إلى الإسكندرية ، حيث سلما على ماهر إنــذار الجيش النهائى ، ولم يكن هناك أدنى خوف من إعلانه : كانت مقدمة نــص الإنــذار كمــا يلــى : "نظراً لفوضى حكمك وتعديك على الدستور، واحــتقارك لرغبة الأمة فأن الجيش الذى يمثل قوة الشعب قد أمر أن يتنازل جلالــتكم عن العرش لصالح ولى عهدكم . صاحب السمو الأمير أحمد فؤاد فــى هذا اليوم ٢٦ يوليو وأن عليكم مغادرة البلاد فى نفس اليوم قبل الساعة السادسة » . ويتذكر أنور السادات : "إن رئيس الوزراء عندما قرأه ، اعتلاه شــحوب الموت . وهمس بصوت خفيض: "أن فاروق لم يستمع أبداً لما قلته له . إنه ينال فقط ما يستحقه » .

لم يفصح على ماهر أبداً عما دار خلال مقابلته التى طالت مع فاروق فى ذلــك الصــباح . غير أن منظر الدبابات التى كانت تحاصر القصر وصوت إطــلاق الــنار أقنعته أن لا أمل فى المقاومة . ويذكر سليمان حافظ القانونى الــذى أعد القرار الفعلى للتنازل عن العرش أن فاروق فعل كل ما فى وسعه لكــى يــبدو هادئاً بالرغم من سعاله العصبى وارتباكه اللذين كشفا عن الفزع الــذى اعتراه . ففى المرة الأولى عند توقيعه على الوثيقة ارتعشت يده بشدة لدرجة أن توقيعه لم يكن ليقرأ ، فاعتذر وأعاد التوقيع مرة أخرى .

وقــبل حلــول الساعة السادسة بدقائق هبط فاروق من سلالم قصر رأس التيــن وهــو يمشى الهوينا مرتدياً الزى الكامل للقائد العام للأسطول ، تتبعه الملكــة ناريمان تحمل الملك الطفل بين ذراعيها . وكان الملك قد قضى فترة مــا بعــد الظهــر فى تعبئة كل ما استطاعت يداه أن تطوله . فقد حمل على اليخــت الملكــى ٢٠٤ حقيــبة وصندوق . وبناء على طلبه اصطحبه السفير الأمــريكى آمــنا إلــى السفينة . ثم قام أربعة من الضباط باصطحاب الملك السابق وهو يعبر الجسر وهم : محمد نجيب وجمال سالم ، وحسين الشافعى، وأحمــد شــوقى . ومهمــا أخفى فاروق من انفعاله خلف العدسات السوداء لــنظارته ، إلا أن صوته كان أجش ، عندما قال لنجيب وهو يصافحه : «ما فعلتموه بى ، كنت على وشك أن أفعله بكم... إنكم سوف تكتشفون فى الوقت المناسب أن حكم مصر ليس بالأمر السهل » .

وبعـــد دقـــائق تهـــادت "المحروســـة » بهيئتها الملكية للخروج من حدود الميـــناء، ثم توارت ببطيء إلى الأفق الصحو مع مغيب شمس الصيف تحت زئير الواحد والعشرين طلقة للمدفعية .

لـــم يكن ذلك مجرد نهاية لحكم الأسرة التى أسسها محمد على فحسب، بل كان بمثابة إسدال الستار على حقبة كاملة من تاريخ مصر.

## الفصل الثامن عشر

# من البكباشية إلى رئاسة الجمهورية

كان أول إعلان سمع به كل مصرى عن أن ثورة قامت باسمهم جاء من صوت أنور السادات من الراديو فى الصباح الباكر ليوم الأربعاء الموافق ٢٣ يوليو، فقد استمعوا إلى صوت الإرهابى القديم وهو يعلن: «اجتازت مصر فترة عصيبة من تاريخها الأخير من الرشوة، والفساد، وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش.. وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا... ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج»(*).

وسرعان ما تحولت الدهشة إلى حماس جياش عندما شوهد منظر محمد نجيب ذلك الرجل الطيب الذى يدخن الغليون يحيط به كوكبه غير معروفة

(*) ما ذكره المؤلف هو مقتطفات من البيان الأول للثورة، أما نص البيان فهو كالتالى:
«اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج».
«أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم فى الوقت مناسب، وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجرداً من أية غاية ، وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب إلا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن هذا ليس فى صالح مصر، وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس، وإنى اطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش مسئولاً عنهم. والله ولى التوفيق» نقلاً عن عبد الرحمن الرافعى (المترجم).

مــن شــباب الضــباط يقمصـــانهم قصيرة الأكمام : وهو يشق طريقه عبر الشوارع فى سيارة مكشوفة ، متوقفاً بين الحين والآخر لأداء موجة حارة من المصافحة وتقبيل الأطفال . فقد بدا كل ذلك تواضعاً يدعو للبهجة ، بعيداً عن الرسميـــات ، إذا ما قورنت بســلوك الملك المتغطرس الذى يدعو للسخط . ولم يكن هناك إحساس بعدم الأمان والتفهم إلا بين بعض الجاليات الأجنبية . إذ بـــدا لهم ذلك العالم الفــاسد الذى كانوا يعرفونه يتفســخ ويتشــقق ، بينما راح ســكرتيرو الســفارات الأجنبية القلقين يحكون رءوسهم وهــم فى حيرة مــن أمرهم ماذا يردون على البرقيات التى كانت تنهــال عليهم من الخارج، وكـــان المتخصصـــون فـــى الشئون العربية ، والبعثــة العسكرية البريطانية بـــالذات هــم أكثر الناس انزعاجاً ، إذ أنهم لم يعرفوا هوية الانقلاب. هل هو ببســاطة شــأن داخــــلى خاص بالجيش ، أم شـــئ يتعلق بانتخابات نادى الضـــباط ؟ فقـــد كان اللواء نجيب قد وقع فى خلاف مع الملك . وكان على اتصـــال بـــالإخوان المسلمين ، الذين كانوا يرددون منذ سنوات أن دكتاتورية عســكرية عادلـــة هـــى ما تحتاجه البلاد ، غير أن نجيب لم يكن واحداً من الضـــباط الذين كانت البعثة العسكرية تخطب ودهم للقيام بهذه المهمة ، فقـــد كـــان معـــروفاً عـــنه بأنه يميل إلى معارضة الإنجليز فى آرائه . والآخرون «فتـــيان» نجيـــب Naguib boys : أنـــور السادات كان قد وضع فى غياهب الســـجن خلال الحرب لنشاطاته النازية ، وكذلك لدوره فى اغتيال السير أمين عثمان ، أما خالـــد محيى الدين فكان يفترض أنه كان شيوعياً ، أما شوقى ، ويوســـف صـــديـــق ، فقد كانا معروفين بأنهما متهوران . كل شئ بدأ ينذر بســـوء الطـــالع خاصـــــة فـــى قلب موسم صيف شديد الحرارة ، غير أن الأمريكييـــن كانوا فى اطمئنان مؤكد . فقد بدوا وكأنهم يعرفون أكثر من أى أحد آخر عن الموضوع كله .

طار النحاس وفؤاد سراج الدين عائدين من أجازتهما الصيفية السنوية فى أكســـى – لـــى – بـــأن Aix - Les - Bains ، ليعلـــنا تضامنهما مع الثوار ، ويتنبأون بعودة الوفد للسلطة . وكانت هناك تقارير كل صباح أن « عصبة » الانقــــلاب العســـكرى كانت فى اجتمـــاع دائم طوال الليـــل . وفى منتجع

«كابـــرى» شجب فاروق استيلاء «الشيوعيين» على الحكم فى البلاد ، بينما امتدح راديو بوخارست حركة الشعب التى إنزلت ضربة بالإقطاع المصرى. وصـــدر قرار بإلغـــاء ألقاب «باشا» و « وبك »، وفى نفس الوقت تم القبض علـــى اثنـــيـــن مـــن قيـــادات العمل عندما ثارا فى مصنع للغزل فى « كفر الدوار » ، ثم نفذ فيهما حكم الإعدام(*).

ربمـــا كـــان الـــنظام «ســـلطويا»، لكنه لم يكن أبداً شيوعياً ، هكذا ردت التقارير من السفارة البريطـــانية على استفسارات لنـــدن ، ولكن بماذا يمكن أن توصف هذه العصبة، لم يكن ذلك فى مقدور أحد أن يخمنٍ بالضبط. على أى حال أضافت البرقيات آملة أن الضباط سوف يضعون حداً لمهزلة السيادة المصـــرية على السودان ، وأنهم سوف يكونون أكثر واقعية فى مسألة قاعدة منطقة قناة السويس.

حقـــا ، لم يكن هناك فى هذه المرحلة أى لون سياسى يغلب على الثورة إذ كانـــت مجرد ثورة «لابسى الكاكى»، فسرعان ما بدأ ظهور الزى العسكرى فـــى كـــل مكان : فى الشوارع ، فى المقاهى ، وفى النوادى . كما قام محمد نجيـــب بجولة ناجحة فى المديريات حيث كان يقابل فى كل مكان يتوقف فيه بعاصـــفة من التصفيق وهتافات « يعيش نجيب » ، بينما افترضت الصحافة ملمحـــة بأنـــه هـــو العقـــل المدبر للثورة كلها . ثم بدأت تركز على الملامح المألوفـــة المتواضـــعة لذلـــك اللواء ، ولم تعر سوى قليل من الانتباه لشباب الضـــباط الذيـــن كانوا يحيطون به ، فقد وضعهم «سيفتون دلمـــر» Sefton Delmer مراسل صحيفة : « لندن ديلى أكسبريس London Daily Express» بـــأنهم مجـــرد مجموعة تابعـــة له من « البكباسية » غير الأكفاء، ولم يدر يـــبال أحد أن هنا الجنرال كان مقيد السلطة تماماً مثل «دوج البندقية» قديماً(**)

(*) وهما خميس البقرى ( المترجم ) .

(**) لقـــب منصـــب حـــاكم جمهورية البندقية فى العصور الوسطى (القرن الثالث عشر) واسمه انريكو واندولو Enerico Dandolo ( المترجم ) .

إذ كـــان علـــيه أن يقدم تقريراً كل صباح للحشد المجتمع فى حجرة بالطابق العلـــوى فى مبنى القيادة العامة ، ومن هنـــاك يتلقـــــى تعليماته من الصبية «The Boys» الذيـــن لـــم تتوقف مناقشاتهم طوال الليل . وقليل من النـــاس كـــانوا علـــى علم أن فلسفة الحكم بأكملها كانت تتشكل بكل اجتهاد من البداية خـــلال جلســـات هذا الماراثون الليلى، والذى سوف يأتى بكل تأكيد بتغييرات جذريـــة لكافـــة طـــبقات الناس فىالمجتمع والتىسوف يكون لها تأثير واسع الانتشار عبر أفريقيا والشرق الأوسط.

لقـــد قضى عبد الناصر وصحبه عقداً بأكمله وهم يخططون لهذا الانقلاب واضعين فى حسابهم أى أحداث غير متوقعة . وكانوا يعرفون جيداً ماذا كان يتوجـــب علـــيهم القضـــاء علـــيه : النظام الملكى الفاسد ، ونفوذ كبار رجال الإقطـــاع ، ومراكـــز النفوذ التى يمتلكها الأجانب فى كل مكان ، والاحتلال الـــبريطانى لقناة السويس . غير انه لم يكن لديهم أى فكرة دقيقة عن أى بديل لـــتلك المؤسســـات ضـــاربة الجذور منذ زمن طويل ، فقد كان لديهم صورة مشوشـــة عن نوع المجتمع الذى كانوا يودون أن يكون البديل ، لكن لم يكن لديهم أى معرفة بوسائل الحكم المطلوب لتنفيذ . فاغلبهم لم يكن قد قرأ الكثير أبعد من الملخصات العسكرية . وقصص المغامرات ، والدعاية الوطنية التى كانـــت تروج لهـــا الصحافة اليوميـــة، لكن الوطنية المصرية منـــذ جذورها الأولـــى كـــان دائماً تضع كل شئ فى منظور إما أبيض أو اسود، عسكر أو حرامية ، وكان تركز اهتمـــامها على التخلص من الأشياء أكثر من اهتمامها بإعادة بنائها .

والـــيوم أصـــبح المصريون من أبناء طين الدلتا لأول مرة منذ عهد فراعنتهم يديـــرون دفة بلادهم . وكان من الضرورى وضع أساس فلسفة سياسية تنبع من واقـــع جـــذور الـــتربة . ولهذا توافد سيل من الزوار على الحجرة العليا التى تقع أعلـــى مبـــنى القـــيادة العامـــة للقوات المسلحة : أساتذة جامعات ، مهندسون ، محـــامون ، صحفيون ، مهندسون زراعيون ، مثقفون، وماركسيون ، والذين من خـــلال المحـــاورات معهـــم التى لم تكد تنتهى حتى بدأت تتضح ملامح الإجابات على التساؤلات حول المشاكل والقضايا التى كانت تواجه القيادة العسكرية .

وهكـذا انقضـت الأسـابيع السبعة من الصيف الحار الذى عطل النشاط الذهـنى ، وبـدا رجـل الشارع ينصرف عن الانقلاب كتمرد للجيش ضد فـاروق ، بيـنما راح الباشـوات السابقون فى نادى محمد على يتأملون فى أفضل الطرق لإغراء الضباط للعودة إلى ثكناتهم وليضعوا ملكاً جديداً ( ربما الأمـير عـبد المنعم ) على العرش . وفجأة مع نسمات شهر سبتمبر الأولى ضـرب ناصر ضربته . فقد ألقى القبض على ما يقرب من أربعين شخصية سياسية من العهد البائد . وأقيل على ماهر ، وحل محله محمد نجيب . وتمت مصادرة كل الممتلكات الملكية ، وصدر قانون يمنع أى شخص من أن يمتلك أكـثر مـن مائتى فدان من الأرض الزراعية ، وبدأت الدولة تتخذ إجراءات تكـاد تصل فى الحقيقة إلى درجة المصادرة. وتلا ذلك تخفيض عام فى قيمة الإيجـارات ، ووضعت لوائح جديدة للعمال جعلت من الصعب ( أو على أقل تقديـر جعلـت من الأمور المكلفة ) طرد العمال أو الموظفين من وظائفهم . وبدهشـة مماثلة للمصريين الذين تربوا منـذ وقت طويل على « وحدة وادى النـيل » كـان الإعلان عن سياسة تضع أمام السودانيين مبدأ حرية الاختيار بين الاستقلال التام أو الاتحاد مع مصر .

وفى مطلع عام ١٩٥٣ أظهر النظام إحدى استعراضات عضـلات القوة، فقـد جمـد الأحـزاب السياسية ، وأعلن : « أن قائد الثورة وأعضاء مجلس قـيادتها » سـوف يسيرون شئون البلاد لمدة ثلاث سنوات قادمة . وتكررت الصـورة : بـان العصـبة هى المسئولة وليس مجرد اللواء ، كل هذا وعبد الناصر قابع فى الظل كشخصية مجهولة فعلاً حتى جاء عصر ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ بعـد عـام تقريباً من حدوث الانقلاب ، عندما وقف لأول مرة أمام جمهـور صـاخب خارج قصر عابدين ليعلن على العالم إلغاء الملكية، وأن مصـر مـنذ هـذه اللحظـة جمهورية رئيسها محمد نجيب ، وبأنه نائب له. وأخـيراً أمـيط القناع عن السر ، أما المراقبون الذى يشكون فى وجود قوة كـبرى فـى الظل Eminence grise تقف من وراء اللواء مدخن الغليون ، لم يعودوا يدسون بأنوفهم لشم موقع القوة الفعلى ، والتساؤل عن المخطط الفعلى لكل مراحل الثورة .

غير أن الجمهور لم يشعر بالارتياح لذلك البكباشى فارع القامة الذى يميل إلــى الحــزن ، بعكــس ما كان يشعر به نحو ذلك الرجل الطيب « صاحب الغلــيون » فلقــد قــام نجيب بمجهود كبير فى العلاقات العامة ، وإذا كانت الــثورة قد قبلت على نطاق واسع ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى كل مكان تلقــى فــيه الاهــتمام فإن مرجع ذلك قبل كل شئ إلى شعبيتــه الشخصية ، وجاذبــيــة سلوكه ، الــذى يدعو إلى الطمأنينــة . فقد يشيح « سلوين لويد Selwyn Lloyd » بأنفــه فى كبرياء وأَنفه عن هذا النظام « الذى لم يسبق له مثــيل » ، لكــن لم يكد يمر شهر بعد حدوث الانقلاب حتى اقترحت صحيفة لندنــيــة أنــه يتعيــن اختــيار نجيب قائــداً أعلى لقوات الحلفاء فى الشرق الأوســط ، كمــا كان كافرى السفير الأمريكــى بالقــاهرة لا يقل فى تفاؤله الحــالم . فقــــد أعلن « أن أولادى my boys » ( كما كان يفضل أن يطلق علــى نجيب وعصبته ) : « قادرون على إنقاذ مصر من المــد الأحمــر ، الــذى لــم تكن مفاسد فاروق وباشواته قادرين على وضع حد لانتشاره عبر الــبلاد . أنهــم ســوف يقومون بعدد من الإصلاحات ويرفعون من مستوى معيشــة الــناس... أننا سوف نشجعهم » . وهذا ما فعله الأمريكيون بالفعل . فقــد دعمــت واشــنطون كلماته بتقديم المساعدة الاقتصادية تحت بند النقطة الــرابعة Point IV وكذلك عن طريق الاتفاقيات الثقافية التى كانت جزءاً من «بــرنامج فولبرايــت Fulbright Programme» كمــا وصفه « جون فوستر دالاس John Foster Dulles » عقــب زيارة له قام بها إلى القــاهرة فى ربيع عــام ١٩٥٣ : « بأنــه واحــد من أبرز زعماء العالم الحر فى فترة ما بعد الحــرب » ، وأضــاف فــى مؤتمر صحفى : « إن مصر الآن على أعتاب مستقبل عظيم » .

وعلــى مســتوى أقــل ارتــياحًا كانت هناك حقيقة ، وهى الترقب الدائم لمواجهــة أيِ تحركات من جانب الثورة المضادة ، فقد كان عبد الناصرِ منذ الــبداية منكباً على بناء وتدعيم جهاز القوة من وراء الكواليس ، متحملاً نفس المشــقة الــتى تحملهــا وهو يخطط للانقلاب الثورى ذاته ، فلم تمض وقت طويل حتى كانت شرطته السرية تتسلل إلى كل ركن ، كما كانت نفسها تحت

رقابة شرطة سرية أخرى . فقد طبق « التكتيك » الشمولى دون حدوث أى أخطاء ظاهرة ، فقد كان فى مقدور أكثر الزوار ترددا على وزارة الداخلية أن يلاحظ بنوداً مثل « مخبرون كاذبون ». كما كان فرض الرقابة على الصحف ، بل حتى على البريد الشخصى تكاد أن تكون شاملة . وكان هذا لا يقل تشاؤما لدى هؤلاء الذين اعترضوا على تلك «السلطوية المتنامية» وعلى الوجود المؤكد لكبار قادة النازيين الذين هربوا من محاكمات «نورمبرج Noremberg»(*) ولكن على الجانب الآخر كان هناك على الدوام الهيئة المعتدلة لنجيب التى رفضت إشاعة أى إحساس بالقلق بدرجة خطيرة ، إذ لم يكن من غير المقبول أن يحاول تحويل نفسه إلى نسخة أخرى من «هتلر» فمن الواضح أنه كان شخصاً شديد الطيبة والصراحة لكى يكون على هذا النهج.

غير أن تلك كانت إحدى المشاكل ، وربما كان الصدام بين الجنرال الطيب « وأولاده » الثوريين واقعًا لا مفر منه منذ البداية ، إذ أن ناصر لم يرد له أن يكون أكثر من رئيس صورى ، لكن بمرور الزمن ، زادت أهمية نجيب حتى تجاوزت الحد أن يكون مجرد رمز ، ففى وجدان الناس أصبح هو الأب الحقيقى للثورة ، فمنذ أن استدعوه بمكالمة تليفونية فى اللحظة الأخيرة أصبح الآن يسرق هدير الهتاف ، وكان هذا أمراً سيئاً ، ولا يزال يتوقع منه الأسوأ تلك كانت وجهة نظر ناصر إذ أن التأثير الذى كان على سجيته لذلك الجنرال ذى العقيلة المعتدلة بدأ يصل إلى الحد الفاصل للتقدم الثورى . ولم يخف نجيب نفوره ممن عدد من الأمور التى كانت تتم باسمه وأحياناً بدون علمه ، وفى النهاية أوضح بشكل صريح أن لم يعد يتحمل أن يكون مجرد إبهاماً للبصم ، وبدأ يصر بصفته رئيساً للجمهورية على وجوب سماع رأيه ، والحقيقة أن نجيب فى أعماق نفسه كان لا يزال يحس بأنه واحد من رجال النظام القديم ، فقد شعر أنه ذهب أكثر مما ينبغى لكى

(*) محاكمات أقامها الحلفاء بعد هزيمة ألمانيا النازية لأعضاء المؤسسة النازية المسئولة عن الحرب واضطهاد اليهود .

يقـــدر على ابتلاع نوعية التغيير التى تتطلبها ثورة ناصر ، وبالتالى فقد كان يمـــثل وهو لا يدرى أفضل الآمال التى كان يتمنـــاها كل هؤلاء الذين يمثلون الجـــناح اليميـــنى والجـــناح اليسارى على السواء ، والذين كانوا يسعون إلى الفكاك من النظـــام الاوتوقراطى الذى كان ناصر يقيمه .

وعـــندما جاءت فى النهاية لحظة اختبار القوة بين الرجلين ، لم يكن نجيب نـــداً للبكباشى الماكر . إذ أدت تزايد شعبيته العارمة إلى صـــدور الأمر من عـــبـــد الناصــــر بأن يوضع رهن الاعتقال ، وأجبر أن يظهر إلى جواره ، بينمـــا كان الرئيـــس يخـــبر جمهـــوراً يهتف لـــه بجنون بـــأن خلافاتهمـــا «مـــرت كســـحابة صـــيف » غير أن ناصر استمر يستخدم تكتيكاته بمهارة كأســـتاذ فى لعب الشطرنج (فكثير ما كان يصور ربما كرمز لذلك أمام لوحة الشـــطرنج) ، فقد تظاهر بقبول سياسة نجيب بأنه يتوجب على عصبة الثوار أن تحل نفسها وتعود إلى ثكناتها استعداداً للعودة للحياة الديموقراطية الطبيعية ذات الطـــــابع القديـــم . فقد رفعت الرقابة على الصحف ، وصدرت الوعود بالحـــرية الســـياسية . وطوال ثلاثة أيـــام محمومة بدا الثوار كمـــا لو كانوا قـــد انـــتحروا علـــى طـــريقة الهارى كارى Hari Kari(*) وأن عالم ناصر الدكـــتاتورى قد أنهار ، لكنه قام باتخاذ بعض الخطوات التى تتسم بالحرص الشديد من وراء الكواليس . فقد قام بتطهير المنافسين ، وتحذير الأصدقاء .

وجـــد نجيب نفسه فجأة وقد وقع فى مصيدة . فقد جئ به إلى السلطة عن طـــريـــق ثـــورة جيـــش فى مواجهة نظـــام سياسى ســـيئ الســـمعة . وهو الآن مـــتورط بشـــكل واضح فى إعادة الانقلاب إلى الوراء لصالح زعامات قـــيادية منتخـــبة أو كـــبار ملاك الأراضى ، أو أن يكون البديل هم الإخوان المسلمون أو حتى الشيوعيون . فقـــد نظمت نقابات العمـــال إضراباً لم يكن فـــى الحقيقة سوى تجميل للواجهة السياسية أخرجت الجماهير عن بكرة أبيها

(*) طريقة يابانية للانتحار بطعن الواحد لبطنه بالسيف ، وكان يقدم بها القادة المهزومون فى الحرب خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ( المترجم ) .



جمال عبد الناصر أصغر رئيس وزراء
فى تاريخ مصر (١٩٥٤-١٩٥٦)
ورئيساً لأول جمهورية

إلـــى الشوارع . وقام الجيش يقــوده الضباط الأحــرار بالانـــدفاع للوقوف إلى جانب ناصر . لقد كانت جزءاً من لعبة شيطانية ذات وجهين تقــوم على تكتــيك خطــوة إلى الخلف وخطوتين إلى الأمام ( والذى استعير بلا شك من لينيــن ) . وخلال هــذه الســاعات المســعورة، بدا مستقبل البــلاد كما لو كان يطهى فى قدر كبير يغلى ، وأخيراً استسلم نجيب، فلقد بلغ السيل الزبى. فلن تكون هناك حرية بكل مخاوفها الديموقراطية ، بل حكومة سلطوية تمسك الهــراوة يقودهـــا مجلس قيادة الثورة، ونظام حكم الدولة البوليسية . لقد فاز ناصــــر وأصبح الآن على عتبة طريق كفاح مترنح كسيد على مصر ، مقيماً نظام حكم درامى كما لو كان قائمًا على طول تاريخه الطويل.

## الفصل التاسع عشر

# الحياد الإيجابى

فـــى أى اتجاه سياسى واقتصادى يا ترى سوف يوجه هذا الدكتاتور البالغ مـــن العمر السادسة والثلاثين ربيعاً ( وهو أول مصرى حقيقى يحكم مصر مـــنذ ألفيـــن وخمسمائة سنة ) دفة بلاده التى تعرضت لسوء الأدارة من قبل القـــوى الأجنبـــية لفترة طويلة ، واستغلتها أوروبا النشطة المتقدمة صناعياً؟ فمـــن ناحـــية العقيدة : مصر دولة إسلامية تتصل بالإسلام فى آسيا ، والهند، وأفريقـــيا ، بل وحتى فى الصين ، وما دام الإسلام انبثق من جزيرة العرب، فقـــد كـــان مـــن الطبيعى أن يكون قدر مصر بصفتها أكبر وأقوى دولة فى الشـــرق الأوسط أن تعى أنها زعيمة العرب، خاصة أن الجامع الأزهر جعل مـــن مصـــر مركـــز القوة الحيوية فى العالم الإسلامى . غير أن نظرة على الخـــريطة تبين أن مصر من ناحية الحقيقة تقع فى أفريقيا ، وتعتمد فى بقائها ذاتـــه على مياه النيل الذى تنبع من أعماق الجنوب من تلك القارة الغامضة ، كمـــا أن ملامح وجه الفلاح بالإضافة إلى شخصيته السلبية ، وحنقه المكبوت بـــدت كصفات أفريقية أكثر منها « بحر متوسطيه » . وفى نفس الوقت فأن مصر إحدى أمم البحر المتوسط ترتبط مع بلدانه منذ زمن بعيد بتقاليد تجارية قديمـــة قـــدم الزمان ، ولأكثر من قرن كان اقتصادها مرتبطاً بالنظم الغربية الـــتى تقـــوم علـــى حرية المشروعات التجارية ، ويجب أن نقر ونعترف أن بلدانا قليلة لها مثل تلك الشخصية المحيرة والمقسمة . ولقد أفصح جمال عبد الناصـــر عـــن هذه المعضلة ، وكذلك عن تطلعاته أو على أقل تقدير أفكاره الـــتى عـــبر عنها لمحمد حسنين هيكل والذى صاغها بدوره فى كتيب صغير اسمه « فلسفة الثورة ».

«وأنـــا أجلـــس أحـــياناً فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع ، اسأل نفسى.

- مـــا هـــو دورنا الإيجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ وأين هذا المكان

الذى نقوم فيه بهذا الدور » ويقول : « واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر منها من أن يدور عليها نشاطنا . وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ولن تستطيع أن ننظر إلى العالم نظرة بلهاء لأننا ندرك مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان أيمكن أن نتجاهل إن هناك دائرة عريقة تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخها بتاريخنا وارتبطت مصالحنا بمصالحها ؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع يدور حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون إثارة علينا سواء أردنا أم لم نرد ؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشهدها حقائق التاريخ... كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا . « إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .. ولست أدرى لماذا يخيل إلىّ دائماً أن فى هذه المنطقة إلى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهة يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى أرهقة التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك وأن ننهض بالدور وترتدى ملابسه لأن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به» .

«وأبادر فأقول أن الدور ليس دور زعامة . أنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ويكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأنها وتقوم بدور إيجابى فى مستقبل البشر»(*).

هذه الأفكار الحالمة التى كانت حقاً البذور الأولى لكل طموحاته التى عبر عنها بصراحة وصدق ، رسمت الطريقة التى كان بها عقل ذلك الزعيم

(*) فلسفة الثورة – طبعة دار المعارف ص ٦٠ – ٦١ ( المترجم ) .

الثورى يعمل ، واستقبلها المحللون السياسيون فى الغرب بقدر كبير من سوء التفسير حيث لم تكن ذكرى كتاب « هتلر » : « كفاحى Mein Kampf » قد محيت من الأذهان بعد . إذا بدت لهم مثل هذه الطموحات على الأقل غير مريحة ، والذى لا شك فيه أن مأساة الموقف تكمن فى أن ناصر كان على قدر قليل من الإدراك بذلك ، ولم يكن لديه أدنى تقدير لمصالح الغرب فى الوقت الذى كان فيه المفكرون السياسيون فى كل من « الهوابتهول » أو قصر « الإيلزيه » ( ليسوا على استعداد أن يضعوا أنفسهم فى أحذية غير الأوروبيين من الذين كانوا قد ذاقوا مهانة الذل حتى الثمالة على يد الاستعمار الغربى . وفى الخمسينات من القرن العشرين كانت رياح التغيير لا تزال تهب بلطف ، غير أن هؤلاء السياسيين لم يكونوا قادرين أو ينوون إدراك أنه بعد قرون من تتابع الخضوع للقوى الأجنبية واحدة بعد أخرى ، فإن الرغبة الأساسية التى يتحرق لها كل مصرى هى أن يدير شئونه بالطريقة التى يرغبها دون تدخل خارجى . وأن يكون سيد قدره لا أكثر ولا أقل.

وينهى ناصر كتيبه الصغير بقوله : « وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفراً أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها ، يجب أن تكون لها أول ما يدخل فى الحساب.

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب .

أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ، ومكانها على خريطة العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث وهو البترول... النموذج الهام لمصادر القوة فى بلادنا»(*).

(*) المصدر السابق ص٧٥ .

ومهمـــا يبدو ذلك الكتيب الصغير فى نظر الآخرين ، فإنه يكشف عن أن ناصـــر كان مفكراً وطنياً ، تحركة رغبة جامحة أن يرفع من مستوى رفاهية ومكانة مصر ، وكذلك القضية العربية . ويتجاهل بشكل يكاد أن يكون ساذجاً المصـــالح الدولية القائمة ، وكان مصيره - كما أصبح واضحاً فيما بعد - أن يلهب بالسوط رياح التغيير حتى حولها إلى قوة الإعصار ، وأن يصبح عاملاً أساســياً فـــى الحـــرب الباردة . وقليل من المصريين فى هذه المرحلة كانوا يشـــعرون بأنهم متورطون شخصياً فى الصراع الكبير بين الشرق والغرب ، وأغلـــبهم كـــان لديه اقتناع قليل للإحساس بأن النظام الرأسمالى يتفوق على النظام الشيوعى ، أو بمعنى أوضح أن الشيوعية أفضل من الرأسمالية ، غير أن المصـــريين كـــانوا علـــى استعداد للقتال ولكن لو كان هناك تناول هادئ ومـــتفهم للأمور ، ولم يكن من المحال أن تظل مصر فى المعسكر الغربى . ولكـــن كمـــا حدث فإن السياسات الحمقاء وغير المعقولة التى اتبعتها كل من لـــندن وبـــاريس ، وواشنطون ، على السواء هى التى عجلت بظهور الاتحاد الســـوفيتى فـــوق الأرض المصرية ، كما أن مجرد العداء المقنع من جانب الغـــرب كان بديلاً ضعيفاً فى نفوس العرب عن الدفئ المتوهج الذى بدأ يشع من ناحية الشمال الشرقى .

أمـــا على الجبهة الداخلية ، فقد كانت أهداف ناصر واضحة بشكل كبير ، فقـــد دمـــرت الملكية المتفسخة ، والغيث الأحزاب السياسية العتيقة الفاسدة ، وبـــدأ الشروع فى الإصلاحات الاجتماعية والزراعية ، وأصبح ما يريده عبد الناصـــر الآن أكثر من أى شئ آخر هو استئصال آخر معاقل الاحتلال الذى أبقـــى مصر تحت وصياية إنجلترا الصارمة والمتمثل فى وجود ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ جـــندى بـــريطانى فى منطقة القنال . هذا ما أطلقت عليه الصحافة «المشكلة الوطنية».

لقـــد كأنـــه قاعدة القنال فى تنامى مضطرد مثل توبسى Topsy أثناء وبعد الحـــرب ، حـــتى أصـــبحت أكبر قاعدة عسكرية لبريطانيا فى أى مكان من العـــالم، كمـــا أن قادة القاعدة الجوية اعترفوا بصراحة بأن معداتها أصبحت عتـــيقة تمامـــاً حتى أن لا أحد يدرى على وجه التأكيد كم من المخزونات قد

تـــرك مدفونـــاً في الصحراء (التقدير التقريب في وقت وجود قاعدة السويس وضـــع لهـــا ثمـــناً تقديرياً يبلغ ٢٥٠ مليون إسترليني لما في المخازن هناك) وإلـــي حـــد مـــا كانت قاعدة منطقة القناة قد حلت محل جيشٍ الهند القديم في نطـــاق الاســـتراتيجية الإمبراطورية ، وشكلت حصنا أساسياً للحرب الباردة. وبـــناءً علـــيه فأن البريطانيين أساسًا لم يتوقعوا أو كان في نيتهم مغادرتها – خاصـــة بسبب الأهمية التي تقدمها لمناطق البترول في الشرق الأوسط . لقد كانـــت معاهدة ١٩٣٦ هي التي بها اكتسبت القاعدة وجودها الشرعي الذي لم يســـتمر أكـــثر من عام ١٩٥٦ ، بشكل واضح كان هناك نيه واضحة لفترة امـــتداد . ولـــم يخـــف الجنرال إرسكين Erskine القائد العام سراً حول هذا الموضـــوع . فقد أسر لمن يثق فيهم عام ١٩٥٢ بقوله : « نستطيع أن تنقلها عـــني أننا لن نترك القناة » وإذا كان قرار الجلاء قد صدر بعد عامين فقط مـــن ذلك التاريخ فأن سبب ذلك هو التجربة التي ظهرت خلال أعمال الشغب عام ١٩٥١ بأن القاعدة لا يمكن أن تبقى في وجود عمق معاد . وفي السابق كـــان هـــناك عنصر في اللعبة يدور حول مفاوضات الجلاء . والبريطانيين يـــريدون الاحـــتفاظ بالقـــناة ، وفاروق كان من حاجة إلى الوجود البريطاني كسياســـة لتاميـــن بقائه على العرش في مواجهة شعبة . ولهذا بقيت القاعدة بالرغم من الانفجارات المتكررة التي كان يقوم بها الوفد من آن لآخر، لأنها كانـــت علـــى الأقـــل في صالح ضلعين من أضلاع المثلث القديم للسلطة في مصر اللذين حتماً بقاءها .

ولكن مجرد ان جلس الضباط الأحرار إلى مائدة المفاوضات ، حتى تغير الموقف من جذورة ، لقد كان ناصر في حاجة ماسه لذهاب البريطانيين حتى أنـــه كـــان علـــى اســـتعداد لقـــبول صفقه أدنى مما كانت تنادي به صيحات الوطنيـــن وهو: « الجلاء غير المشروط » . وأن يتفاوض على اتفاق جديد بواقعية المحترف . وعلى الجانب الآخر فأن الحكومة البريطانية كانت تدرك أن ناصـــر جـــاد فيما يطلب، وفي أي الحالات فان التركيز يمثل هذا الحجم (علـــى القناة ) لم يعد يتماشى ومتطلبات الاستراتيجية النووية . ولا يتعارض إلا قلـــيلاً مع التصور الذي أطلق عليه تشرسل Churchill : « هذه القاعدة »

المكلفــة «This Costly Base» ، ومــن ثــم، تــم التوصل إلى اتفاق وسط غريــب، بمقتضـــاه تــم جــلاء الجـيش تاركاً قاعدة رمزية يديرها مدنيون بريطانيون متعاقدون.

ولقد تم توقيع معاهدة الجلاء فى ٢٧ يوليو عام ١٩٥٤ ، وأصبحت سارية المفعول منذ ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ ، رغم أنها أفصحت قليلاً بشكل ما عن: «الدفاع المشترك » وبذلك خيبت آمال الرأى العام عند غلاة الوطنيين لدرجة أن الأخــوان المسلمين حاولوا اغتيال عبد ناصر ، غير أن ذلك حقق له هيبة عالــية ومفاجــئة فـــى الشرق لأوسط كرجل قادر على انتزاع التنازلات من المســتعمرين . ومــنذ هذه اللحظة فصاعداً أصبح فى عيون أغلب القوميين العــرب بطلاً . حيث بدأت صورة تطل من واجهات الحوانيث والمقاهى من عــدن حــتى حلب كما أنه كان لهذه الاتفاقية أربع نتائج أخرى حاسمة وربما متوقعة.

فلقــد أدى فــراغ القــوة « الذى تولد عن ذلك فى نظام دفاع الغرب فى الشــرق الأوسط إلى استبداله بحلف بغداد الذى أوحى به الأمريكيون : «ذلك الحاجــز الشــمالى Northern tier » الذى بدأ فى عيون جون فوستر دالاس John Foster Dulles ( والــذى لم يكن مجرد شاهد فى إجلاء البريطانيين من أجــل أسبقية السيطرة العسكرية فى مناطق النفط ) فكرة رائعة ، غير أنها لم تكــن أكــثر مــن فكرة بغيضة عند ناصر ، وبالمثل عند القوميين التقدميين الآخريــن فى الشرق الأوسط والذين كانوا يعارضون فكرة نورى السعيد فى نقــل مركز القوة إلى بغداد ، أو بالفعل ضد أى تحالف بين العرب والغرب، والســبب نفســه . لأخلاء الطريق لروسيا التى أقيم حلف بغداد أساساً ضدها لكى تقفز فوق هذا الحاجز ، وتبدأ فى مغازله مصر من أجل مصلحتها . كما أن إســرائيل فسرت عملية الجلاء على حد وصف رئيس وزرائها بأنه بمثابة «هجــر إســرائيل لقدرها » . وأخيراً كشفت الرصاصات الثمان التى أطلقها إرهــابى مــن الأخــوان المسلمين على ناصر فى أثناء شرحه لاتفاق الجلاء لحشــد جماهــيرى تجمــع فـــى الإسكندرية عن وجود مؤامرة مثيرة دبرها الأخــوان المسلمون ومعهم ١١٦ من الضباط الأحرار لاغتيال ناصر وإعادة

نجيب إلى السلطة . وهذا أعطاه العذر للتطهير الدموى للإخوان المسلمين بشكل شامل صدم الرأى العام، غير أنه أكمل قبضة انقلاب عام ١٩٥٢ وذلك عن طريق إخلاء أى عثرة تقف أمام سلطة عبد الناصر : وكان الشعار الذى علق فى لافتات فى كل شوارع القاهرة احتفالاً باتفاق الجلاء هو : « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد » لكن الحال أصبح كما كان فى أيام مصر القديمة ، هناك رجل واحد تحنى له الرءوس ، وبذلك لم يعد البكباشى رئيساً فقط ، بل فرعونا أيضاً.

بعد ذلك بدأ سيل يدعو للإعجاب من كبار الشخصيات الهامة ( VIP) يتدفق على القاهرة تعبيراً عن احترامهم لفرعون مصر الجديد . فقد جاء تيتو رئيس يوغوسلافيا . وقدم بعضاً من النصائح الهامة حول مزايا النظام المركزى وشرور الأعمال الحرة Private Enterise ، وبعدها بعشرة أيام وصل نهرو من الهند وقدم بعض الأفكار المفيدة حول «ملاعبة الشرق ضد الغرب»، وتبعه سوكارنو رئيس إندونيسيا الذى أحرج مضيفه عندما أحضر على مائدة العشاء الرسمية اثنين من مضيفات خطوط طيران « بان أمريكان» التقطهما من بهو الفندق ، لكنه بعث السرور فى نفسه بابدأ ملاحظته بأن : « أمم أفريقيا وأسيا لم تعد أدوات ودمى للعب بها من جانب لا يستطيعون أن يؤثروا فيها » وزائر آخر جاء لفترة قصيرة هو انتونى أيدن Anthony Eden الذى كانت وجهة نظره نحو الرئيس (على حد كلمات ناصر نفسه) «أنه كما لو كان يتكلم إلى مسئول أدنى منه درجة والذى لا يتوقع منه أن يفهم فىالسياسية الدولية».

وبعد أيام تلت ، فى أبريل عام ١٩٥٥ قفز عبد الناصر إلى إحدى طائرات خطوط طيران الهند Air India فى مطار القاهرة الدولى وأقلع فى أول رحلة له خارج العالم العربى . كانت هناك تسع وعشرون أمة ممثلة فى مؤتمر باندونج Bandung : ملكيات ، دول إقطاعية ، جمهوريات ، شيوعيون ومعادون للشيوعية . من كل الاتجاهات السياسية ، لكن يجمعها هدف واحد مشترك ، أنها جميعاً لم تكن من ذوات البشرة البيضاء ، وأن أغلبها كانت واقعة تحت السيطرة والاحتلال ، أنها كانت تشتغل حماساً بعد

أن أســكرتها خمرة القومية ، كما أن أغلبها كان ينتمى إلى دول الحياد ( وهو تعبــير كــان يفسر فى ذلك لوقت على أنه عداء للغرب ) . وبالنسبة لناصر الــذى كان أصغر الوفود سناً ، والوحيد الذى ظهر فى زيه العسكرى ، كانت باندونج تجربة ذات أهمية كبرى ، فقد رحبت به الأمم بشدة حيث لفت أنظار كثــير مــن الوفــود خاصة شواين لاى Chou En Lai الذى خرج عن خطة ليكسب صداقة مصر . كل ذلك أعطاه الإيحاء أن مصر قوة فى الشرق الثائر – الكــتلة الثالثة – التى هى لا شيوعية ولا رأسمالية والتى كانت تمثل خمسة وثمانيــن فــى المائة من سكان العالم . وعاد إلى القاهرة . وهو يحمل تفكيراً عالمياً بعد أن حقق لنفسه مكانة كواحد من الأربعة الكبار فى العالم الأفرو – آسيوى. وهى حقيقة لم تمر دون ملاحظة لا فى بكين ولا فى موسكو .

وفــى نفــس الوقت حدث فى الاتجاه المعاكس تيار متتابع من سوء الفهم وفقــدان الــثقة ، وتطورات الخلافات التى سرعان ما حولت الشرق الأوسط إلى جحيم تصاعد لهيبه حتى أدى إلى حدوث كارثة ذات حجم تاريخى .

فقد سبق فى عام ١٩٥٣ أن حاول جون فوستر دالاس – دون إحراز أى نجاح – فى أن يغرى مصر للانضمام إلى تحالف شرق أوسطى تحت رعاية الولايــات المتحدة بهدف تقييد نفوذ روسيا حتى لا تتوسع فى نشر الشيوعية فى المنطقة ، ولكى يحرس مصالح البترول الأمريكية ، وتلى ذلك قيام حلف بغداد الذى كان أساسًا عبارة عن زواج بين المصالح التجارية الغربية وطبقة الباشــوات العتيقة من السياسيين الذين كانوا يرون إبقاء الحال كما هو عليه . لكــن ذلك كان لا يجد تجاوباً مع الشعب من جيل ناصر ولا إغراء من جانب الذيــن يعملــون من أجل القومية العربية. ومنذ اللحظة التى قام فيها الحلف أصــبح من المحتم أن يؤدى ذلك إلى صدام الغرب مع قوى القومية العربية والــتى كــان مــن الممكن بشئ من المعالجة الهادئة أن تصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة التى كانوا يكنون لها الإعجاب بل وحتى مع سادتهم القدامى البريطانييــن والفرنسيين . وكانت وجهة النظر العربية أن الدفاع عن المنطقة يجب أن يأتى من الداخل من خلال الإصلاحات الاجتماعية والتقدمية ، ومن خــلال قوميــتهم الخاصــة وذلك من خلال قيام حلف وحدوى عربى مستقل

وغـــير منحاز ، وليس من خلال تحالف غير مقبول شعبياً يفرض عليهم من الخـــارج. وكـــان ناصر نفسه واضحاً كل الوضوح بخصوص ذلك .فقد كان يقـــول فـــى العلن وفى السر أن مصر لن توقع على أى تحالفات دفاعية تأتى من الخارج .

وبالـــرغم من أن ناصر لم يكن مستعداً لتحالفات الحرب الباردة مع الغرب إلا أن مصـــر كانت لا تزال تميل إلى الغرب بمعنى أنها كانت غير شيوعية ومدركة لأخطار الشيوعية ، فحتى عام ١٩٥٤ كان نظام الحكم يتمتع حقاً بما اســـماه ديـــن اتشيسون ( Dean Asheson ) « الصداقة النشطة مع الولايات المـــتحدة » . فقـــد مـــنح قـــرض تبلغ قيمته أربعون مليون دولار من أجل الـــتطوير، كمـــا أن الخبراء الأمريكيين من كل تخصص كانوا يشاهدون فى القاهـــرة . وكانـــت السياسة الأمريكية تقوم أساساً على دمج مصر فى حلف دفاعى شرقى أوسطى مقابل بيع السلاح للجيش المصرى ، وأن تسيطر على الاقتصـــاد المصرى عن طريق تقديم قرض لتمويل مشروع السد العالى فى أســـوان . ولكـــن الإعـــلان عـــن قـــيام حلف بغداد بالرغم من المعارضة المصريةوتجديد النشاط المفاجئ لإسرائيل وضع نهاية لشهر العسل.

وفـــى ٢٨ فـــبراير عام ١٩٥٥ أيقظت مكالمة تليفونية فى منتصف الليل ناصـــر لتحمل إليه نبأ هاماً وهو أن القوات الإسرائيلية قد إجتاحت عبر خط الهدنـــة عـــند غـــزة فـــى غـــارة خطط لها بمهارة حيث استولت على نقطة المفروض أنها كانت محصنة ، وأوقعت بالمصريين خسائر بلغت ٦٩ جندياً. وفـــى الـــيوم التالى صرح رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا أصرت مصر على إبقـــاء حالـــة الحرب الفعلية مع إسرائيل فعليها أن تتحمل العواقب . غير أن ذلـــك كـــان بالنســـبة لعبد الناصر لحظة صدق . فقد اعترف فيما بعد « بأن كارثة غزة كانت بمثابة جرس الأنذار . فقد بدأنا على الفور فى فحص أهمية الســـلام وقوى التوازن فى المنطقة » والتى كانت تعنى أنه ضاعف بحثه عن الأسلحة الحديثة .

وبخـــلاف الموقف الإسرائيلى كان ناصر يعتمد على الجيش لفرض نفوذه

الشخصي أكثر من أى شئ آخر . فمنذ انقلابه الثورى ، فعل كل ما فى وسعه لإبقاء الضباط فى القوات المسلحة على ولائهم له . فقد عين الكثيرين منهم ممن يحملون رتبة نقيب وصاغ ، وكذلك قادة الألوية فى مواقع حكومية عليا لضمان تأييدهم ، كما أنه قدم لهيئة الضباط العديد من الامتيازات التى جعلت منها طبقة جديدة مميزة . ولقد كانت القوات المسلحة التى استولى عليها فى عام ١٩٥٢، فقيرة التسليح ، وتعاني من الإحساس بالإهانة التى لا تتناسب مع ماضيها التليد . وكان أمراً بالنسبة للجيل الجديد من شباب الضباط أن تبقى القوات المسلحة إلى الأبد فى موقف الضعف . وكان كل ما يريدونه فى عام ١٩٥٥ هو الدبابات والطائرات النفاثة التى كانت وقتذاك أحدث ما يمكن الحصول عليه من سلاح .

أخذت بعثات عبد الناصر العسكرية تبحث بنشاط عن مصادر التسليح من الغرب ، غير أن بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة كانت تحاول الحفاظ على السلام فى الشرق الأوسط عن طريق تقييد بيع المعدات الحربية . كما أن الكونجرس الأمريكى أجاز قراراً بحظر شحن السلاح الأمريكى إلى أى بلد لا يوافق على السيطرة الأمريكية عند استخدامها . كل هذا كان يعنى الإحباط التام لبعثات المصرية لشراء السلاح .

جاء أول تلميح كمصدر بديل لتموين السلاح فى « باندونج » عندما عرض شواين لأى على ناصر السلاح ، ثم بعد ذلك انتحى السفير الروسى فى حفل استقبال دبلوماسى أقيم فى عام ١٩٥٥ به جانبا وسأله بصراحة عما إذا كانت حكومته تبدى اهتماماً بشراء السلاح من الاتحاد السوفيتى . وبعد مرور شهرين وصل المستر شبيلوف Shepilov إلى القاهرة كمبعوث خاص من جريدة البرافدا تحت غطاء « مهمة صحفية » ، ولكنه كان فى الواقع يضع الأساس لعقد صفقة .

وبالرغم من ذلك كان ناصر متردداً حول اتخاذ قرار قد يدفعه تجاه اليسار، ولكن فى شهر سبتمبر عندما غزت القوات الإسرائيلية واحتلت «العوجة» وهى منطقة منزوعة السلاح بمقتضى هدنة ١٩٤٩ ، اكتشفت

المخابـــرات المصـــرية أن فرنســـا تزود سراً إسرائيل بالسلاح ، عندئذ قطع ناصر تردده ، وثم توقيع العقد بين مصر وروسيا فى ٢٤ سبتمبر .

ولمـــا كـــان يتوقع اندلاع موجة من الغضب الذى يسببه الإعلان عن هذه الأنـــباء ، فقـــد خطط لجعل هذه الصفقة سراً لأطول وقت بقدر ما يستطيع . غـــير أن الســـير همفرى تريفليان Sir Humphrey Trevelyan سفير بريطانيا الـــذى كـــان قد عين حديثاً فى منصبه ، اشتم الخبر ، فطلب مقابلة عاجلة . ويـــروى « مايلـــز كوبرلاند» Miles Coperland » أحد قاطنى حى ماديسون أفيـــنو Madison Avenue الـــثرى الذى أبقاه ناصر كمستشار له فى العلاقات العامة فى كتابه لعبة الأمم « Game of Nation» ، كيف تصادف وجوده هو و« كرميـــت روزفلت Kermit Roossevelt » من وكالة المخابرات الأمريكية (C. I. A) فـــى المكتـــب عـــندما أعلن عن وصول السفير، عندئذ سأل عبد الناصـــر وهو يحرك عينية الشبيهتين بعينى الثعبان ما لو كان صبياً وقع فى حـــيرة ، مـــاذا تظـــن ما يجب عليّ إخباره ؟ فأجاب روزفلت بومضة إلهام مفاجئ « حسناً سيدى الرئيس لماذا لا تهون من الأمر قليلاً بأن تسميها صفقة سلاح تشيكية بدلاً من روسية ؟ فكما تعرف فإن ذلك قد يبدو أفضل!.

وهكـــذا ولدت أسطورة « السلاح التشيكى » التى ابتكرت من تحت ثياب أمـــريكى ، غير أنها كانت تناسب الحسابات الروسية أيضاً . وفى مساء اليوم الـــتالى عندما كان ناصر يفتتح معرضاً للسلاح فى الجزيرة أعلن الخبر. فقد أخبر الجمهور المبتهج : « أن الغرب قد رفض أن يعطينا وسائل الدفاع عن أنفســـنا . ولقد تلقينا عرضاً من تشيكوسلوفاكيا لمدنا بالأسلحة التى نحتاجها، علـــى أســـاس تجارى خالص مقابل السداد بالقطن ولقد تم توقيع الاتفاق منذ لحظات».

وبعـــد ذلـــك ، خرجت عناوين الصحف الرئيسية حول العالم تحمل النبأ : «الشـــيوعيون يسلحون مصر » وأصبح عبد الناصر بذلك أكثر من أىّ وقت مضى قرة عين مصر ، بل أكثر منها « قرة عين » العالم العربى ، فقد لمس ذلك وتراً حساساً بالنسبة لجماهير الشرق الأوسط : وهو عطشهم لما يسمونه

«الكـــرامة» والتى لا تعدو أن تكون حرية اتخاذ قرارهم بأنفسهم بدلاً من أن يكونـــوا رهـــن إشـــارة الغرب . ولكن هذا التصرف المنفرد قد اخل بميزان القـــوى فـــى الشرق الأوسط تماماً ، والذى كان أمراً عزيزاً لدى الهوا بتهول والبنـــتاجون Pentagon . وفتحت الأبواب على مصراعيها للتسلل الروسى ، وبدأ العد التنازلى للطريق إلى السويس وما ترتب على ذلك.

## الفصل العشرون

# صفعة مقابل صفعة

كـــان جمـــال عبد الناصر لا يزال بعيدًا عن تحقيـــق دورة « كالبعبـــع» الكبير للغرب . ففى الأسابيع التى تلت ضجة الأسلحة التشيكية لم يخطر ببال لـــندن ولا واشنطون حقيقة أن مصر تتجه نحو الحرب ، ففى محاولة لإفساد الانتصار الدبلوماسى الروســـى ، سعت قوى الغرب إلى استعادة مكانتها عن طـــريق تحرك درامى مماثل لتقديم عرض تمويل الســـد العالى فى أسوان ، فقد كان على رأس المشاكل الملحة التى واجهتها حكومة الثورة هو فقر الفلاح المدقـــع ومســـتوى المعيشــــة المـــتدنى لما يزيد عن خمسة وعشرين مليون مصـــرى(*) محشورين فى وادى النيل الضيق . ولم تكن الست ملايين فدان المزروعة والمحشورة بين الصحراء الشاسعة غير الممطـــرة – والتى تمثل مجـــرد اثنـــان فى المـــائـــة من مســـاحة البـــلاد ، تكاد تكفـــى لإعالـــــة السكان الذين كان عددهم يتزايد بنسبة نصف مليون كل عام. فإحصائيًا وبيئيًا كانـــت الـــتوقعات مروعة . وكان البريطانيون قد أقاموا سدًا فى أسوان عند نهاية القرن (التاسع عشر) غير أن مزاياه كانت قد تضاءلت منذ زمن طويل. وكانـــت فكرة بناء سد آخر أكبر حجماً بكثير قد درست منذ عقود . وفى عام ١٩٤٧م لاحـــظ عالم الهيدرولوجيا أدريان دانينوس Adrian Daninos أن مياه النـــيل تتدفق جنوب أسوان عبر حوض طبيعي شاسع المساحة مما قد يشكل مشـــروعًا لسد يبلغ حجمه عشرين مرة تقريبًا من حجم السد القائم . لقد كانت مشـــكلة مصر دائمًا هى حجز وتخزين مياه النهر التى هى شريان الحياة بدلاً مـــن تـــركها تتدفق بلا فائدة نحو البحر المتوسط عندما يفيض النيل فى شهر ســـبتمبر من كل عام . ولقد جادل الخبراء أنه من الممكن تخزين كمية هائلة مـــن المـــياه الـــتى يمكـــن استخدامها فى زراعة ما لا يقل عن مليونى فدان

(*) هـــو تعـــداد الشـــعب المصـــرى مما ذلك الوقت وحتى نهاية القرن بلغ تعداد الشعب المصرى ٦٢ مليون نسمة ( المترجم )

بالإضـــافة إلى توليد طاقة كهربائية هائلة من أجل إعطاء دفعة جديدة للتوسع الصناعى.

لقــد كـــان من الواضح أن بناء هذا الخزان الضخم بمثابة مسألة حياة أو مـــوت بالنسبة لمصر ، وأن الإجراء الواقعي الوحيد لمواجهة مشكلة الانفجار الســكانى هــو إضـــافة مســاحات جديدة من الصحراء إلى المساحة القابلة للــزراعة، وإعطـــاء دفعـــة جديدة للصناعة . وكان أول الإنجازات للمجلس الــثورى هـــو تشكيل مجموعة لدراسة المشروع . وبعد عامين أعلن ناصر رســميًا قـــرارة بإنجـــاز مشـــروع السد العالى كواحد من أكثر المشروعات الهندسية طموحًا وجرأة التى لم يسبق لأحد التفكير فى تنفيذه من قبل ، والذى وصفه بأنه « يفوق حجم الهرم الأكبر بنحو سبع وعشرين مرة » وهو شعار مـــلأ نفـــوس المصـــريين بالكـــبرياء ، فى حين سخر أعداؤه منه بأنه هرم ديماجوجى a demagogic pyramid .

وبـــلا شك ، كانت تكاليف مثل ذلك المشروع العملاق تفوق قدرات مصر المالـــية ، ولـــم يكـــن هـــناك فى الواقع سوى بلدان اثنان فى العالم يمتلكان المصـــادر الكافـــية لبنائه : وهما الولايات المتحدة وروسيا . وقد حذر بعض مستشـــارى ناصر أن قبول الأسلحة الروسية سيثير غضب قوى الغرب مما يعرض طلب المعونة منهم للخطر ، غير أن تقديره للموقف ( الذى كان يقوم علـــى أساليب تيتو ونهرو ) كان مختلفا ، ولما كان فى أعماق نفسه مقامرًا ، فقد شرع فى ملاعبّة الشرق ضد الغرب فى كل ما كان يراه يستحق ، وكانت الصـــيغة بسيطة لدرجة الإغراء . وفى تنفيذه ذلك بمهارة لم يضع فى حسابه بباله أنه قد يفشل .

فخـــلال شـــتاء عام ١٩٥٥ والأيام المبكرة لعام ١٩٥٦ بدت الأمور تسير كالســـحر ، فبعد أن أمن صفقته مع روسيا ، عاد يغازل الغرب مرةً أخرى ، وفـــى ذلـــك الوقـــت كان البريطانيون يجلون عن منطقة القنال طبقًا لمعاهدة ١٩٥٤ ، وللحصـــول علـــى أى فـــائدة سياســـية من هذا الانسحاب كان من الواضـــح أن هـــناك رغبة فى التقارب من القاهرة . ففى الخطبة التى ألقاها

السير أنتونى أيدن Anthony Eden فى الجيلدهول Guildhall أشارت إلى الأمل فى قيام ما أطلق عليه « غرسه محمومة للعلاقة الأنجلو - مصرية The Febrile plant of Anglo-Egyptian Friendship كانت تنمو أقوى فأقوى، كما المح إلى إمكانية العثور على حل للمسألة العربية الإسرائيلية ، بالرغم من أن ذلك كان بمثابة ديناميت سياسى لأى قائد عربى يفكر فى مصالحة قد تقابل إسرائيل عند منتصف الطريق بالنسبة لادعاءاتها فى الأرض : فقد صرح ناصر « بأن مقترحات أيدن أرضية جيدة للتفاوض » . وفى نفس الوقت أكدت الحكومة البريطانية فى هدوء أن حلف بغداد الذى كان ناصر يظن أنه موجه ضد مصر قد لا يتوسع .

وفى هذا المناخ المفعم بالأمل . صدر تأكيد فى مطلع عام ١٩٥٦ أن البنك الدولى سوف يقدم ٢٠٠ مليون دولار . تدفع منها الولايات المتحدة ٥٥ مليون دولار وبريطانيا ١٥ مليون دولار لتمويل المرحلة الأولى من بناء السد العالى، غير أن رجال المال لم يقبلوا المخاطرة : وكانت شروطهم أن ميزانية مصر يجب أن توضع تحت إدارة البنك الدولى ، وأن حساباتها كلها توضع تحت الفحص و أن لا يكون لمصر الحق فى استدانة أى قروض من جهات أخرى - وهذا معناه العودة إلى فرض السيطرة عليها من الخارج (وبالتالى السيطرة السياسية) وهو بالتحديد الأمر الذى كان على الثورة ( وفى ذاكرتها ديون القرن التاسع عشر ) أن ترفضه ، ومن ثم كما حدث بينما كانت المفاوضات مستمرة فى نيويورك ، كان المبعوث الروسى يجرى محادثات مع ناصر فى القاهرة ، وبالمثل أعلن أن حكومته على استعداد لتقديم المساعدة الفنية والاقتصادية لمصر من أجل بناء السد العالى . وبالرغم من أن الشروط الروسية كانت غامضة ألا أن القوتين الكبيرتين كانتا على استعداد للمزايدة عليها. ومن ثم لم يكد يمر أسبوعان حتى اختلطت الأمور كلها بطريقة هزلية.

وصل الجنرال تمبلر Templar القائد العام - دون توقع - إلى عمان لمناقشة إمكانية ضم الأردن والفيلق العربى الذى كان لا يزال تحت قيادة جلوب باشا Glubb Pasha إلى حلف بغداد ، واشتعل ناصر غضبًا لما اعتبره نكث صارخ للوعد ، فقد شرع فى شن حملة إعلامية قاسية من راديو القاهرة

ضد كل من بريطانيا والأردن . ويعد ذلك بوقت قليل مرّ المستر سلوين لويد Selwyn Lloyd بالقاهـرة . وفى نفـس اللحظـة التى كان فيهـا متواجـدًا فى مكتـب الرئيـس المصرى ( وفى ضوء كل التقـارير التى تضع الأسس حول وجهة نظر القـاهرة نحو الأردن ) وصلت رسالة تقول أن الملك حسين قد قام بطرد جلوب باشا وأمهله سـاعتين فقـط لكى يغـادر البلاد . ومما لا شك فيه أن ناصر لا بد وأن يكون قد أبتسـم وهو يطلع على الأنبـاء ، غير أن وزير الخارجية البريطانية فجأة سارع إلى تكوين استنتاج أن هذا الحادث خطـط له ليتماشى بهـدف التعبير عن توجيه الإهانة له : (وقد ثبت فيما بعد أنه لم يكن لناصر أى علاقة بموضوع الطرد والذى ربما كان نتيجة لاستياء الملك حسين منذ وقت طويل من وضع الجنرال المميز خاصة عندما قرأ فى جـريدة الأوبزيرفـر The Observer أن جلوب باشا هو «ملك الأردن غير المتوج»).

وفـى اليوم التالى قوبل سلوين لويد فى البحرين التى كان من المفروض أنها محميـة بريطانية بفظاظة من قبل جمهور معاد ، ومرة أخرى عزا ذلك لـتحريض راديـو القاهـرة :وبطريقة أو بأخرى بدأ سلوين لويد أقل الناس غرورًا بأى حال من الأحوال كما لو كان قد قدر له أن يقع تحت تأثير شيطان مـريد فى كل ما يتعلق بمصر ، واستحوذت عليه فكرة مفادها أن كل مشاكل بريطانـيا فى الشرق الأوسط سببها نشاطات بكباشى متعصب بدا قادرًا على إثارة الاضطرابات من بعد فى أى مكان يحلو له .

وفـى ربيع عام ١٩٥٦ بدأت فكرة موازية عن ناصر تتولد فى هذه المرة فى فرنسا حيث كان فقدان الهند الصينية لا يزال ماثلاً فى الأذهان وكان على فرنسـا أن تبتلع خسارة انفصال كلاً من تونس ومراكش وذلك باستقلالهما ، وكانـت مصرة على ألا تسير الجزائر فى طريق مشابه . وفى مارس ذهب المسيو بينو Pinaud إلى القاهرة لإقناع الرئيس ناصر بالتوقف عن تأييد ودعم الوطنيين الجزائريين . غير أن ناصر لفت نظرة أن الجزائريين : « أخوتنا... ولا نستطيع أن ننكر عروبتنا » ومقابل ذلك طلب أنه يتوجب على فرنسا أن تـتوقف عن تسليح إسرائيل وكان ذلك مثلاً آخر على كيفية عدم القدرة على

إقامة الصداقة والتأثير على الناس . وعاد المسيو بينو إلى فرنسا وهو غير مرتاح بالمرة .

وأخيرًا تشابكت خطوط العداء في واشنطون حيث كان اللوبى اليهودى يعمل بجد . إذ أندلع القتال مرة أخرى على الحدود المصرية – الإسرائيلية . وفى نفس الوقت وافق الفرنسيون والكنديون ( وذلك بتدبير من البنتاجون) على بيع طائرات نفاثة لإسرائيل ، إلا أنه كنتيجة لمجهودات المستر همرشولد Hammarskjold المتواصلة من أجل إيجاد حل لمشكلة فلسطين ، فقد كان هناك تلميحات أن الاتحاد السوفيتى قد تزعم مبدأ فرض الخطر من جانب القوى الكبرى على شحن السلاح إلى الشرق الأوسط فى الوقت الذى كانت فيه أصوات الصقور الداعية للحرب فى إسرائيل تؤيد القيام بحرب مانعة Preventive War ضد العرب ، جعل مصر تدرك أنها إن لم تكن على قدر من الحذر ، فإنها قد تجد نفسها متورطة فى حرب مما يجعل إمدادها بالسلاح فى خطر . وفى هذه اللحظة تذكر عبد الناصر محادثاته مع شواين لاى Chou En - lai . وبدأت صحف القاهرة تعرض رأيًا للنقاش وهو أن : « روسيا ليست المصدر البديل الأوحد للحصول على السلاح بدلاً من الغرب » . وسافرت بعثه عسكرية إلى بكين(*) (وكان واضحًا أنها لا تلتزم بقرار الحظر الصادر من الأمم المتحدة). وفجأة أعلنت مصر اعترافها بالصين الحمراء فى شهر مايو . وقد تزامن ذلك مع انضمام ناصر إلى أحد لقاءات رؤساء الدول الذى عقد فى القاهرة وضم كلاً من البانديت نهرو ، والرئيس سوكارنو مؤكدين تمسكهم المشترك بسياسة الحياد ، ولم تكن أى من هذه التطورات تروق لواشنطون ، حيث علق جون فوستر دالاس بازدراء قائلاً: «أن مبدأ الحياد الإيجابى . ليس سوى فكرة غير أخلاقية قصيرة النظر»، كذلك بدأ الكونجرس يبدى مظاهر نفاذ الصبر، حيث راح المتحدثون الصهاينة يضغطون بسرور فى الداخل على أن أى مساعدة

(*) لم تكن الصين الحالية حتى هذه اللحظة عضواً فى الأمم المتجدة انما كان يشغل مكانها الصين الوطنية (تايوان) .

مالية تقدم لمصر – خاصة فيما يتعلق بمشروع سد أسوان – لن تؤدى سوى إلى تدعيم مركز الدكتاتور الشيوعى والمصاب بجنون العظمة .

ولما أدرك أحمد حسين – سفير مصر فى واشنطون – أن الرأى العام بدأ يعـارض تقديـم القـرض طار عائدًا إلى القاهرة محذرًا ناصر أن عليه أن يتصرف بسرعة إذا ما أراد إكمال الاتفاق مع البنك الدولى ، وبالرغم من أنه كـان رافضًا أن يضع رأسه فى هذا الشرك الاقتصادى ؛ إلا أن ناصر وافق أخيرًا . فقد كان السد أمرًا حيويًا للغاية بالنسبة لمصر قبل أى شئ آخر ، فقد اعتبر أن نفوذه وهيبته – خاصة فى تلك اللحظة التى كان فيها آخر جندى فى القـوات البريطانية يغادر القناة – كافيًا فى التغلب على آخر معارضة عدائية فى وطنه . وفى ٩ يوليو أكد المستر يوجين بلاك Eugene Black رئيس البنك الدولـى فـى رسالة إلى وزير المالية المصرى موافقته على تقديم العرض . وفى ١٧ يوليو عاد أحمد حسين إلى نيويورك وصرح عند وصوله أن مصر قد قبلت شروط القرض .

لقـد كانت تلك لحظة غير عادية بالنسبة للعالم كله ، فبصرف النظر عن النظرية الأيديولوجية البحتة القائلة بأن رأس المال المستتير يجب أن يستخدم لـرفع مسـتوى المعيشة فى البلدان النامية وتلك التى ضربها الفقر فى قارتى أفريقيا وأسيا ، إلا أن هذا المشروع الذى يحبس الأنفاث – بكل دلائله المالية سـوف يـؤدى بكل وضوح إلى ربط مصر بأكثر من شعورها بالجميل نحو الدول المانحة . لقد كان ذلك ذروة صفقه كبرى من الدبلوماسية الصبورة التى قامـت بهـا السـفارتان الأمريكية والبريطانية فى القاهرة ، وتمثل حقًا نقطة تاريخية اعيدت فيها مصر الثورة أخيرًا إلى أحضان الغرب .

لقد كان رد الفعل المتوقع فى واشنطون هو إبداء الفرحة إزاء هذا النجاح الدبلوماسى الشاق ، ولكن بدلاً من ذلك فعل المستر جون فوستر دلاس عكس مـا كان متوقعًا ، وقد كان شخصًا لا يمكن التنبأ بما يفعل بالرغم من أنه كان قـد تلقى تعليمه كرجل قانون ودبلوماسى فى نفس الوقت ، وربما كان تفسير ذلك أنه كان يستمع كثيرًا إلى اللوبى اليهودى أو إلى قلق أصدقائه فى عالم

الـنفط . ومهما كان الدافع الذى يحركه ، فقد رأى وزير الخارجية الأمريكى أن الوقـت قد حان بعد أن قدمت الحكومة المصرية نفسها أخيرًا وهى تتوسل لطلـب المساعدة – للحط من منزلة عبد الناصر بتوجيه صفعة له ذات أبعاد دولـية ، فمن جانب واحد ، دون أن يستشير حلفاءه ، أو حتى تقديم المشورة للحكومـة المصـرية ، سحب فجأة عرض الولايات المتحدة بتصريح قاسى وصـارم للصـحافة ، والذى كان فى أساسه انتقاد عنيف للاقتصاد المصرى وحكومـته . وبـدون شك فقد اعتقد أن مثل هذا الرفض الدبلوماسى الذى لم يسبق له مثيل سوف يكون كافيًا لإسقاط نظام الحكم فى القاهرة ، وأن يوضح للعـالم بأسرة وللدول النامية بالذات أنها لا تدفع من أجل ملاعبة موسكو ضد واشنطون .

لقـد كـان مـتوقعًا أن هـذا التصـرف الأمريكى لم يكن مفاجئا سواء لكريسستيان بينو الذى كان قد أعلن منذ بضعة أيام سبقت على الملأ أنه كان قد قدم صورة واضحة لمستر دالاس عن ناصر ، أو لإنطونى إيدن الذى كان قـد شـعر بوخـزة مـن الألم من انتقادات المقالات الافتتاحية فى الصحف للتصرفات العدوانية التى وردت من قاعدة منطقة قناة السويس ، وكان أشد ما أحـزنه هو فرحة المصريين العارمة عند إنزال العلم البريطانى عندما أبحر أخـر الجنود البريطانيين من بور سعيد بعد سبعين عامًا من الاحتلال ، لكن التوقيـت لم يكن متوقعًا . فقبل يوم واحد ( ١٨ يوليو ) كان السير توبى لوى Sir Toby Lowe مـن وزارة الخارجية قد أعاد توكيد – خلال حفل استقبال أقـيم علـى شـرف وزيـر الـتجارة المصرى ترحيب الحكومة البريطانية واسـتعدادها لتنفـيذ القـروض . وبعـد ثمان وأربعين ساعة تبعت الحكومة البريطانـية مسلك الحكومة الأمريكية عندما أصدرت تصريحًا للصحافة بأنها قـد سـحبت هـى الأخرى عرضها لتقديم القرض، وبالتالى لم تخطر سوى السفير المصرى لدى بلاط سانت جيمس St. James .

وفـى يوم ٢٠ يوليو الحرج غادر جمال عبد الناصر بلجراد حيث كان هو ونهرو يعقدان ثلاث اجتماعات كبرى أطلق عليها قمة المحايدين Neutralists، ولقـد أثـار بيانهم الختامى الكثير من الجدل حول اختيار كلماته، والذى أكد

تمســكهم بسياسة الحياد الإيجابى Positive Co-existence . وكان لناصر كل العذر أن يشعر بالرضا عندما أقلعت طائرته إلى القاهرة وعلى متنها نهرو . فقــد كان الزعيم الهندى هو ضيف الشرف فى احتفالات الذكرى الرابعة لقيام ثــورة ٢٣ يولــيو . وهذا فى حد ذاته أكد تزايد وضع مصر فى العالم غير المتورط . ففى ٢٣ يوليو كان سيقام استعراض كبير لأسلحة مصر الحديثة . وفــى قمة خطبته كان ناصر سيعلن عن بناء السد العالى فى أسوان .. وفى الســاعة الثالثة صباحًا حطت طائرته حيث كان فى استقباله أعضاء حكومته وقــد بدت على وجوههم الكآبة وهم يطلعون جمال على أنباء سحب التمويل الأمريكى ، وبعد أن أنزل نهرو وفى قصر القبة ، شرع ناصر على الفور فى عقــد اجــتماع مغلــق مع مستشاريه حيث كانت درجة الحرارة قد بلغت فى القاهــرة ١١٧ درجــة فهرانتــية فــى الظل ، مما جعلها تغلى فى حمام من الإشــاعات ، فقــد راهن الناس علنا عمن يخلف عبد الناصر، أما فى عيون كثــير مــن العــرب فإن ما حدث لم يكن سوى تكرار لإنذار اللورد كيللرن القاســى لفاروق عام ١٩٤٢ ، حتى فى هذه المرحلة من تطور الأحداث فى الشــرق الأوسط ، فقد بدأ من غير المتصور أن يفلت أى نظام حكم من هذه الضربة المحسوبة من جانب القوى الكبرى .

لقــد كــان رجال السياسة المصريون والغربيون يقللون من شخصية ورد الفعل الذى يكاد أن يكون متوقعًا لرجل أعلن فى أكثر من مرة : « لو أن أحدًا بصق فى وجهى ، سوف أرد بالبصق عليه عشرة مرات » . فبالنسبة لرجل مــثل ناصــر تجــرى فى عروقه دماء الرجل « الصعيدى » كانت كراهية العــبودية للغــرب جــزءًا لايــتجزأ من شخصيته ، منذ أن كان تلميذًا مثيرًا للشــغب. وأكــثر مــن ذلــك لم يكن مشروع سد أسوان العالى مجرد لعبة دبلوماســية بــل كان أمرًا حيويًا تمامًا بالنسبة لرخاء البلاد . وخلف الأبواب المغلقــة، ظــل رجــال النظام على مدار الساعة يعملون وقد تصاعدت منهم أعمدة التدخين من أجل التخطيط للانتقام . وصدر تصريح بأن الرئيس سوف يلقى خطبة هامة فى الإسكندرية فى ٢٦ يوليو .

وفــى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، وبالتمام فى نفس الساعة التى

أقلعَ فيها فاروق من الميناء إلى منفاه ، تدفقت جموع غفيرة إلى ميدان محمد علـــى . ومن شرفة مبنى البورصة ، نفس الشرفة التى كادت رصاصات أحد القــتلة أن تصـــيبه فـــى عام ١٩٥٤ ، ظهر عبد الناصر أمام مجموعة من الميكرفونات لقد بدأ فى حالة استرخاء تام ، وبدأ يتحدث بطريقة باللهجه غير الرســمية أو بالطــريقة العامية ( أو بالبلدى التى تعنى حرفيًا لهجة البلدة أى القــرية وهى طريقة المصرى عندما يصف طريقة حياته المميزة النابعة من تــرابه). فالأول مرة سمعت الجماهير رئيسها – المعروف حتى تلك اللحظة بالصــرامة – وهــو يــتحدث إلــيها كما يتحدثون لبعضهم البعض ، فقد بدأ بالســخرية مــن الدبلوماســيين الأمريكيين ومشاكلهم فى التعامل مع المستر دالاس ، ثم تحول فجأة إلى الحديث عن مستر بلاك Black مدير البنك الدولى قــائلاً : عــندما جــاء إلى مكتبى ذكرنى « بفرديناند دى ليبس » قالها وهو يضــغط فى نطقه على الاسم بنبرة مميزة : « ذلك الفرنسى الذى كان مكلفا ببناء قناة السويس من أجل الخديوى » ثم أضاف : « نعم مستر دي لسيبس » ثــم راح يشــن هجومًا لاذعًا من ما أسماه . « احتلال الرهن » mortgage colonialism وحــتى تلك اللحظة كانت لهجته خليطًا من النيرات ، ولكن فجأة تغــيرت نــبرته وسرت الكهرباء فى عروق الجمهور الكبير كما لو كانوا قد تعرضوا لصدمة كهربائية.

وفـــى صـــوت عمـــيق غاضـــب أجش شق نسيم المساء صاح : « أيها المصـــريون لزمـــن طويل كانت تلك الشركة الاستعمارية تسرقنا ، لقد كانت دولة داخل الدولة تلك الشركة العالمية لقناة السويس Companie Universelle du Canl Maritime de Suez لكنـــنا لـــن نسمح بأن ننهب مرة أخرى ، لأننى أســتطيع أن أقــول لكـــم أنـــه منذ تلك اللحظة أصبحت الشركة مؤممة وتم الاستيلاء على منشآتها ، فمنذ الليلة أصبحت قناة السويس لنا هل تسمعوننى؟

وانفجــرت الســاحة بأكملها فى انفعال مجنونٌ وتعانق الغرباء من الناس، وربت كل منهم على ظهر الآخر ، وفى الحال أطلق ناصر نوبة من الضحك (ربما فقط فى هذه اللحظة كان قد أدرك مدى الوتر العاطفى الذى لمسه ) ، ثم اســتطرد يقــول : « ستنفق القنال على السد . لقد بنى المصريون القناة ، لقد

بنيت على جماجم أبنـــــاء وطننا . لقد قضى ١٢٠,٠٠٠ مصرى نحبهم وهم يقومون بحفرها . لقد كانت الولايات المتحدة وبريطانيا على وشك أن يقدموا لنا ٧٠ مليون دولار لبناء السد ، لكن دخل القناة مائة مليون دولار فى العام ، وخـــلال خمس سنوات فإن ذلك يعنى نصف بليون دولار ، فلندع الأمريكيين يموتـــون بغيظهم . فلسنا فى حاجه إليهم... إننا سوف نعتمد على قوتنا . إن قناتـــنا ســـوف يديـــرها المصريون وسوف يبنى المصريون السد .. ولتذهب أمريكا إلى الجحيم هل تسمعوننى ؟

وعـــند الغسق الأحمر كانت الإسكندرية عن بكرة أبيها ترقص فرحًا ، لقد جلبـــت الشـــجاعة المطلقة لما فعله ناصر الدموع فى العيون ، فغريزيا بدت الجماهـــير كمـــا لو كانت تدرك أن هذه اللحظة هى واحدة من أشد اللحظات انفعالاً على طول تاريخهم الطويل . لقد تحدوا أكبر قوة على ظهر الأرض ، وتـــم خـــداع الأجانـــب الممقوتين . وأخيرًا أصبح فى استطاعتهم أن يرفعوا رءوســـهم . فأخـــيرًا أصبحوا يقفون على أقدامهم ، ومهما تكون النتيجة فقد كانـــت تلك اللحظة لحظة انفجار خالصة . وبالنسبة لأى شخص كان متواجدًا فى الإسكندرية ذلك المساء ، كانت تلك تُجربة مثيرة غير عادية من الانفعال.

حقًا ما أن همس ناصر بكلمة دى ليبس فى الميكرفونات حتى قام الجيش– الـــذى تصرف بناء على كلمة السر المسبقة بالاستيلاء على مقار إدارة شركة قناة السويس ، وكذلك على النقاط الاستراتيجية من بورسعيد حتى السويس . وفـــى لـــندن تلقى السير انطونى أيدن الذى كان مضيفًا لحفل عشاء أقيم على شـــرف فيصـــل ملك العراق رسالة . غادر على أثرها المائدة مكفهرًا . وفى الـــيوم الـــتالى أدان ناصر فى البرلمان وأصفا إيات بأنه « هتلر جديد » وفى الجمعية الوطنية الفرنسية حذر المسيو موليه Mollet ذلك «اللص الوقح الذى ســـوف يجـــبر علـــى التراجع عما فعل». وتقدمت هاتان الحكومتان رسميًا بشكوى شديدة اللهجة . ومن جانبه أطلق دالاس على التاميم « ضربة مؤلمة للـــثقة الدولية » ، غير أن الاتحاد السوفيتى أيد ناصر. وتدفقت على القاهرة برقيات التهنئة من كافة أنحاء العالم الأفرو أسيوى .

ومهمـــا كان الجدل حول شرعية الاستيلاء على شركة القناة إلا أن لا أحد يشـــك أنهـــا فى الأساس شركة مصرية ، وبالتالى بالمفهوم الشرعى الواضح كـــان مـــن الممكن للحكومة المصرية تأميمها مقابل دفع تعويضات كما حدث للكثـــير مـــن الشركات فى إنجلترا وجهات أخرى ، غير أن خطة ناصر وما شملته من تكرار عبارات ديما جوجية حولت المصريين لأن يكونوا فى طليعة الصراع ضد الاستعمار الغربى مما قضى على المزاعم الدبلوماسية ، وكشف عن الكراهية المتبادلة وفقدان الثقة بين كلا الطرفين .

إن الابتهاج العفوى الذى صدر من جانب المصريين ، والذى تردد صداه فـــى أنحـــاء الشـــرق الأوسط ، جعل من ناصر فى يوم وليلة بطلاً ذا حجم أسطورى .

وبـــنفس القـــدر كان هناك غضب شيطانى فى الغرب ، إذ لم يعد كل من أيدن ، ولويد ، وموليه ، وبينو يهمتون بالجانب الشرعى للموضوع ، إنما كان يسعون لسفك دماء ناصر . وكما لاحظ لاكوتير Lacoutures : « ربما ليست الشـــريعة الإســـلامية وحدها هى التى تقطع يد السارق ، كما أعلن ايدن من خـــلال الإذاعـــة أن الصـــراع ضـــد عبد الناصر وليس موجهًا ضد الشعب المصـــرى ، أما لويد فقد تحدث فى خطاب إلى اجتماع حزب المحافظين عن «إســـقاط عـــبد الناصـــر من كرسيه». وفى ٣١ يوليو أعلن رئيس الوزراء البريطانى عن إجراءات وقائية ، شملت إرسال قوات إلى قبرص ، كما سمح لفرنسا بوضع قوات لها فى الجزيرة أيضًا . لقد كانت وجهة نظر الهوايتهول كما لخصها أحد المسئولين فى وزارة الخزانة إلى زملائه خلال حفل غداء . إذ قـــال وهو « يرتشف مشروب الجين الوردى اللون » Pink Gin « إن ما نريده الآن هو حرب صغيرة لطيفة سريعة ومنظمة » وفى الحقيقة أن القرار حـــول هذا الموضوع كان قد اتخذ سرًا من قبل إيدن وموليه ، والذى لا شك فيه فإن تصرفات الفرنسيين والبريطانيين منذ نهاية شهر يوليو فصاعدًا كانت موجهـــة نحـــو هدف واحد لا غيره ، وهو إهانة وإسقاط الزعيم المصرى إذ كتـــب « توم ليتيل » Tom Little : « لقد كان يكمن فى كل كلمة أو تصرف إنـــذار نهـــائى من الحكومتين البريطانية والفرنسية تمثل فى حشد القوات فى

منطقة البحر المتوسط وكذلك فى رسالة « بعثه منزيس Menzies » التى تحمل الرسالة:خذها أو أتركها»، وكذلك تكرار القول كما هو فى حالة جمعية المنتفعين بقناة السويس Suez Canal User s Association أن على مصر أن تقبل أو تتحمل النتائج .

وفى ظل الظروف القائمة أصبح دالاس . الذى أشعل فتيل الأزمة كلها قلقًا خشية أن تتطور مسألة السويس إلى حرب تستعر فيها النيران ، ويتورط فيها الشرق الأوسط كله معرضًا للخطر من بين ما يتعرض للخسائر - مصالح الولايات المتحدة النفطية ، فقد كانت خطته لتأسيس « جمعية المنتفعين بقناة السويس ( Sues Canal User s Association ( SCUA » بالرغم من أنه كان مقدرًا لها الفشل تتطور بهدف أساسى وهو إعطاء فرصة للأعصاب الملتهبة لكى تهدأ . فقد عقدت الأمم المنتفعة مؤتمرًا فى لندن لم يثمر عن نتائج ليس لأن الوفود دعيت فى الحقيقة للموافقة على المقترحات البريطانية والفرنسية أكثر مما دعيت لمناقشتها ، ولكن لأن عبد الناصر رفض أساسًا الحضور على أساس أن جدول الأعمال فى حد ذاته يطالب مصر بوجوب التخلى عن حقوقها فى إدارة القنال . وفى الخاتمة صدر قرار بإرسال وفد إلى القاهرة لكى يعرض على ناصر المطالبة بفرض سلطة دولية . وكان اختيار المستر منزيس الإسترالى لرئاسة البعثة فى حد ذاته أمر له مغزى . إذ لم يوجد نموذج أوضح للاستعمار من الطراز القديم من : « بوب الفولاذى الشره » Pig-iron Bob . أو أى شخص آخر أقل احتمالاً فى الحصول على نتائج إيجابية مع قائد ثورى حساس . فقد ألقى المستر منزيس محاضرة على إسماع عبد الناصر كما لو كان تلميذًا مشاغبًا ، ولما بلغ صبرة مداه أنهى عبد الناصر الاجتماع وبلهجة حادة علق راديو القاهرة على ذلك : « فإن منزيس لم يتحدث كرئيس وزراء إسترالى بل كبغل استرالى .. لقد داس على كل المبادئ التى يعيش عليها القرن العشرين . وبعد مضى سنوات أخبر رئيس وفد صناعى مصرى أحد الذين كانوا قد شاركوا فى الحملة قديمًا وهو « بللى روتس » Belly Rootes خلال حفل غداء فى « ديفونشير هاوس » Devorshire House : « لو أنك - لورد روتس - ترأست الوفد لما كان هناك

داع أبدًا لحرب السويس. لقد كان المعنى واضحًا .

والحقـيقة أنه منذ اللحظة التى أعلن فيها تأميم قناة السويس ، تراجع عبد الناصر ليصبح معقولاً ، فقد كان مستعدًا للوصول إلى حل وسط حول مسألة القـناة ، بالـرغم أنـه لـم يكن مستعدًا للتخلى عن حقوق السيادة المصرية الأساسـية على الممر المائى ، فبعد كل شئ كان من الكثير أن يتوقع أنه فى هـذا اليوم وفى ذلك العصر أن مصر المستقلة تخضع لشروط فرضت عليها عندما كانت مستعمرة فى الإمبراطورية العثمانية . فقد كان فى استطاعته أن يرى كيف أن أزمة السويس قد هزت الغرب حتى الأعماق ، وكان راغبًا أن يقـدم تنازلات كثيرة وكبيرة لإقناع القوى بأن مصالحهم الحيوية فى القناة لن تـتأثر ماديًـا . لكـن برغم الضوضاء العدوانية التى كانت تحدث فى لندن وباريس إلا أنه (كما أخبر ديزموند ستيورأت Desmond Steuart فى مقابلة) لم يتوقع أن يقوم البريطانيون والفرنسيون بعمل عسكرى . فقد ذكر بأمتعاض لستيوارت: « لقد أثبت أيدن أننى مخطء لقد أعددت تقييمًا للموقف من وجهة نظـره... وقد ناقشت معه أنه من وجهة نظرهم أنهم سوف يفقدون الكثير .. الكثير جدًا[٢٦].

هكذا أعد المسرح لطوفان السويس ، فعلى جانب وقف جمال عبد الناصر الـبالغ من العمر ٣٨ عامًا ، رئيس الجمهورية وقائد نظام الحكم الثورى فى مصـر - تؤيده جماهير مواطنيه ، ويكاد أن نقول أيضا الرأى العام بكل ثقله فـى الشـرق الأوسط ومن خلفه أفريقيا وأسيا وروسيا ؛ على الجانب الآخر السـير أنطونـى أيـدن رئيس وزراء إنجلترا ، والمستر سلوين لويد وزير خارجيـتها، والمسـيو جـى موليه رئيس وزراء فرنسا والمسيو بينو وزير خارجيـته ، كذلـك البطش المسلح لهذين البلدين إلى جانب المستر ديفيد بن جوريـون David Ben Gurion رئـيس وزراء إسـرائيل وقـوات إسرائيل المسـلحة، وفـى الخلفية حق النقض ( الفيتو ) المضمون من جانب الرئيس إيـزنهاور Eisenhower الذى كان فى ذلك الوقت غارقا فى انتخابات الرئاسة للولايات المتحدة .

كان دوايت إيزنهاور Dwight Eisenhower ينتمى إلى مدرسة للفكر تقول أن مـــا لا يمكـــن تسجيله على أحد جوانب صفحة كاملة من الورق من حجم الفولســكاب لا يســتحق النظر فيه . ففى مكان ما فى وزارة الخارجية كانت هـــناك مذكـــرة عرضـــت عليه فى سبتمبر عام ١٩٥٦م ، وكانت تتكون من ثـــلاث فقـــرات . وبكل الاعتبـــارات بعد أن قرأ رئيس الولايات المتحدة هذه الوثيقة الحادة ، أمسك بقلمه الحبر وخط كلمة واحدة على الهامش الأيسر لا : « لقد كانت تتضمن الاقتراح الأنجلو فرنسى بغزو مصر » .

ومنذ تلك اللحظة تبلورت جفوة غريبة فى العلاقات الأنجلو أمريكية . إذ لم يكـــن بينهما سوى تبادل دبلوماسى ضعيف أو معدوم فوق الصعيد الروتينى . وكانـــت وزارة الخارجـــية علـــى دراية بالرغم من أنها لم تحاط علمًا – بما يحـــدث لكنها كانت تراقب نشاطات حلفائها البريطانيين بشك تكاد أن تخفيه بمشـــقة ، فقد كان أنطونى أيدن يلعب بأوراقه وقد ضمها إلى صدرة ، وذلك لأن المظهر الغريب لمسألة السويس أنه بينما كل شئ قد وضع على مستوى الأزمـــة ، وبيـــنما كانـــت الأفواج العسكرية البريطانية علنًا فى طريقها إلى قـــبرص والأســـطول الفرنسى على أهبة الاستعداد ، وهيئة الأركان الفرنسية كانـــت فى لندن . إلا أن كل ذلك اعتبر مجرد مناورات دبلوماسية لجزء من سياســـة القوى الكبرى . وبالرغم من كل الدعاية التى أعطيت لإبحار القوات وللاستعدادات العسكرية ، إلا أن لا أحد كان يعتقد أن هذه التصرفات لم تكن أكـــثر من مجرد إدارة للمسرح . ففى إنجلترا بأكملها لم يكن هناك سوى ست شخصـــيات علـــى علـــم بأن قرار الحرب قد أتخذ فعلاً هذه الأحوال الغريبة للأحداث أكدتها حكاية اجتماع الحكومة عندما تجرأ انطونى ناتنج Anthony Nutting وزيـــر الدولة فى وزارة الخارجية أن يثير بعض الاعتراضات على هـــذه السياسة التى توضع خطوطها . وقد صرف « أيدن » احتجاجه بحركة تعـــبر عن نفاذ صبره ، ثم قاطعة قائلاً : « إنه لمن الواضح أنك لم تخدم أبدًا فـــى حكومة حرب» ، عندئذ رد الوزير مندهشا : « منذ متى يا سيادة رئيس الوزراء – ونحن فى حالة حرب ؟».

وفـــى نهايـــة شهر سبتمبر ثم التوصل فى الأمم المتحدة إلى حل جيد يقوم

علـــى ســـت نقـــاط لإدارة القناة . أما مصر فقد أدهشت معظم الناس عندما أظهــرت مقدرتهـــا فـــى اســـتمرار مرور السفن عبر الممر المائى حتى أن مجموعة المرشدين الجدد كانت قد وصلت إلى المستوى الطبيعى .

وبالإضـــافة إلـــى ذلـــك . كانـــت أمريكا مـــعترضة على الاســـتعراض الأنجلو – فرنسى للقوه ، كما أن المنتفعين بالقناة أصبحوا يميلون أكثر فأكثر نحو عقد اتفاقات حول تعريفه المرور مع الإدارة المصرية الناجحة ، وبالتالى كانـــت كـــل الأدلة تؤيد الافتراض القائل أن أزمة الصيف حول قناة السويس كانت تقرب من نهايتها .

وبالرغم من أن الفكرة السائدة فى عالمنا الشمولى المعاصر هو التقليل من دور الفـــرد فى التاريخ على أساس أن رجل الساعة ، يتصرف ببساطة طبقًا لاتجاهـــات وضغوط الساعة فإنه شخصيًا مجهول الهوية وأنه لا حيلة له، إلا أنه فى حالة السويس فأنه لا يمكن إسقاط دور الشخصيات ، وتحزبات الرموز الأساسية من حسابنا . ما دامت القرارات وبالتالى المسئولية تقع على عاتقهم وحدهم .

ففى ١٥ أكتوبر لامست عجلات طائرة أرض مطار يقع فى جنوب فرنسا، حيـــث عقد لقاء سرى ، وفى اليوم التالى من عقد هذا اللقاء غير القانونى مع ديفـــيد بـــن جوريون David Ben Gurion أصبح قرار غزو مصر مؤكدًا بعد اجـــتماع خـــاص عقد بين أيدن ومولیه . كانت الخطة الفرنسية وضعت على أساس القيام بهجوم مباشر على بور سعيد والإسكندرية فى وقت واحد ، غير أنهـــا اســـتبعدت لصالح خطة أخرى تقوم على عملية إنزال مشترك فى بور ســـعيد ، ثم تزحف القوات نحو الإسماعيلية والسويس مع الوضع فى الأذهان أن العمـــل الـــذى يقومون به بدون استشارة البرلمان أو الجمعية الوطنية أو حلفائهمـــا أو حتى الولايات المتحدة كان هذان الرجلان يزجان حكوميتهما فى مغامـــرة مـــن الصعب أن تكتب لهما فيها فرصة النجاح، حتى ولو قدر لهما احـــتلال منطقة القنال فإن الاحتفاظ بها سوف يكون من الصعب فى مواجهة عمـــــــق داخلـــى معاد ، وحتى لو قدر لهما إسقاط عبد الناصر ( وهو أمر

بعـــيد الاحـــتمال ) فلن تقدر أى شخصية أخرى ذات ميول غربية أن تشكل الحكومة . والعنصران الوحيدان اللذين فى إمكانها الاستفادة من هذه الظروف هـــم بقايـــا الأخوان المسلمين والشيوعيين ، وفى كل الاحتمالات - كما كان يخشى دالاس فإن مصر وسائر العالم العربى سوف تهب فى نوبة من العنف ضد أى شئ يمت بصلة لبريطانيا وفرنسا والغرب بأكمله .

تلـــك هى المقامرة التى أقدما عليها. أما الأجيال القادمة فى المستقبل فإن أبسط حكمها على ذلك سيكون أن رجلاً إنجليزيا معتل الصحة ومصاب بداء العصاب استدرجه رجل فرنسى ماكر، بل ورجل يهودى أكثر مكرًا ليسير فى طريق الضلال.

## الفصل الواحد والعشرون

# رد الفعل الثلاثى

فـــى يــوم الاثنين الموافق التـــاسع والعشرين من أكتوبر أصطحب جمال عـــبد الناصــــر أسرته فى نزهة إلى الريف ، فلقد كانت المناسبة هو الاحتفال بالعيد الخامس لميلاد ابنه عبد الحميد ، فبعد الضغوط التى تعرض لها خلال الأســابيع القلـــية الماضية ، شعر أنه من حقه إن يقضى بضع ساعات قليلة بعـــيداً عـــن العمـــل ، فاليوم السابق كان يوماً حافلاً بالبرقيات العاجلة : ففى المجـــر اقتحم الروس بودابست ، وفى دمشق كانت هناك أعمال شغب ، وفى القـــدس تعرضـــت القنصـــلية الفرنسية لهجوم من قبل الجمهور الأردنى(*) الغاضب احتجاجاً على ما يحدث فى الجزائر . إما إسرائيل فقد أعلنت التعبئة العامـــة بســـبب أحداث الأردن . جميعها أنباء أزمات لكنها كما ظن ليس لها تأثير مباشر على مصر . وتحت الأشجار الكثيفة فى القناطر الخيرية تناولت الأسرة غداءها مثلما تفعل أى أسرة مصرية عادية ( بالرغم من أنه لم يسمح بالطـــبع للناس الآخرين بالاقتراب من القناطر فى ذلك اليوم ) ، وفى المساء عـــادت إلـــى البيت لحفل عيد الميلاد ، وبينما كان ناصر يداعب أبناءه وهو جالس على الأرض ، إذ بسكرتيره يدخل عليه مهرولاً يحمل رسالة : لقد بدا الجـــيش الإسرائيلى الهجوم » عندئذ اندفع إلى مكتبه فى الناحية الأخرى من البيـــت ، واســـتدعى عـــبد الحكيم عامر الذى أكد له أن الألوية الإسرائيلية اخترقـــت الأراضى المصرية متجهة نحو خليج العقبة ، وأن بعض الطوابير المسلحة الأخرى تتقدم فى سيناء ، كما أن هناك تقاريرًا عن إبرار جوى عند ممـــر متلاً . واعتراف المشير عامر بأنـــه وأخذ على غرة لأنـــه كان يتوقع أن يكـــون الهجـــوم علـــى الأردن . وانكب ناصر على الخريطة يدرسها ثم أعطـــى أوامـــره بأن يكون هناك صمود عند أبو عجيلة . وفى عصر اليوم الـــتالى تسلم من سفيره فى لندن رسالة مشفرة سرية للغاية ، لكنها لم تفصح

(*) يقصد الفلسطينى ، فقد كانت الصفقة الغربية وعاصمتها القدس تحت الحكم الأردنى (المترجم).

إلا عن موضوعات قليلة يصعب فهمها حتى أنه أمر أن يعاد إرسالها بالشفرة مرة أخرى . فقد أفاد السفير أن موليه وبينو قد وصلا هذا الصباح إلى لندن، وأنه والسفير الإسرائيلى قد تسلما إنذاراً أنه يتوجب على الأطراف المتحاربة أن تصـــدر أمـــراً فورياً بوقف إطلاق النار ، وأن ينسحب كل طرف عشرة أمـــيال عـــن القناة ، وذلك خلال اثنا عشرة ساعة ، وفى حاله عدم تنفيذ ذلك فـــإن القوات البريطانية والفرنسية : « سوف تتدخل مهما تطلب ذلك من قوة ضـــرورية لتأمين الإذعان » وأنهما أيضاً سوف يتحركان نحو قناة السويس لضـــمان حـــرية المرور عبر القناة . لم يكد عبد الناصر يصدق عيناه : لقد تعرضـــت مصر للغزو ، كما طلب أن تسحب قواتها من سيناء ، ومن القنال من الأرض المصرية أنه لأمر يستعصى على الفهم .

وفـــى لـــندن أيضاً – بدأ هذا الإنذار كما لو كان لغزاً حتى أن كثيراً من الـــناس ظـــنوا أنهم استمعوا خطئاً إلى الأنباء . ففى شارع الصحافة ( فليت ســـتريت Fleet Street ) شـــهق ستيفن باربر Stephen Barber مساعد رئيس تحريـــر صحيفة نيوز كرونكل News Chronicle وواحد من أذكى العقليـــات فـــى شـــئون الشـــرق الأوسط وهو يعيد صياغة « المانشيت » الرئيسى فى الصفحة الأولى . إذ كتب بإيجاز : « إيدن فقد عقله .. إنه متصلب .. يحملق كالمجنون .. أننا على وشك من إحداث أكبر فوضى فى التاريخ ! » .

أمـــا الحكومـــة الإســـرائيلية الـــتى لم تكن قواتها قد اقتربت بعد من قناة الســـويس ، فقـــد أعلنت على الفور قبولها الإنذار . أما عبد الناصر وهو فى قمـــة الغضـــب – فقـــد استدعى سفيرى بريطانيا وفرنسا وأخبرهما : « إن إنذاركـــم مرفوض على الإطلاق. إن مصر ستدافع عن كرامتها » . لقد كان الإنـــذار صـــدمة مـــروعة ولكنه كما اعترف فيما بعد – لم يخطر بباله أن البريطانييـــن والفرنسيين سوف يهاجمون مصر إلى أن بدأت القنابل تتســـاقط بـــالفعل ، فلقد كان متأكداً أن ما يحدث ليس إلا فصلاً من عملية خداع ، فقد كـــان يعلم أنه باستثناء وجود قوات للمظلات فى ممر متلاً : فليس هناك أثر للإسرائيليين على بعد ٢٠٠ كيلو متر من القناة .

انتهـــت مهلة الإنذار فى فجر يوم ٣١ أكتوبر ولم يحدث شـــئ ، لكن فى

السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم ، بدأ تساقط القنابل ، وعندها فقط أدرك ناصـــر أن بريطانيا وفرنسا تنويان فعلاً الحرب ، وعندها فقط أرسل أوامره للجــيش بالانسحاب من سيناء ، وأن يتركز فى جبهة واحدة بين الإسماعيلية وبلبــيس ، وبالـــرغم مـــن التحام مؤخرتها فى اشتباك شرس ، قامت القوات المصــرية بالانســحاب بقــدر مـــا استطاعت ، غير أنه تم اللحاق بكثيرين وضـــرب حولهـــم الحصــــار ، واســـتمروا فـــى المعركة حتى اجبروا على الاستســـلام ، لكن لم يكن هناك انسحاب فوضوى تجاه الدلتا ، ولم يكن هناك ملامح عامة لهزيمة منكرة كما ادعت أجهزة الدعاية الإسرائيلية كذلك لم يكن هـــناك أى هـــزيمة للإســـرائيليين كمـــا كان يصيح راديو القاهرة . لقد كان الأجراء الوحيد الذى كان فى مقدور ناصر أن يتخذه عندما تبين له أن الغزو الأنجلو الفرنسى لمنطقة القنال أصبح مؤكداً – هو أنه بدأ فى تركيز قواته فى قلـــب مصـــر . بالإضافة إلى ذلك بدأت الموجة الأولى من طائرات القوات الجويـــة الملكـــية Royal Air foce وقاذفات القنابل الفرنسية فى الهجوم عند ســـاعة الصـــفر ، ودمـــرت الطائـــرات المصرية وهى رابضة فى ممرات المطـــارات فـــى ألماظة وهليوبوليس اللذين يبعدان ميلاً أقل أو أكثر من بيت ناصـــر الخـــاص . وعندما جاءت الأنباء بأن غالبية القوات الجوية قد أبيدت عند بداية الهجوم ، اتخذ عبد الناصر قراراً صارماً فى مواجهة طلبات سلاح القـــوات الجوية الغاضب ، إذ أمر بجمع ما تبقى من الطائرات القابلة للخدمة لكى تطير إلى أماكن آمنة فى صعيد مصر ، إذ لم يكن فى مقدوره الاستغناء عـــنها مـــن أجـــل الاشـــتباك فـــى سيناء مع النفاثات الأقوى : من فرنسية وإســـرائيلية ، خاصة إذا ما تعرضت لخطر الهجوم من جانب سلاح الطيران الملكـــى أثـــناء توجههم إلى هناك ، فلقد كان فى حاجة ماسة إليها فى اللحظة الهامة وهى عندما يبدأ القتال الفعلى فوق الدلتا ذاتها .

ومـــنذ الـــبداية أخذ على عاتقة مسئولية القيادة الشخصية للقوات المسلحة، وبالمـــثل كـــل الخطط الاستراتيجية والأعلام والدبلوماسية ، وكلما استمرت غـــارات الســـلاح الجوى الملكى ، والتى كانت بكل تأكيد من أغرب عمليات القصـــف ، حـــتى أن البريجادير فرجيسون Brigadier Fergusson الذى كان

مسئولاً عن « حرب الحلفــاء النفسية ضد مصر » كان يذيع مقــدماً ما هى المــناطق الــتى ســوف تــتعرض للقصف محذراً الناس أن تبتعد عن هذه الأماكــن. أمــا عبد الناصر فقد شن هجوماً من صنعه . ولكونه مقامراً على الــدوام فقــد راهن بأكبر قدر على مستقبله السياسى فى هذه اللحظة حتى أن أصــدقاءه كــانوا علــى استعداد لاستخراج حبات الكستناء ( أبو فروة ) من الــنــار مــن أجله . فقد قامر على إحراز نصر دبلوماسى لكى يغطى على الهــزيمة العسكرية المحتملة . فقد كان يعلم أن العالم الأفرو – أسيوى بأكمله وكثــير مــن بلــدان الغرب قد روعها حدوث العدوان على مصر ، بل كان يعلــــم أنه داخل إنجلترا ذاتها انقسم الرأى العام بشدة حول هذا التصرف ، كما كان يعلم أن فى مقدرته الاعتماد على تأييد حتى هذه اللحظة – على كل مــن روســيا والولايــات المــتحدة . ولهذا كانت تجرى من مكتبة مكالمات تليفونــية لمســافات بعيدة طوال ساعات الليل والنهار لمحادثة سفرائه وكذلك رؤساء الدول حول العالم يطلب النجدة.

وهــناك شــئ آخر كان على دراية به لم يفهمه كل من « أيدن » ومولية وكذلك موظفو الخارجية البريطانية وموظفو كواى دورساى Quai d Orsay (مبــنى وزارة الخارجــية الفرنســـية) ، بالرغــم من أن ســفارتيهما فى القاهــرة ركزتا عليه مراراً وتكراراً ، والذى مفاده أنه فى حالة أزمة وطنية مــثل هــذه ، عــندما يتعرض تراب مصر للتهديد من قبل بريطانيا وفرنسا وخاصــة العــدو الأكبر إسرائيل ، فأن الأناس العاديين فى مصر بالرغم من الارتــباك والخــوف – الذى هم فيه سوف يقفون من خلفه وفى اللحظة التى كانت فيها طائرات سلاح الجو الملكى تسقط ملايين المنشورات فوق القاهرة تحــرض الشــعب على أن يهب فى ثورة ضد « الطاغية ناصر » ، كان هو بنفســه يــتجه إلى الأزهر لأداء صلاة الجمعة ، ويتحدث إلى الجماهير وهو جالس القرفصاء فوق الحصر مخاطبة إياهم : « يا أخواتى ! » وأخبرهم بان كــل واحــد مــنهم جندى فى جيش التحرير قائلاً : « سوف نخوض معركة مريرة » . وفى مناسبة أخرى وفى كلمات تختلف عن كلمات قائد آخر قال : «ســنحارب مــن قرية إلى قرية ، ومن بيت إلى بيت ، ولن نستسلم أبداً» لقد

أثـــار ثائـــرة الجماهير بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، فعندما غادر المسجد وصـــل إلـــى ســـيارته بشق لأنفس ، ولم يكن هناك شك فى ذلك ، فقد وقف الـــناس إلى جانبه بقوة بما فى ذلك أولئك الذين عبروا من قبل عن كراهيتهم لسياساته .

لقـــد كان هناك شعور خرافى يظهر من خلال المرايا لذلك الأسبوع الأول مـــن شهر نوفمبر ، ربما أشد وطأة فى إنجلترا منه فى مصر ، فلا أحد ممن كـــان فى لندن فى ذلك الوقت سوف تغيب عن ذاكرته تلك الهستيريا الغريبة الـــتى حلت بكل واحد تقريباً ، فقد انقسمت البلاد إلى جبهتين واضحتين حول هـــذه القضية ، فالصقور – كما يمكن أن نسميهم الآن – غمرتهم الفرحة بأن أجراء قوياً قد اتخذ أخيراً ، فقد كانوا يراقبون برعب متزايد بريطانيا العظمى المنتصـــرة عام ١٩٤٥ ، وهى تتخلى عن مكانتها الاستعمارية ، وتتحول إلى إنجلـــترا الصغرى ، تعيسة الحظ خلال الخمسينيات وهى تقع تحت رحمة أى أمـــة أو مستعمرة صغيرة ، فإخفاقها التام فى الميدان والانسحاب من قاعدتها الكـــبرى فى منطقة القنـــال كان كافيا بتصعيد هذا الإحســـاس بالإحباط الذى كـــانوا قد شعروا به بعد فقـــدانهم الهند. أما الآن فقد جاء الوقت المناسب – كمـــا كانوا يعتقدون – لكى يتوقف هذا التفسخ ، وأن تستعيد بريطانيا ( حامية الحـــرية ) زعامتها . أما الحمائم ، على الجانب الآخر – فقد اعتراهم الفزع مـــن عودة دبلوماسية البوارج «Gun Boat diplomacy» التى تعود بهم إلى أيـــام الملكـــة فكتوريا ، إذ أنهم لم يستسيغوا الفكرة القائلة بأن تشن بريطانيا (حامـــية القانون والنظام) عدوانا وحشياً مكشوفاً ضد أمة صغـــيرة من أجل خـــلاف يتوجب أن تعالجه الأمم المتحدة ، ومن ثم فأنها تقامر بإشعال النيران فى الشرق الأوسط كله ، مما قد يؤدى إلى اندلاع حرب نووية . وبالرغم من أن جمـــيع المحافظيـــن كـــانوا صقوراً ، بينما حزب العمال والأحرار كانوا حمـــائم، إلا أن هـــــذا الانقســـــام لم يكن حاسماً بأى حال من الأحوال بين الأحـــزاب . إذ أن بعض المحافظين الصـــارمين كانوا معادين للحرب حتى الـــثمالة ، فـــى حيـــن أن بعض اتحادات العمال ممن يضعون فوق رءوسهم قلنســـوات مـــن القمـــاش ، كـــانوا يصفقون لها. وفى الحانات ، وفى قاعات

الكليات الجامعية ، وفي حجرات التدخين في النوادى على طول البلاد وعرضها جرت مناقشات عاطفية . ومرة واحدة نسى الناس البرود الإنجليزى التقليدى فالأسر كانت تضرب على موائد الطعام ، والناس تتشاجر في الطرقات بل أن الأنباء تناقلت ( ربما بدون دقة) أن اسقفين في حرم المجمع المقدس تبادلا اللكمات ، حتى أن الحكومة ذاتها كانت منشقة على نفسها . فقد قدم انطونى ناتنج استقالته من الحكومة ومعه العديد من كبار مساعدى أيدن . وبدت « أم البرلمانات » فى مظهر شجار غير برلمانى أدان فيه أعضاؤه أيدن بعبارات قاسية تكاد تقارب في بعض النواحي تلك التي وصفه بها راديو القاهرة .

بعد الهجوم الأولى ، واستئناف السلاح الطيران الملكى إلقاء قنابله ، حدثت فجوة غريبة استمرت أربعة أيام ، صدرت خلالها بلاغات رسمية من كل من قبرص ولندن تضع جدولاً زمنياً للزحف والتقدم البطئ لحملة هجوم تقلع تجاه الشرق من مالطة ، لكن كان من الصعب أن يفهم إن كان ذلك يعنى الإعداد لغزو أم لا .

وفى أثناء ذلك استهلك الوقت بينما كانت المعركة الدبلوماسية لتأييد العالم تتزايد في تحركها نحو صالح مصر . ففى الثانى من نوفمبر صدر قرار أمريكي في الجمعية العامة للأمم المتحدة يطالب إسرائيل بالانسحاب إلى وراء خط الهدنة ، ويطالب الأعضاء الآخرين بعدم وضع « مواد عكسرية » في المنطقة ، وصوتت كل من بريطانيا وفرنسا ضد ذلك القرار ، لكن بعد مناقشات استمرت تسع ساعات، مرر القرار بأغلبية ٦٤ صوتاً ضد خمسة أصوات ، ولم يؤيد الموقف الأنجلو فرنسى سوى استراليا ونيوزيلندا (وبالطبع إسرائيل ) ، غير أنه في عتبة الإنزال الفعلى على أرض مصر بعث روبرت منزيس ببرقية عاجلة إلى أيدن تحمل ما قل ودل من كانبرا يقول فيها : « لا تفعلها Don t do it».

كان هجوم الطلعات الأولية المحمولة جواً من جانب بريطانيا وفرنسا على بورسعيد والتى بدأت أخيراً فى ٥ نوفمبر بمثابة تحدياً للأمم المتحدة وللرأى

العـــام العالمى . ولقد واجهت قوات المظلات مقاومة خفيفة لكن بتصميم على الصـــمود ، وفـــى مـــا بعـــد الظهر أحاطوا بالمدينة ، وألمح القائد العسكرى المصرى فى المنطقة عن رغبته فى مناقشة شروط الاستسلام .

وخـــلال ســـاعة قاطع السير أنطونى أيدن مناقشة ذات ضجيج فى مجلس العمـــوم لـــيقرأ نـــص برقـــية وصلت على التو من مركز قيادة العمليات فى قـــبرص هذا نصها : « إن القائد العسكرى فى بور سعيد يناقش الآن شروط الاستســـلام . لقد أمرنا بوقف إطلاق النار » . وفى الحال ساد الإحساس بأن ناصر قد استسلم وكان رد الفعل عاصفة من التصفيف وهم وقوف لأيدن .

وفى نفس اللحظة كان ناصر قد وضع سماعة التليفون بعد أن أصدر أمرًا مقتضـــباً باستمرار إطلاق النار ولو اقتضى الأمر أن تتحول بور سعيد كلها إلـــى خرائب ، أما مكالمته الثانية فقد كانت إلى « بولجانين Bulganin » فى موســـكو، والذى كان رد فعله إرسال مذكرات إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل يعلـــن فـــيها أن روسيا مستعدة لاستخدام القوة : « لسحق المعتدين واستعادة السلام » .

وعـــند الغسق استؤنف القتال . وفى صباح اليوم التالى فى الساعة الرابعة والأربعيـــن دقـــيقة رست القوة الرئيسية الإنجليزية الفرنسية فى بور سعيد . ومـــع قدوم العصر كانت المدينة بكاملها قد وقعت فى أيديهم ، وكانت عربة الـــبريجادير م. أ. هـــ. بتلر Brigadier M. A. H. Butler تتجه نحو الممر الضيق الواقع بين القناة وبحيرة التمساح فى اتجاه الإسماعيلية والسويس .

وفـــى أثـــناء ذلك ، لم يعد السير أنطونى أيدن ذلك الشخص الذى توردت وجنـــتاه خجلاً من الانتصار ، والذى كان يلوح ببرقية وقف إطلاق النار فى مجلـــس العمـــوم مســـاءً اليوم الذى سبق – لم يعد مجبراً للخضوع لمثل هذا الضـــغط الدبلوماسى ، حتى أنه ظن أنه قد بلغ أقصى قامته . فبصرف النظر عن الإدانة للعدوان على مستوى العالم ، فإن المذكرة اشتملت تلميحاً عريضاً بـــأن : « ما لم توقف بريطانيا وفرنسا عدوانهما فى الحال فإن لندن وباريس

قــد تتعرضـــان للقصـــف مما قد يفجر أول حرب عالمية نووية » إن تلميح الكرمليــن بالصـــواريخ كـــان من المحتمل أن يكون أمراً مشكوكاً فيه ، لكن تناقص الاحتياطى الاسترلينى الذى بدأ فى الخامس من أكتوبر ، ووصل إلى أقصــاه فـــى الخـــامس من نوفمبر بدرجة تثير القلق ( حتى أن مائة مليون إسترلينى كانت مطلوبة لعملية الإنقاذ فى اليوم الواحد فقط ) حتى أن الخزانة أخطـــرت أنـــه إن لم يصل الدعم الفورى بما يقرب من ألف مليون إسترلينى مـــن الولايـــات المـــتحدة فـــأن الإسترلينى مضطر لخفض قيمته خلال أربع وعشرين ساعة .

كتـــب جـــيمس رستون James Reston فى مجلة النيويورك تايمز New York Times يـــوم ٣١ أكتوبر يقول : « عندما سمع أيزنهاور لأول مرة عن الإنـــذار ، ســـرت قعقعـــة فى البيت الأبيض - بلغة الثكنات - لم نسمع عن مثيلتها منذ أيام الجنرال « جرانت General Grant »(*). وفى عصر السادس من نوفمبر تحدث ايزنهاور إلى إيدن تليفونياً دون أن يتصنع فى كلماته ، إذا أبلغه بلهجة رقيب حازم: « إن لم يأمر إيدن بوقف إطلاق النار عند منتصف اللـــيل فإنـــه ســـوف يدمر الجنية الإسترلينى » عند هذه النقطة انهار رئيس الوزراء المرهق تماماً .

ولقد رحبت القيادة العسكرية فى قبرص - وهى لا تصدق - بقرار وقف إطـــلاق الـــنار وبدرجة لا تقل عند البريجادير بتلر وهو يسارع متجهاً نحو الإســـماعيلية ، فـــى بادى الأمر تجاهل الإشارة ولم يصدقها إلا عندما سلمه عـــامل اللاســـلكى الخاص بدبابته الأمر المباشر : « من رئيس الوزراء إلى الـــبريجادير بتلر. عليك بالتوقف على الفور » عندئذ أوقف التقدم أخيراً دون أن يخفى مظاهر خيبة الأمل . وعندما عاد إلى قبرص أخبر رجال الصحافة: « لـــم يكـــن فى مقدورى إلا أن أشعر بالإحباط أكثر من أى فرد آخر بوقف الـــنار عـــند منتصف الليل . لأنى أعرف أنه فى استطاعتنا أن نستولى على

(*) أحد زعماء حرب الاستقلال الأمريكية .

الإســماعيلية فى زمن أقصاه وقت الظهيرة . ولا يمكن لأى دراسة أكاديمية أن تخفــى حقيقة أن العملية كلها كانت عملية إخفاق بشع . وأن ناصر بالرغم من أنه لم ينتصر فى أى معركة لكنه كسب الحرب . وكما توقع ستيفن باربر Stephen Barber كانــت أكــبر حالـــة من الفوضى ، وحالة نادرة فى تاريخ الاســتعمار الــبريطانى ، فخلال أسبوع واحد من التصرف الجنونى الذى لا مثـيل له ، جلبــت إنجلترا على نفسها اللوم تقريباً من جانب كل أمة من أمم العـــالم ، وفقدت بذلك إلى الأبد وضعها المتميز فى العالم العربى، وأكثر من هذا وذاك فأن تكتيك العملية كلها تم بطريقة سيئة .

لقــد أصبح الآن مقبولاً علي المستوى العام ، حتى فى أوساط «الصقور» أن التدخل العسكرى كان خطئاً رهيباً ، بالإضافة إلى ذلك أنه قد تم التخطيط لـــه بحرص بالتناسق مع ثلاثة أمم معتدية هى : إسرائيل وفرنسا وبريطانيا . وإذا ما أغفلنا مثل هذا التعاون فأنه يصبح عندئذ أمرًا ساذجاً لا يغتفر بالرغم مـــن الإنكار المشبوب بالعواطف ، ولكن غير مقنع فى ذلك الوقت من جانب كـــل واحـــد تقريـــباً فى الهوايتهول بما فى ذلك رئيس الورزاء نفسه . كانت المشكلة هو تفسير السبب الذى خرجت فيه هذه العملية بالذات عن مسارها ، ولشـــرح الإنذار السخيف الذى وجه إلى مصر ، والذى لم يكن له أى علاقة بـــأى شـــكل مـــن الأشكال بالموقف فى ذلك الوقت الذى صدر فيه ، وكذلك المضـــايقات الـــتى ســـببتها للقـــيادة العسكرية فى قبرص التى وجدت نفسها ببســـاطة وقـــد وقعت فى ورطة أثناء اللحظات الحاسمة بين صدور الإنذار والإنـــزال الفعلـــى في بور سعيد ، كما أنه ليس من السهل أيضاً تفهم الحكمة من وراء الهجوم أساساً عشية الانتخابات الأمريكية بالذات .

وعـــندما يماط اللثام عن وثائق حملة السويس(*) فى الوقت المناسب ، فقد يصبح فى الإمكان العثور على حقيقة ما حدث فعلاً ففى غياب ذلك فأن أكثر

(*) نشر أغلبها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه : « ملفات السويس - حرب الثلاثين عامًا ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهر ١٩٨٦ ( المترجم ) .

التفسيرات الممكنة بأنه لسبب ما انطلقت العملية كلها لعدة أيام سابقة عن الجدول الزمنى الذى كان معدًا لها . وهذا قد يعطى معنى لأشياء غير ذات معنى .

إن أكثر الاحتمالات أن الخطة التى كانت قد رسمت من قبل ، وعلى وجه التجديد يوم ١٦ أكتوبر هى أن يقوم الإسرائيليون بهجوم مفاجئ فى سيناء خلال الأسبوع الأول من شهر نوفمبر يقصد أن تتقدم قواتهم حتى تصبح بعد ثلاثة أيام على مقربة من القنال ، وفى الخامس من نوفمبر عشية يوم الانتخابات الأمريكية (عندما يكون ايزنهاور مجرداً من السلطة مؤقتاً) تصدر الحكومتان البريطانية والفرنسية وهما ترفعان أيديهما فى رعب خوفاً من حدوث تهديد للملاحة فى القناة إنذارهما المشترك ، وهما يعلمان مقدماً بالنتائج . وفى الوقت الذى يكون فيه الأمريكيون أمام صناديق الاقتراع ، يبدأ ضرب مصر بالقنابل ، وخلال أربع وعشرين ساعة تكون حملة الغزو البرمائية فى طريقها قبل أن تتمكن واشنطون أو الأمم المتحدة من اتخاذ أى خطوة . عندئذ يكون قد تم احتلال منطقة القنال ، وربما تكون قوة ضاربة قد وصلت إلى مقربة من القاهرة لتضع نهاية لناصر .

ولكن يبدو من المحتمل أن إسرائيل ، وقد فقدت الثقة فى حلفائها ، أو كانت تشعر بالخوف أن ايزنهاور قد يقوم بطريقة ما بإقناع بريطانيا وفرنسا فى اللحظة الأخيرة بالعدول عن خطتهما ، انتهزت مزية الانتفاضة المفاجئة فى المجر . فمن وجه نظرها ان تلك ستاراً من الدخان هيئه لها الحظ السعيد لتشرع فى القتال بمفردها . ومن المحتمل جداً أن الفرنسيين كانوا قد تلقوا منها إخطاراً مقدماً ، ولم يعترضوا على هذا التغيير فى الخطة ، غير أن أيدن كاد أن يكون قد أخذ على غرة بكل تأكيد . فقد كان رجلاً مريضاً تساوره الظنون. كما أن شركاءه فى المؤامرة فى باريس وتل أبيب لم يكن لديهم النية أن يسمحوا له بفرصة اختيار اللحظة الأخيرة . ولما ووجه بالأمر الواقع Fait Accompli : اعترى الذعر أيدن فأنهار . لقد صدر الإنذار بدون أى تغيير مما جعله فى ظل الظروف المتغيرة وثيقة غير مسئولة بدرجة كبيرة ، ومن بدأت العملية وهو يتأرجح بين القبول والرفض ، غير أن

تغيـــير الـــتواريخ فأجـــأ المخططون وقلب حساباتهم رأساً على عقب . فمنذ التحرك البطئ بطئ الفيلة للقوات العسكرية وهى تقترب من قبرص حيث بدأ أســبوع كــامل مــن المعاناة بسبب التأخير قبل أن يبدأوا فى الرسو فى ذلك الوقـــت ، كانت وجهة النظر العالمية قد أكدت إنهائها بعد ست وثلاثين ساعة فيما بعد .

وبقـــدر مـــا كـــان يهـــم بريطانيا ، أصبحت السويس أشبه بهيكل عظمى موضـــوع فى دولاب ، فهو ما زال موضوعًا يستبعد بهزة كتفين استهجاناً ، أو علـــى أقـــل تقديـــر يقلل من شأنه . فبعد ثلاث سنوات من الحدث أجريت الانـــتخابات العامـــة كســـب فيها المحافظون دونما أن يشيروا ولو بالكاد إلى هـــزيمة الســـويس ، والـــتى كانت واحدة من أقل الحدود الفاصلة فى تاريخ بريطانـــيا الاســـتعمارى استساغه ، أن الشعور بالنشاط لم يبدأ فى الزوال إلا حديـــثاً فقـــد ظهر جيل جديد من الإنجليز أقل اهتماماً أو وربما كان معترضاً أساســـاً ) بأهمية عام ١٩٥٦ ، فقد أدركوا ، وقبلوا واستنكروا وجهات النظر الأساســـية ، ورؤى الرجال الذين كانوا مسؤلين عن مثل ذلك الفصل المدمر بـــل الأجرامى : فقد صدر المانشيت « الرئيسى فى إحدى كبريات الصحف فـــى ذلك الوقت يقول «رجال مجرمون ! » . على أى حال كان العالم بقدر مـــن الغفران قد اجتاز بعض الجوانب منذ محاكمات «نورمبرج»، فقد اختفى الســـير أنطونـــى أيـــدن فـــى بطريقة متحضرة إلى عالم النسيان فى مجلس اللوردات ، وربما كان جمال عبد الناصر من بين كل الناس الذى أغلق ملف حادثة السويس بكل كرامة عندما قال : « سوف نغفر ولكن لن ننسى » .

وباعـــتراف الجمـــيع كان ثمن ذلك العفو غالياً ، ففى الخامس من نوفمبر قطـــع ناصـــر علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا ، وأمر بمصادرة كل الممتلكات البريطانية والفرنسية ، وما أن توقف غزو السويس ، وزال الخطر حـــتى بدأ يوجه غضبه ضد أقرب الضحايا وأكثرهم ملاءمة اليهود الذين لا حـــول لهـــم ولا قوة ، والمقيمين فى مصر من البريطانيين والفرنسيين . ومـــنذ وقت طويل كان قد أمر بالقبض الجماعى ، والاعتقال أو الطرد لعدد كبـــير مـــن الخمسين ألف يهودى فى البلاد وقام بترحيلهم وأغلبهم عاش كل

حياته في مصر ولا يعرف وطنًا غيره ، ولم يسمح لهم إلا بأخذ خمسة جنيهات إسترلينية وحقيبة واحدة بها المتعلقات الشخصية الخاصة بكل واحد منهم . ونفس المصير كان ينتظر حملة جوازات السفر البريطانية والفرنسية بما في ذلك عدد كبير من المالطيين والقبارصة . وقوبل الجمهور البريطاني بمنظر غير معتاد لمئات اللاجئين الأنجلو ساكسونيين عند ميناء دوفر Dover ومطار هيثرو Heathrow ( وإلى أن خففت اللوائح كانوا يجبرون على دفع الجمارك عند الخروج على القليل من المتاع الذى استطاعوا حمله معهم ! ) .

كان الطرق على الباب يحدث دائماً عند منتصف الليل ، وفي حالات كثيرة كان يطلب من المرحلين التوقيع على إعلان رسمي باللغة العربية يؤكدون فيه أنهم يغادرون البلاد من تلقاء أنفسهم متخلين عن مطالبتهم بممتلكاتهم . وكان ذلك يعرف « بالتمصير Egyptianization » ، إذ وضع ناصر بنفسه حصرًا لقوائم المؤسسات التجارية والممتلكات التي يتوجب الاستيلاء عليها . فقد قال لوزير ماليته : « إن أمامنا فرصة أرسلتها السماء لنا لكي نطهر البلاد من النفوذ الأجنبي.. تأكد من أنك تقوم بعملك على الوجه الأكمل » . وخلال أيام معدودات نزعت ممتلكات بريطانية تقدر بمائة مليون إسترليني ، وكانت تشمل مستشفيات ومدارس ، بل وحتى شركة شل ذات الاعتبار في مصر ، ومعها ما يتبعها حقول النفط الأنجلو مصرية ، كما منع ذوى المهن من البريطانيين والفرنسيين من ممارسة مهنهم ، كما حظر على الشركات البريطانية والفرنسيين رفع القضايا أمام المحاكم المصرية ، حتى أفلام السينما والكتب والبريطانية والفرنسية حظر دخولها البلاد . كما صدرت التعليمات إلى وزارة التربية والتعليم يقطع كل علاقاتها الثقافية مع إنجلترا وفرنسا ، كما أعيد كتابة المقررات المدرسية بحيث يستبعد منها بقدر الإمكان أى إشارة إلى البلدين اللذين فرضاً سيادتهما على مصر لما يقرب من قرن ونصف قرن . لقد كان من بين الأسباب التي برر بها إيدن تدخله في السويس هو حماية الممتلكات البريطانية . فقلما صدرت مثل هذه التصريحات الطائشة في مجلس العموم البريطانية ، أما الأسهم

البريطانـــية فى مصر والتى لم تكن فى خطر قبل الغزو فقد صورت بأكملها كنتـــيجة له . وبصــــرف الـــنظر عن هذا الثمن من البؤس الإنسانى ( والذى عـــوض أخيراً كنتيجة للاحتجاج العنيف من جانب الجمهور عن طريق لجنة ظلت تتجادل حول نواحى قانونية فرعية مع بعض المطالبين لمدة أثنى عشرة عامـــاً من حدوث الواقعة ) . لقد كانت قائمة الحسابات التى كان يتوجب على دافـــع الضــــرائب أن يسددها مربكة : ١٠٠ مليون إسترلينى تكاليف العملية بالإضــــافة إلـــى ٢٥٠ ملـــيون إسترلينى ثمن المخازن والمعدات التى كانت موجـــودة فى قاعدة منطقة القناة والتى استسلمت فى هدوء إلى مصر ( والتى كانـــت ستســـتولى عليها بأى حال من الأحوال ) كشئ مقابل شئ Quid pro Quo نظـــير الخسائر التى أحدثها عند ضرب بور سعيد بالقنابل . وفى واقع الأمـــر لـــم يكن الخراب الذى حل ببور سعيد كبيراً ، فلقد أسر مسئول قيادى مصـــرى بعـــد ذلك بعدة سنوات قائلاً : « فى الحقيقة ساعدنا ذلك كثيراً فى الـــتخلص مـــن المناطق العشوائية القذرة والتى كانت ستستغرق منا سنوات لإزالـــتها » والذى لا شك فيه أن مصر رغم أنها خسرت الكثير فى المعارك العســـكرية التى وقعت إلا أنها كسبت الحرب . فمن باب السخرية أنها رفعت بشدة ذلك الرجل عينه التى كانت تبغى تحطيمه . إن مكانة ناصر التى كانت حـــتى ذلـــك الوقت لا تزال غير مؤكدة بالرغم نجاحاته السابقة أصبحت الآن مدعمـــة بشكل عارم فى مصر وعبر الشرق الأوسط . والأكثر من ذلك كما قـــال : « صلاح الدين آخر الزمان » نفسه وهو يسترجع بفكرة بلا شك إلى أيـــام الســـيادة الأوروبـــية مـــنذ حملة نابليون : « لقد أصبح فى أمكاننا بعد الســـويس أن نؤمـــم كل الأسهم الأجنبية فى بلادنا ، وبذلك استعادت السويس ثروات الشعب المصرى المنهوبة».

# الفصل الثانى والعشرون

# قيام الجمهورية العربية المتحدة

بعـد أن أكتسـح عن طريق موجة عبادة الفرد عبر الشرق الأوسط ، بدأ ناصـر علـى الفـور فـى تحويل نجاحه في انتزاع السيطرة على القناة من الأجانـب إلى رأس مال أملاً أن يصبح فرعوناً ليس على مصر فحسب ، بل علـى كـل العالم العربى - وهى أولى دوائر النفوذ التى كان قد حلم بها فى «فلسـفة الثورة» إذ بدأ يسرع الخطى فى مناوراته الدولية ، وتأييد الحركات الراديكالـية التقدمـية مـن مـراكش إلى بغداد ، فبالنسبة له فقد كان جوهر الصـراع يتمـثل فى استئصال بقايا الاحتلال والتى كانت تعنى بكل نواياها وأغراضها النفوذ الغربى والتورط معه فى أى شكل أو صيغة .

ولكن النجاح الحقيقى هو أن « الناصرية » بدأت تتكون فى أعقاب معركة السويس مسببه رد فعلى عصبى لدى هؤلاء الذين كانوا يفضلون بقاء الوضع علـى ما عليه Status quo على أحداث التغيير الجذرى الذى روج له راديو القاهـرة بصـوت مرتفع . أن سعى عبد الناصر لقيادة العرب أدى إلى زيادة العـداء مـع الحكومـات العربـية الأخرى ، والتى كان أغلبها لا يزاولون محافظيـن - وكذلك من جانب واشنطون التى بدأت تندم لو أنها لم تعارض عملية السويس بشكل حاسم .

ففـى مطلـع عام ١٩٥٧ أقامت الولايات المتحدة ما كان يعرف «بنظرية ايـزنهاور» Eisenhower Doctrine ، هـذه الـنظرية كانـت تدعو إلى أن الشـيوعية الدولـية تمثل خطرًا على الشرق الأدنى ، وكانت تعد بأنها سوف تقـدم كل مساعدة مالية لأى حكومة تتصدى لها . وفى نفس الوقت انضمت الولايـات المـتحدة إلـى جبهة الحصار الاقتصادى على مصر والذى كانت بريطانـيا وفرنسـا قد فرضته بعد السويس فقد أراد دلاس الذى اشعل الفتيل الأول لأزمـة السـويس أن يضيق الخناق على ناصر أول الأمر ، وبعد أن يلحق به الأذى يصبح فى مقدرته ( أى دالاس ) أن يبنى جبهة مؤيدة للغرب

ومعادية للشيوعية ومعادية لناصر في الشرق الأوسط، لكن رد الفعل لذلك أن تحول ناصر إلى قرة عين الكرملين أكثر من أى وقت مضى .

لقد كانت هناك تيارات متعارضة فى السياسة العربية فى تلك الفترة ، وكذلك تغيرات كثيرة ، وتحول فى اتجاهات الرياح . ولكن يمكن تحديد جوهره الصراع . فمن ناحية الأيديولوجية : كان الصراع بين القوميين العرب والمحافظين ( الرجعيين ) ، ومن الناحية الفعلية كان الصراع بين روسيا والولايات المتحدة . وكان النفط هو جائزة السباق .

كانت كل من لبنان ، والعراق ، والأردن ، والسعودية العربية قد قبلت نظرية «إيزنهاور» ، أما سوريا التى كانت ذات اتجاه وحدوى عربى ومحايد مثل مصر فقد عارضته ، وبدلاً من ذلك بسبب خوفها من أن تصبح ضحية لأى انقلاب سواء من جانب اليسار أو اليمين ( كان التأثير الشيوعى والنفوذ السوفيتى قويين ، حيث تم اكتشاف انقلاب عسكرى عراقى ) فقد أقدم السوريون على خطوة جريئة حتى ولو كانت يائسة ، فقد طلبوا من ناصر أن يقيم اتحادًا فوريًا وشاملاً بين سوريا ومصر .

وبالرغم من أن عبد الناصر قد أدرك خطورة مثل هذا الزواج ، لكن كان من الصعب عليه أن يقاوم إغراء فرحته بأن تمتد حدوده شرقًا حتى العراق وقد تكون فرصة لا تتكرر ، ومن ثم ففي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم الأول من فبراير عام ١٩٥٨ وقف جمال عبد الناصر ، وشكرى القوتلى ، جنبًا إلى جنب فى شرفة قصر عابدين فى القاهرة وأعلنا أن مصر وسوريا منذ تلك اللحظة سوف يكونان « دولة واحدة ، وجيش واحد ، وحزب واحد» هذه الظاهرة الغريبة هى التى عرفت بالجمهورية العربية المتحدة التى خرجت إلى الوجود .

وفى مطلع عام ١٩٥٩ كان قد تم التوصل إلى اتفاق مالى ليحل العلاقات بين لندن والقاهرة بما يرضى المقيمين السابقين من الإنجليز و الذين طردوا منذ أحداث السويس أن يعودوا إلى بيوتهم ، غير أنهم فوجئوا من الناحية

الرســمية أنهــم لــن يعودوا إلى مصر أبداً لأن « مصر» لم تعد قائمة، لقد أصبحت الأقليم « الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة».

لقــد كان هذا الاسم – غير البراق إلى حدمًا – رمزًا للتغيرات التى حدثت خــلال غياب استمر تسع وعشرون عامًا . حتى ولو بدت فى الظاهر أشياء مرضــية بــنفس القدر ، فبالرغم من أن كل شئ كان قد تغير تماماً ، إلا أن دفــئ الاســتقبال المصرى القديم ظل كما هو ، فكثير من الإنجليز الذين قد يعــانقون بعضهم بعضًا ببرود خلال حفلات الاستقبال ، غلبهم رقة الترحيب بعودتهم ، فمعارفهم السطحيون كانوا يعانقونهم فى الشوارع ، وخدم النوادى كــانوا يصــافحونهم ، وكان الدوبى Dhobis (*) والفراشين وسائقى التاكسى وكل صغار الناس الذين عرفوهم كانوا مسرورين من تلقاء أنفسهم أن يروهم مــرة أخــرى ، فسحر الحياة الشرقية البسيطة لم يتغير : فضوضاء المقاهى علــى رصــيف الشــوارع ، وبائعو الليمون فى الطرقات ، ومحلات الفول والطعمــية ، ومحــترفو لعــبة التــنس وهــم يقــرعون الكرة فى النادى ، والمشــروبات الكثيرة الباردة فى دور السينما الصيفية ، والحوانيت الصغيرة التى تنتج يدويًا الأحذية الرائعة المصنوعة من الجلد ، وكذلك القمصان – كل هــذه الأشياء وما على شاكلتها ظلت على حالها دون تغيير ، غير أن المناخ العام أصبح يختلف تمامًا ، فلم يكن هو التأثير المرئى الجديد للقاهرة الذى قد تغــير بكل المعانى على مدى الأفق والتى انعكست صورتها على صفحة مياه النــيل ، ولا برج التلفزيون الجديد(**) الذى ارتفع مثل الصاروخ فى أرض الجزيرة هى التى أكدت رغبة مصر المتناسقة لأن تقفز إلى الإمام إلى عصر جديد ، بل كان ذلك دليلاً على أن هذه القفزة قد حدثت فعلاً .

لــم تعد القاهرة الأوروبية تلك القرية المتأنقة المميزة التى تقف أنيقة على مســافة ليســت ببعيدة من العاصمة الكبرى التى تموج بالبشر ، فقد أصبحت

(*) هكذا كتبها ولست أدرى ماذا يقصد بالدوبى !

(**) برج الجزيرة لم يكن مخصصاً للتلفزيون (المراجع).



بدأ تحديث مصــر فى عهد جمال عبد الناصر. والصورة
تظهــر العمائر الحديثة على شــاطئ النيل ومن الخلف
يظهر تل المقطم وقلعة محمد على.




ناصر هبة السماء للعالم: هكذا رفع عثمان أحمد عثمان
هذا الشعار ولاءً وتحية للرئيس. وهذا يبين وجه النفاق
فقد ألف عثمان أحمد عثمان كتاباً بعد وفاة ناصر هاجمه
فيه بشدة ويقول عليه الكثير من الأقاويل التى لم تثبت
حتى الآن صحتها.

الآن مـن ذكريات الماضى تتمسك بأهدابه من خلال مبانيها المعتادة، لقد حل محـل المنشـئات الأرستقراطية الضخمة ذات الأتساع الرحب ، والتى أقامها ثلاثة أجيال: رجال الإدارة البريطانيون ، رجال البنوك الفرنسيون ، والتجار الإيطالـيون – حـل محلها الطابع الوطنى الذى زحف عليها من قلب المدينة العتـيقة ذات طـراز العصور الوسطى ، بكل ضوضائها وترابها والازدحام الصـاخب فـيها ، ونفـس الشئ حدث فى الإسكندرية ، حيث اختفت البشرة والمظهر الأوروبى إلى الأبد ، فقد تولى المصريون أمورهم هكذا كان الأمر ببساطة.

فمـنذ السـويس ، شـرع المصريون ينتقلون باطراد إلى البيوت الخاصة والشـقق التى صودرت من البريطانيين والفرنسيين واليهود ، وقاموا بسرعة بشـراء ممـتلكات الأجانـب الآخرين الذين شاهدوا الشعارات المكتوبة على الحوائط ، وغادروا البلاد برغبتهم . وكثير من السكان الجدد كانوا من شباب الضـباط الذيـن أصبحوا الآن طبقة « مميزة » جديدة ، ولكى يضمن ناصر ولاء الجـيش له ، فقد أوكل إليهم الإشراف على البنوك ، وشركات التأمين ، والشـركات الـتى مصـرت ، وأغلب هؤلاء الضباط أصبحوا رجال أعمال وغـرقوا فـى ثراء مفاجئ . وأصبحوا يمارسون نفس نمط الحياة تماماً مثل الأوروبيين الذين حلوا محلهم .

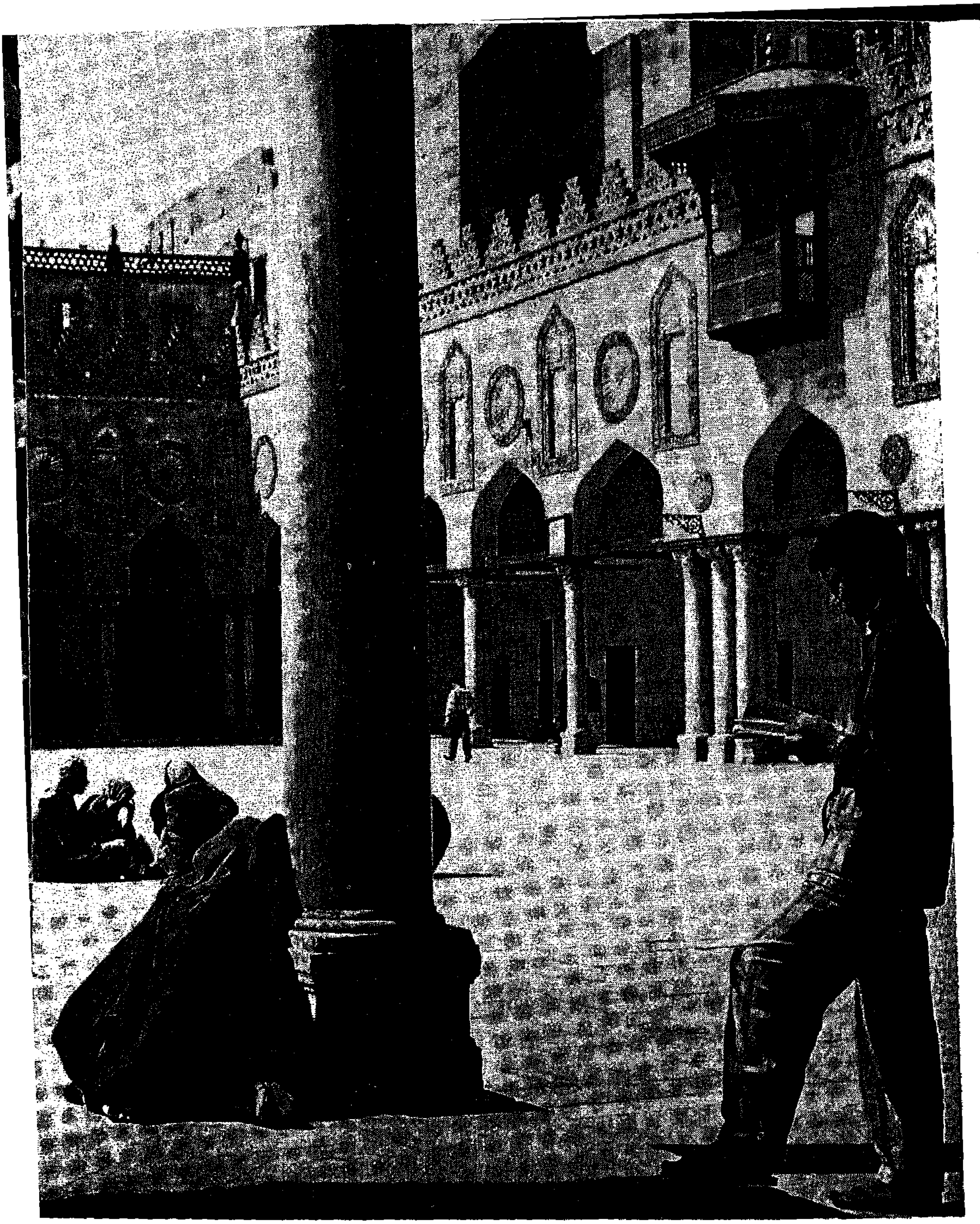
لقـد غيرت حرب السويس اتجاه التطور فى مصر تغييرًا جذريًا ولكن من أجلها ظل التأثير الأوروبى قائمًا فى مسلك الطبقة العسكرية المصرية ، فكما حـدث دمـرت القـنابل بور سعيد ، وأحدثت إحساسًا قويًا بالظلم ، محطمة الارتـباط التقلـيدى مـع الماضى ، وخالقه إحساسًا جديدًا بالوعى الوطنى . فعامة الناس بدأت تحس بالارتباط بالوطن لأول مرة ، وكانوا مصممين أكثر مـن أى وقـت مضى أن الأرض ومصادر الدخل فى البلاد يجب أن تكون للمصريين وحدهم .

ولقـد جـاءت المقاطعـة التى فرضتها كل من بريطانيا وفرنسا وبالتالى الولايـات على مصر بعد حرب السويس بهدف تفسخ الاقتصاد المصرى بعد

حرب السويس بنتائج عكسية منشطة ، فعندما دخلت مصر في الستينيات كان هناك شك في تحقيق العظمة للبلاد ، وفي انطلاقة الآمال على أي حال . فبصرف النظر عن محاولة إخضاع ناصر ليجثو على ركبتيه ، فإن هذه الوسائل الغربية أعطت دفعة قوية نحو توجيه البلاد نحو التصنيع وتحريرها من الروابط المالية الأجنبية . ففي مواجهة الحصار الاقتصادي من جانب الشركاء التجاريين التقليديين ، اتجهت الجمهورية العربية المتحدة إلى ألمانيا الغربية وإلى الكتلة الشرقية لكي تبيع إنتاجها من القطن ولكي تساعدها في وضع برنامج متعجل من أجل خلق صناعات جديدة .

فبينما قطعت الروابط التجارية التقليدية أوصالها ، وبالرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة اتبعت المنهج الشمولي إلا أنها ظلت بعيدة من أن تصبح دولة اشتراكية . ففي عام ١٩٥٩ ساهم القطاع الخاص بنحو ثمانية في المائة من الناتج القومي ، كما أن الدولة أعطت توجيهاتها لتشجيع رجال الأعمال نحو المجال الصناعي ، كما أن فكرة تحويل نشاطهم العام نحو الصناعة بدا جذابًا لكثير من التجار الذين كانوا قد عانوا من القيود التي فرضت على الاستيراد ، وكانوا لا يزالون يتذكرون الأيام الخوالي عندما كانوا يجنون الأرباح الكبيرة من مصانعهم المحلية خلال الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، وبينما كان العقد السابق يتسم بالجري وراء الحصول على الامتيازات والوكالات التجارية ، أصبح الاندفاع الآن نحو الحصول على تراخيص الصناعة. فكل واحد يتصور نفسه أنه رجل أعمال أصبح الآن منكبًا على دراسة مشروع أو أكثر ليضع أي شئ بدءًا من معجون الأسنان إلى الجرارات الزراعية ، فقد كان هناك مناخ من التنافس المحموم على الريادة من جانب الشركات الخاصة في المشروعات الجديدة التي فتحت أبوابها حديثًا للدخول في الخطة الخمسية ، فقد وضعت السلطة الحكومية تخطيطها الأساسي في خدمة هذه الثورة الصناعية .

والذي لا شك فيه فإن بعض هذه المشروعات كان جادًا ، غير أن بعضها كان أشبه بالكتابة بالدخان ، إذ أنها فشلت لأنها لم تأخذ في حسابها الغياب شبه الكامل للعقلية التجارية القادرة على التعامل مع تعقيدات المشروعات



كان من أهم أعمال جمال عبدالناصر التعليمية جعل التعليم العالى بالمجان وارسال البعثات إلى أوروبا وأخيراً تطوير جامعة الأزهر لتدرس العلوم والطب والهندسة إلى جانب العلوم الشرعية والفقهية والصورة تبين طالباً يستذكر دروسة فى صحن الجامع أو جامع الأزهر

الحديثة ، ودفع المشروعات الطموحة قدمًا إلى الأمام على مدى وقت قصير، فبعض العقليات الماهرة من رجال الأعمال كانت تمارس عملها من القاهرة أو الإسكندرية، لكن اغلب هؤلاء كانوا من اليونانيين أو الأرمن أو اليهود ، وبالرغم من أنهم كانوا يحملون جوازات سفر مصرية ، فإن ذلك كان بغرض الاستفادة من التسهيلات الممنوحة وليس لخدمة الهدف الأصلي ، فمعظم هؤلاء الناس شاهدوا ما كان يكتب على الجدران عام ١٩٥٢ . وقرب نهاية الخمسينات غادروا البلاد في هدوء ليحققوا ثروات جديدة لأنفسهم في جنيف وميلانو وسان باولو . أما المصريون الذين قفزوا لكي يحلو محلهم فلم يكن لديهم لا المعرفة ولا الميل . وحتى على أعلى مستويات الحكومة كان هناك صعوبة لدرجة مدهشة للتمييز بين ما هو محتمل وقابل للتطبيق ، وما هو مجرد وهمْ وخداع للنفس .

وهناك مثال نموذجي لهذا المناخ في تلك الفترة المتهورة وهو مصنع سيارات رمسيس ، فقد كانت الجرارات والسيارات تجمع منذ بضع سنوات سابقة من أجزاء مفككة ( C. K. D. ) . غير أن الفضل يرجع في اتخاذ الخطوة الأولى إلى مشروع بريطاني من أجل التصنيع الفعلي لسيارة مصرية، وكانت تلك الخطوة تعود إلى مرحلة ما قبل السويس ، فقد ظهرت سيارة السباق من طراز فينكس ٢ أس . آر ٦ ( Phoemix 2 SR. 6 ) في سباق « لو مان آند رايمز Le Man & Rheims » عام ١٩٥٦م ، وعهد مشروع تطوير السيارة فينكس ( التي سميت على اسم الطائر الخرافي الذي ينفث النار في الأساطير المصرية القديمة ) إلى شركة معروفة جدًا من شركات المدلاند Midland وهي شركة «ميدوز أوف فولفر هامبتون Meadows of Wolverhampton التي أنتجت مجموعة من النماذج المصغرة من السيارات التي يمكن إنتاجها في أي مكان في العالم . وبعد توقيع الاتفاق المالي بين بريطانيا ومصر ، أرسل نموذجان من هذه السيارة الصغيرة إلى المكان الأصلي الذي استلهمت منه فكرتها . وبعد ساعات من وصولهما شرعت مجموعة من رجال الأعمال المصريين في التفاوض حول خطوط إنتاجها ، وكسبوا إلى جانبهم مساندة عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات

المسـلحة للجمهورية العربية المتحدة الذى وعدهم أن يتحدث إلى ناصر حول هـذه الفكـرة . وفـى عصـر اليوم التالى تلقوا دعوة لعرض السيارة على الرئيس.

وبعـد أن قـاموا على عجل بنزع لوحات الأسماء الإنجليزية . قادوا هذه الـنماذج الأولية لتلك السيارة إلى بيت ناصر الخاص فى منشية البكرى حيث وجـدوه يمارس لعبة التنس مع عامره وبوجوه جادة تمامًا قالوا له أنهم كانوا يعكفـون لعـده سنوات لإنتاج سيارة مصرية لكل الشعب ، وأنهم لو حصلوا علـى تأبيد الحكومة فأن فى إمكانهم إقامة مصنع للإنتاجها خلال ثلاثة شهور فى التاريخ الذى يناسب الاحتفال بيوم الثورة فى ٢٣ يوليو .

وبـنفس الملامـح الجـادة الصـريحة ، قضى ناصر ساعة وهو يجرب السيارات ويتفحصها من كل زواية ، وفى إحدى مراحل الفحص دخل بجسمه تحـتها ، ثم أخرج رأسه فى وضع الرئيس ليبدى ملاحظة وقد ارتسمت على وجهـه ابتسـامة عريضـة قائلاً : « هل تعرفون أننى كنت ذات مرة معلماً للهندسـة فى الكلية الحربية؟ » وأخيرًا بعد أن ربت بلطف على جسم السيارة الصـغيرة الذى كان من تصميم ميشيلوتى Michelotti من مادة الفيبرجلاس Fibrglass أعطـى موافقـته علـى المشروع بشرط إجراء بعض التغييرات المحـددة ، ثـم ألتفـت إلى حكيم عامر قائلا : « قل لعزيز صدقى ( وزير الصـناعة ) أن يدفـع هـذا المشروع قدمًا إلى الأمام . وتأكد من أنه يعطيه الأولويـة فى اهتماماته » .ثم أضاف بلهجة ذات مغزى : « لقد حصلنا على كثير من الوعود . وكانت النتائج قليلة من جانب القطاع العام .. فدعونا نرى ماذا يقدر القطاع الخاص على فعله » .

وبعـد أن صـافح المتبنيـن للمشروع قبل أن يستدير عائداً أضاف وقد ارتسـمت على وجهة معالم غمزة عين : « إن ذلك سوف يكون أول صفقة تعقدها مع بريطانيا منذ الاتفاق .. دعونا نرى ماذا سنحصل عليه من التعاون مع الإنجليز ».

وعـندما عـاد الشركاء مبتهجين إلى مكاتبهم ، كان فى انتظارهم رسالة

عاجلة تقول : « أن الرئيس يقترح أن اسم رمسيس سوف يكون مناسبًا للسيارة » .

وسرعان ما أزيحت الإجراءات البيروقراطية جانبًا ، وتم شحن قطع التجميع لخمس وعشرين سيارة من إنجلترا على وجه السرعة ، ووصلت إلى الإسكندرية بعد أن استغرقت أسبوعًا تقريبًا ، وجمعت السيارات وطليت بالألوان التي تلفت النظر ( واحدة منها حملت الألوان الأحمر والأبيض والأسود لون علم الجمهورية العربية المتحدة ) ، ثم عرضت على الجمهور في ميدان التحرير بالقاهرة أثناء الاحتفالات ليوم ٢٣ يوليو ، واستقبلتها الصحافة والتليفزيون كرمز للتقدم الصناعي في الجمهورية العربية المتحدة : « ورفع شعار يقول : سيارة الشعب العربي صنعتها الأيدي العربية من أجل الشعب العربي ! » . وفي إحدى أفلام الكرتون التي لقيت إقبالاً كبيرًا ظهر رجال السياسة الغربيون وقد أصابهم الإحباط وقد جلسوا فوق الجمال وهم يرمقون سيارة رمسيس وبداخلها ناصر وكتب تحتها تعليق يقول : « كانوا يظنون أننا لا نملك غير الإبل بينما نحن نصنع سيارتنا بأيدينا » .

وعلى طول الطريق الصحرواى ، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن الأهرامات، حددت مائة فدان من أجل مصنع رمسيس ، وسرعان ما برزت مبان ضخمة للمصانع من وسط الرمال في المنطقة التي بنى فيها فراعنة الأسرة الخامسة مقابرهم منذ خمسة آلاف عام مضت ، كما منحت سيارة رمسيس حق الاحتكار بالنسبة للسيارات الصغيرة وهذا كان يعني أن يحظر استيراد سيارات منافسة صغيرة أو تصنع داخل الجمهورية العربية المتحدة .

وسافر وفد من القاهرة إلى إنجلترا للتعاقد عى أجزاء أول عشرة آلاف سيارة، وللتفاوض على ضمانات الشروط المالية ، وقد قوبل الوفد بترحاب مهذب، لكنهم سرعان ما تبين لهم أن الحكومة البريطانية ليست متحمسة على الإطلاق لفكرة قيام أي تعاون يشجع على ازدهار الصناعة في الجمهورية العربية المتحدة ما دامت القاهرة تتباطئ في رد الممتلكات البريطانية المصادرة ، وترك القائم بالأعمال البريطاني كولن كرو Colin Crowe

وبطانــته وقد حفيت أقدامهم فى مكاتب الوزارات دون جدوى . ولقد مورس الضــغط على المصنعين التعساء فى الميدلاند بشدة والذين كان من الطبيعي أن يسرهم ضمان هذه الصفقة الهامة ، كما وضح رئيس غرفة التجارة بلطف بأنــه لــن يصل إلى المصنع القريب من الأهرامات أى قطع تجميع من أجل ســيارة كــل العرب حيث أن ٩٩% منها يصنع فى إنجلترا ، ومن ثم سافر الوفــد مخيــب الآمــال على طائرة أقلعت بعد ظهر ذلك اليوم من لندن إلى شــتوتجارت Stuttgart حيــث استقبلوا بتعاطف شديد من الألمان ، ولم تمر أســابيع قلــيلة حــتى كانت أول شحنة من المكونات لجزء كبير معدل « من ســيارة الشــعب العــربى » قــد خرجت من مصانع.N.S.U فى نيكارسولم Neckarsulm قاصــدة القاهرة. ولمدة اثنا عشرة عامًا أو أكثر استمر الالتزام بإرســال قطــع المكونات بنفس الطريقة إلى المصنع القريب من الأهرامات والــذى كــان قد شمله التأميم . وكان هذا المصنع يقوم بتصنيع قطع الأثاث خــلال فــترات الــنقص الشديد فى العملة الصعبة من أن لآخر والتى كانت تتسبب فى وقف إمداد قطع المكونات لعربات رمسيس والتى أصبح أكثر من خمسها يصنع فعلاً فى الجمهورية العربية المتحدة .

إن قضــية السيارة رمسيس تصور التشكك فى وجهة نظر كل من الشرق والغــرب ، بينما تؤكد استمرار العداء الذى أفسد العلاقة بين لندن والقاهرة ، وكمــا حدث فقد فاز الألمان الغربيون بأغلب هذه الجائزة وبالذات إلى جانب الكثــير من المشروعات الصناعية فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد شمل ذلــك فــيما بعــد إنتاج بعض المواد العسكرية بل وحتى المحاولات الأولى لصناعة الصواريخ .

لقــد كانــت مزايا التعاون الصناعى مع الجمهورية العربية المتحدة تلقى الاهــتمام المركــز . وكــان الخط الذى اتبع هو تكرار لما ورد فى فكر عبد الناصــر حول « دوائر النفوذ » كما عبر عنها وزير الصناعة بصراحة ذات مرة بقوله : « إننا من الناحية الاستراتيجية فى موقع غاية فى الأهمية .. إننا مــن ناحية الإمكانيات قادة العالم العربى ، وبالمثل نحن البوابة إلى أفريقيا ، إنــنا فــى حاجة إلى مساعدتكم لاستمرار عملية التصنيع وفى المقابل سوف

تكون نقطة الانطلاق لكم لكى تصلوا إلى الأسواق الحيوية فى الشرق الأوسط وأفريقـيا . أن لدينا أقوى محطة إذاعة فى العالم ، إذ تذيع بثمان وسبعين لغة سـوف نجـندها لكى تشجع إنتاجنا المشترك . إن لدينا أيضًا اتفاقات سياسية وتبادلية مع عدد من البلدان التى لا تستطيعون التعامل معها بسبب النقص فى عملاتهـم الصعبة وسياساتهم الاستيرادية ، ولكن عن طريق تصنيع منتجاتكم فى مصانع الجمهورية العربية المتحدة ، مستخدمين الأيدى العاملة الرخيصة التى لدينا ، فسيكون من الممكن اختراق هذه الأسواق » .

لقـد كانت الصناعة الألمانية الغربية سريعة لتفهم قوة هذه الحجة ، وفيما بعـد أصـبح هذا المبدأ عندما طبق بدلاً من ذلك فى مجال التسلل السياسى ، واحـدًا مـن أكبر الأسباب الرئيسية للتورط الروسى فى الجمهورية العربية المتحدة .

غير أنه حتى أيام غروب عام ١٩٦٠ ، كانت الجمهورية العربية المتحدة لا تـزال مـتوجهة نحـو الغـرب ، بصرف النظر عن المعدات العسكرية الروسـية ، والوعد الخاص بالسد العالى ، لم يكن هناك سوى مكتبات روسية قلـيلة ، ودارًا واحـدة للعـرض تعرض أفلامًا روسية ، وكانت المساهمات الروسـية فى مجالات الأحداث الرياضية هى المظهر الوحيد الملموس للتسلل الروسـى ، ولو أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تتجه شرقًا ، إلا أن ذلك كان محاولة للتغيير . فمن الناحية الجغرافية وطبقًا لمجالها المحايد ، كانت لا تـزال يسـار الوسط ، ففى مطلع الستينات كان من بين الزوار الجدد الذين ظهروا فى القاهرة ، أغلبية كبيرة من الألمان .

فـى الـيوم الأخـير مـن شهر سبتمبر هام ١٩٦١ أقام أحد أفراد أسرة البدراوى عاشور حفل استقبال بمناسبة زواج ابنته . وكانت أسرة البدراوى – تمامًا مثل الضباط الأحرار أنفسهم – تنبع من أصول فلاحية ، غير أن الحفل كان مثالاً للانغماس فى الإسراف والتبذير بما يناسب الأعيان الإقطاعيين فى المنصـورة ، فقـد غطـى ملعب التنس فى فيلا الباشا السابق فى حى الدقى بـالموائد من أجل إقامة بوفيه كبير . كانت أكوام عالية من صناديق زجاجات

الشـمبانيا الفرنسـية على أحد جوانبه . بالرغم من أن المظهر العام كان أقل صـخبًا مـن المناسـبات المشابهة فى الماضى . وقرب نهاية المساء شوهد بعض الضيوف المرحين وهم يرتدون ثياب العشاء الرسمية ، ومن بين حين وآخـر كانوا يتقارعون الكؤس ولكن ليس فى نخب العروس . وقد تظاهر آل البداروى أنهم لا يلاحظون ذلك ، بالبرغم من المحتمل أنهم مدركين صالح فـى نخـب من يتقارعون الكؤوس . فمنذ يومين ، قامت مجموعة من شباب الضـباط السـوريين فـى دمشـق بـانقلاب ، وأعلنت سوريا انسحابها من الجمهوريـة العربـية المتحدة ، فقد ثبت للسوريين أن « الناصرية» عسيرة الهضـم بالنسـبة لهم ، وأنهم كرهوا أن يعاملوا كشركاء صغار فى الوحدة ، كمـا أنهم عافوا نظام الحزب الواحد الذى فرض عليهم ، والأهم من ذلك أن المسـئولين المصريين الذين كانوا باضطراد يتولون المناصب فى بلدهم بدوا فى نظرهم متعجرفين ومتغطرسين ومعطلين .

ومنذ البداية تدهورت الوحدة بطريقة سيئة ، فقد أعترض الجيش السورى علـى بقائـه تحت القيادة المصرية ، أما المستخدمين المدنيين فقد ساءهم أن يـروا أغلـب السلطة التنفيذية والتشريعية وهى تتحول نحو القاهرة ، كما أن الـتجّار السـوريين مـن رجال الأعمال لم يرتاحوا للتحكمات التى فرضت علـيهم، صـحيح أن جماهـير الشـعب كانت تبجل ناصر ، غير أن الطبقة الوسطى كانت قد ضاقت ذرعًا من الوحدة مع مصر .

كـان رد الفعلى الغريزى أن يرسل ناصر بقواته ، بل أنه أعلن فعلاً حالة الطـوارئ فى سلاح المظلات ، غير أنه أعاد التفكير عندما تبين له أن ذلك لـن يـؤدى إلا لحرب أهلية ، فتخلى عن الفكرة ، وربما هو أيضًا كان غير مـرتاح للموضـوع كلـه. فقـد أعلـن للمصريين من خلال خطبة أذيعت بالـتلفزيون: « طـوال ثلاث سنوات ونصف السنة لم يكن أمامنا شئ سوى المشـاكل فـى سـوريا .. تقريـبًا ثلاثة أرباع وقتى قضيته فى محاولة حل المشـاكل السـورية » . غـير أنه لم يخفى حقيقة أنها كانت ضربة مؤلمة . فـأعداؤه فـى العالم العربى لم يخفوا سرورهم ، وفى مصر أيضًا شعر عدد كبير من الناس بالفرحة أيضًا ، وتمنوا أن يؤدى ذلك إلى سقوطه .

ولمـــا ناقش بعد ذلك بوقت طويل تلك النكسة مع تيتو ، ألقى ناصر (الذى كـــان فى ذلك الوقت يطور الشعور برسالته العقائدية) اللوم على نفسه ، لأنه قلـــل مـــن شأن العناصر الرجعية فى سوريا ، وعبر عن شكواه بأن الطبقات الثرية تقف دائمًا ضده ، وشرح ذلك بقوله : « لقد ارتكبنا غلطة كبرى . فلم نكـــن مســـتعدين أبدًا للتصالح مع الاستعمار .. بينما تصالحنا مع الرجعية . والآن فـــى ســـوريا انضمت الرأسمالية والإقطاع إلى قوى الاستعمار للقضاء على مكاسب الجماهير وضرب الثورة الاشتراكية .

ويقـــال أن تيـــتو قدم له بعض النصائح الواقعية! فى يوغوسلافيا لا يوجد هـــناك مثل هذه المشاكل لذات السبب نفسه ، لأنه لم يعد هناك أناس أغنياء ، وليس هناك شئ مثل الرأسمالية والإقطاع . والحل سهل : أوقف الأغنياء من أن يكونوا أغنياء، استئصال البرجوازية ! .

كانـــت هـــذه بالضبط الخطوط التى كان ناصر يفكر فى إتباعها ، فقد كان يتشكك فى أنه أن لم يقضى عليهم على الفور فإن هناك خطر أن تتبع الطبقة الوســـطى مـــن المصـــريين نفـــس خطوات السوريين . ويدبرون ثورة من صـــنعهم، ولذا أمر على الفور باقتلاع جذور شأفتهم قبل أن يتوفر لهم الوقت للتصرف .

ففى نوفمبر ١٩٦١ وضعت ١٢٠٠ أسرة من أغنى الأسر تمت الحراسة، وهـــذا يعـــنى أن ممتلكاتهم قد صودرت منهم وكذلك مصالحهم . وفى نفس الوقـــت أممـــت كل البنوك وشركات التأمين ومؤسسات التصدير ، إلى جانب بضـــع مـــئات مـــن الشركات الصناعية التجارية . هذه المصادرة الصارمة لمصـــادر الثورة الكبرى كان تعنى أن الحكومة انتزعت بين عشية وضحاها مـــا يقـــرب مـــن ثمانيـــن فـــى المائة من المصانع والشركات التجارية أو مصرتها كما أطلق ناصر عليها .

وبعـــد ذلك بقليل ، انتزعت ملكيات الأراضى الزراعية المملوكة للأجانب والـــتى كانت تربو مساحتها على ١٥٠,٠٠٠ فدان ، كذلك صودرت الأسهم المملوكـــة لليونانيين – الجالية الأجنبية الوحيدة التى لم يلمسها أى إجراء من

قبل – والتى كانت تقدر بمبلغ ١٢٠ مليون جنيه . وقد وصف ناصر تأميمات عام ١٩٦١ بأنها: « أكبر انتصار للدفع الثورى فى المجال الاقتصادى » فقد تغـــير اقتصاد البلاد تغيرًا جوهريًا بدرجة تفوق أى وقت آخر منذ أيام محمد علـــى . لقـــد ضـــربت الاشتراكية مصر بهدف الانتقام . وأصبحت على حد تعبير عالم الاقتصاد تشارلز عيسوى : دولة شمولية اشتراكية .

## الفصل الثالث والعشرون

# ما يسترو العالم العربى

منذ الأيام المبكرة لتولية السلطة ، عرف دائماً بأنه « الريس » وأحياناً عرف بأعجاب أقل درجة باسم جيمى Jimmy ، أما عند الجميع فى مصر فقد كان يشار إليه بضمير الغائب هو. لقد أصبح فجأة أكثر الناس كراهية ، أكثرهم أعجاباً وأكثرهم مصدراً للخوف ى الشرق الأوسط . لقد جلس وحيداً وبعيداً فى مكتبه بقبلته ذات الطابقين والتى بناها فى منشية البكرى من ثكنات العباسية وضاحية مصر الجديدة . ولم يكن أحد فى البلاد يجرؤ أن يخمن أين سيضرف ضربته التالية فيداه كانتا ممسكتان بزمام الحكومة وبدت نظرته الشبيهة بنظرة الأفعى تلم بكل شئ يحدث بالتفصيل بأنفه الأمور.

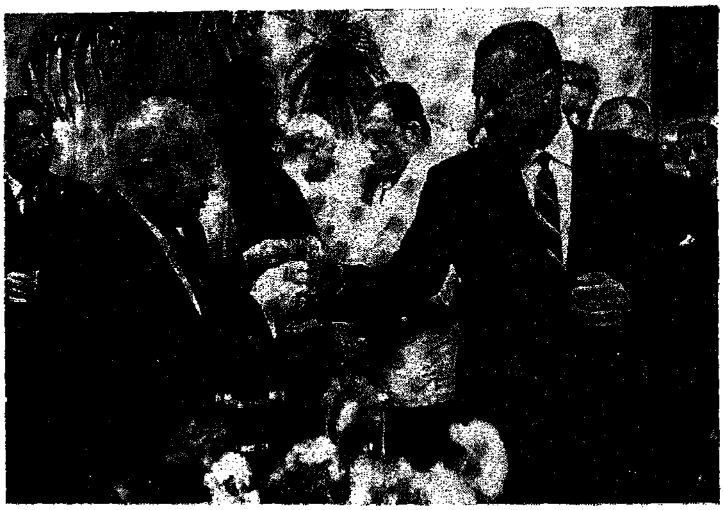
فلو أن شخصاً سحب ميلافاً يزيد على ألفا جنيه من البنك ، كان على علم به، ولو أن أحداً تقدم بطلب للحصول على تأشيرة خروج لمغادرة البلاد كان عليه أن يحصل على موافقته أولاً . ولو منح إذن بالتصدير كان على جمال عبد الناصر أن ينظر فيه أولاً ، فهو الذى يقرر كل الترقيات والتعينات. وكل وحده الذى يعرف التشعب لأجهزة المخابرات السرية الثلاث المنفصلة والتى نتعامل مع التحسس والتجسس المضاد داخل البلاد وخارجها ولدى كل شعبة تعليمات بمراقبة الشعب الأخرى .

وعلى طول خمسة آلاف سنة عرفت أرض مصر القديمة حكاماً مستبدين من كل نوع ، غير ان أسلوب « الريس » كان يختلف عن كل منم سبقوه ، ففى حياته الخاصة كان صارماً مستبداً أسته باستبداد كرمويل Cromwell(*)، إذ عاش حياته بلا مظاهر فى بيته المنعزل الذى لا يزيد فى مظهره عن بيت أى مهنى ناجح فى أوروبا أو أمريكا . لم تخط قدمان حظوة نحو أماكن اللهو البراقة فى القاهرة ، بل أن ظهر حياة الليل فى القاهرة لدرجة أن « راقصات

(*) دكتاتور إنجليزى .



زعمـــاء عـــدم الانحيـــاز البارزين فى العالم خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين نهرو، نكاروما، عبد الناصر، وتيتو



الرئيس عبد الناصر يرحب بخرو شيف (رئيس وزراء الاتحاد الســـوفيتى) فى القاهرة عام ١٩٦٤ وفى هذا اللقاء أنعم رئيس الوزراء السوفيتى بأرفع وسام وهو بطل الاتحاد السوفيتى



الرئيــس ناصر ونائبه المنتظر أنور الســادات يؤديان
القسم الدستورى أمام مجلس الأمة (الشعب) فى القاهرة
عام ١٩٦٩

البطـن » كان عليهن أن يغطين أنفسهن حتى سرة البدن . ولكن بالرغم من أنه كان يصد على الظهور في مظهر الرجل المحمل بالهوم ، ورجل الأسرة الطيب إلا أنه لم يكن بأى حال من الأحوال غير مهتم بزخارف السلطة ، فموكلبه السريع فى شوارع القاهرة الذى يتكون من الكاديلاك السوداء الكبيرة يحيط بها من الجانبيين رتل من راكبى الموتوسيكلات ويتبعها دستة من سيارات الشيفورليه السوداء ذات الصالون ، أو اسطول من طائرات الأليوش ذات اللون الفضى عندما كان يسافر إلى الخارج ، كانت ذات تأثير كبير للرهبة والأعجاب فى زمن الطائرات النفاثة الفارهة تماماً مثل موكب العربات المزينة عند أى فرعون ولم يكن أبداً مستعداً لأن يضع رباط العنق الأبيض أو الزى الخاص بحفلات العشاء عين أن حفلات العشاء التى كان يقيمها فى قصر القبة كانت لا تقل بذخاً إسرافاً عن أيام فاروق ، إذ كان الطهاة هم نفس الطهاة والخدم هم نفس الخدم .

أما الروتين اليومى فى حايته فقلما كان يتغير ، فهو عادة يستيقظ فى الساعة السابعة صباحاً ، ثم يقرأ صحف القاهرة الرئيسية وهو بتناول إفطاره ليطمئن على أن محررى الصحف يلتزمون بالتعليمات التى صدرت إليهم ، وقرب الساعة التاسعة بتجول عبر القاعة إلى مكتبه حيث يقضى الصباح توقع على « الدوسيهات » ويقرأ تقارير وزرائه وسفرائه ويصدر الأوامر ولم يعقد أبداً أى اجتماع ى فترة الصباح ، وإذ حدث وتحدث إلى وزير فأن ذلك يكون دائماص عبر الهاتف .

وبعد تناول الغداء كان عادة يتناول مع أسرته كان يغفو غفوة القيلولة ، من حين لآخر كان يمارس التنس مع عبد الحكيم عامر وزكريا محى الدين فى ملعبه الخاص بحديقته . وفى الساعة الخامس بعد الظهر بمبدأ نشاطه اليومى الحقيقى حيث يعقد سلسلة من المؤاتمرات والاجتماعات وتستمر المقابلات إلى وقت متأخر من الليل .

فى القاهرة – خاصة فى فصل الصيف – يحبذ رجال الأعمال والمهنيون العمل فى المساء عندما تنقضى حرارة النهار . وقد اتبع ناصر هذه العادة ،

مكلما تأخر الوقت كلما شعر بالاسترخاء . فبعض من اجتماعاته الأكثر أهمية كانـــت تنعقد بعد منتصف الليل . وحول هذا الوقت كان تناول عشاءه : جبن أبـــيض عالى الملوحة وطماطم والبصل ومعها كوب من عصير البرتقال تقدم إلـــيه على صنية فى مكتبه . وعندما فى النهاية يذهب إلىس ريرة كان بتأبط عدد من المحلات ليقرأها لمدة ساعتين .

كانـــت المجلات هى هوايته المفضلة ، وكثير ما كانيمضى سالماً يتفحص خلالهـــا مجـــلات : التايم Time ولايف Life ، Erves نيوزويك Newsweek ولكـــبريس L Express إلى جانب مطبوعات عربية كثيرة بالإضافة إل ذلك معـــزماً بمشـــادة أفلام السينما ، وكان لديه فى منزله مجرد خاصة بها جهاز عـــرض ، كـــان اختيارة عادة أفلام الغرب الأمريكى والعرض الموسيقية ، وأحـــياناً كـــان يركب فلمين أو ثلاثة أفلام بطولها كاملاً واحد بعد الآخر من الأفـــلام الـــتى لـــم تعرض بعد ، وم أفلامه المفضلة فيلم « لورانس العرب Lawrence of Arabia » . وعـــندما علم أن رقابته منعته لأسباب سياسية ، أم بإلغـــاء هذا الطر واعطى تعليماته بأن يعرض فى جميع دور السينما بالبلاد وقال أنه دعاية جيدة للعرب .

وفـــى كـــل مدينة أو قرية ، وفى كل نافذة عرض فى الحوانيت وفى كل مكتـــب حكـــوى ، علقت صور كبيرة له تحمل ابتسامة عريضة كابتسامة من يـــنظف أسنانه بفرشاة ، غير انه نفسه كان نادر الظهورين الجمهور إلا لأداء الصـــلاة فى المسجد فى صباح أيام الجمع، وعند عقد الاجتماعات فى الاتحاد القومـــى لقـــد كـــان شخصـــاً مـــن الصـــعب الوصـــول إليه حتى لوزرائه وللدبلوماســـيين الأجانـــب ، وفى مقابلات كان يعطى الأولوية لممثلى الدول الصـــغرى المحـــايدة مفضلاً إياهم على ممثلى القوى الأوربية الذين كان يجد لذة فى إبقائهم فى حجرة الانتصار، وبالرغم من ذلك فقد كان هناك سيل دائم مـــن الـــزوار جاءوا من كل أنحاء العالم إلى بيته فى منشية البكرى ، حيث يســـيرون بين صفين من الأصمعى الكبيرة للأزهار عند المدخل – وكان من الضـــرورى أن تلتقط لهم صور وهم يصافحون ناصر أمام المدفأة الرخامية السوداء أمام لوح أسبانية غير لافتية للنظر تمثل طفلين من أطفال الفلاحين .

وعلى خلاف البروتوكول المعقد عند طلب المقابلة . فقد كان اللقاء الفعلى مع نصار يميل إلى أن تكون على سجيته ففى أحيان كثيرة خاصة فى شهور الصـيف فأنـه يـأتي يتهاوى عبر الردهة وقد وضع فى قدمية خفين ، وقد ارتـدى قميصاً مفتوحاً حول الرقبة فوق « البنطلون » بالرغم أنه اثناء كثير مـن المناسبات الرسمية كان يرتدى بدلة مناسبة مثل رجال الأعمال مفصلة عليه بدقة ، غير أنها لم تكن أنيقة ، ورباط عنق مقلم وقد يصحب زوارة إلى بهـو الاسـتقبال الـذى كان بأثاثه المقلد لطراز لويس السادس عشر ويرياته الـيللورية تبدو كصورة طبق الأصل لأى أثاث بيت مصرى فى اى ضاحية من ضواحى . وما أن يسار إلى الزوار بالجلوس حتى تقدم لهم فنجان صغير من لبن التركى المحوج « قهوة مزبوطة » .

وعـادة كان الحديث يسترسل بسهولة ، فمنذ الأيام الماجنته لتظيم الضباط الأحـرار كانـت لديـه الموهبة أن يجعل زائريه يشعرون أنه لا توجد بينه وبيـنهم حواجـز وأن اللقاء كان « بينهم وبين ناصر » وكان يعرض وجهة نظـره بصراحة وغاية فى المهارة حتى فى أكثر قرارته ذات الاحتمالين كان تـبدو فـى غاية العقلانية . كان يتحدث الانجليزية بطلاقة حتى ان كثير من الدبلوماسـيين الأجانـب ورجال الصحافة الذى كانوا يكرهون سياسته كانوا يعـترفون رغم ذلك بعد مقابلته أنه قد أنحازوا إلى جانبه متأثرين بالأخلاص الواضح لناصر نفسه .

من قدراً كبيراً من الكاريزما Charisma وسحره على الجماهير كان بسبب هـذا التعامل : « رجل لرجل » والتى ظهرت بدرجة مؤثرة فى التليفزيون ، حـتى أن الـناس الذيـن كـرهوا كانوا – بعد شاهدته فى التلفزيون يهزون رءوسهم ، ويتتمتون رغما عن أنفسهم قائلين : « إنه رجل طيب » .

والـذى لا شـك فيه أن كثيراً من الانجازات مت تحت إشرافه ففى خلال السـتينات كان المدارس تفتح بمستوى مذهل : مدرسة كل يوم ، كما تحسنت الخدمـات الطبـية ، فقد ميزانية وزارة الصحة عام ١٩٦٢ أربع مرات من الميزانـية الـتى كانـت مخصصة بلغت لها عام ١٩٥٢، كما صدرت مياه

الشــرب النظيفة إلى كل قرب فى الدلتا ومصر العليا ، وحتى الأمراض التى كانت تحدث فى شكل وباء ثم القضاء عليها تقريباً كما حدث تقدم فى محاربة البلهارســيا والملاريــا ، أمــا المسألة الصعبة الخاصة بالسيطرة على نسبة المواليــد ، التى كانت سأله حيوية فى بلد كان السكان يتزايدون بنسبة نصف مليــون نســمة كــل عام ، فقد تم التعامل معها بجدية ، كما تحسن مستوى المعيشــة للعــامل فى المشروعات الصناعية وكذلك ظروف العمل، وأقيمت كمــثل مــن المــبانى للشقق الشعبية لأسكان قاطنى الأكواخ العشوائية ، كما تحســن نظــام النقل البرى ، ودخلت الكهرباء أماكن على نطاق أوسع ، كما عومــل وضــع المــرأة بشئ من التحررية فى بناء المجتمع حتى أن امرأة أصبحت وزيرة للشئون الاجتماعية .

إن أى شخص يعود إلى القاهرة بعد غياب سنوات قليلة سوف يعترف بكل أمانــة بــأن ثمة تغييرات كبرى قد حدثت . ولكن الأكثر أهمية من الملامح الســطحية والمرئــية لظاهرة للتحرر الاجتماعى - الطرابيش لم تعد توضع علــى الرأس ( لأنها اعتبرت رمزاً للسيطرة التركية البالية ) ، وحل القميص والبــنطلون محل الجلابية ، وغصت الشوارع والوانيت بفتيات يرتدين أزياء ذات أسلوب أوروبى ملئ بالحيويـــــة ، كل ذلك كان يغطى إحساساً سائداً وملموســاص للكرامة التى أعيدت إلى الناس . فقد أصبحوا بعد زمن طويل قادريــن أن يــرفعوا رءوسهم غالية والتى كانت تبدو لأى متعاطف تتحرك بطــريقة غريبة ، والتى كان يطلق عليها امصريون اسم الكرامة... وبالرغم مــن التشــوش مــن جانب السلطة ، فإن النظام قد نجح فى دمج المصريين رجالاً ونساءً فى مجتمع واحد ، جعلهم فخورين أن يكونوا مصريون .

وعلى الجانب الآخر ، كان هنا اجانب الأسوأ للحركة الثورية فقد أصبحت نسبة كبيرة من السكان غير منتجة ، تجلس فى الدواوين والمكاتب الحكومية، ولمــا كان جهاز البوليس السرى ( المباحث ) مليئاً بالفاسدين ومعتاد البلطجة الذيــن كانوا يلقون بثقلهم بطريقة لا تجلب السرور كما زيادة زيادة المركزية لــم يدى إلا لظهور البيروقراطية بدرجة تفوق الماضى . والوزراء لم يكونوا أكــثر مــن إيهام للبصم على القرارات الرئاسية ، وكان الفساد منتشراً مثلما

كـــان أيـــام فـــاروق . والمثل على ذلك مديرية التحرير الواقعة بين القاهرة والإســكندرية والــتى أصبحت فضيحة مكشوفة ، وكان إنتاجها إذا ما قورن بالاتــياج العــادى ، فإنه كان يكلف ضعف قيمة تكاليف الإنتاج فى الأرض العادية . ونفس التكاليف كانت تطبق على الحديد والصلب فى الصنع الضخم التى اقيم فى حلوان .

كانــت حــركة التصــنيع تكاد بالكاد تحدث فى مشاكل البلاد الاقتصادية الهائلة . فقد كانت مصانع الحكومية غير فعالة حتى فى وجود الأيدى العاملة الرخيصـــة نسبياً ، ونتيجة لذلك فإن الديون التى جلبت لتمويل تطويرها كانت بوضوح ستتحول إلى رهن خطير للمستقبل .

ومــنذ عــام ١٩٥٦ كــان عــبد الناصر يسعى لأقامة سلطة على أساس دســتورى ، وتكون حزب واحد وهو الاتحاد القومى ليحل محل كل لأحزاب الســابية السابقة ، واختير المرشحون بحرص ، وقليل منهمكانوا مستعدين أن يخرجوا عن خط الرئيس ، الذى وصف بتنفسه ذات مرة الاتحاد القومى بأنه : « مجــرد واجهـــة تنظيمية amene organizational Facode لا تتأثر بقوى الجماهير ولابمطالبها الحقيقية » . وخلال فترة الوحدة مع سوريا إمتد الاتحاد القومـــى إلـــى إقلـــيمى الجمهوريـــة العربـــية المتحدة ، غير ان التغييرات والتنقــيحات المستمرة جعلت هذا التنظيم فى النهاية معقداً حتى أصبح بافعل يهــدم نفســه بنفســه : عندئذ شعرنا مر كأن هناك حاجة لا عادة إجياء هذا التنظــيم وأن يعطـــى قـــدراً من المبادر للجماهير والتى كانت تتسم من فجر التاريخ باللامبالاة السياسية ، تاركة للحكومة كل شئ ، وفى نفس الوقت كان يـــريد ن يضـــمن للـــثورة مستقبلها ضد أعدائها الذين كانوا يتربصون بها ، وينتظرون سراً فرصة لضربها .

فــبعد سنة شهور من الانفصال المهين لسوريا ، قدم المثياق القومى الذى كتـــب معظمه بنفسه ، وكان يمثل محاولة من جانب مهندس والمنفذ الرئيسى للـــثورة لتقنيـــن نظـــرياته السياسية ، وابتكار النظام الذى يحمى به نفسه من المنشقين والذى به يعطى الجماهير فرصة للالتحام بالحكومة تلك الوثيق التى

كانــت تــتألف من ٣٠,٠٠٠ كلمة كشفت أيضاً أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة كان لا يزال يغذى بعض الأحقاد العتيقة .

فمثلاً ركز الميثاق القومى طويلاً على الطريقة التى سلبت بها انجلترا كلا مــن الهــند ومصر من شرائهما لتطور صناعتها فى لانكشير Lancashire، وأعلــن أن البلاد ذات الماضى الاستعمارى يجب أن « تجبر لتقدم إلى الأمم الــتى تطمــح جزءاً من ثرائها القومى الذى امتصوه عندم كانت ثروتها نهباً للناهبيــن » وأضـــاف أن الديموقراطــية السياســية يجــب إلا تنفصل عن الديموقراطــية الاجتماعــية «وأنهــا لا تستطيع البقاء تحت سيطرة أى فئة : فالديموقراطية تعن سيطرة وسيادة الشعب كل الشعب » ، ومن ثم فأن الاتحاد القومـــى يجــب أن يتحول إلى الاتحاد الاشتراكى العربى لكى يصبح السلطة الــتى تمثل الشعب والحارسة على حقوقه ومن ثم فإن الفلاحين والعمال يجب أن يكون لهم نصف المقاعد فيه « لأنهم يمثلون غالبية الشعب » .

وهناك فصل هام عالج حق النقد الذى وصف بأنه : « ضمان للحرية» ثم تـــبع ذلــك عبارة تحمل معنيين : « لضمان الحاسم لحرية الصحافة يقبع فى انهـــا تـــؤول إلى الشعب » ، وفى عبارة حول حتمية النظام الاشتراكى ذكر الميثاق أن يوم العمل قد خفـــــــض إلى سبع ساعات ، وأن العامل له الحق فى الاشتراك فى الإدارة والإرباح . وأن كل مواطن له حق التعليم والرعاية الصـــحية ، والحصـــول علـــى عمـــل يناسب قدراته ، على معاش مضمون بالإضافة إلى ذلك يجب اعتبار النساء على قدم المساواة مع الرجال «وعليهم العمل جنباً إلى جن لإنتاج المزيد من الطعام.

لقـــد أعلن ناصر إلى جمهور المستمعين وهو يقوم الميثاق قائلاً : «بالطبع الـــرزق علـــى الله . نحن نعرف ذلك والرسل محمد قال أن علينا أن نتوكل علـــى الله ، لكنه لم يخبر إتباعه أن يعتمدوا على الله ولا يفعلوا شيئاً » « إن الميـــثاق القومى » و« الاتحاد الاشتراكى العربى » ومجلس الأمة كانت تمثل فـــى الحقـــيقة محاولـــة جادة قام بها ناصر لينشر سلطته من أعلى القمة إلى أســـفلها ومـــن عينها إلى يسارها ، بالرغم كان من اصع أن نرى كيف تقدم

على النجاح فى دولة شمولية ، فكان كل الحديث عن حرية الصحافة لا يمكن إلا لصــحفى طائش ومتهور أن يحاول تويه أى نقد حقيقى لسياسة الحكومة ، حــتى أقــرب زمــلاء ناصر مثل زكريا محى الدين يجدون أنفسهم فى طى النســيان لــو أنهم اقترحوا سياسات تخالف سياسة « الريس ك فقد أعلن في خطــبة تالــية : « إننا نسمح بحدوث أى انشقاق يقوم بيننا - فلو أن شخصا انشــق فعلى الاتحاد الاشتراكى أن يفصح عن ذلك ويبحث مسألة طرده » أن عملــيات التطهــير منم آن لآخر لم تشجع على أخذ المبادرة أو حرية الفكره وبسواء أدرك ذلك أم لم يدرك فإن طراز ايديولوجيه ناصر بتأييد مع صراحة الشك » .

وفــى الحقــيقة بدأ جمال عبد الناصر وهو يجلس خلف مكتبة من خشب المــاهو جــانى ذى السبعة أقدام في بيته بمنشية البكرى وإلى جواره عشرة خطــوط تليفونــية ساخنة فى انشغال متزايد طوال ساعات الليل والنهار فى مواجهــة كــل الشئون فى الداخل والخارج . فمن ناحية كان عليه أن يعالج المشــاكل الاجتماعــية والاقتصادية الطارئة فى مصر ذاتها وفى نفس الوقت كان يسحق أى مظاهر المعارضة داخل البلاد من ناحية ، ومن ناحية أخرى كــان عليه أن حيط محاولات إعدائه على مستوى العالم ، ويفرض سيطرته علــى العــالم العربى بأكمله . ولكى يحقق طموحاته . كان عملأوة مشغولين فــى إثــارة المتاعــب فى كل مكان يقدرون عليه . وعلى الخصوص كانت عــيونه مركزة على نظم الحكم المحافظة والتى كانت بطبيعتها تقف فى وجه أى شــئ ينادى به ، مثل الانفعاليون السوريون الرجعيون كما سماهم راديو القاهــرة ، ومــثل الملــك فيصــل ملك العربية السعودية والملك حسين ملك الأردن، وكــان أكثر هؤلاء الحكام رجعية الأمام أحمد حاكم اليمن ، وبالطبع كانت هناك إسرائيل بالرغم من أن الدولة الصهيونية كان أقل فى الأولوية فى أفكاره كما كان يفترض فى هذه المرحلة.

ففــى العــراق حــدث أن أطاح انقلاب موال لناصر الأسرة المالكة وأتت بــاللواء قاســم إلى الحكم ، وفى لبنان قامت مجموعة ثورة بدفع البلاد تقريباً إلى المعسكر المصرى ، غير أن هذه المحاولة وبدت فى مهدها بفعل الرئيس

ايــزنهادر الــذى قــام بأرســال قوات المارينز Marines إلى لبنان والأردن لضــمان سلامة هويتهم . ومنذ تلك اللحظة واجهت حملة ناصر لتوحيد العالم العــربى تحــت زعامته عدداً مذهلاً من النجاح والفشل . فقد تحول قاسم إلى مــنافس مريــر وقــف فى وجه تصاعد نفوذ القاهرة حتى أطيح به بدوره ، وتولــى طرف آخر موال لحزب عبد الناصر تحت زعامة العقيد الركن عبد الســلام عارف . ولما أصبحت سوريا فى مصيدة بين خومتين مناضلين من القومين العرب فى كل من بغداد والقاهرة ، حدث فيها انقلاب مضاب ، غير أن حزب البعث فى هذه المرة استولى على السلطة .

وقــد اعتبرت كل من سوريا والعراق والجمهورية العربية المتحدة أنفسها دولاً تقدمــية لكرس نفسها « للوحدة والحرية والاشتراكية . وفى هذه اللحظة أصــبح فــى الأمكان أن تتكون دولة ثلاثية تحت قيادة ناصر . وفى الحقيقة أعلن عن هذا الاتحاد الفدرالى فى ١٧ إبريل عام ١٩٦٣ ، وكلن كل ذلك هو ما حدث ولم يكن البعثين السوريين على استعداد لإعطاء ناصر الزعامة التى يســعى لهــا ، إذ لــم تمر ثلاثة شهور حتى إنهارت العلاقات بين الشركاء المتطلعيــن إلــى المســتقبل لدرجــة أعلن فيها ناصر غاضباً أن الجمهورية العربــية المتحدة ليست على استعداد للدخول فى وحدة مع « حكومة سجون فاشية نازية » هكذا كان حال الوحدة العربية .

وبعد عام لاحق ، قام عبد الناصر بمحاولة أخيرة لجمع شمل القادة العرب عــندما اعلنــت إسرائيل عام ١٩٦٤ نيتها فى تحويل نهر الأردن من بحيرة طــرية إلــى صحراء النقب ، فقد استخدم ذلك كذريعة ( فأى شئ له علاقة بإسرائيل كان يمثل قنبلة سياسية ولا أحد يجرؤ على رفض الحضور ) ليدعو إلــى عقــد قمة عربية فى القاهرة ، وبالرغم من أن تم خلاله إصلاح بعض الحسور .

إذا اتفقــت الجمهوريــة العربية المتحدة وتصالحت تقريباً مع جميع الأطراف فــيما عدا السوريين فقد أظهر المؤتمر قدراً كبيراً بين الاتحاد بقدر ما كان بتطلبه الموقف إلا أن صداه كان أكبر من صوته . كما يقول المثل العربى القديم.

وحـــتى فـــى وجود المنافسات القومية والخلافات السياسية التى نمت بشدة فـــى العـــالم العـــربى إلا أن علاقـــة الجمهورية العربية المتحدة مع الغرب اســـتمرت فى التدهور . وبمجئ الرئيس كنيدى كان هناك مرحلة قصيره من الأزدهـــار والفتفاهم المشترك ، بل وحتى الصداقة والتى كان من المحتمل أن تـــؤدى إلى عودة العقات الودية ، إلا أن إدارة جونسون سرعان ما أصبحت علـــنا معادية لناصر ، وشاركتها حكومة العمل البريطانية فى هذه الكراهية ، والـــتى كانـــت تكاد أن تكون غير متوقعة حتى بين الرفاق الاشتراكيين ، فقد كانـــت سياسة ناصر الحيادية والتى كانت تعنى المعارضة المتواصلة لوجود القواعـــد العســـكرية الغربـــية فى أفريقيا والشرق الأوسط جنباً إلى جنب مع دعمه السمتمر للحركات الثورية الراد يطالبه ضد نظم الحكم الموالية للغرب ( كمـــا كـــان الال فـــى الكونجو ) أضف إلى ذلك سياساته الاشتراكية التى الحقـــت الخســـائر بمصـــالح الغـــرب التجارية الشاسعة فى مصر دون دفع الـــتعويض المناســـب لـــم تـــؤدى ســـوى إلى قيام العداء ضده فى بريطانيا والولايـــات المـــتحدة ، وبالطـــبع فقـــد وجدت كل من لندن وواشنطون فى مجهوداتهمـــا للوقف في وجه نفوذه المخرب نفسيهما تدعمان أعداء الناصرية إينما كان ذلك ضرورياً .

ولقـــد بدأ « الريس » نفسه يستلذ هذا الاتجاه ، ففى عام ١٩٦٥ أقدم على قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية بالرغم من العلاقات الحتمية التى كانتقائمة بين البلدين والمساعدات الكبرى التى قدمتها إلى الجمهورية العربية المـــتحدة خاصـــة فـــى مجال التصنيع ، وذلك تعبيراً عن غضبه لعقد اتفاق تعويضـــات مع إسرائيل ، وهكذا دخل عبد الناصر تدريجياً وهو بغير طريقة متبعداً عن الغرب فى فلك الاتحاد السوفيتى .

كـــان الـــروس يمارسون لعبتهم بهدوء وذكاء ، فقد فتحت صفقة الأسلحة التشـــكيلية عام ١٩٥٥ الأبواب ، وقد دعم هذا التسلل تقديم المساعدات الفنية والاقتصادية بعد السويس إلى جانب عقد صفقات كبيرة لشراء القطن مما قلل بدرجـــة كبيرة من تأثير المقاطعة الغربية . وكانت الخطوة التالية فى التسلل

الروســى توقــيع اتفــاق السد العالى ، وهنا جعل بثبات الجمهورية العربية المتحدة لتصبح دولة تابعة .

لــم يــبدو الاســتعمار الســوفيتي يقلق بال ناصر ، فقد اعتقد أن نستطيع استخدام مناورات الحرب الباردة الروسية لخدمة مخططاته التوسعية ، وكان واثقاً أنه فى مقدرته تخليص نفسه من أحضان الدب فى أى لحظة يختارها . أمــا موسكو ، فقد كانت تنتوى بهدوء أن يستخدم الجمهورية العربية المتحدة كــرأس حــربة للمتســلل لــيس إلــى الشــرق الأوسط فقط بل إلى أعماق أفريقياوتستطيع كذلك أن تحتفظ بالعناق على مستوى المصافحة بالأيدى . من بيــن الموضوعات الكثيرة ليس أقلها الحاجة غى ضرورة القضاء على النفوذ الغربى وكافة القواعد الأجنبية والتى رأى جروشيف Krushchev وناصر أن العيــن بالعين . كان « الريس » كان يناسب جيداً فخططات موسكو حتى أو خروشيف عندما أسوان بمناسب حفل افتتاح المرحلة الأولى للسد العالى أنعم على ناصر بوسام « بطل الاتحاد السوفيتي » وهو أعلى وسام شرف وتقدير يســتطيع الاتحــاد السوفيتى منحه ، وإلى هذه الشراكة الحميمة يمكن أرجاع حرب اليمن .

ففى صيف عام ١٩٦٢ توفى الأمام أحمد فى سن متأخرة وخلفه ابنه البدر . وبعــد ذلــك بأيــام وعلى وجه التحديد فى ٢٨ سبتمبر ثارت مجموعة من الضــباط اليميــنى بقــيادة العقيد عبد الله السلال على الأمام الجديد وأعلنوا الجمهوريــة ، وفــر البدر هارباً ، ولما عدة السعودية جمع التأييد بين القبائل اليمنية وبسرعة استجاب ناصر لطلب السلال للمساعدة ، وسرعان ما اصبح الجــيش المصــرى متورطاً بشدة فى تلال اليمن ، حيث كان أنصار الملكية يتحصــنون ، ومــا ظهر فى البداية على أنه نزهة للقوات المصرية المتفوقه عسكرياً تحول بمضى الوقت إلى « فيتنام العرب ».

واســتمرت الحــرب بــن كروفر على طوال خمس سنوات وفى مراحلها الأولــى كانــت تكلــف نصف مليون جنيه والذى كان واضحاً أنه فوق طاقة الجمهوريــة العربــية المــتحدة المالــية ، ولكن لو أن مصر كان يقدمالقوى

البشـــرية ( والـــتى لـــم يكن لديها نقص منها ) ، لكنها محملة تماماً بتحويل الحملـــة ففى مقابل المعدات السوفتية العسكرية والسد العالى فى اسوان ، كان ناصـــر مســـتعداً أن يلقـــى بطل ثقله لقلب النظام فى اليمن . إذ كانت هناك اعتـــبارت سياسية وجغرافية أيضاً وراء هذه المقامرة . فمن الناحية السياسية كانـــت بالطبع جزءاً من صراعه الذى لا يستكين للحصول على زعامة العالم العـــربى ، وعلى وجه التحديد التحدى بين قوى التقدم وقوى الرجعية ، ومن الناحـــية الجغرافـــية ، فأن هذا الركن الاقطاعى الواقع عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر كان يمثل نقطة استراتيجية ، كما كان الكرملين يدرك أيضاً أنه يمكن منها ضرب حقول البترول فى الخليج العربى .

ولقـــد اســـتمرت الحـــرب فـــى طريقها المرهق والقاتل فى تلال اليمن ، وأصـــبح من الواضح أن قوات حملة الجمهورية العربية المتحدة والتى كانت تزيد عل ما يقرب من ستين ألف رجل لم تكن قادرة على تحقيق التفوق على رجال القبائل العتاة البدائيين اليمنيين بالرغم الضرب بالقنابل اليومى بواسطة النفاثات الروسية الجديدة التى كانت فى حوزة ناصر بل بالرغم ( كما ادعى) من استخدام الغازات السامة ، واستمر أنصار الملكية اليمنيون ، والذين كانت تدعهـــم السعودية العربية بالسلاح والمال فى قتالهم ، وما كان يظن أنه نصر ســـريع للمصـــريين حول إلى حملة طويلة لا ثمار لها والتى أهملتها العناوين الكبرى تصبح حرباً منسية فى بلاد بعيدة لم تضف أى بريق لصورة ناصر . هـــنا البكباشى صاحب الايديووجية والذى عام من حصار الفالوجا وهو يقسم أنـــه سوف يفكر ألف مرة قبل أن يورط شعبه فى اى حرب – قد تغيز كثيراً خـــلال الخمـــس عشرة عاماً . وأصبح حاداً فى طريقه الذى سبب الكثير من الموت للعرب أكثر من أى رجل آخر فى التاريخ .

ففـــى حفل كوكتيل أقيم بالقاهرة فى هذه الفتر ونجت صحفية أمريكية أحد البدلوماسيين الذى كان يعبر عن هذه الحقيقة المرة تعد أعلنت ويكاد الغضب بغلـــبها : « هـــل تدرك أنك تتحدث عن أهم شخصية فى الشرق الأوسط منذ النـــبى محمد » ؟ وقد هز مراسل صحيفة لندنية كان واقفاً بالقرب منها كتفيه

مســتهجناً وتســاءل عما يظنه ناصر نفسه عن الموقف فى ليمن وفى مصر ذاتها . وتخيل أن ناصر فى أعماق أعماق قلبة لابد وأن يقول : « كم بلغ بى الأرهاق ... وأى فوضى رهيبة تسببت فى حدوثها .. ».

## الفصل الرابع والعشرون

# سبعون ساعة فى قيظ يونيو

حــتى وعندما بدأ أخيراً يسحب قواته من اليمن فى ربيع عام ١٩٦٧ فإن جمــال عبد الناصر لابد وأن يكون قد أدرك فى نهاية المطاف أن مخططاته الطموحـــة الحمقاء لقيادة العالم العربى قد فشلت تماماً . حتى حملة اليمن لو ثبــت أنهــا كانــت بمثابة الكارثة ، فأنها كانت لا تساوى شيئاً إذا ما قورنت بـــالذى سيتلو ذلك ، إذ لم يكن حتى فى أبشع أحلامه وكوابيسه يتخيل الكارثة التى سوف تنزل بمصر فى فصل ذلك الصيف ذاته .

ففـــى العاشـــر من مايو وصل إلى مكتبه فى منشية البكرى أربعة تقارير غايـــة فى السرية قدمتها المخابرات . أحدها من شبكة التجسس الخاصة به ، والـــباقى من أجهزة المخابرات من كل روسيا وسوريا ولبنان . كلها أفصحت عـــن نفـــس الأنباء المشئومة . أن الجيش الإسرائيلى يحشد قواته على حدود سوريا وأن الهجوم على دمشق بات وشيكاً .

كـــان الـــتوتر بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة عند أدنى درجاته منذ شهور ، فبالرغم من أن البلدين من الناحية الفنية كانا لا يزالان فى حالة حرب ، إلا أن ناصر كان مشغولاً لقمة رأسه فى مشاكل أخرى : الحرب فى اليمن ، الرجعيون فى الجزيرة العربية ،ومحاولاته لطرد الإنجليز من عدن . كل هذا كان لا يعطيه فرصة فى التفكير كثيراً فى إسرائيل . فقد كان اهتمامه الأكـــبر منصباً على الحرب ضد الرجعية ونشر الدعاية للاشتراكية أكثر من اهتمامه بإشعال الحرب مع اليهود .

ولـــذات السبب ، لم تكن إسرائيل تتوقع حدوث أى مشاكل فى ذاك الوقت مـــع الجمهورية العربية المتحدة . فسفنها كانت لا تزال ممنوعة من استخدام قـــناة الســـويس ، غـــير أن لذلك قصة قديمة . فقد كان خليج تيران مفتوحاً أمامهم. وكانت وحدة من قوات الأمم المتحدة تقوم بحراسة حدود سيناء . أما

مــع ســوريا فقد كان الأمر يختلف . فقد قام قادتها البعثيون بالتحول بزاوية حــادة نحــو اليسار . وكانت الغارات المستمرة التى كان يقوم بها فدائيو فتح من سوريا بعضها كان يضرب أعماق الأراضى الإسرائيلية قد اصبح أمراً لا يحــتمل . ولكى تضع نهاية لهذه المضايقات كان لابد من إلحاق هزيمة بها ، وبالــرغم من أن النفاثات الإسرائيلية أسقطت ست نفاثات سورية فوق سماء دمشق فى السابع من إبريل انتقاماً لذلك ، فقد كان الكنيست تحت ضغوط من قــبل أشــد أعضائه ميلا للعسكرية لكى يقوم بحملة على سوريا لوضع نهاية لحكم البعث .

فــى ٨ مــايو طار وفد سورى إلى القاهرة لضمان المساعدة من ناصر ، وقــد راوغ الرئــيس وأخــبرهم أنه يجب أن يقتنع أولاً بأن إسرائيل تخطط بالفعل للقيام بهجوم كما يعتقدون . وبعد يومين أكدت تقارير المخابرات على مكتبه هذه المخاوف .

وبالنســبة لعبد الناصر ، كان ذلك تطوراً غاية فى الإرباك . إذ كان آخر شئ يبغيه هو الحرب مع إسرائيل ، فالكثير من قواته كان لا يزال غارقاً فى مســتنقع اليمن حيث فقد عدداً كبيراً من رجاله ومعداته ، وما بقى منها كانت مصــر فى أمس الحاجة إليه من أجل حماية أمنها الداخلى . وبالرغم من أن عــبد الحكــيم عامــر (القائد العام للقوات المسلحة) أصر أن الجيش مستعد «لإلقــاء إسرائيل فى البحر» كان ناصر عل علم تام أن قواته المسلحة ليست فــى هيــئة مناســبة للدخول فى معركة فى مثل ذلك الوقت ، وعلى الجانب الآخــر لو أن الإسرائيليين اجتاحوا سوريا وفشلت الجمهورية العربية المتحدة فــى الانتقام منهم ، فإنه سوف يفقد هيبته فى العالم العربى إلى الأبد ، وكما كــان يحــدث عــندما كان يدعو للحل الوسط فى الماضى - كما حدث عدة مرات - فقد كان خصومه يتهمونه بأنه على علاقة بإسرائيل ، ولكى يستعيد وضعه كزعيم روحى للعرب لم يكن فى استطاعته أن يضحى بالبقاء دون أن يتصرف .

ولمــا وجــد نفسه وقد وقع فى ورطة محيرة ، فقد قرر ناصر اللجوء إلى

ســلاح « الــتهويش » ، إذا بدأ فى استعراض كبير لقواته . فقد قام بعرض لقــوات مشــاته ودباباته عبر شوارع القاهرة متأكداً أنها مرت عبر شوارع «جــاردن ســيتي» تحــت نوافذ السفارة الأمريكية . وفى نفس الوقت أحدث ضــجيجاً مــيالاً للحــرب كان الغرض منه نقل رسالة أنه سوف يأتى لنجدة سوريا .

وكجزء من خطة الخداع أرسل شطراً من عتاده العسكرى بشكل تفاخرى إلــى ســيناء . وطلــب مــن القائد المحلى فيها أن يتصل بالجنرال « ريكى Rikhye » مــندوب الأمــم المتحدة ويطلب منه سحب قوات الهدنة الخاصة بــالأمم المــتحدة مــن منطقة الحدود ، ورد الجنرال « ريكى » أن مثل ذلك التصرف خارج اختصاصاته، لكن ذلك طبقاً لشروط الاتفاق مع الأمم المتحدة كان طلباً مشروعاً ، لكن يجب أن يناقش مباشرة بين الرئيس ناصر ويوتانت UThant السكرتير العام .

وإزاء ذلــك شعر ناصر أنه مضطر أن يقدم طلباً رسمياً إلي « يو تانت» لكى يسحب قوات الأمم المتحدة من الأراضى المصرية . وطبقاً لحساباته بأن الموقــف قد تعقد لدرجة تدعو إلى تدخل القوى العظمى كى تضغط على كل من إسرائيل والعرب لحل الأزمة ، ولو حدث ذلك لنجحت مخططاته.

وبــدلاً مــن ذلك فعل يوتانت عكس ما كان يتوقعه ، إذ وافق على الفور علــى طلــب ناصــر ، وفجــأة ســحبت الأمم المتحدة قواتها التى حافظت علىالســلام فى منطقة الحدود بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة لمدة إحدى عشرة سنة ملبيًا بذلك طلب عبد الناصر .

ولكونــه دائماً مقامراً ، فقد صعد إلى « الخازوق » . ففى ٢٢ مايو احتل شــرم الشــيخ وحظر مرور السفن الإسرائيلية فى خليج العقبة ، وبذلك أغلق ميــناء «إيــلات» الحــيوى تمامــاً . إن مثل ذلك التصرف الجرئ هو أحد الصفات المميزة لناصر . فقد كان يسعده أن تكون الكرة فى ملعبه ، وبالفعل بــدأ فى ذلك الوقت كما لو كان قد حقق ضربة كبرى على حساب إسرائيل .

وأنه كسب لعبة « البوكر » على مستوى العالم .

طــار يوتانت إلى القاهرة مهموماً يحمل معه مقترحات حل سلمى للأزمة التى لم يكن ناصر - وهو يتصرف بمهارة من موقف أساسه ضعيف - غير مــيال لقــبولها . وتحدث الرئيس جونسون على الخط الساخن مع كوسيجين Kosygin واتفــق زعيماً القوى العظمى على الضغط على عميليهما أن يتجنبا إشعال الحرب . وفى ٢٨ مايو عقد عبد الناصر مؤتمراً صحفياً ، وأبدى فيه بعــض الملاحظــات العدوانية بالذات لكى تتزامن مع وصول تشارلز يوست Charles Yost كممــثل شخصى للرئيس جونسون ، وبالرغم من ذلك توصلا إلــى اتفــاق بيــنهما أن تحل الأزمة من خلال القنوات الدبلوماسية ، فمسألة مضــايق تــيران تعرض على محكمة العدل الدولية للتحكيم فى مدينة لاهاى Hague ، وأن علــى زكــريا محــيى الديــن أن يغادر القاهرة إلى نيويورك لمناقشة حل بين أطراف النزاع .

وغــادر تشــارلز يوست القاهرة فى الثالث من يونيو قبل اندلاع الحرب بيوميــن بعــد أن أكــد لناصــر أن إســرائيل لن تقوم بأى عدوان ما دامت المفاوضــات مستمرة . وقد استرخى ناصر خلال الأسبوع لأول مرة منذ ما يقــرب مــن شهر ، فقد بدت مخططاته كما لو كانت قد نجحت ، ونهض من موقف حرج وقد سبقته سمعته .

لكــى بعــد أربع وعشرين ساعة واجه العالم صداماً أصم أذنيه ، إذ قابل الإسرائيليون خداعه بشراسة وبلا رحمة .

فحــتى منتصف مايو سلك الإسرائيليون مسلكاً حذراً ، ولكن مسترخ إزاء الجمهورية العربية المتحدة . وبصفتها أكبر جيرانها العرب وأكثرهم تأثيراً ، كانــت الجمهوريــة العربــية المتحدة تلقائياً عدوها رقم واحد ، ولسنين أثبت ناصــر أنــه أكثر العرب اعتدالاً على الأقل فيما يتعلق بالنسبة لسياساته إزاء إســرائيل . وخلال الشهور القليلة انتقل مجال الخطر نحو الشمال حيث كان نظــام حكــم البعث السورى يقوم بتدريب وتسليح فدائيى « فتح » ، وأخيراً

اتخــذ القـــرار بوضع نهاية لهذا النشاط بإسقاط نظام حكم البعث فى دمشق ، وأفـــادت تقارير المخابرات الإسرائيلية أن العرب والجمهورية العربية بالذات ليسوا فى حالة الاستعداد للقيام بنجدة سوريا.

لقــد كانت تصرفات ناصر منذ ١٠ مايو فصاعداً من وجهة نظر تل أبيب هـــى التى غيرت الموقف ، فالمبالغة فى الإعلان عن التعبئة العامة ، وطلب انســحاب قوات الأمم المتحدة المحافظة على السلام ، والتهديدات التى أطلقها راديو القاهرة ، وأخرها إغلاق مضايق تيران وقد أظهرت أن ناصر - العدو رقــم واحد - لديه نوايا عدوانية بالرغم من كل شئ : هل لديه ذلك فعلاً ؟ أم مجــرد تهويش ؟ فقد كان لدى المخابرات الإسرائيلية المعلومات الكاملة لأدق التفاصــيل عــن قــدرات جــيش الجمهوريـــة العربية المتحدة . وربما كان المســؤولون فـــى تل أبيب على دراية ربما أكثر من ناصر نفسه أن الجيش المصـــرى غــير قادر على الصمود فى حرب فى مثل ذلك الوقت . إن دولة إســرائيل بطبيعــتها وجغرافيتها الخاصة كانت غزواً عدوانياً للعالم العربى ، وأكــثر من ذلك لكى تبقى فعليها التوسع ، ومن ثم تزايد الاقتناع فى تل أبيب أن الفرصـــة مـــتاحة فى ذلك الوقت لكى تحطم الحدود الضيقة التى فرضت عليها أعوام ١٩٤٩ و ١٩٥٦ ، لكى تحقق الحدود الآمنة فى مواجهة جيرانها العـــرب المعاديـــن لها بالاندفاع نحو حدود يسهل الدفاع فيها . وان مثل هذه الفرصة لن تتكرر ، وقد انتشرت نفس وجهة نظر الصقور عبر البلاد كلها : «أنهـــا ميونـــيخ ! Munich(*)» هكذا كان الناس يهدرون من صفد حتى بير

(*) إشـــارة إلـــى معاهدة ميونيخ التى عقدت فى سبتمبر عام ١٩٣٨ عندما سافر رؤساء حكومـــات كـــل مـــن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لاسترضاء أدولف هتلر حتى لا يعلن الحـــرب وذلـــك برضوخهم لمطالبه بضم أجزاء من تشيكوسلوفاكيا التى يتحدث أهلها الألمانية ، غير أن هذه التنازلات فتحت شهية هتلر للتوسع فقد قامت قواته فى مارس عام ١٩٣٩ بضم ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا، وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩ ابتلع بولـــندا بأكملها، ولما حاولت فرنسا التصدى له قام بأحتلالها كما هدد باحتلال بريطانيا

ســبع : «إننا إذا تركنا العرب يفلتون هذه المرة التى نحن فيها قادرون على هزيمــتهم فيها بكل تأكيد، فأننا سنكون قد ضيعنا الفرصة التى منحها الله لنا ، لا تدعونا نعانى من ميونيخ مرة أخرى »!!

غــير أن رئيس الوزراء ليفى إشــكول Levi Eshol كان بطبيعته معتدلاً، وكــان لا يزال شخصياً يميل إلى التسوية ، ولكن فى ٢٠ مايو عندما جاءت الأنــباء تحمــل إغلاق مضايق تيران ، قام زملاؤه فى مجلس الدفاع بإجباره على الانصياع لرأيهم . إذ ناقشوا ضرورة الهجوم الفورى : لقد انتظر شعب إســرائيل طويــلاً بمــا فيه الكفاية عبر السنين أن يقوم المفاوضون الدوليون لإنقــاذهم مــن الخطــر الرابض على الحدود . وأن الوقت لم يعد إلى جانب إســرائيل إذ أن العــتاد الحــربى لدى العرب كان يزداد قوة بفضل شحنات الســلاح مــن الاتحاد السوفيتى . كما أن الجمهورية العربية المتحدة لم تكن مستعدة فكل شئ كان يحبذ مزايا الهجوم الخاطف على الفور .

وفى ٢١ مايو صدرت الأوامر السرية للتعبئة العامة الشاملة لكن لم يحدث شــئ بعدهــا ، فقــد غــيرت مجهودات يوثانت للوساطة وتحذيرات الاتحاد الســوفيتى ، والضغط الدبلوماسى من جانب الولايات المتحدة من الموقف ، وفى الحقيقة فأن تصلب ناصر ، وإقلاع الملك حسين الفجائى إلى القاهرة فى ٣٠ مــايو وهــو يقــود طائرته الكوميت الخاصة بنفسه ليوقع معاهدة دفاع مشــترك مــع الجمهوريــة العربية المتحدة تضع الجيش الأردنى تحت قيادة ناصر الشاملة فى حالة حدوث الحرب ، كل هذه الأمور لم تخدم سوى تشبث إسرائيل بعزمها.وعندما أصبح«موشيه دايان» وزيراً للدفاع فى اليوم التالى ، كــان أول إجراء قام به هو إلغاء الخطة التى كانت قد وضعت من قبل بهدف محــدد هــو الاســتيلاء على غزة ، وأصدر الأوامر بالتركيز بدلاً من ذلك لاستيلاء على شبه جزيرة سيناء كلها والوصول إلى قناة السويس .

مما كان سبباً فى قيام الحرب العالمية الثانية . ومن المعروف أن إسرائيل كانت تشيع عن عبد الناصر انه هتلر جديد ( المترجم ) .

وبعد خمسة أيام شن الإسرائيليون هجومهم . ففى الساعة ٨٤٥ (بتوقيت القاهرة ) من صباح يوم الاثنين الخامس من يونيو اندفعت أول موجة من طائرات الميراج والموستير . لقد اختير اليوم والساعة بحرص ففى المعتاد كان الهجوم يتوقع دائماً عند الفجر حيث تكون الدفاعات فى أقصى درجات اليقظة ، لكن بعد أربع ساعات تتحول هذه اليقظة الشديدة إلى حالة من الاسترخاء . وبما أن الرتب العليا تصل إلى مكاتبها فى الساعة التاسعة صباحاً ، وقبلها بربع ساعة يكونون جميعاً فى طريقهم إلى العمل حيث يقعون فى زحام مواصلات القاهرة ، لكن الأهم من ذلك علمت المخابرات (الإسرائيلية ) أن اجتماعاً على أعلى مستوى مقرر له أن يعقد صباح ذلك اليوم فى سيناء ، وبالتالى فأن غالبيته الوحدات القتالية سوف تكون بدون قادتها مؤقتاً .

وجهت أول موجة من ضربات الطيران أهدافها نحو عشرة مطارات فى سيناء . وكان التوقيت مخططاً بمهارة ودقة بحيث تصل جميع الطائرات إلى المطارات فى نفس اللحظة لتحقيق أكبر قدر من المفاجأة .

وقع الشطر الأكبر من طائرات القوات الجوية المصرية فى المصيدة وهى رابضة على الأرض ، والحقيقة فإن طائرات التدريب الوحيدة كانت أربع طائرات غير مسلحة يقوم على قيادتها معلم وثلاث طلاب تدريب . وفى قاعدة أبو صوير قرب الإسماعيلية كان الطيارون المصريون يشربون القهوة عندما انقضت النفاثات الإسرائيلية ودمرت طائراتهم من طراز الميج وهو تقف مصطفة عند الممرات ، كما فجرت ثمان تشكيلات أخرى إلى قطع صغير بينما كانت متوقفة عند نهاية المدرجات فى قواعد الطيران الأخرى .

وما كادت الموجة الأولى تصيب أهدافها ، حتى تلتها الموجة الثانية من ورائها ، وثالثة كانت فى طريقها . وكان الإسرائيليون يديرون العمليات بطريقة لا تعقل وبسرعة طوال الوقت . ففى اقل من عشرة دقائق بعد عودتهم إلى قواعدهم يعودون للإقلاع مرة أخرى . وفى خلال ساعة من هجمتهم الأولى يكونون فوق الأهداف للمرة الثانية ، وبدلاً من القدوم مباشرة

مــن ناحــية الشمال الشرقى ، كانوا يقومون بالهجوم من ناحية الغرب عبر الصـــحراء لمهاجمة قواعد الطيران حول القاهرة وهم يحلقون على ارتفاع لا يزيد عن عشرة إلى خمس عشرة متراً من سطح الأرض وذلك لخداع أجهزة الرادار . وكان الهدف هو القضاء على أكبر عدد ممكن من مقاتلات الميج ، وقاذفات القنابل بعيدة المدى ، وجعل الممرات غير صالحة للاستعمال .

ولمـــدة مائـــة وســـبعين دقيقة ظل الإسرائيليون يضربون بعنف المطارات المصـــرية دون توقف . وخلال ذلك الوقت أمكن لهم تدمير ٣٠٠ طائرة من مجمـــوع ٣٥٠ طائـــرة مقاتلـــة مصرية ، بما فى ذلك الثلاثين طائرة طويلة المـــدى مـــن طـــراز قاذفات القنابل ت . يو ١٦ ( T. U. 16 ) لقد كان حجم الكارثـــة مذهـــلاً وبدرجة لا تصدق . ففى أقل من ثلاث ساعات كانت قوات ناصـــر الجوية قد دمرت تقريباً بكاملها . أن حجم الهجوم الإسرائيلى المذهل - وكـــون أن طائـــراتهم كـــان تـــأتى من الغرب من ناحية ليبيا ، حيث كان لبريطانـــيا وللولايات المتحدة قواعد جوية هناك قاد المصريين لافتراض أن الطائرات البريطانية والأمريكية قد شاركت فى الغارات الجوية ، إذ بدا غير مفهـــوم أن يقـــوم الإسرئيليون وحدهم بسحق الطائرات الروسية النفاثة ذات الســـمعة العالـــية الخاصـــة بالجمهورية العربية المتحدة فى مثل ذلك الوقت القصير .

لـــم يأخذ هذا الهجوم سلاح الطيران المصرى وحده على غرة تماماً ، بل كـــل إنســـان فـــى القاهـــرة . ولقد سمعت أصوات طلقات المدافع المضادة للطائـــرات فى الساعة التاسعة صباحاً ، غير أن الناس لم يعبئوا كثيراً بذلك ، وتوجهوا كما اعتادوا إلى أعمالهم ، فقد كانت فكرة الحرب بعيدة عن أذهانهم تمامـــاً . وبعـــد مـــرور ساعة بدأت صفارات الإنذار فى العويل . وفى نفس الوقـــت انطلق راديو القاهرة معلناً بياناً أن الجمهورية العربية « قد تعرضت لعدوان غادر » ، وكان ذلك أكثر العبارات التى أذاعها صدقاً ، لكن سرعان ما بدأت أجهزة الدعاية تعمل ، وانهال سيل من البيانات عن نجاح المصريين فـــى إسقاط أربعين... ثم خمسين... ثم ستين طائرة للعدو . وفى نهاية اليوم ادعـــت القاهـــرة أن نحـــو ١٣٠ مقاتلـــة إسرائيلية قد دمرت بالرغم من أن

صفارات الإنذار كان يتخللها هدير المدافع المضادة للطائرات، وازدحمت شوارع القاهرة بالناس ، وبعد كل بيان عن إيقاع المزيد من الخسائر كان الناس يهتفون مسرورين مبتهجين يعانق بعضهم بعضاً ، ولم يكن يدور في بالهم أدنى فكرة عن حقيقة ما كان يحدث ، ولا حتى ناصر . إذ لم يعلم أن سلاح طيرانه قد قضى عليه إلا في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم ، إذ لم يجرؤ أحد على إخباره بذلك في حينه . وفيما بعد روى – وهو حزين – كيف أنه قضى الساعات الحاسمة الأولى من الحرب وهو منكفئ على الخرائط ليحدد الأماكن التي يأمر بالصمود الدفاعي فيها في سيناء . ولم يكن قبل الساعة الرابعة من بعد الظهر عندما استجمع أحدهم شجاعته ليقول له : « لم تعد لدينا أى طائرات ! » .

وفي الساعة ٩١٥ ( بتوقيت القاهرة ) ، وعلى وجه التحديد بعد نصف ساعة من قيام النفاثات بإبادة القوات الجوية المصرية ، عبر سلاح المدرعات الإسرائيلي الحدود ، وبدأ يندفع نحو التحصينات المصرية في خان يونس ورفح اللتين تقعان على مقربة من غزة ، واندفعت الدبابات الإسرائيلية إلى الأمام في موجات تتقدمها وحدة مشاة ميكانيكية تسير مكشوفة في سيارات نصف مجنزرة . وقد ساعدتها السرعة والتوقيت وقبل كل شئ المفاجأة على الاختراق ، وما أن اخترقت الحصون الدفاعية ، حتى بدأت المدرعات تزيد من سرعتها ، حيث اتجه أحد طوابيرها يميناً ليستولي على غزة بينما اتجهت الأخرى نحو العريش على الساحل وإلى القنطرة على قناة السويس . لقد استغرق الجيش الإسرائيلي اثنين وسبعين ساعة ليصل إلى القناة ، وانقضت النفاثات الإسرائيلية على المدرعات المصرية وعلى خطوط التموين والنقل وعلى المشاة بجرأه كتلك التي قاموا بها ضد سلاح الطيار الجوي المصري .

لقد كسب الإسرائيليون حرب الأيام الستة بكل نواياها واهدافها في الساعات الثلاث الأولى ، ولأن من يملك السماء يملك الصحراء مهما كانت قواته الأرضية من القوة ، فقد فقدت الجمهورية العربية المتحدة ٧٠٠ دبابة روسية جديدة من طراز ٥٥ ت T.55 لم تستخدم بعد ، وما يزيد على ١٠٠

قطعة مدفعية سحقتها النفاثات الإسرائيلية ، وامتلأت رمال سيناء بحطام قطع المعـادن المحـترقة ، بعضها دمرته نيران المدافع ، والبعض الآخر أحرقه النابالم ، ففـى ممـر متلا المتعرج تكومت مئات من المصفحات وعربات الجيب فوق بعها البعض فى تكدس مرورى غريب .

لقد تم التخطيط لهذه العملية بذكاء ، ونفذت بقسوة ، فرجال الصحافة الذين تمكـنوا مـن الذهـاب إلـى الجـبهة أجمعوا جميعاً على الثناء على يهود «الصـابرا» العـتاة مـن رجال الكوماندوز الذين حاربوا وفتحات الدبابات مكشـوفة تحـت النـيران الثقيلة ، وبالمثل كان جهاز المخابرات الإسرائيلى البـارع مدهشاً ، فقد توصل إلى معرفة الذبذبات اللاسلكية والشفرة الخاصة بكلمـة السـر لكل وحدة وفرقة ، بل وحتى أسماء وكنيه الضباط ، واستمر يرسل لهم أوامر مدسوسة مما أدى إلى وقوع الكثير من الدبابات فى مصايد، والـبعض الآخر أرسل إلى مناطق البرية الشاسعة فى مطاردات وهمية حتى فرغت من الوقود .

وفـى وقـت مـتأخر مـن ليل الخميس عندما وافقت الجمهورية العربية المـتحدة على وقف إطلاق النار غير المشروط ، كان كل ما تبقى من جيش ناصـر قـدر ضـئيل باستثناء الآلاف من المنسحبين فى غير نظام بعد أن هجـرهم ضـباطهم ، وهـم يجرون أقدامهم جراً دون جدوى نحو الوطن ، وكثير منهم لم يكمل السير ، وتركوا ليلاقوا الهلاك من العطش والإرهاق فى حرارة الصحراء القاسية.

وفـى مصر ذاتها استمرت الصحافة والإذاعة في بث تيار لا يتوقف من الدعاية ، وهى تكرر باستمرار الرواية الخيالية تماماً بأن الطائرات الأمريكية مـن قـاعدة « هويلس Wheelus » فى ليبيا ، وطائرات الكانبيرا البريطانية كانـت تعمـل جنباً مع سلاح الطيران الإسرائيلى . وفى يوم الجمعة الموافق التاسـع مـن يونـيو خرجت صحف القاهرة تحمل العنوان الرئيسى التالى : «الإسـرائيليون يواجهون المزيد من الهزائم على كل الجبهات... الجمهورية العربـية تـرد الضـربة .. » وتحـت ذلك ببنط صغير جداً جاء الاعتراف

الواقعـــى . قـــبول وقـــف إطلاق النار ! لقد أخفى الأمر كله عما حدث على الجبهة عن جماهير المصريين ، إذ لم يكن لديهم فكرة عن حجم الكارثة التى حلت بالوطن .

ولكـــن من وراء الأبواب الموصدة فى منشية البكرى لم يكن لهذه الحقائق القاسية أن تمر مرور الكرام ، فقد كان ناصر نفسه فى حالة انهيار من جراء توالـــى هذه الأحداث المروعة ، فقد دمر سلاح طيرانه ، ولقى جيشه هزيمة فـــى واحـــدة مـــن أســـرع وأحســـم الهزائم التى عرفت حتى الآن ، كما أن الإســـرائيليين على ضفاف قناة السويس نفس القناة التى انتزعها من بريطانيا العظمى بعد دفع ثمن مؤلم ، فى حين لم يرفع الروس إصبعاً لمنع تقدم العدو . وكـــان الرأى العام العالمى بأجمعه يقف إلى جانب إسرائيل . كما أن أقرب أصـــدقائه تحـــول إلـــى الدخول فى خصام معه . فقبل ذلك بأربعة أيام، كان يركـــب موجـــة الـــنجاح ، والـــيوم كل شئ بناه قد تحطم تماماً . لقد كسبت إسرائيل وانتصر الرجعيون ! .

وقـــد تهـــامس بعض مستشاريه أن الوقت قد حان ليتقاعد ويدخل إلى طى النســـيان ولو حتى لفترة . وكانوا جميعاً يعتقدون أن الأمل الوحيد هو إرجاع ســـاعة الثورة إلى الوراء ، وإن تؤكل فطيرة المذلة ، وأن يتم الركوع تحت جـــناحى أمـــريكا ، لكن هذه الوصفة كانت شديدة المرارة لناصر لابتلاعها . وأن الأكـــرم له أن يســـتقيل، إذ قال وهو مرهق : « كان زكريا محيى الدين دائمـــاً يريد التصالح مع أمريكا .. فإذا توصلنا إلى ذلك فالأفضل له أن يتولى المسئولية بدلاً منى وله تمنياتى الطيبة».

وفـــى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى ظهر على الراديو والتلفزيون لأول مرة منذ اندلاع الحرب . وسرت الشائعات بالطريقة السرية كما يحدث فـــى مصـــر أن شيئاً خطيراً يحدث ، وكان كل بالغ تقريباً فى البلاد ينتظر ســـماع ما سيقوله الرئيس . وعندما ظهرت ملامحه التى تعودوا عليها على الشاشة ، وكان وجهه وجه رجل بلغ به التحمل أقصى درجة ، فقد كان يتعلثم ببطـــئ وهـــو يخـــرج الكلمات من فمه . فقد كان الفرعون المنكسر يقرأ من ورقة نصاً معد سلفا .

فقد قال : « أيها الأخوة لقد تعودنا معاً فى أوقات النصر وفى أوقات الضيق، وفى الساعات الحلوة وفى الساعات المرة أن نتحدث بقلب مفتوح ، ويخبر كل منا الآخر بالحقائق ... والآن لا نستطيع أن نخفى على أنفسنا أننا قد واجهنا نكسة فى الأيام القليلة الماضية .. وأقول لكم الحق أننى راغب فى تحمل المسئولية بأكملها . لقد اتخذت قراراً أريدكم أن تساعدونى عليه » وبغصه فى الحلق كلما لفظ بالكلمات - « لقد قررت ان أسلم مهمتى كاملة ونهائياً وكل منصب وكل دور سياسى ، وأن أعود إلى صفوف الشعب لكى أؤدى واجبى معهم مثل أى مواطن آخر » .

ثم بعد ذلك عين زكريا محيى الدين كخليفته فى الرئاسة ، وانهى خطابه بالتعبير عن أمله أن تستمر الطبقات العاملة فى حمل رسالة الثورة الاشتراكية .

وعلى غير العادة حدث شئ غريب لم يسبق له مثيل ، إذ بدأ الناس يتدفقون نحو وسط المدينة كحشد من النحل ، من كل شارع ومن كل بيت ، وكثير منهم سالت الدموع من عينيه وهم يهتفون : « ناصر... ناصر... ناصر لا تتركنا أننا فى حاجة إليك » وفى أصيل ذلك اليوم الساخن بعد هوجه الوجوه المعذبه ، كان هناك مشهد لا يمكن تصديقه . فقد تجمعت جموع غفيرة حول مبنى مجلس الأمة وهى تتغنى باسم ناصر ، بل حاول جمهور أكبر يعتقد المراقبون أن عدده يقرب من نصف مليون رجل أن يشق طريقه عبر الطريق الرئيسى إلى منشية البكرى . وقضوا ليلتهم خارج بيت وهم يلوحون بلافتات كتبت على عجل يرجونه فيها ألا يتنحى .

وعلى طوال الدلتا وعرضها استمر هذا المنظر المجنون الهستيرى ، ففى بور سعيد اضطر المحافظ أن يتوسل إلى الجماهير من خلال أجهزة الاتصال ليمنع كل الجمهور من السير إلى القاهرة موضحاً أن المدينة لو أفرغت من سكانها فإن الإسرائيليين سوف يحتلونها .

وعندما استعاد قوته بفعل ذلك التأييد العاطفى ، سحب ناصر استقالته فى

الـيوم التالى ، وعلى الفور زعمت أوروبا وأمريكا أن العملية كلها مصطنعة ومدبرة لاستعادة هيبة سلطته المحطمة ، غير أن هؤلاء الذين يعرفون مصر لم يساورهم أدنى شك فى إخلاص الجماهير ، قد كتب شاهد عيان خبير مثل إريـك رولو Eric Rouleau مراسل صحيفة « لوموند » مؤكداً بشكل لا يقبل الشـك تماماً : « لقد سافرت إلى شطر كبير من العالم ، لكنى لم أشهد شعباً بأكملـه وقـد انغمس فى حداد مثل هذا ويصرخون فى ألم مثلما فعلوا .. لقد جاءتـنى الإجابـة من قبل أحدهم كان يريد فى الصباح لناصر أن يستقيل .. وفـى المسـاء كان يهتف أن يبقى ، إذ قال : «أن ناصر بمثابة الوالد بالنسبة لـى .. قد يغضب الواحد منا مع أبيه ، ويوجه له النقد، لكن لا أحد يريده أن يذهب .. بدونه أنا أشعر بالضياع ».

أن مشـهد جـنازة عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من هذا الحدث وضحت ذلك التفسير بوضوح.

## الفصل الخامس والعشرون

# آلام إعادة البناء

إن مـــا كان يتوقعه البعض بأنه نهاية إنجازاته قد تحول بعد ذلك إلى بداية جديدة ، غير أنها كانت بداية لنهايته .

فبالرغم من أن الجماهير صرخت فيه أن ينهض ويعود إلى السلطة إلا أن الصـــورة العامة لناصر كانت قد تشوهت بحيث يصعب إعادتها إلى ما كانت علـــيه . فقـــد تعرضـــت للتشريح المؤلم داخل الجيش نفسه ، بالإضافة إلى تصـــاعد الصراع السياسى بين جناح اليمين وجناح اليسار : بين هؤلاء الذين ســـعوا إلـــى إســـراع الخطـــى نحو الاشتراكية العربية ، عاملين على زيادة العلاقـــات مع الاتحاد السوفيتى، وبين التكنوقراط الذين كانوا يرون أن الحل الأوحـــد لكوارث الأمة هو إعادة العلاقات مع دول الغرب والتركيز على حل المشاكل الاقتصادية المتفاقمة والتى لا يمكن تركها على الرف .

أمـــا بالنسبة للصراع على الزعامة السياسية الذى كشف الستار عنه خلال شـــهور عـــام ١٩٦٧ الحارة ، فقد تبلور إلى مواجهة بين جمال عبد الناصر وبيـــن عـــبد الحكيم عامر . فعندما قدم عبد الحكيم عامر استقالته من منصبه كقـــائد عام للقوات المسلحة مثلما فعل عبد الناصر من رئاسة الدولة ، وذلك عـــندما وصـــل الإسرائيليون إلى ضفة القنال ، لم يطلب منه أحد العودة إلى منصـــبه . فمـــن ناحية الحقيقة كان العار قد ركبه بصفته القائد العام للقوات المســـلحة ، والمسئول عن الكارثة مسئولية مباشرة ، غير أنه كان فى جلساته الخاصـــة يعبر عن اعتقاده أن « الريس » هو المسئول المباشر عنها . ولما كان غير متحمس بشدة لكى يكون صاحب نظرية مثل ناصر، فقد كان يركز مجهوداتـــه فـــى بـــناء قـــوة مصرية ضاربة أكثر من بذل مجهوداته لنشر الاشـــتراكية العربـــية . وبعد الدمار الذى جلبته حرب الأيام الستة ، بدأ كثير مـــن الســـاخطين – خاصة من داخل الجيش – يتجمعون حول عامر . وفى نهايـــة المطـــاف وجد هذان الصديقان الحميمان : البكباشى والصاغ – اللذان

خططا ونفذا الثورة – وجدا نفسيهما فى مواجهة كل منهما الآخر .

وكمـــا كان يفعل أى بك من بكوات المماليك جمع عامر سرًا أتباعه الذى كـــان يســيطر علــيهم فـــى « فيلته » بالدقى . وكانت الخطة هى استعادته ومجموعـــة من قيادة الجيش مناصبهم عن طريق قرار جمهورى مزور أثناء وجود عبد الناصر فى الخرطوم ليحضر مؤتمر القمة العربى . وكان من بين خططهـــم عـــزل عـــبد الناصر ، وإلقاء اللوم عليه وعلى الروس فيما يخص الكـــوارث الـــتى لحقـــت بمصـــر ، ثم توجيه الدعوة إلى دول الغرب لتقديم المساعدة حتى يقف الوطن على قدميه مرة أخرى .

وقـــبل سفره بيوم ، كشف جهاز المخابرات – الذى طالما أنقذه من العديد مـــن محـــاولات الاغتـــيال فى الماضى – عن خيوط هذه المؤامرة . عندئذ اســـتدعى عامر إلى منشية البكرى لعقد اجتماع حاسم فى المكتب الذى طالما اجـــتمعا فيه سويا خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، وحتى الآن لم يكشف الســـتار عمـــا دار بيـــنهما . غـــير أن الصحف ذكرت أن عبد الناصر وهو «يعتصـــره الحـــزن والأســـى » وجد من الضرورى إلقاء القبض على عبد الحكيم عامر وكذلك على خمسين ضابطا معه وأن يقدم جميعهم إلى المحكمة العسكرية .

فـــى البداية هدد عامر أنه إذا ما قدم للمحاكمة فأنه سوف يقدم دليلاً دامغاً يديـــن مجموعة كبيرة من الناس من بينهم عبد الناصر نفسه ، ثم حاول فيما بعـــد أن ينـــتحر ، غـــير الأطـــباء تمكنوا من إنقاذه ، ولما شعر أن تقديمه للمحاكمـــة العســـكرية وهـــو على قمة قيادة الجيش عار كبير كان عليه أن يتصدى له ، فقد أقدم فى الرابع عشر من سبتمبر بعد أن خدع حراسه لوقت كاف – من أن يبتلع قنينة من السم وفى هذه المرة قضى نحبه .

تلـــك هى على أى حال الرواية الرسمية حتى وإن ترددت روايات أخرى فـــى النوادى والمقاهى . وفى كل الأحوال سواء كان عبد الناصر قد تخلص من صديقه أم لم يتخلص منه ، فقد ظل عبد الناصر مسيطرا على الجمهورية

العربية المتحدة وهى مقلمة الأظافر بنفس الطريقة التى ظل فيها الإسرائيليون يحتلون سيناء ويتحصنون فى الخنادق على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وخلال الشهور التى تلت أقسم عبد الناصر على استعادة الأرض التى فقدها حتى ولو كان ذلك عن طريق حرب أخرى .

ولكى يضع الأساس لأحلامه ، كان مستعداً للتضحية بتسليم المزيد من استقلال الجمهورية العربية المتحدة لموسكو مقابل السلاح الروسى الذى كان فى حاجة ماسة له لإعادة بناء جيشه وقواته الجوية من جديد .

لقد وضع الانتصار الإسرائيلى الروس فى مأزق كبير ، فخلال أسبوعين من تاريخ وقف إطلاق النار ، طار المارشال زخاروف إلى القاهرة ليرى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ساحة الشرق الأوسط الروسية المحطمة ، ثم تلاه بودجورنى نفسه. قد توغل الروس بعمق فى المستنقع المصرى لكى يقدروا هوة الخسائر ثم يغادرون. ومن أجل هيبتهم فى العالم العربى وفى كل مكان ، كان عليهم دعم ناصر بأى طريقة ، وهذا ما فعلوه عن طريق إرسال شحنات ضخمة من الطائرات والسلاح حتى أنه لم تمض غير شهور حتى استبدل العتاد العسكرى الذى استولى عليه الإسرائيليون خلال الحرب ، وكان الثمن الذى دفعته مصر هو تشديد القبضة الروسية عليها ، بالإضافة إلى زيادة فرض الرهونات على الاقتصاد المصرى الذى بات يئن تحت حمل ثقيل .

فى الماضى سئل مسئول حكومى رفيع المستوى ذات مرة هو يتناول الشاى فى النادى عما إذا كانت البلاد قادرة على تحمل تكلفة المشروعات الكثيرة والطموحة فى مجال التصنيع ، وفى المجال الاجتماعى والتى كان يخطط لها . فأجاب بأن الجمهورية العربية المتحدة مثلها مثل الرجل الذى يستدين من البنوك ليبنى مجمعاً سكنياً ، وبينما العمل قائم على قدم وساق ، وجد نفسه فى حاجة إلى سيولة مالية ، لكن ما أن اكتمل البناء حتى بدأ فى تأجير وحداته ، وبذلك تمكن من تسديد ديونه « ثم راح يعدد على أصابعه مصادر العملة الصعبة فى الجمهورية العربية المتحدة : إنتاج القطن ودخله

٣٠٠ مليون جنيه إسترليني ، ثم قناة السويس التي تحقق لمصر دخلاً قدره ٢٠٠ مليون جنيه إسترليني ، ثم البترول ودخله ١٠٠ مليون إسترليني ، ثم السياحة ودخلها ٥٠ مليون إسترليني فيكون المجموع من دخل العملات الصعبة هو ٦٥٠ مليون إسترليني ، وهو مبلغ كاف لسد حاجة البلاد في الأحوال العادية ، ثم أنهى حديثه بابتسامة الواثق من نفسه حدث ذلك عام ١٩٦٥ « مع العلم يجب أخذ تلك الأرقام بتحفظات » أما الآن ونتيجة لأحداث ١٩٦٧ ، فقد رهن محصول القطن لروسيا لسنوات قادمة ، أما قناة السويس فقد أغلقت ، وشركات البترول لم تعد قادرة على العمل ( بعد أن وقعت حقول البترول في سيناء في أيدي الإسرائيليين ) كما توقف السواح عن المجئ . ولمواجهة فقدان هذه المصادر *من الدخل في ضربة واحدة فقد تطلب ذلك تحمل نوع خاص من المسئولية وهذا ما فعله عبد الناصر ، فقد اضطرت الجمهورية العربية المتحدة إلى تعليق الكثير من المشروعات الصناعية والتنموية ، وراحت حرفيا « تتسول » بمعنى الكلمة المال من الدول العربية الأخرى .

لقد بنى ناصر مصر الحديثة ، لكنه في النهاية هو الذي دمرها ، لقد انتزع استقلال بلاده من براثن بريطانيا ، غير أنه سلم هذا الاستقلال طواعية إلى روسيا، لقد طرد البريطانيين ليحل محلهم السوفيت ، لقد جعل المصريين يفخرون بأنهم مصريون ، لكنه قادهم في حرب فاشلة في اليمن ، وتسبب في هزيمتهم على أيدي الإسرائيليين الذين وصل جيشهم إلى ضفاف القناة .

في عيون أي مفكر مصري كان ناصر مأساة في حد ذاته ولكن بالرغم من ضخامة حجم فشله ، فقد ظل الأب الموقر للجماهير التي لا تزال تعبده ولقد عبر لي طالب بكلية الزراعة في جامعة القاهرة يبلغ من العمر خمس وعشرين عاماً بقوله : « أنا شخصياً كنت أتمنى أن آخذ بندقية وأطلق النار عليه لو تحققت لي الفرصة لكن بالرغم من ذلك عندما سمعت بموته ، بكيت عليه » قلت له لماذا ؟ فرد قائلاً : عند يموت الإنسان عليك دائماً أن تذكر محاسنه فلقد كان ناصر شخصيته ديناميكية ، وكان رمزاً لحركة المقاومة العربية فهو الذي أعطانا الشعار والرغبة « لكي نرفع رءوسنا وأن نكون

فخوريـــن لكونـــنا مصـــريين » أنـــنى أعجبت بالشعار بالرغم من كراهيتى للرجل».

وبالـــرغم أنه لا يبعد بينه وبين طبقة الفلاحين فى صعيد مصر سوى جيل واحـــد ، إلا أن ناصـــر أطلق العنان لأمانى الجماهير العريقة المكبوتة التى عـــبرت عنها أشعار أحمد شوقى ، وموسيقى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم، وروايـــات طـــه حســـين ، وكأنـــه قام بترجمتها من كلام إلى عمل إيجابى وتاريخى . لقد كان شخصية محورية فى العالم الثالث غير المنحاز ، إذ فاق بقامته وهامته كل معاصريه . وبسبب كونه بالتحديد على خلاف كبير معهم، فقد جعل الوئام مع جيرانه أمراً محالاً . لقد كان الزعيم العربى الأوحد الذى كـــان له الوقـــار القـــادر على تحقيق السلام مع إسرائيل ، لكنه لم يفعل فى الأســـابيع الأخيرة من حياته للتوصل إلى حل يضع نهاية للصراع العربى – اليهودى الذى لا نهاية له .

ولقـــد كـــان آخر أعماله السامية هو سبر أغوار العداء بين ياسر عرفات والملـــك حســـين . ولســـخرية القدر جاءت وفاته نتيجة لأزمة قلبية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ بينما كان يودع ضيوفه فى مطار القاهرة .

وقد أحدثت وفاته ربكة «عبر العالم بقدر ما كانت تحدثه ضربات المعلم» التى أحدثها فى حياته .

الخاتمة

# رحيل الفرعون

شـقت الجماهير طريقها إلى القاهرة ، جاءت فوق أسطح القطارات وفى الحـافلات الـتى تكدسـت بهم بطريقة تعرض حياتهم للخطر وفوق الجمال والـبغال وعربات الكارو التى تجرها الحمير ، فمن كل محافظة تدفق عامة الـناس وقـد اعتصـرهم الحزن ، يتزاحمون بمئات الآلاف فى طريقهم إلى العاصـمة مـن أجـل المشـاركة فى جنازة الرجل الذى كان يعرفونه باسم «الـريس» وعلـى قرع الطبول الجنائزية ناحت أصوات الملايين على طول طريق الركب الجنائزى الذى بلغ عشرين كيلو مترا وهم يرددون : ناصر... ناصـر... أما رؤساء الدول الثمانى عشر ومئات الوفود الأجنبية الذين كانوا يسـيرون خلـف عربة المدفع التى تجرها الخيول ، فقد كادوا يسقطون تحت الأقدام أمام ذلك البحر الهائج المزمجر بالبشر . ولقد قال جاك شابان دالماس الفرنسى Jacque Chaban Delmas والذى كان يوماً عضوا فى فريق الرجبى لكـرة القدم « لقد بدوت كما لو كنت قد وقعت وسط اضطراب عظيم». فمنذ موت آخر الفراعنة منذ ألفين وثلاثمائة عام مضت لم تشهد مصر جنازة تأخذ بـالقلوب والألـباب مثل هذه الجنازة . أن هذا الحزن الذى لا حد له من هذه الملاييـن العديـدة كان بمثابة تأكيد نهائى لسيطرة قبضة ناصر غير العادية على مشاعر الملايين .

لكـل أمـة نصيبها من الرجال العظام ، غير أن العالم يعرف كيف يسير أمـوره بعـد رحـيل هؤلاء العمالقة . لقد أسدل الستار عن عصر ناصر ، وبهـدوء تشـجع صـديقه القديم أنور السادات على ارتداء عباءة الرئاسة ، وبهـدوء أيضـاً بدأ يراجع بعض ملامح الناصرية المتطرفة ، وبدأت مشقة صـعود التل لكى يصلح علاقاته الدولية ، محاولاً استعادة الأرض السليبة ، محققـاً الاستقرار الداخلى ، بينما العالم يمسك أنفاسه حول الآمال التى عقدت لتتحسن الأمور فى الشرق الأوسط .






جنازة الرئيس عبد الناصر تعبر عن الحزن القومى ولم تعرف مصر جنازة بمثل هذا الحجم منذ جنازات الفراعنة

حتى عندما شرع هو ورفاقه فى إعادة النظام من حاله الفوضى لابد وأنهم كـــانوا يعكسون قول بول فاليرى Paul Valery المأثور وهو « الرجل العظيم هــو الذى يخلف من ورائه أولئك الذين يتبعونه فى المصاعب Great man is he who leaves behind those who Follow him in difficuties.

فــبالرغم مـــن ضخامة أعماله المبكرة فإن سنوات حكم ناصر العملاقة لم تـــبعد الكارثـــة عن مصر ، إذ ترك بلادة ذات التاريخ العريق تصارع حالة الفوضــــى وهـــى بين براثن الروس بعد أن ذهب مع الرياح دخلها من العملة الأجنبـــية ، وبعد ان أصاب قواتها المسلحة الخزى والعار ، تاركا شعبه يسير مقهورا تحت مظلة الأوامر الدكتاتورية ومع وجود العدو يدق على الباب.

وبالرغم من كل ذلك فهو لا يزال فى نظر الجماهير من أبناء وطنه أعظم مصرى منذ أيام الفراعنة.

# هوامش الكتاب

(١) فــى عام ٩٦٩م أرسل المعز الخليفة الرابع فى الأسرة الفاطمية المنشقة (التى استولت منذ عــام ٩٠٩م على الساحل البربرى من فاس حتى الحدود المصرية) جيشا تعداده ١٠٠,٠٠ رجل تحت قيادة العبد الصقلى جوهر ضد مصر . وألحق جوهر بالحكام الإخشيديين هزيمة عند الجيزة فى نفس المكان الذى حقق فيه نابليون انتصاره على المماليك بعد ثمانية قرون . وعلــى الفور شرع فى بناء ووضع أساس المدينة والقصر للخليفة، حيث اختار موقعاً على أرض مرتفعة إلى الشمال من الفسطاط التى كانت حتى ذلك الوقت عاصمة لمصر. ويروى المؤرخ العربى المقريزى أن جوهر قام بنفسه بتخطيط المساحة التى بلغت١٢٠٠ × ١٦٠٠ يــاردة وجعل بين قطريها أجراسا معلقة فى الحبال . وكان القصد منها أن يقوم العرافون والمنجمون بدق الأجراس عندما تظهر العلامات أن اللحظة المناسبة قد جاءت لوضع حجر الأســاس . ولكــن الذى حدث أن حطت حدأة فوق أحد الجبال مما أعطى الإشارة ، فساد الرعب عند المنجمين (وظهور الحدأه هذه منتشرة فى القاهرة حتى اليوم ، وقد تنقض فجأة وتخطف الطعام من وعائك إذا ما كنت تتناول طعامك خارج المنزل ) وعلى أى حال ما أن أعطيــت الإشــارة حتى بدأ حفر الأساس وكان كوكب المريخ – القاهرة – كوكب الحرب والصراع فى صعود ومن ثم أعطيت المدينة الجديدة اسم القاهرة بدلاً من اسم المنصورية كما كان قصد بها أصلاً. ومن ثم فقد احتفل بألفية القاهرة عام ١٩٦٩م .

(٢) كلمــة « الأغــا » تعــنى حرفياً « الأخ الكبير » ، حتى بعد ان بقيت ارتباطات المدرسة العسكرية قوية بين «الأغا» والأينى Ini الذى حمل فى بعض الأحيان اسم « الأغا».

(٣) عرف السلطان قلاوون باسم « الألفى » لأنه ثمنه كان ألف دينار ، بينما على الجانب الآخر بــيع « بيــبرس » بأربعيــن ديــناراً بسبب وجود حول طفيف فى إحدى عينيه بينما بيع ماليمكتمار Maliktmar بـــ ٥٠٠٠ دينار بسبب جمال هيأته المذهل .

(٤) ربما اقرب مقارنة للمملوك بدرجة أمير أو بك هو البارون فى أوروبا العصور الوسطى .

(٥) كان الشذوذ الجنسى شائعاً بين المماليك ، وربما كان النظام كله إلى حد ما يقوم على ذلك كما لاحظ نابليون .

(٦) يمــيل أغلــب المؤرخيــن الجادين إلى استبعاد حكاية القفزة الدرامية ، كخرافة . غير أن جيوفانى فينيتى Giovanni Fineti الذى كان حاضراً ساعة المذبحة يقول : « هناك زعيم آخــر اسمه أمين بك الذى كان شقيقاً للألفى حث حصانه النبيل الذى كان يمتطيه بأن يقوم بحــركة يائســة كبيرة بأن نخسه حتى جعله يتسلق المتاريس ، مفضلاً أن يرتطم بالأرض ليــتمزق إلى قطع على أن يذبح غدراً ، فدفعه لأن يقفز إلى أسفل الجرف من ارتفاع يقدر

بنحو ٣٠,٠٠ قدم وربما أكثر، غير أن الحظ حالفه حتى أنه بالرغم من أن الفرس مات عند سقوطه، إلا أن راكبه نجا. وكان هناك معسكر للجنود الألبان أسفل المكان،وكانت خيمة أحد الضـباط قريبة من المكان الذى قفز منه، وبدلاً من أن يبتعد عنه، اقترب منه وألقى بنفسه طالباً منه حق الضيافة متوسلاً إليه أن لا فائدة ترجى منه، وقد منحه الضابط حق العفو بل قـدم له حـق الحمايـة، وحتى ولو كان فى ذلك خطر عليه، وأبقاه مختفياً طوال استمرار الغضب الشعبى وتعديات الجنود . بل أن فينيتى Fineti ادعى أنه رأى أمين بك بعد ذلك بسنوات فى سوريا .

(٧) وهذا يعنى فى الحقيقة أنه مات من جراء وباء الطاعون أو ترك فى النهاية لكى يعود إلى موطنه .

(٨) أن توافـق إعلان محمد على للقنصلين الفرنسى والبريطانى أنه ينوى إعلان استقلاله مع قرار الباب العالى بطرده من سوريا دفع محمد على للدخول فى حرب مع العثمانيين .

(٩) افتتح فى عام ١٨٥٦ خط السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية وكان الأول من نوعه فى أفريقـيا . تلاه رأس كولونى Cope Colony عام ١٨٦٠ ، ثم افتتحت سويسرا والدانمارك أول خـط لهـا عـام ١٨٤٤م ، وأسبانيا عام ١٨٤٨ والسويد عام ١٨٥١ ، والنرويج عام ١٨٥٣ والبرتغـال عام ١٨٥٤ وجاءت كل من تركيـا واليونـان بعد مصر (١٨٦٠ وعام ١٨٦٩ ) . وبينما اكتمل خط الاتحاد الباسيفيكى عبر القارة عبر شمال – أمريكا عام ١٨٦٠ .

(١٠) ومـع اقتراب القرن التاسع عشر تغير ميزان القوى بين الغرب والشرق بشكل كبير حتى أصبح لدى الأوربيين فى ذلك الوقت احتمالات أكبر للتدخل .

(١١) وقـبل ذلك بشهر أسر سعيد إلى السير هنرى بلور Sir Henery Bulwer فى القسطنطينية بـندمه على تبديد ثروة بلاده ( ف . يو .بلور F. U. Bulwer راسل Russell ١٥ ديسمبر ١٨٦٢ ) .

(١٢) جـاء فـى مسـودة خطاب كتبته زوجة فردى Verdi فى أغسطس عام ١٨٦٩ تؤكد فيه موضوع طلب إسماعيل لعزف ترنيمة Hymn وليس عمل أوبرا . وثم فان الرواية المعتادة عن أصول أوبرا عايدة غير حقيقية ( Frank Walker, The man Verdi, p278 ) وبالرغم مـن ذلـك فقد كان لدى الخديو النية فى إنجاز أوبرا وطنية – كما كتب بذلك درانهت بك Draneht Bey إلـى فردى : « فى المستقبل سوف تصبح أسعد ذكريات حكمه » . وفى الـبداية رفـض فـردى ، ولكن عندما كتب مارييت باشا من خلال وساطة كاميل د لوكل Camile du locle أن إسـماعيل اقترح : « طرق باب آخر .. » كانت هناك فكرة لتكليف جونـد Gound بل حتى فاجنر Wagner ، ولو قبل الأخير القيام بها فربما أنتج شيئا أكبر Grandiose لأن هذا المؤلف الموسيقى كانت عواطفه متغيرة . غير أن الشروط الذى كانت

بالتأكـيد تناسـب الأمـير . فقد حددت دفع ١٥٠,٠٠٠ فرنك مع احتفاظ فردى بكل حقوق العرض خارج مصر . وأخيراً افتتح أول عرض لأوبرا عايدة فى القاهرة فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧١ فى حضور الخديوى . وللأسف فقد دمرت دار الأوبرا تماماً بسبب حريق حدث فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٧١ فى ما يكاد يتفق مع مرور مائة عام على بنائها .

(١٣) هذه الأرقام مأخوذة عن كتاب السير جورج يونج: Sir George Young مصر (ص ٨٤) مع استبعاد قرض عام ١٨٧٩ الذى لم يكن إسماعيل مسئولاً عنه كلية ، وأرقام الأموال التى استدينت وتسلمت تقدر عادة ما بين ٦٨ مليون إسترلينى و٤٧ مليون إسترلينى.

(١٤) وقـبل ذلك بعشر سنوات فى يناير عام ١٨٦٥ كانت الليدى دف Lady Duff قد كتبت فى مؤلفها، خطابات من مصر ١٦٦٣ - ١٨٦٥ (Letters From Egypt 1863 1865 ) تقول : «فى الأسبوع الماضى كان الناس يلعنون إسماعيل فى شوارع أسوان وكل إنسان كان يعبر علنا عما يعتقد . وكان الكرباج ينزل على ظهور وإقدام جيرانى طوال الصباح . لقد وصل نظام الإبتزار والاستغلال الجماعى حداً من الصعب الذهاب أبعد منه » . وقد عاشت لوسى داف جوردون Lucie Duff Gordon لسنوات طويلة فى الأقصر فى بيت بناه سولت Salt القنصـل الـبريطانى العـام فـوق قمة معبد خيم Khem . وملاحظاتها هامة لأنها كانت الإنجلـيزية الوحـيدة التى عاشت فعلاً فى الريف ووصفت ما كان يحدث فيه . وفى عام ١٨٦٧ فـى آخـر الخطابات من مصر Last Letters From Egypt كتبت : « لا أستطيع وصف البؤس هنا . فكل يوم تفرض بعض ضرائب جديدة . إذ كان على كل حيوان: جمل، بقـرة ، غـنم ، حمار ، فرس أن يدفع . لم يعد الفلاحون قادرين على تناول الخبز، أنهم يعيشون على طعام الذرة المخلوط بالماء والخضراوات الطازجة والجلبان... إلخ . أن الناس فـى مصر العليا يهربون بالجماعات ، لأنهم غير قادرين تماماً على دفع الضرائب الجديدة وتنفيذ العمل الموكل إليهم. حتى هنا ( فى القاهرة ) فأن الجلد بسبب الضرائب السنوية شئ مرعب .

(١٥) لقـد عرضت الملكة فكتوريا على دزرائيلى Dieraeli وسام الجارتر Garter أو الدوقية، ومـنح عضـوية مجلس اللوردات على شقيقه أو ابن أخيه . فرفض كل ذلك ما عدا وسام الجارتر . وعلى أى حال لم يكن جلادستون سعيدا وأعلن إدانته لمؤتمر قبرص ووصفه بأنه « اتفـاق مجانيـن (Insane Convenant) » ونـوع مـن النفاق » ذى الوجهين act of duplicity ، وقـد رد دزرائيلى على ذلك بعبارة من الذم الشهيرة التى أفصح عنها خلال مأدبة عامة وصف خلالها جلادستون بأنه «خطيب معقد مخمور بفعل غرور الأطناب الذى يتسم به». (انظر بليك دزرائيلى ص ٦٤٩ - ٦٥٠ . Blake , Disaeli. pp. 649 - 650).

(١٦) بالـرغم مـن أن اسمه يكتب عرابى Arabi فى المصادر الإنجليزية إلا أنه الكلمة العربية المعروفة هى عرابى Orabi .

(١٧) لـم يكـن الموظفون البريطانيون ، خاصة عندما تزايدت أعددهم أكثر فأكثر أكفاء بدرجة

ثابتة، بل كانوا يتصفون بعدم اللباقة .. إذ كانت التقاليد الأنجلو هندية التى استوردت إلى مصـــر والـــتى تـــنظر إلـــى الشرقيين على أنهم مخلوقات أدنى درجة وضعفاء بالمفهوم الأخلاقى، ولا أمل فى إصلاحهم لأنهم غير متجاوبين للرحمة ، وأنهم لا يستجيبون إلا «لليد القويـــة» ولا يكنون أى مشاعر مشتركة من التعاطف بين الرسميين البريطانيين وزملائهم المصريين « جون مارلو: كرومر فى مصر John Marlowe, Cromer in Egypt » .

(١٨) كتب اللورد سالسبورى Lord Salisbury الذى تولى وزارة الخارجية فى يناير عام ١٨٨٧ إلى هنرى درموند – وولف Henry Drummond - Wollf يقول: « أننى من قلبى كنت ، أتمـــنى إلا نذهـــب إلى مصر .. غير أن المشاعر الوطنية ومكاسبنا قد أثيرت ، لقد تذوقنا لحومهم ولن ندعهم يذهبون » : « الليدى جفيـــندولين سيسل : حياة روبرت ماركيز أوف ساليسبورى ، مجلد ٤ ، ص ٤١) .
Lady Gwendolen Cecil, Life of Robert Marquess of Salisbury, Vol. IV, p41.

(١٩) قـــام الســـير كولن سكوت مونكريف Sir Colin Scott Moncrieff بإصلاح القناطر شمال القاهرة ، وكان المخطط الأول لعدد من الإصلاحات الخاصة بالرى على طول البلاد والتى كان من نتائجها التزايد المستمر فى إنتاج مصر الزراعى ، والأكثر من ذلك إثارة للإعجاب جـــاء خـــزان أسوان الذى اكتمل بناؤه عام ١٩٠٣ بناء على تصميم السير وليام وليكوكس William Wilcocks بتكاليف تقدر بـــ ٣,٥٠٠,٠٠٠ مليون إسترلينى تقريباً مما ساعد على تخزين جزء من فيضان النيل لأغراض الرى ، وبذلك حول على الأقل ربع مليون فدان إلى الرى السنوى ليعطى محصولين بل ثلاثة محاصيل سنويا .

(٢٠) التحفظات المعنية هى : ١- تأمين خطوط المواصلات للإمبراطورية فى مصر .
٢ – الدفاع عن مصر ضد العدوان أو التدخل الأجنبى سواء كان مباشراً أو غير مباشر.
٣ – حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
٤ – السودان .

(٢١) كان أحد الأسباب الأكثر أهمية لاتخاذ القرار لإعادة فتح السودان هو تأثير هزيمة الإيطاليين فى موقعة عدوة .

(٢٢) فـــى ضـــوء التفوق البريطانى فى قوة النيران لم يكن حجم الخسائر المتوقع يدعو للدهشة. ويمكن الاستشهاد بما قاله الكابتن بلود Captain Blood كشاهد على معركة أم درمان:

لقـــــد وقف على تل صغيـــــــر
وتلفت من حوله بعينيـــــه الكسولتين
وقـــــــال تحـــــت أنفاســـــه
مهما يحدث فلدينا أكبر قدر من البنادق
أما هم فليـــس لديهـــم شئ منها

( هيلير بيللوك : مسافر عصـــــــرى
( Hilaire Belloc:. A modern Traveller

(٢٣) كـــان من المعتاد لشركات الأعمال أن ترسل برقياتها عادة مشفرة بنتلى رقم٢ Bentleys . Number Two

(٢٤) تحولت هذه المأدبة التى أقيمت بمناسبة زواج ابنة عمى إلى أن تكون ذات أهمية تاريخية . فخلالها جاءت الأنباء إلى كبير مهندسى القوات البريطانية فى مصر بأن الاندفاع الألمانى قد أوقف على مقربة من الإسكندرية وبناءً على ذلك أوقفت التعليمات التى كانت قد صدرت له من قبل بفتح أهوسة بحيرة مريوط وإغراق الإسكندرية .

(٢٥) في ٧مايو عام ١٩٤٦ عرض رئيس الوزراء المستر آتلى سحب كل القوات البريطانية من الأراضـــى المصـــرية ، ووضع حلول عن طريق المفاوضات لمراحل وتاريخ اكتمال هذا الانســحاب ، وأن تقوم الحكومة المصرية بالتفاوض لجعل إمكانية المساعدة المشتركة فى زمـــن الحرب أو التهديد الوشيك بالحرب طبقاً لشروط التحالف H. C. Deb 5th Series, Vol. 423 Cols. 774 ولســوء الحظ انهارت المفاوضات من خلال المعارضة وعدم الثقة بين كل من إنجلترا ومصر ، وقد زعم اللورد «ستانسجيت» Lord. Stansate فيما بعد أنه «لـــو كـــنا قادريـــن على إعلان أنه فى المستقبل لن تبقى القوات البريطانية فى مصر إلا بالموافقة المصرية لكنا قد عقدنا المعاهدة خلال شهر» . R.11 A. Information Popers No. 19, P.88.

(٢٦) كمـــا ذكـــر ناتنج Nutting فيما بعد : كان آخر شئ كان يدور فى رأس ناصر خلال أى مـــرحلة مـــن مـــراحل أزمة السويس أن تجازف كل من فرنسا وبريطانيا بتدمير أى أثر لتأثـــيرهما وســـمعتهما فـــى العالم العربى باستخدام إسرائيل كذريعة للاستيلاء على القناة بالقوة». Anthony Nutting Nasser p. 148.

# دراسة نقدية موجزة
# عن
# مصادر الكتاب

## المقدمة:

لا يوجـد نقـص فى المؤلفات عن نابليون ، وفى كل موسم يظهر الجديد مـنها. لكـن العمـل المعيارى فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ نشاطه هو كـتاب هويلـر وبـرودلى . Wheeler and Broadly: Napoleon and the Invasion of England (London 1908 ). وفـى لهجة أخف كتاب : Carola Oman : Britain Against Nopoleon ( Faber 1947 ) فهـو ملئ بالتفاصيل الطـريفة . كذلـك فـأن كتاب دف كوبر : توليران ، جدير بالقراءة Duff Cooper : Toleyrand ( Cape 1932 ),

أما عن الروايات الفرنسية فقد اعتمدت اعتماداً أساسياً على مؤلف :

Michelet et la Jonquiere massive : L Expedition en Egypte ( Paris 1899).

لكـن علـى الباحثيـن الجاديـن الرجوع إلى Correspodence indite, officielle et Confidentielle de Napoleon Bonaparte: Egypte ( Paris 1810 - 1820 ).

والذى منه نقلنا نص خطاب نابليون إلى تاليران ( Vol.II, p. 235 ) .

أما ملاحظاته إلى ميوت Miot فقد أخذتها عن :

Jacques Francois Miot : Memoirs Pour Servir a L histoire des expeditions en Egypte et en Syrie ( Paris 1814 ).

* * *

## الفصول من ١ – ٣:

أن أكـثر الروايات المعاصرة قيمة لأحداث هذه الفترة فى مصر هو بكل تأكيد ذلك العمل الهام الذى كتبه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

والـــذى ترجم إلى الفرنســية تحت عنوان : مذكـــرات قاطن فى القاهرة (لـــ ٩ أجزاء ١٨٨٨ ١٨٩٦ ) :

Le Journal d un habitent du Caire ( 5,vols, Cairo 1888 - 96 )

ولـــد الشـــيخ الجبرتى فى مصر عام ١٧٥٤ . وهو أصلا من « زيلع » علـــى الســـاحل الأفريقى من خليج عدن ، وقد استقرت أسرته فى مصر منذ ســـبعة أجيال ، وكان جده الأعلى الشيخ على ينظر إليه كولى من أولياء الله الصالحين لدرجة أن ضريحة فى ادفو كان يقصده الحجاج ، أما والد الجبرتى فكان معروفاً كأعظم فقهاء اللغة العربية فى أيامه ، تاركا مكتبة يستعير منها مـــن يـــريد بالمجان . وكان عبد الرحمن نفسه عالماً وواحداً من أبرز شيوخ الأزهـــر ، وقـــد سجل يومياته من ١٧٨٠ حتى عام ١٨٢٠(•) عندما اغتيل بـــناءً علـــى أوامـــر من محمد على – كما قيل – عندما كان يمتطى حماره قاصـــداً بـــولاق ، ولأنه قد اختير لعضوية الديوان ليخدم فى الديوان العام أو الحكومـــة المحلية التى أقامها بونابرت بمساعدة أعيان المسلمين فقد كان فى مكانـــة جـــيدة تؤهـــل له معـــرفة ما كان يحدث . فالمجلد السادس(••) من تواريخـــه يعطيـــنا وصـــفاً يوماً بيوم للاحتلال الفرنسى كما يرى من العيون المصـــرية ومن أبرز ما فيه أن شطر كبيراً منه قد اهتم بالشكاوى عن منهج الفرنسيين « فى التعايش السلمى » .

وهـــناك مصدر آخر معاصر : هو نقولا بن يوسف المعروف باسم نقولا الـــترك الـــذى تـــرجم مؤلفه : حولية مصر « ١٧٩٨ – ١٨٠٤ من العربية جاستون فييت Gaston Wiet ونشر فى القاهرة عام ١٩٥٠(•••).

ومـــن الأعمـــال الحديـــثة وأكثرها تدقيقاً بكل تأكيد مؤلف«هيرولد»المفعم بالحـــيوية والمدعمـــم بالوثائق : بونابرت فى مصر Bonaparte in Egypt,

(•) التاريخ المحدد لوفاة الجبرتى ١٨٢٤ ( المراجع ) .

(••) لعله يقصد المجلد الثالث ( المراجع ) .

(•••) عـــنوان المؤلف بالعربية « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » ( المراجع ) .

. Hamish (1963 )

كذلـــك يجـب إلا يفوتنــا مؤلـــف : الآن مورهيـــــد The Blue Nile ( Hamish Hamilton 1962 )

وقد طبع الآن فى سلسلة Paperback

أما مؤلف ستانلى – لين بوول Stanely Lane - Pool

History of Egypt in the Middle Ages

فهو يعطينا قدراً كبيراً من المعلومات عن المماليك . ولكن للحصول على دراسة تفصيلية للمماليك يجب الرجوع إلى مؤلف ديفيد أجالون :

David Agalon : L Eslavage du Mamelouk.

أمـــا عــن وصف نابليون للقاهرة فهو مأخوذ من مذكراته التى كتبها فى ســانت هليــنا St Helena ، أمـــا عـــن انطباعات الملازم مورجان مورجان كليفورد Lieut Morgan Morgan Clifford فقد نقلت من مؤلفه :

Egypt: Joural of a young officer of the 12th light dragoons ( Privately printed 1802 ).

* * *

**الفصول من ٤ – ٥ :**

صدرت أول طبعة من كتاب إدوارد وليام لين عام ١٨٣٦ (*).

Edward Wiliam Lane: Manners and Customs of The Modern Egyptians (1836).

والآن هــو متاح فى طبعة Everyman Library ( no. 315 ) . وقد وصفه ابــن شقيقه ستانلى بول Stanlay Poole بأنه أكثر الصور اكتمالاً لحياة شعب كتــب علــى الإطــلاق ، والذى لا شك فيه أنه العمل المثالى عن مصر فى عصر محمد على وبالرغم من أن لين Lane نجح فى الاختلاط بعامة الناس فــى القاهــرة ومشــاركتهم فــى حياتهم اليومية ، إلا أنه كان مراقبا نزيها ،

(*) ترجم هذا المؤلف إلى العربية انظر هامش ص

ونمــاذج الحــياة التى يصورها لا تزال فى الإمكان التعرف عليها فى ريف مصــر حتى اليوم . وقد اعتمدت عليه فى حكاية أو اثنين رائعتين وفيما عدا ذلك ، فأن أقيم الكتب عن محمد على كتاب هنرى دودول Henry Dodwell

The Founder of Modern Egypt ( Cambridge University, Press 1931 )

وكذلــك كــتاب شفيق غربال : « بدايات المسألة المصرية وصعود محمد على » .

The beginings of the Egyptian Question and the rise of Mohamed Ali ( Routledge 1928 ).

أمــا عــن وصف وليام تيرنر Wiliaim Turner فهو مأخوذ من مؤلفــه Tour of the Levant ( Published in 3 volumes 1820 ) ، أمــا عن وصف شــاهد العــيان لمذبحة المماليك بقلم جيوفانى فينيتى فقد نشرها جون مورى John Murray عام ١٨٣٠ . أما عن وصف الحياة فى مصر فقد كتبه عضو البرلمان الإنجليزى السير جون بورنج John Bowring فى تقريره .

Report on Egypt and Candia ( Parlimentary Papers 1940 vol. XXI ).

كذلك فإن رسالة الدكتوراه التى قدمتها هلين أ. ريفيلن

Helen A. Rivlin: The Agricultural Policy of Mohammed Ali in Egypt O.U.P1953. جديرة بالرجوع إليها .

* * *

## الفصل السادس :

قلــيل مــن المؤرخين خصصوا أكثر من فقرة أو فقــرتين عن عباس . وأفضل المعلومات التى استطعت العثور عليها وجدتها فى كتاب « ادوين دى ليون Edwin de Leon : The Khedives Egypt ( New york 1877 ) كان دى لــيون قنصــل أمريكا فى القاهرة لأكثر من ثلاثة عقود ، وهو يعطينا وصفا مســلياً للحــياة الاجتماعــية فى دوائر القصر خلال عصر عباس ، وسعيد ، وإسماعيل ، وأغلب رواياتى أخذته عنه .

ففى عصر سعيد كن هناك تدفق كبير للأوربيين وبالتالى كان هناك فيض

مـــن المؤلفـــات بالإنجليزية والفرنسية منذ ذلك الوقت فصاعداً بالرغم من أن المصـــريين أنفسهم بصرف النظر عن قصائد المديح التى كان القصر يوحى بهـــا ، وبعض الصفحات ذات الطابع الوطنى التى كانت تتداول فى الخفاء – اخـــتاروا الـــبقاء صامتين ، والحق يقال ، لم يكن أمامهم إلا اختيار ضئيل ، وممـــا قدمـــه الإنجلـــيز من مؤلفات فان D. A. Cameron قدم مادة طبية فى كتابه:

D. A. Cameron : Egypt in the 19th Century ( London 1958 )

غير أن أكثر الكتب التى وجدتها إفادة هو كتاب :

Sir George Young : Egypt ( Benn 1927 ).

فهـــذا المحامى البارز الذى جمع المصادر القانونية عن الدولة العثمانية ما بيـــن ١٩٠٥ – ١٩٠٦ ، يعتـــبر احياناً من الموالين ( فى رأى الأنسكلوبيديا بريتانـــيكا مـــثلاً . Encyclopedia Britannica ) غـــير أن ملاحظاته اللاذعة بالنســـبة لى غالبا ما تلقى ارتياحا وترحيباً بدلاً عن النفاق والغلو فى الوطنية من جانب الكتاب الآخرين الكثيرين .

* * *

## الفصل السابع :

كتـــب فرانســـواز شارلز رو Francois Charles Roux – مؤرخ حياة دى ليسبس والمدير السابق للشركة العالمية لقناة السويس – التاريخ الرسمى لقناة السويس . وبالرغم من انه عمل مثير للإعجب لكنه رواية من جانب واحد . ولذا فضلت الأعماد على المؤلف الرائع : Hugh J. Schonfield : The Suez Canal in World affairs ( Constellation Books 1952 ).

أما الفقرات التى استعرتها فهى من أوراق دى ليسيس الخاصة Lettres, Journal, et documents pour Servir a L.histoire du canal de Suez, published in 5 volumes, Pairs 1875 - 81

ولكنها للاستهلاك المحلى أكثر من أى شئ .

* * *

## الفصل الثامن :

قدم محمد بك رفعت مادة جيدة عن إسماعيل فى كتابه :

The awakening of Modern Egypt ( Longmans 1947 ).

فـــبالرغم من أنه يجب أنه نتذكر أنه المدير العام السابق لوزارة المعارف فـــى القاهرة فقد كان يكتب عن جد الملك الجالس على العرش ، ومن ثم كان علـــيه أن يـــأخذ حذره . لقد وضع جورج يونج قائمة بالديون الأوربية على إسماعيل . أما عن الملامح البنكية فقد وصفت بإعجاب فى كتاب .

David S. Landes : Bankers and Pashas ( Heinemann 1958 )

والـــذى يتناول ببصيرة نافذة وبدرجة رائعة آليات المالية العليا والاقتصاد الاستعمارى فى مصر . أما عن كتاب :

A. J. Butler : Court life in Egypt ( Chapman and Hall 1884 ).

وكـــتاب :Moberley Bell : Khedives and Pashas ( طبعة غير موضحة فى لندن ١٨٨٤ ) .

فهمـــا مليئان بالمعلومات المبهرجة كما تبدو لعيون زميل جامعة اكسفورد ومراســـل لجريدة التايمز ، وكتاب لوسى دف جوردون الشهير الذى طبع بعد وفاتهـــا فـــى عام ١٨٦٩ : Lucie Duff - Gordon : Letters From Egypt يعطيـــنا صـــورة حية عن فزع الفلاحين تحت حكم إسماعيل والتى لم تتصنع فى كلماته عنه .

* * *

## الفصلان التاسع والعاشر :

الكـــتاب الأمثل : عن إدارة الاحتلال البريطانى لمصر هو كتاب كرومر: Cromer: Modern Egypt ( Macmillan 1908 ) فقـــد تربى الكثير من شباب الإنجلـــيز علـــى هذه الفترات المضيئة من تاريخهم وهو يبلور وجهات النظر نحـــو مصـــر التى أخيراً قادت إلى مأساة السويس أنه قطعة غراء من الأدب الفكـــتورى ، ولكـــن نـــرجو ألا يؤخذ كحقائق مقدسة . كذلك كان « ولفريد

ســكافن بلنت » رجلاً عظيماً من عصر فكتوريا ولكن من نوع مختلف . فقد كــان دائمــاً يختلط بالمصريين من كل المستويات . وربما كان يعرف قدراً كبيراً عنهم أكثر مما كان يعرف كرومر الذى كان يغلق على نفسه مكتبة فى دار المعــتمد البرطــيانى . وما كان فى مقدرته أن يفعل أكثر مما فعل ففى كتابه ( Secret History of the British Occapation ( Martin in Seker 1907 والــذى نقلت عنه الكثير منه فى الفصل التاسع ، يعطينا أحد جوانب الحكاية والــتى تــبدو فى جوانبها أكثر إقناعاً من وصف كل من كرومر ، وملنر ، وأوكلاند كلوفن.

ومما لا شك فيه فأن « بلنت » كرس نفسه لقضية الوطنية المصرية حتى أنه دفع تكاليف أحد المحامين للقدوم من لندن للدفاع عن عرابى عند محاكمته . وفى أحدث الكتب :

Mary Rowlatt : Founders of Modern Egypt ( Asia Publishing House 1962 ).

تقــدم « مــارى رولات » وصــفاً حيا لضرب الإسكندرية بالقنابل ، وقد اســتمدت ذلك من خبرة جدها الذى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت . وشاهد عيان آخر هو جون نينيت السويسرى :

John Ninet: Arabi Pasha, ( Berne 1884 ) ويــبدو أن « نينــت » قــام بالــتجول بحــرية فى كل مناطق الاضطرابات ، بما فى ذلك معسكر عرابى عشــية معركة التل الكبير . لقد نقلت بعضًا من ملاحظاته أما عن المواجهة بيــن عرابى وتوفيق فقد أخذته من كتاب رفعت باشا ، ومن مذكرات عرابى الخاصة التى نشرها « بلنت » .

* * *

## الفصل الحادى عشر :

يتــناول كــل من اللورد ملنر ( Britain in Egypt ) والمستر بلنت ( My Diairies ) ( 1889- 1914 ( London 1918 ) ) من وجهتى نظر متعارضتين موضوع التعامل مع الاحتلال البريطانى لمصر . غير أن جورج يونج يضع

خطـــا مـــتوازنا بيـــن الاثنين . وحديثا قام جون مارلو بإصدار دراسة موثقة ومحايدة :

John Marlowe : Cromer in Egypt ( Elk 1970 )

وقدم السير رونالد ستور فى كتابه :

Ronald Storrs: Orientations, London 1937

صـــــورة متعاطفة عن « إلدون جورست » ، رئيسه السابق ، بينما يقدم الــبارون دى كوسيل Baron de Kusel : An Englishman recollections of Egypt ( Bodely Head 1914 ). وصـــفاً للحياة الاجتماعية . أما كتاب اللورد ادوارد سيسيل :

Lord Edward Cecil: The Leisure of an Egyptian official

فقــد قابلة القراء بسرور خلال العشرينات من القرن التاسع عشر ، حتى وإن لــم يستسغه رجال الطبقات الرسمية فى القاهرة . ولقد روى عن اللورد أدوارد عـــندما ضـــاق ذرعـــاً بالحياة فى لندن أنه دعا كتشنر إلى الغداء فى ولنبحـــتون باراكـــتس Wellington Baracts ، وبعد أن أغرقه فى الشمبانيا ، أغـــراه أن يصـــحبه معـــه إلى القاهرة كمستشار له ، حيث بقى فيها ليصبح المستشـــار المـــالى . وفى المقابل فإن وجهه النظر المصرية تجاه الاحتلال عبرت عنها بإقناع وبشكل طيب عفاف لطفى السيد فى كتابها :

Afaf Lotfi al. Sayyid : Egypt and Cromer ( Murray 1968 ).

وقد كان جدى وجدتى معتادين على قضاء الشتاء فى القاهرة . بعد انتهاء القـــرن الماضـــى . ولما شرع والدى وهو شاب فى إدارة مشروعات الأسرة فـــى عـــام ١٩٠٦ ، فقـــد كنت محظوظاً أن أكون قادراً على اللاستفادة من خبراتهم منذ ذلك الوقت فصاعداً .

* * *

## الفصل الثانى عشر :

هناك نقص فى المادة التاريخية عن الحرب العالمية الأولى وأنصح هؤلاء

المهتميــن بالجوانب العسكرية لها بالرجوع إلى كتاب السير جورج ماكمون والكابتن سايرل فول فى كتاباتهم الرسمية .

George Macmunn & Captain Cyril Fall : Military Operations in Egypt & Palestine ( HMSO 1928 ).

وعلى مستوى أقل عمقا هناك كتاب :

P. G. EL-good . Egypt and The Army ( Oxford University Press 1924 )

الذى يقدم لنا المعلومات المطلوبة . غير أن كتابى المفضل هو :

Priscilla Napier: A late beginner ( London 1966 )

ففى هذا العرض الطريف عن طفولتها تصف زمن الحرب فى القاهرة من خلال عيونها كطفلة صغيرة ، فمن المثير أن نشاركها التفكير فى عمن يكون ذلــك الشخص الغامض الملقب بالقائد العام للقوات C-in-C القاطن فى آخر الشــارع . أنــنى مدين لها بالكثير من المعلومات المفعمة بالحيوية من جانب شاهدة عيان مدققة. أما عن كتاب برايان حاردنر عن اللنبى :

Brian Gardner: Allenby ( Cassell 1965 ).

فهو يعيطنا صورة طيبة عن ذلك « الثور » وكذلك عن الموقف السياسى بعد الحرب مباشرة .

* * *

## الفصل الثالث عشر:

فــى نظــرتى علــى السودان اعتمدت بلا شك على مقاله ليتون ستراكى الشــهيرة: Lytton Strachey فــى سلســلة : مشاهير الفكتوريين : Eminent Victorians ( Collins 1959 ) وكذلك بالطبع على كتاب ونستون نشرشل .

Winston Churchill : The River War ( Thornton Butterworth 1930)

ومن خلال قلم ولفريد بلنت الذى لا يكل ، هناك أيضاً كتاب : Gordon in Khartoum ( London 1911 ). وعن الأحوال فى السودان ربما أفضل وصف هو كتاب رودلف سلاتن باشا 95 1879 : Rudolf Slatin Pasha : Fire and Sword in Sudan ( Edward Arnold 1896 ) بيــنما أفضل عمل عن الحملة

ككل نجدها في كتاب السير ريجينالد وينجيت : Reginal wingte
Mahdism and the Egyptian Sudan ( Macmillan 1891 ).

* * *

## الفصل الرابع عشر:

يتتبع كتاب توم ليتل الرائع Tom Little : Egypt Bonn 1958 تاريخ البلاد من عصر الفراعنه فما بعده . ولكنه ذا فائدة خاصة كمصدر عن الوضع السياسي منذ إعلان دستور عام ١٩٢٢(*) فنازلا . فبصفته على رأس وكالة الأنباء العربية Arab News Agency ، كان لـ « ليتل مزايا مراجعة الأحداث ( كان جيمس موريس James Morris بالمناسبة نائباً له في مطلع الخمسينات ) ونتمنى أن يقدم لنا هذا الكاتب الممتاز الكثير من المعلومات من واقع خبراته في القاهرة أما عن كتاب جون مارلو John Marlow : Anglo Egyptian relations 1800 1953 ( Cresst et Press 1954 ) فهو نادراً ما يتألق . لكنه يقدم كل الحقائق أما عن كتاب لورد لويد Lord Lloyd : Egypt Since Cromer ( Macmilan 1934 ) فهو في نظري أقرب لغسيل المخ لصالح الرجل الأبيض. ويشرح أمين يوسف بك الموقف المصري في كتابه Amin Youssef Bey : Independent Egypt (1936). وخلال العرض يضفي مذاقا على دوائر القصر خلال حكم فؤاد .

هناك بعض الروايات القصصية التي كتبت في مصر بين الحربين . فرواية جون نيتل John Knittel : Dr. Ibrahim : ( الدكتور إبراهيم ) تركز على الإحباط الذي يشعر به طبيب في الأرياف – كذلك فإن مؤلفات لورانس داريل (Justines, Cleas, and Balthazars ) تعكس بشدة المناخ العالمي للإسكندرية في فترة ما قبل الحرب والتي لها طعم خاص رغم أي شئ ، كما يعبر كفافي عن عاطفته كذلك لا يجب على الباحث أن يسقط من حسابه

(*) الصحيح ١٩٢٣ ( المراجع ) .

رواية :

E. M. Forster : Alexandria ( Doubleday 1961 ).

والذى ربما هو أحسن كتاب إرشادى عن أى مدينة أخرى ، وروايته التى لا تقـل إمتاعاً . ( Pharos and Pharillon ( Hogarth Press 1961 والتى منها نقلـت ترجمة جورج فالاسوبولو Valassopoulo عن قصيدة كفافى : (الرب يهجـر أنطونى ) أما عن وصفى الانطباعى الخاص عن الإسكندرية فليس له مصدر غير تجربتى الخاصة .

*.* *

## الفصل الخامس عشر :

لقـد تتـبع صـديقى جورج فوشير George Vaucher بدأب نشاط ناصر المـبكر فى كتابه : ( Gamal Abdel Nasser et son equipe ( Julliard 1959 حيـث عقد لقاءات مع مدرسية وزملائه فى الدراسة ، بل تتبع الكتب القديمة فى المكتبة ولتى كانت من نتيجتها عرفنا انه خلال دراسته فى الكلية الجريدة كـان ناصـر يقـرأ بيـن الأعمال الأخرى : ;Robert Graves: Lawrence Churchill River War; Buchan : Gordon:, Liddle Hart: Foch; Emil Ludwig; Napoleon والـتى توحـى أن كـان لديه اهتمام يقظ فى الشخصية التاريخية وعن سيرته بشئ من التعمق هناك كتاب روبرت سان جون الرائع ( Robert St John : The Boss ( Mr Graw - Hill 1960 والذى بالرغم من أنه كـان محـل إطلاع من جانب الدبلوماسيين الأمريكيين المعينين فى مصر خلال السـتينيات ، وبالـرغم مـن أنـه عامة متعاطف معه ، إلا أنه بدون توقع حظر دخولـه فـى مصـر (ولحسـن الحـظ أرسلت لى وزارة الإرشاد القومى نسخة مـنه!) غـير أن أهم المصادر عن أصول الثورة هو كتاب أنور السادات : ثورة علـى ضـفاف النيل : (Revolution on the Nile (Alan Wingate 1957 أما عن مـا نقلـته فـى بدايـة هـذا الفصـل فهـو مـأخوذ عن كتـاب الميجــور جـارفيـس ( Major C,S Jarvis : Oriental Spot light ( John Murray 1936

* * *

## الفصل السادس عشر :

لقد تناولت غذائى أكثر من مرة فى مطعم فاروق المفضل Batades حتى أننى أكاد أتذكر مصدره على وجه الدقة ، فيما وراء الحقيقة أن كل الحكايات الـتى رويـتها – وأكثر منها كان محل تداول فى القاهرة ولهؤلاء المهتمين هـناك كـتاب مايكل ستيرن : فاروق Michael Stern : Farouk ( Bantam 1965 ) الذى جمع معلومات غزيرة عن « الفاروقيات » أن أغلب المؤرخين الجاديـن يمـيلون إلـى رفض الفساد الفاحش والثراء الاستعراضى للسنوات الأخـيرة مـن حكم فاروق فى فقرة أو فقرتين . لكن يجب أن ننسى أن هذه الفـترة الأسـطورية أصبحت جزءاً من التراث المصرى ولا يزال هناك من يعـرفها ، إن لـم يكن كثير من الناس أحياناً يتذكرونها بمسحه من الأسف ، ومنذ وهلة قصيرة ردد على مسامعى هانز بادروت Hans Jury Badrutt وما قالـه له شـقيقة مـن أبـيه عن رحلات الصيف لجماعة البشوات فى سانت موريـتز ST . Moritz إذا قـــال : « إنـــه جد حقيقى أننا لم نصادف مـثلهم . فقد اعتاد أن يكون هناك ثلاثين أو أربعيـــن سيارة رولز رويس مـن مصـر فى الجراج . والمصريون لا يحلمون أن يكون لديهم شئ آخر غـير الرولـز رويـس اللهـم إلا سـيارة بنتلى . لقد اعتدنا أن يكون لدينا استعراض من الأناقة Concours d elegance للسيارات . وللكلاب بل وحتى للنسـاء ، غـير أن كـل ذلك توقف بعد قيام الثورة » . وعلى مستوى أكثر واقعـية نـتعامل مع المؤلفات الآتية حـول السنوات السابقة على قيام الثورة Tom Litle: Egypt, Jean Simone Lacouture: l Egypt en Mouvement (Seuil 1956 ) والـذى صـدرت طبعة منه بعنوان Egypt in Transtion ( Methuen 1958 )

* * *

## الفصل السابع عشر :

يصف كل من المؤلفات الآتية :

Anwar el Sadat: Revolt on the Nile; Vaucher: Gamal Abdel Nasser

et Son Equipe; St. John: The Boss كلهــا تعــالج تــنامى حركة الضباط الأحــرار وانقــلاب ٢٣ يولــيو عام ١٩٥٢ غير أننى أميل إلى إتباع المادة المفصــلة التى نشرها ثروت عكاشة فى مجلة « التحرير » وكذلك الوصف الذى قدمه أحمد أبو الفتح فى جريدة « المصرى » وإحسان عبد القدوس فى « روز اليوســف » وكلهــم كــانوا شهودا مساهمين خلال الساعات الأولى الحاســمة لمجلــس قيادة الثورة الجديدة . والخطب المباشرة التى ذكرتها فى قصة الانقلاب ذاته مأخوذة إلى حد كبير من هذه المصادر الثلاثة .

* * *

**الفصلان ١٨ - ١٩ :**

مؤلف توم ليتل وسانت جون مصادر ممتازة عن الأيام المبكرة للثورة بما فى ذلك تغلب عبد الناصر على نجيب فى مناوراته . ولقد نقلت نصوصاً من كتاب ناصر فلسفة الثورة ( والذى إلى حد كبير ألفه له محمد حسنين هيكل ) ويصف مايلز كوبلاند سيناريو صفقه الأسلحة التشكيلية فى كتابه :

Miles Copeland : The Game of Nations ( McGrow - Hill 1969 )

بينما يعالج ديزموند ستيورات الأعمال الفورية للحكومة الجديدة

Desmond Stewart : Young Egypt ( Wingate 1958 ).

* * *

**الفصلان ٢٠ - ٢١ :**

حــتى ولو أن الوثائق الرسمية لاتزال محفوظة بعيداً عن الرجوع إليها إلا أنــنا لدينا عدداً من الكتب حول حرب السويس فبالإضافة إلى كتاب لاكوتير وليــتل وســانت جونــز فقد صدرت واحدة من أهم البحوث قام بها إرسكين تشلدرز :

Erskine B. Childers : The Road to Suez (Mac Gibbon & Kee 1962 )

: ( الطريق إلى السويس ) .

ولقــد كتــب عــنه بيــتر كالفولوريسى Peter Calvocoressi فى جريدة

الاويزيرفر Observer : « يا له من كتاب عملاق يتعقب طريدى العدالة ، بل أنـــه ربمـــا يصـــمد لاختبارات الزمن ، وبالفعل فأن ارسكين تشلدرز أظهر نفســه باضـــطراد أقرب إلى الملحوظة من أى شخص آخر . وعلى الجانب الآخـــر فـــإن كـــتاب اللورد آفون ( أيدن ) : مذكراتى : Sir AntonyEden: Memoirs - Full Circle ( Cassels 1960 ) فهـــو عمـــل للأسف فقد الثقة فى عيون أغلب الناس .

* * *

## الفصلان ٢٢ - ٢٣ :

باســـتثناء الســـواح ، قلـــيل من الإنجليز كانوا يشاهدون فى مصر خلال الســـيتينات ، لكـــن بيتر مانسفيلد Peter Mansfield الذى كان مراسلاً لجريده الســـانداى تايمـــز Sunday Times فى القاهرة ، جمع الوثائق عن هذه الفترة بطريقة تدعو للإعجاب فى كتابه : ناصر مصر .

Peter Mansfield : Nasser s Egypt ( Penguin 1967 ) كذلـــك فـــإن جـــوردون وترفـــيلد الرئيس السابق لهيئة الأذاعة البريطانية B. B. C. القسم العربى جمع بعض من المادة المفيدة خاصة حول الميثاق الوطنى :

Gordon Waterfield : Egypt ( Thames & Hudson 1967 )

وهناك تحليل جيد للوضع الاقتصادى قدمه كلود إستيه فى كتابه

Claude Estier : L Egypte en Revolution ( Julllard 1965 ).

* * *

## الفصلان الرابع والعشرون والخامس والعشرون :

فـــى نظـــرى أن أفضل معالجة للحرب الإسرائيلية - العربية عام ١٩٦٧ هـــى الـــتى قدمتها مجموعة راندولف ونستون تشرشل فى كتابهم عن حرب الأيام السنة :

Randolf, Winston Churchill team: The six Day War ( Heinemean

( Eric Rouleau, Jean Francois Held, وكـــتاب Penguin 1967 ).
Lacoutures: Israel et les Arabes - Le 3 me Combat ( Seuil 1967 ).

هذان الكتابان ظهرا خلال أسابيع إن لم يكن خلال أيام من وقوع الحرب ومنذ وفاة ناصر أصدر جان لاكوتير سيرته بطريقة رائعة : J. Lacoutures ( Nasser ( Seuil 1971 كمـــا ان مقـــتطفات من كتاب محمد حسنين هيكل : وثائق القاهرة The Cairo document والتى ستنشر فى دار نشر Doubleday عـــام ١٩٧٢ حيــث نشـــرت فـــى حلقـــات فى الساندای تلجراف Sunday Telegraph ولما كان هيكل هو لسان حال ناصر لسنوات طويلة . وربما كان أقـــرب إلـــى الرئيس المصرى أكثر من أى شخص آخر خاصة فى المجال السياســـى . فكـــتابه الواقع فى ١٧٠,٠٠٠ كلمة ربما سيثبت أنه أدق « سيرة حياة » عن جمال عبد الناصر حسين. ويكاد أن يكون سيرة ذاتيه في الحقيقة.

وأخـــيراً فـــإن كتاب انطونى ناتنج الرائع يعطينا تاريخاً واضحاً عن فترة حكم ناصر ( Anthony Nutting : Nasser ( Constable 1972 .

* * *

«تمت الترجمة بحمد الله»

# أولاً : فهرست الأسماء الأفرنجية

## ثانيًا : فهرست الأسماء العربية والمعربة

## ثالثًا: أجندة الأحداث الهامة فى تاريخ مصر

١٧٩٨ نابليون يغزو مصر - معركة الأهرامات (٢١ يوليو) نبليون يدمر الأسطول الفرنسى فى خليج إلى قير.

١٧٩٩ نابليون يغادر مصر إلى فرنسا ويسلم قيادة الحملة إلى كليبر.

١٨٠٠ اغتيال كليبر - مينو يخلفه فى القيادة.

١٨٠١ حملة أبركرومبى الإنجليزى.

١٨٠٢ معاهدة أميان - فرنسا وانجلترا تجلوان عن مصر.

١٨٠٥ انتخاب محمد على فى منصب باشا القاهرة.

١٨١١ مذبحة المماليك (الأول من مارس) - طوسون يقود حملة على الجزيرة العربية.

١٨٢٠ فتح السودان.

١٨٢٤ وصول إبراهيم باشا إلى المورة على رأس قواته.

١٨٢٧ معركة نوارين وتدمير الأسطول المصرى.

١٨٣١ - ١٨٣١ الحملة على الشام محمد على يصبح رسميًا باشا على مصر ويؤسس أسرة وراثية (١٣ فبراير ١٨٤١).

١٨٤٨ الوهن يصيب ذاكرة محمد على تولى إبراهيم ثم عباس على التوالى.

١٨٤٩ موت محمد على الكبير - عباس يصبح نائبًا للسلطان (واليًا) العثمانى على مصر.

١٨٥٤ سعيد يخلف عباس (يوليو) ويمنح ديليسبس حق امتياز شق قناة السويس (شه نوفمبر).

١٨٥٩ بدء العمل فى حفر قناة السويس.

١٨٦٣ إسماعيل باشا يخلف سعيد كوالى على مصر (نائب للسلطان العثمانى).

١٨٦٧ إسماعيل ينجح فى الحصول على لقب الخديوى له ولخلفائه.

١٨٦٩ افتتاح قناة السويس (١١ نوفمبر).

١٨٧٥ دزرائيلى يشترى نصيب مصرفى أسهم قناة السويس من إسماعيل.

١٨٧٨ مؤتمر برلين.

١٨٧٩ السلطان العثمانى يعزل إسماعيل. توفيق يصبح خديو مصر (يونيو).

١٨٧١ البكباشى أحمد عرابى يقود الحركة الوطنية فى الجيش.

١٨٨٢ تدخل بريطانيا العظمى وقصف الإسكندرية بالقنابل (يوليو).

١٨٨٢ هزيمة عرابى فى التل الكبير (١٣ سبتمبر) وبداية الاحتلال البريطانى فى لمصر.

١٨٨٤ اللورد كرومر يصبح الحاكم الفعلى على مصر.

١٨٨٥ جوردون يلقى مصرعه فى الخرطوم (٢٦ يناير).

١٨٩٢ عباس حلمى يخلف توفيق فى منصب خديوى مصر.

١٨٩٨ معركة أم درمان (٢ سبتمبر).

١٨٩٩ عقد الاتفاق الأنجلو - مصرى للحكم الثنائى على السودان (١٩ يناير).

١٩٠٧ استقالة كرومر - جورست يخلف كرومر كمعتمد بريطانى.

١٩١٠ اغتيال بطرس غالى باشا.

١٩١١ وفاة جورست وكتشنر يخلفه كمعتمد بريطانى.

١٩١٤ بريطانيا تعلن الحماية على مصر وتعزل الخديوى عباس حلمى.

١٩١٨ سعد زغلول يطالب باستقلال مصر.

١٩١٩ نفى سعد زغلول خارج مصر. بداية الانتفاضة الثورية ضد بريطانيا.

١٩٢٢ إعلان استقلال مصر. والسلطان أحمد فؤاد يصبح لأول مرة الملك أحمد فؤاد (٢٨ فبراير).

١٩٢٤ حزب الوفد يكسب الانتخابات بأغلبية عارمة واختيار سعد زغلول رئيسًا للوزراء. اغتيال السردار لى ستاك (١٩ نوفمبر).

١٩٢٧ وفاة سعد زغلول.

١٩٣٦ وفاة الملك فؤاد فجأة، وجلوس الملك فاروق على العرش (٢٥ إبريل) توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر.

١٩٤٢ الدبابات البريطانية تضرب الحصار حول قصر عابدين وتجبر الملك فاروق على تعيين النحاس باشا رئيسًا للوزراء (٤ فبراير). النقيب جمال عبد الناصر يبدأ فى التخطيط للثورة. روميل يصل إلى العلمين (يوليو) معركة العلمين (اكتوبر).

١٩٤٦ قيام المظاهرات وأعمال الشعب ضد بريطانيا فى القاهرة والأسكندرية القوات البريطانية تتحرك نحو منطقة القناة.

١٩٤٨ إعلان دولة إسرائيل. حرب فلسطين.

١٩٥١ النحاس باشا يلغى معاهدة ١٩٣٦ الإنجليزية المصرية ويعلن أن فاروق: « ملكًا على مصر والسودان » بداية الأعمال الفدائية ضد القاعدة البريطانية فى منطقة قناة السويس.

١٩٥٢ حريق القاهرة (٢٦ يناير) استيلاء الضباط الأحرار على الحكم فى ٢٣ يوليو. فاروق يتنازل عن العرش ويغادر البلاد (٢٦ يوليو).

١٩٥٣ إعلان الجمهورية فى مصر برئاسة محمد نجيب وناصر نائبًا له.

١٩٥٤ بداية الصراع بين نجيب وناصر (فبراير – مارس). توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيًا (يوليو) قمع الأخوان المسلمين على أثر محاولتهم الفاشلة لاغتيال ناصر. فرض الإقامة الجبرية على محمد نجيب (نوفمبر).

١٩٥٥ إعلان قيام حلف بغداد. الغارة الإسرائيلية على غزه (فبراير) ناصر يمثل مصر فى مؤتمر بأندونج (إبريل). إعلان صفقه الأسلحة التشيكية (سبتمبر).

١٩٥٦ انتخاب ناصر رئيسًا للجمهورية (يونيو). الولايات المتحدة تسحب عرضها لتمويل مشروع السد العالى (يوليو). ناصر يعلن تأميم قناة السويس (٢٦ يوليو). حرب السويس: إسرائيل تهاجم مصر (٢٩ أكتوبر)، بريطانيا وفرنسا تتظاهران بالقيام بدور الشرطة المانعة للحرب – رسو قواتهما عند سواحل بور سعيد ٥ نوفمبر. وقف إطلاق النار فى ٦ نوفمبر.

١٩٥٨ إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا.

١٩٦١ انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. حملة من التأميم والمصادرات فى مصر.

١٩٦٢ عبد الناصر يعلن الميثاق الوطنى. حدوث انقلاب عسكرى فى اليمن.

١٩٦٣ مصر تتدخل فى اليمن.

١٩٦٤ خرشوف فى أسوان.

١٩٦٧ اشتباكات على الحدود بين سوريا وإسرائيل (إبريل). اندلاع حرب الأيام الستة – استقالة عبد الناصر، لكنه يعود بناءً على المطلب الجماهيرى والمسيرات الشعبية (يونيو). انتحار عبد الحكيم عامر. (سبتمبر).

١٩٧ بعد إجراء مشاورات فى موسكو ناصر يقبل بخطة روجرز لوضع
حل مع إسرائيل (يوليو) عقد مؤتمر بين البلدان العربية فى القاهرة.
ناصــــر يتدخل لحل النزاع بين حسين وعرفات (٢٧ سبتمبر). وفاة
عــبد الناصــــر على أثر أزمة قلبية مفاجئة: (٢٧ سبتمبر). اختيار
أنور السادات رئيسًا للجمهورية (الأول من اكتوبر ١٩٧٠).

# المحتويات

# المشروع القومى للترجمة

| | | |
|---|---|---|
| ١- اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢- الوثنية والإسلام | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ٣- التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقى جلال |
| ٤- كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريتنكوفا | ت : أحمد الحضرى |
| ٥- ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦- اتجاهات البحث اللسانى | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧- العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكى |
| ٨- مشعلو الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩- التغيرات البيئية | أندرو س. جودى | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠- خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى |
| ١١- مختارات | فيسوافا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢- طريق الحرير | ديفيد براونيستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣- ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٤- التحليل النفسى والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥- الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيفى |
| ١٦- أثينة السوداء | مارتن برنال | ت: بإشراف: أحمد عتمان |
| ١٧- مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة | چورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠- قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح |
| ٢١- خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجى | ت : ماجدة العنانى |
| ٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| ٢٣- تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤- ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| ٢٥- مثنوى | مولانا جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦- دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧- التنوع البشرى الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| ٢٨- رسالة فى التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩- الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| ٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه - كلود كاين | ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب |
| ٣٢- الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية | أ. ج. هوبكنز | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ٣٤- الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصة إبراهيم المنيف |
| ٣٥- الأسطورة والحداثة | بول . ب . ديكسون | ت : خليل كلفت |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦- نظريات السرد الحديثة | والاس مارتن | ت : حياة جاسم محمد |
| ٣٧- واحة سيوة وموسيقاها | بريجيت شيفر | ت : جمال عبد الرحيم |
| ٣٨- نقد الحداثة | آلن تورين | ت : أنور مغيث |
| ٣٩- الإغريق والحسد | بيتر والكوت | ت : منيرة كروان |
| ٤٠- قصائد حب | آن سكستون | ت : محمد عيد إبراهيم |
| ٤١- ما بعد المركزية الأوربية | بيتر جران | ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد |
| ٤٢- عالم ماك | بنجامين باربر | ت : أحمد محمود |
| ٤٣- اللهب المزدوج | أوكتافيو باث | ت : المهدى أخريف |
| ٤٤- بعد عدة أصياف | ألدوس هكسلى | ت : مارلين تادرس |
| ٤٥- التراث المغدور | روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين | ت : أحمد محمود |
| ٤٦- عشرون قصيدة حب | بابلو نيرودا | ت : محمود السيد على |
| ٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٤٨- حضارة مصر الفرعونية | فرانسوا دوما | ت : ماهر جويجاتى |
| ٤٩- الإسلام فى البلقان | هـ . ت . نوريس | ت : عبد الوهاب علوب |
| ٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير | جمال الدين بن الشيخ | ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى |
| ٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية | داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى | ت : محمد أبو العطا |
| ٥٢- العلاج النفسى التدعيمى | بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل | ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش |
| ٥٣- الدراما والتعليم | أ . ف . ألنجتون | ت : مرسى سعد الدين |
| ٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح | ج . مايكل والتون | ت : محسن مصيلحى |
| ٥٥- ما وراء العلم | چون بولكنجهوم | ت : على يوسف على |
| ٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١) | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمود على مكى |
| ٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢) | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى |
| ٥٨- مسرحيتان | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمد أبو العطا |
| ٥٩- المحبرة | كارلوس مونييث | ت : السيد السيد سهيم |
| ٦٠- التصميم والشكل | جوهانز ايتين | ت : صبرى محمد عبد الغنى |
| ٦١- موسوعة علم الإنسان | شارلوت سيمور - سميث | مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى |
| ٦٢- لذّة النّص | رولان بارت | ت : محمد خير البقاعى . |
| ٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة) | آلان وود | ت : رمسيس عوض . |
| ٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى | برتراند راسل | ت : رمسيس عوض . |
| ٦٦- خمس مسرحيات أندلسية | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٦٧- مختارات | فرناندو بيسوا | ت : المهدى أخريف |
| ٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى | فالنتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ |
| ٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين | عبد الرشيد إبراهيم | ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى |
| ٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية | أوخينيو تشانج رودريجث | ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد |
| ٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى | داريو فو | ت : حسين محمود |

| | | |
|---|---|---|
| ٧٢- السياسى العجوز | ت . س . إليوت | ت : فؤاد مجلى |
| ٧٣- نقد استجابة القارئ | چين . ب . توميكنز | ت : حسن ناظم وعلى حاكم |
| ٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر | ل . ا . سيميتوڤا | ت : حسن بيومى |
| ٧٥- فن التراجم والسير الذاتية | أندريه موروا | ت : أحمد درويش |
| ٧٦- چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى | مجموعة من الكتاب | ت : عبد المقصود عبد الكريم |
| ٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | ت : أحمد محمود ونورا أمين |
| ٧٩- شعرية التأليف | بوريس أوسبنسكى | ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى |
| ٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع» | ألكسندر بوشكين | ت : مكارم الغمرى |
| ٨١- الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | ت : محمد طارق الشرقاوى |
| ٨٢- مسرح ميجيل | ميجيل دى أونامونو | ت : محمود السيد على |
| ٨٣- مختارات | غوتفريد بن | ت : خالد المعالى |
| ٨٤- موسوعة الأدب والنقد | مجموعة من الكتاب | ت : عُبد الحميد شيحة |
| ٨٥- منصور الحلاج (مسرحية) | صلاح زكى أقطاى | ت : عبد الرازق بركات |
| ٨٦- طول الليل | جمال مير صادقى | ت : أحمد فتحى يوسف شتا |
| ٨٧- نون والقلم | جلال آل أحمد | ت : ماجدة العنانى |
| ٨٨- الابتلاء بالتغرب | جلال آل أحمد | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٨٩- الطريق الثالث | أنتونى جيدنز | ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين |
| ٩٠- وسم السيف | ميجل دى ثربانتس | ت : محمد إبراهيم مبروك |
| ٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | باربر الاسوستكا | ت : محمد هناء عبد الفتاح |
| ٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر | كارلوس ميجل | ت : نادية جمال الدين |
| ٩٣- محدثات العولمة | مايك فيذرستون وسكوت لاش | ت : عبد الوهاب علوب |
| ٩٤- الحب الأول والصحبة | صمويل بيكيت | ت : فوزية العشماوى |
| ٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى | أنطونيو بويرو باييخو | ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف |
| ٩٦- ثلاث زنبقات ووردة | قصص مختارة | ت : إدوار الخراط |
| ٩٧- هوية فرنسا مج ١ | فرنان برودل | ت : بشير السباعى |
| ٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى | نماذج ومقالات | ت : أشرف الصباغ |
| ٩٩- تاريخ السينما العالمية | ديڤيد روبنسون | ت : إبراهيم قنديل |
| ١٠٠- مساءلة العولمة | بول هيرست وجراهام تومبسون | ت : إبراهيم فتحى |
| ١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج) | بيرنار فاليط | ت : رشيد بنحدو |
| ١٠٢- السياسة والتسامح | عبد الكريم الخطيبى | ت : عز الدين الكتانى الإدريسى |
| ١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء | عبد الوهاب المؤدب | ت : محمد بنيس |
| ١٠٤- أوبرا ماهوجنى | برتولت بريشت | ت : عبد الغفار مكاوى |
| ١٠٥- مدخل إلى النص الجامع | چيرارچينيت | ت : عبد العزيز شبيل |
| ١٠٦- الأدب الأندلسى | د. ماريا خيسوس روبييرامتى | ت : د. أشرف على دعدور |
| ١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر | نخبة | ت : محمد عبد الله الجعيدى |

| | | |
|---|---|---|
| ١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى | مجموعة من النقاد | ت : محمود على مكى |
| ١٠٩- حروب المياه | چون بولوك وعادل درويش | ت : هاشم أحمد محمد |
| ١١٠- النساء فى العالم النامى | حسنة بيجوم | ت : منى قطان |
| ١١١- المرأة والجريمة | فرانسيس هيندسون | ت : ريهام حسين إبراهيم |
| ١١٢- الاحتجاج الهادئ | أرلين علوى ماكليود | ت : إكرام يوسف |
| ١١٣- راية التمرد | سادى پلانت | ت : أحمد حسان |
| ١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع | وول شوينكا | ت : نسيم مجلى |
| ١١٥- غرفة تخص المرء وحده | فرچينيا وولف | ت : سمية رمضان |
| ١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) | سينثيا نلسون | ت : نهاد أحمد سالم |
| ١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام | ليلى أحمد | ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال |
| ١١٨- النهضة النسائية فى مصر | بث بارون | ت : لميس النقاش |
| ١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق | أميرة الأزهرى سنبل | ت : بإشراف/ رؤوف عباس |
| ١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط | ليلى أبو لغد | ت : نخبة من المترجمين |
| ١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية | فاطمة موسى | ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال |
| ١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان | جوزيف فوجت | ت : منيرة كروان |
| ١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية | نينل الكسندر وفنادولينا | ت: أنور محمد إبراهيم |
| ١٢٤- الفجر الكاذب | چون جراى | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ١٢٥- التحليل الموسيقى | سيدريك ثورپ ديڤى | ت : سمحه الخولى |
| ١٢٦- فعل القراءة | ڤولفانج إيسر | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٢٧- إرهاب | صفاء فتحى | ت : بشير السباعى |
| ١٢٨- الأدب المقارن | سوزان باسنيت | ت : أميرة حسن نويرة |
| ١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة | ماريا دولورس أسيس جاروته | ت : محمد أبو العطا وآخرون |
| ١٣٠- الشرق يصعد ثانية | أندريه جوندر فرانك | ت : شوقى جلال |
| ١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) | مجموعة من المؤلفين | ت : لويس بقطر |
| ١٣٢- ثقافة العولمة | مايك فيذرستون | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٣٣- الخوف من المرايا | طارق على | ت : طلعت الشايب |
| ١٣٤- تشريح حضارة | بارى ج. كيمب | ت : أحمد محمود |
| ١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت | ت. س. إليوت | ت : ماهر شفيق فريد |
| ١٣٦- فلاحو الباشا | كينيث كونو | ت : سحر توفيق |
| ١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية | چوزيف مارى مواريه | ت : كاميليا صبحى |
| ١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف | إيڤلينا تارونى | ت : وجيه سمعان عبد المسيح |
| ١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس | عاطف فضول | ت : أسامة إسبر |
| ١٤٠- حيث تلتقى الأنهار | هربرت ميسن | ت : أمل الجبورى |
| ١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية | مجموعة من المؤلفين | ت : نعيم عطية |
| ١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل | أ. م. فورستر | ت : حسن بيومى |
| ١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى | ديريك لايدار | ت : عدلى السمرى |
| ١٤٤- صاحبة اللوكاندة | كارلو جولدونى | ت : سلامة محمد سليمان |

| | | |
|---|---|---|
| ١٤٥- موت أرتيميو كروث | كارلوس فوينتس | ت : أحمد حسان |
| ١٤٦- الورقة الحمراء | ميجيل دى ليبس | ت : على عبدالرؤوف البمبى |
| ١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة | تانكريد دورست | ت : عبدالغفار مكاوى |
| ١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية) | إنريكى أندرسون إمبرت | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس | عاطف فضول | ت : أسامة إسبر |
| ١٥٠- التجربة الإغريقية | روبرت ج. ليتمان | ت : منيرة كروان |
| ١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١ | فرنان برودل | ت : بشير السباعى |
| ١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى | نخبة من الكتاب | ت : محمد محمد الخطابى |
| ١٥٣- غرام الفراعنة | فيولين فانويك | ت : فاطمة عبدالله محمود |
| ١٥٤- مدرسة فرانكفورت | فيل سليتر | ت : خليل كلفت |
| ١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر | نخبة من الشعراء | ت : أحمد مرسى |
| ١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى | جى أتبال وآلان وأوديت ڤيرمو | ت : مى التلمسانى |
| ١٥٧- خسرو وشيرين | النظامى الكنوجى | ت : عبدالعزيز بقوش |
| ١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢ | فرنان برودل | ت : بشير السباعى |
| ١٥٩- الإيديولوچية | ديڤيد هوكس | ت: إبراهيم فتحى |
| ١٦٠- آلة الطبيعة | بول إيرليش | ت: حسين بيومى |
| ١٦١- من المسرح الإسبانى | اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا | ت: زيدان عبدالحليم زيدان |
| ١٦٢- تاريخ الكنيسة | يوحنا الآسيوى | ت: صلاح عبدالعزيز محجوب |
| ١٦٣- موسوعة علم الاجتماع | جوردن مارشال | ت: مجموعة من المترجمين |
| ١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) | چان لاكوتير | ت: نبيل سعد |
| ١٦٥- حكايات الثعلب | أ. ن أفانا سيفا | ت: سهير المصادفة |
| ١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل | يشعياهو ليڤمان | ت: محمد محمود أبو غدير |
| ١٦٧- فى عالم طاغور | رابندرانات طاغور | ت: شكرى محمد عياد |
| ١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة | مجموعة من المؤلفين | ت: شكرى محمد عياد |
| ١٦٩- إبداعات أدبية | مجموعة من المبدعين | ت: شكرى محمد عياد |
| ١٧٠- الطريق | ميغيل دليبيس | ت: بسام ياسين رشيد |
| ١٧١- وضع حد | فرانك بيجو | ت: هدى حسين |
| ١٧٢- حجر الشمس | مختارات | ت: محمد محمد الخطابى |
| ١٧٣- معنى الجمال | ولتر ت. ستيس | ت:إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٧٤- صناعة الثقافة السوداء | ايليس كاشمور . | ت: أحمد محمود |
| ١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية | لورينزو فيلشس | ت: وجيه سمعان عبد المسيح |
| ١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية | توم تيتنبرج | ت: جلال البنا |
| ١٧٧- أنطون تشيخوف | هنرى ترواييا | ت: حصة إبراهيم المنيف |
| ١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث | نخبة من الشعراء | ت: محمد حمدى إبراهيم |
| ١٧٩- حكايات أيسوب | أيسوب | ت: إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٠- قصة جاويد | إسماعيل فصيح | ت: سليم عبد الأمير حمدان |
| ١٨١- النقد الأدبى الأمريكى | فنسنت ب. ليتش | ت: محمد يحيى |
| ١٨٢- العنف والنبوءة | و.ب. ييتس | ت: ياسين طه حافظ |
| ١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما | رينيه چيلسون | ت: فتحى العشرى |

| | | |
|---|---|---|
| ١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام | هانز إبندورفر | ت: دسوقى سعيد |
| ١٨٥- أسفار العهد القديم | توماس تومسن | ت: عبد الوهاب علوب |
| ١٨٦- معجم مصطلحات هيجل | ميخائيل أنوود | ت:إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٧- الأرضة | بُزُرج علوى | ت:علاء منصور |
| ١٨٨- موت الادب | الفين كرنان | ت:بدر الديب |
| ١٨٩- العمى والبصيرة | پول دى مان | ت:سعيد الغانمى |
| ١٩٠- محاورات كونفوشيوس | كونفوشيوس | ت:محسن سيد فرجانى |
| ١٩١- الكلام رأسمال | الحاج أبو بكر إمام | ت: مصطفى حجازى السيد |
| ١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١ | زين العابدين المراغى | ت:محمود سلامة علاوى |
| ١٩٣- عامل المنجم | بيتر أبراهامز | ت:محمد عبد الواحد محمد |
| ١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى | مجموعة من النقاد | ت: ماهر شفيق فريد |
| ١٩٥- شتاء ٨٤ | إسماعيل فصيح | ت:محمد علاء الدين منصور |
| ١٩٦- المهلة الأخيرة | فالتين راسبوتين | ت:أشرف الصباغ |
| ١٩٧- الفاروق | شمس العلماء شبلى النعمانى | ت: جلال السعيد الحفناوى |
| ١٩٨- الاتصال الجماهيرى | ادوين إمرى وآخرون | ت:ابراهيم سلامة ابراهيم |
| ١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية | يعقوب لانداوى | ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد |
| ٢٠٠- ضحايا التنمية | جيرمى سيبروك | ت: فخرى لبيب |
| ٢٠١- الجانب الدينى للفسلفة | جوزايا رويس | ت: أحمد الانصارى |
| ٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤ | رينيه ويليك | ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٢٠٣- الشعر والشاعرية | الطاف حسين حالى | ت: جلال السعيد الحفناوى |
| ٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم | م. سولوفيتشيك، ز. روفشوف | ت: أحمد محمود هويدى |
| ٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات | لويجى لوقا كافاللى- سفورزا | ت: أحمد مستجير |
| ٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا | جيمس جلايك | ت: على يوسف على |
| ٢٠٧- ليل إفريقى | رامون خوتاسندير | ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف |
| ٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى | دان أوريان | ت: محمد أحمد صالح |
| ٢٠٩- السرد والمسرح | مجموعة من المؤلفين | ت: أشرف الصباغ |
| ٢١٠- مثنويات حكيم سنائى | سنائى الغزنوى | ت: يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢١١- فردينان دوسوسير | جوناثان كلر | ت: محمود حمدى عبد الغنى |
| ٢١٢- قصص الأمير مرزبان | مرزبان بن رستم بن شروين | ت: يوسف عبدالفتاح فرج |
| ٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر | ريمون فلاور | ت: سيد أحمد على الناصرى |
| ٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع | أنتونى جيدنز | ت: محمد محمود محى الدين |
| ٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢ | زين العابدين المراغى | ت: محمود سلامة علاوى |
| ٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم | مجموعة من المؤلفين | ت: أشرف الصباغ |
| ٢١٧- عولمة السياسة العالمية | جون بايلس و ستيث سميث | ت: وجيه سمعان عبد المسيح |
| ٢١٨- رايولا | خوليو كورتازان | ت: عبى إبراهيم على منوفى |
| ٢١٩- بقايا اليوم | كازو ايشجورو | ت: طلعت الشايب |
| ٢٢٠- الهيولية فى الكون | بارى باركر | ت: على يوسف على |
| ٢٢١- شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | ت: رفعت سلام |


رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٦١٤٢

الترقيم الدولى / I.S.B.N. / 977 - 305 - 268 - 0

مطابع إدارة المطبوعات والنشر ق . م